تاريخ وحضارة

مصر والشرق الأدنى

في العصر الهلينستي

الأستاذ الدكتور

سيد أحمد علي الناصري

أستاذ ورئيس قسم التاريخ

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

١٩٩٢

دار النهضة العربية

٣٢ ش عبد الخالق ثروت

مطبعة جامعة القاهرة

والكتاب الجامعي

تاريخ وحضارة
مصر والشرق الأدنى
فى العصر الهللينستى

الاستاذ الدكتور
سيد أحمد على الناصرى
أستاذ ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب — جامعة القاهرة

١٩٩٢

دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على خير المرسلين

مقدمة

هذا كتاب مبسط بعيد عن التعقيد والتفاصيل المملة التى تجعل القارىء يضيق ذرعا بالتاريخ وأحداثه ، فليس الهدف هو حشو عقل القارىء بتفاصيل كثيرة قليلة الأهمية انما الهدف هو اثرائه بالأحداث ذات النتائج الهامة وتحويل أحداث التاريخ الى أفكار وبذلك تتكون لدى القارىء فلسفة ووجهة نظر تمكنه من تتبع حركة التاريخ وتنجيه من الغرق فى بحر التفاصيل وتشعباتها .

ولقد كانت مناهج التاريخ فى مصر فى الأصل من وضع أساتذة ومستشرقين أوربيين الذين ــ رغم احترامنا لهم ــ كانت لهم نزعة معينة تسيطر على عقلياتهم وتتماشى مع أهداف ونظرة الفكر الأوروبى لعالم المشرق العربى الذى كان يرتل فى الأغلال ، ويرزح تحت نير الاحتلال ؛ كما نلاحظ أن الأوربيين يقللون من الدور الحضارى لشعوب المشرق الأدنى بينما يبالغون فى سيطرة وتأثير الحضارة الاوروبية ، ومن ناحية أخرى حاول هؤلاء الأساتذة التقليل من العلاقات بين بلدان المشرق العربى باتباع الدراسة الرأسية لتعميق الخلاف بينها ، فمثلا فى تاريخ مصر فى العصر الهللينستى بالغوا فى تفاصيل وموضوعات تكاد أن تقيم حائطا عازلا بين المصريين وأشقائهم من شعوب العالم العربى القديم سواء فى الشام أو بلاد الرافدين أو فى الجزيرة وبذلك يصبح التاريخ القديم للشرق الأدنى عامل تفرقة وعزل ، وليس عامل توحيد وترابط بين أجزاء الوطن الواحد ، فهو عندما يدرس تاريخ مصر فى عصر البطالمة يلم بكم هائل من التفاصيل التى تصل الى حد الملل بينما لا يكاد يذكر شيئا عن

تاريخ الشام أو الرافدين أو الجزيرة العربية فى نفس الفترة بالرغم من أن الأصول العرقية واحدة والهجرات والعلاقات والتجارة لم تتوقف أبدا .

والآن وبعد أن آل الآمر فى التعليم ووضع المناهج لأبناء هذه الأمة وجب علينا أن تتحرر من النظرة الأوروبية الى تاريخنا ، وأن نعيد النظر فى كل ما كتبوه عنه لأن ماضى مصر وحاضرها لم يبتعد يوما عن جيرانه من أقطار العالم العربى القديم ، ولذلك فقد جاهدنا لاعادة صياغة مناهج التاريخ القديم بحيث يكون فى خدمة الأمانى القومية والوحدوية ، مع التزامنا بأمانة عرض المادة التاريخية فأحداث التاريخ لا تتغير انما الذى يتغير هو الفكر والمنهج الذى يتبعه المؤرخون ، والذى يختلف من جيل الى جيل ، وحسب الظروف السياسية والاجتماعية ودرجة الوعى القومى .

ولعل القارىء سوف يلحظ سرعة النبرة فى عرض الافكار لأن هدفنا كما قلنا هو اثراء القارى بالافكار الهامة متغاضين عن التفاصيل غير الهامة التى تحشو عقليته بموضوعات ذات نتائج معدومة ولا تخدم هدفا قوميا ، وفى نفس الوقت لم نحرم هواة التفاصيل وذلك بالاشارة الى أهم المراجع والمصادر العربية والمعربة وتلك التى كتبت باللغات الأجنبية لكل فصل من فصول الكتاب . اننا نريد أن نقدم له الكثير النافع فى حيز موجز وبعرض مبسط ، واننا على ثقة من أن الدارس سوف يغير من نظرته العتيقة، ويدرك مدى الترابط الجغرافى والفكرى والاجتماعى والسياسى والعرقى بين مصر وأقطار المشرق العربى فى العصر الهللينستى . فقد أثبتت الاحداث المعاصرة مدى أهمية الشرق الأدنى وأن مشاكله السياسية تنبع من رواسب تولدت فى العصور القديمة .

والله نسأل الهداية والرشاد

المؤلف

القاهرة يوليو ١٩٩١

الفصل الأول
مدخل الى الموضوع

التحديد الجغرافى والزمنى للموضوع :

يستغرق العصر الهللينستى ثلاثة قرون تقريبا ، تبدأ من موت الاسكندر المقدونى عام ٣٢٣ ق.م. وتنتهى عند قيام الامبراطورية الرومانية رسميا على يد أكتافيوس أغسطس عام ٢٧ ق.م. تقريبا. غير أنه من الجدير بالذكر أن الحضارة الهللينستية لم تشرق فجأة بعد موت القاهر المقدونى ، بل نجد ملامح حضارة تحمل روح العصر الهللينستى تظهر تدريجياً فى بلاد اليونان قبل مجئ الاسكندر وقيام الدولة المقدونية وسيطرتها على بلاد اليونان ، وذلك عندما تطورت الحضارة فى القرن الرابع فى بلاد اليونان وبدأت تبتعد عن الروح الكلاسيكية وتتطور فى طريقها إلى عالم جديد ، لم تكن معالمه قد اتضحت بعد .

كذلك فان مظاهر العصر الهللينستى لم تختف فجأة بقيام الامبراطورية الرومانية على يد الامبراطور أكتافيوس أغسطس ، لأن حضارة العصر الرومانى امتزجت مع الفكر والثقافة الهللينستية عقب ضم روما لهذه الممالك مكونة حضارة أطلق عليها إسم الحضارة الاغريقورمانية Graeco-Roman .

والآن لنعرف ما مفهوم اصطلاح هللينى وهللينستى وما الفرق بينهما ؟ درسنا فى تاريخ اليونان أن الإسم الحقيقى لليونانى هو هللينى Hellene أى يونانى خالص ، وما قبل ذلك كان هيللاديا Helladic ، وتمتد الفترة الهللينية من القرن الثامن ق.م. تقريباً (أى من عام ٧٧٦ ق.م تاريخ قيام الألعاب الأولمبية) وتنتهى بضم مقدونيا لبلاد اليونان Hellas وانتصارها عليهم فى معركة خايرونيا عام ٣٣٨ ق . م ، وفقدان المدن اليونانية Poleis لشخصيتها واستقلالها الذى تمتعت به خلال العصر الهللينى ، وتتميز ملامح الحضارة الهللينية بالاحساس بالقومية العرقية الراقية على ما دون غيرها من شعوب

الأرض الذين أطلق اليونانيون عليهم اسم برابرة Barbaroi ، وهذا الرقى العنصرى انعكس على آداب أثينـا فى القرن الخامس — مركز الثقافة الكلاسيكية — وكذلك فى الفنون حيث نجد أن كل شىء يسمى للكمال ، أى تصوير وتخيل الأشياء فى صورة يجب أن تكون عليها ، وليس تلك التى عليها ، وهذا ما نسميه «البحث عن المثالية الحالمة » . واعتزاز كل مواطن أغريقى بالمدينة التى ينتسب إليها ، ورفضه لأى فكرة تدعو لاتحاد الاغريق فى دولة واحدة ، حتى لا يفقد مزاياه الفردية ، التى كان يتمتع بها داخل عالم مدينته المحدود .

أما اصطلاح هللينستى ، فيمكن ترجمتة إلى كلمة « المتأغرق » أى أن الحضارة لم تعد أغريقية خالصة ، ولا وقفا على بلاد الأغريق وحدهم ، وإنما أصبحت مزيجاً من العناصر الشرقية والأغريقية معاً ، فقد امتزجت حضارة الاغريق الوافدة مع حضارة الشرق الأدنى القديم بعد الفتح المقدونى ، كما أن هذا الاصطلاح قد يعنى أيضاً تطور الحضارة الهللينية الكلاسيكية إلى مناخ جديد مختلف تماماً عن المرحلة السابقة . ولا نستطيع أن نقول أن هناك تفسيراً واحداً كاملا ، لأن كل التفسيرات تحمل بعض الحقيقة ، فمثلا فى العصر الهللينستى تطور علم الرياضيات ولكنه ظل إغريقياً فى جوهره ، ولم يختلط بالرياضيات الشرقية ، بينما نجد علم الفلك البابلى يمتزج مع علم الفلك الأغريقى مكوناً علماً جديداً ، هو من أهم ملامح علوم العصر الهللينستى .

ويرى الأستاذ تارن أن هذه القرون الثلاثة من الحضارة الهللينستية تنقسم إلى مرحلتين . المرحلة الأولى وهى مرحلة تدفق التيار الحضارى الأغريقى الخلاق فى مجالات العلوم والفلسفة والأدب والفنون والفكر السياسى وغير ذلك ، وذلك من خلال إتحاد العالم المقدونى الأغريقى ، الذى مد نفوذه إلى الشرق الأدنى وشبه جزيرة الأناضول ، وحتى حدود آسيا الوسطى . وكان مركز التدفق الحضارى بلاد اليونان الأم ؛ أما المرحلة الثانية فهى مرحلة انتقال مراكز الحضارة إلى مدن الشرق الأدنى وآسيا الصغرى بعد تدهور الأحوال فى بلاد اليونان ، حيث بدأت حضارة جديدة شرقية أغريقية ، مادية روحية ، تتدفق من الشرق تجاه الغرب ، وأصبح العالم المقدونى الأغريقى محصوراً بين غزو

الشرق الحضارى ، وبين تطلع روما السياسى للاستيلاء على الممالك الهللينستية ، وحتى بعد أن نجحت روما فى ضم الممالك الهللينستية ، وقضت على استقلالها ، الذى هو قلب الحضارة الجديدة ، وجدت روما نفسها تحمل على عاتقها حمل رسالة هذه الحضارة الهللينستية ، وعلى أى حال لا يمكن فصل هاتين المرحلتين عن بعضها البعض .

لقد تغير مفهوم الفكر الإنسانى فى العصر الهللينستى . عما كان عليه العصر الكلاسيكى فقد اتسع العالم المسكون ، واختفت نبرة التعصب الذى إتسمت به نظم دويلة المدينة فى العصور الكلاسيكية ، وبدأت فكرة العالمية تتخلق Cosmopolitanism وبدأت شخصية الفرد تظهر Individualism وولدت فكرة وحدة العالم المسكون Oecumene ، وتميز البشر المتحضرين — أياً كانت قومياتهم — عن البرابرة ، فقديما كان الأغريقى يفاخر بأن مدينة كذا هى وطنه ، أما فى هذا العصر فقد أصبح الأغريقى يفاخر بأن العالم كله وطنه .

وسادت لغة يونانية عامية سهلة Koine مشتركة بين أبناء العالم المتحضر ، وجدت طريقها للانتشار بين شعوب الشرق الأدنى وشعوب آسيا الصغرى حتى الهند شرقاً ، لقد حلت الثقافة الهللينستية محل القومية العنصرية والعرقية . فقد أوجد التعليم ثقافة واحدة فى كل مدن العالم المسكون ، هذه الثقافة التى شملت دراسة الأدب والفلسفة والعلوم والفنون ، إمتدت لتشمل العالم المسكون كله وليس بلاد اليونان فقط . وأصبح الإنسان سواء فى الشرق الأدنى ، أو فى إيطاليا ، أو فى آسيا يرى أن الثقافة الهللينستية ضرورة أساسية لكى يصبح الإنسان متحضراً ومثقفاً .

كما أصبحت التجارة أيضاً إحدى وسائل الربط بين أجزاء العالم ، فقد تحطمت الحدود والعوائق الجغرافية ، وأصبح التسامى العنصرى تراثاً من الماضى ، واختفت فكرة التمييز بين البشر حسب العقيدة أو العرق ، وأصبح التميز للعلماء وحدهم ، فقد كان العصر الهللينستى عصر العلماء المتخصصين حتى فى المهن والحرف ، ولم تعد المعرفة والثقافة أغريقية خالصة ، فمثلا الفلسفة الرواقية

أكثر الفلسفات إنتشاراً فى العصر الهللينستى لم يكن واضع نظريتها أغريقياً ، بل كان فينيقياً عاش فى قبرص .

ولقد كان فى ذلك العصر ممالك قوية ، ومتقدمة فى الثقافة ، وأخرى صغيرة أقل تقدماً ، لكنها كلها كانت تأخذ بثقافة واحدة ، وظهرت مشاكل مشابهة لمشاكل عالمنا المعاصر مثل مشكلة الأسعار والأجور ، والاشتراكية والشمولية ، الاضرابات والثورات ، الاحساس بالأنسانية والأخوة العالمية ، بالاضافة الى الصراعات الدموية القاسية والفتاكة ، كذلك شهد هذا العالم تحرير المرأة ، وتحديد النسل ، وقضية تحرير العبيد وعتقهم ، وحق الانسان فى الهجرة إلى أى مكان فى العالم ، وسار العلم الراقى الرفيع جنبا إلى جنب مع الخرافات والشعوذة ، وأصبح لكل فرع من فروع المعرفة علم فيه مؤلفات ومؤلفون ، لكنهم لم يكونوا على مستوى الأسماء الكبرى التى لمعت فى العصور الكلاسيكية

ولقد أدى انتشار التعليم الى تخريج جموع من أنصاف المثقفين وظهرت الدعاية كفن مؤثر على الرأى العام . ولقد لعب الرقيق دور الآلات فى العالم المعاصر رغم ظهور النزعة الى الأخوة العالمية والانسانية لقد كان العصر الهللينستى عصر المتناقضات ، فمثلا سادت الرواقية بمذهبها الراقى الذى يدعو الى الفضيلة ، جنبا الى جنب مع الشعوذة والسحر ، وعاشت النظريات العلمية المنطقية مع التيارات الدينية والمعتقدات الخارقة لقوانين الطبيعة ، وظهرت الدعوة الى عتق الرقيق ، ومعاملتهم كأخوة فى الانسانية ، جنبا الى جنب مع تزايد سبى الأحرار فى الحروب وازدهار أسواق الرقيق فى ديلوس .

* * *

بدأت إرهاصات العصر الهللينستى عقب انتهاء الحروب البيلوبونيسية عام ٤٠١ ق.م. ، والتى انتهت بتدمير الامبراطورية الأثينية ، وذلك عندما ترددت آراء المثقفين الأغريق من أمثال ايسوقراط وغيره فى ضرورة اتحاد الأغريق وانضمام دويلات المدن تحت زعامة المملكة المقدونية من أجل القيام بحملة

الانتقامية لتدمير الامبراطورية الفارسية ، وفتح الشرق الآدنى أمام الأغريق ، وبذلك يتحول البحر المتوسط الى بحيرة ثقافية وتجارية ، بعد ازالة العوائق التى أقامها الفينيقيون حلفاء الفرس فى وجه تجارة المدن الأغريقية، وحتى تفتح أبواب الشرق الأدنى بكنوزه ووديانه وأنهاره أمام المغامرين الأغريق والباحثين عن الثروة ، وكان الأغريق قد عرفوا الشرق الأدنى منذ العصور الموكينية ، ثم عرفوه مرة أخرى فى عصر التوسع والانتشار خلال القرن السابع والسادس والخامس ق. م. ، ولكن احتلال الفرس لمنطقة الشرق الأدنى أغلق مجال الكسب والتجارة فى وجه المدن الأغريقية مما أحدث كسادا اقتصاديا فى تجارتها ، وهى بلاد فقيرة فى حاجة دائمة الى غلات الشرق الأدنى لتعويض الفقر الاقتصادى .

ولذلك دعا هؤلاء المثقفون المدن الأغريقية إلى التنازل عن كبريائها ومبادئها المتمثلة فى الاستقلال والاكتفاء الذاتى والتمسك بحريتها ، ورفض الاندماج أو الاتحاد مع باقى المدن فى دولة واحدة ، وكانت حجة دعاة الوحدة أن نظام دويلة المدينة بمفهومه الكلاسيكى قد فشل ، لأنه تسبب فى حدوث حروب وصراعات دموية ، أدت إلى استنزاف إقتصاد الأغريق ، وقضت على شطر كبير من قواهم البشرية ، ودفعت الحضارة الأغريقية ثمناً باهظاً لهذه الحروب التعصبية الجوفاء ، ويقال أن أرسطو وضع بحثاً للاسكندر حول الأزمة الاقتصادية التى يعانيها الأغريق ، وأن فتح الشرق الأدنى وآسيا بعد تقويض الامبراطورية الفارسية هو الحل الأوحد لتلك القضية . ومن ناحية أخرى كان المفكرون الأغريق يعتقدون أن حملة عسكرية تقوم بها مقدونيا وتشترك فيها كل المدن الأغريقية لفتح الشرق الأدنى سوف تجعل المدن الأغريقية تنسى خلافاتها ، لكى تواجه عدو خارجياً بربرياً يتمثل فى الفرس والفينيقيين ، فضلا عن ذلك فان حربا كبرى مثل هذه الحرب سوف تكون تنفيساً لطاقة المدن الأغريقية العدوانية ، بالإضافة إلى أن الغنائم والأسلاب التى يعود بها الجنود المنتصرون من الشرق الثرى سوف تساعد فى إنقاذ الاقتصاد الأغريقى من الإفلاس ، وتوفر عليهم

خطر الثورات الاجتماعية التى قد تقوم بها الغالبيه المعدمة ضد الأقلية الغنية ، مدفوعين بمبادىء أخذت تسرى بين الفقراء ، تطالب بالعدل الاجتماعى ، وتوزيع الثروة بالقوة وعن طريق العنف . ولهذه الأسباب دعا المثقفون الأغريق فى القرن الرابع إلى القيام بحملة كبرى بالاتحاد مع مقدونيا ، ومن أجل هذه الأمانى أيدت أغلب المدن الأغريقية مقدونيا وانضمت إليها ، وتمكنت المملكة المقدونية بقيادة فيليب ، من هزيمة المدن المعارضة فى معركة خايرونيا عام ٣٣٨ ق . م . وبذلك قام الاتحاد بين مقدونيا والأغريق ، وكان على فيليب والد الاسكندر الذى نجح فى تحقيق ذلك ، أن يتجه إلى الخطوة التالية وهى فتح الشرق الأدنى وتقويض الامبراطورية الفارسية ، غير أنه أغتيل قبل الشروع فى هذا المشروع الكبير .

تحديد معنى الشرق الأدنى :

إتفق المؤرخون على إطلاق إسم الشرق الأدنى على تلك المنطقة الهامة من العالم التى تفصل بين الشرق الأقصى Far East وبين جنوب أوروبا ، وتمتد هذه المنطقة من حدود إيران مع الهند شرقاً ، وحتى حدود مصر الغربية من الغرب ، كما تمتد من الأناضول شمالا حتى حدود مصر الجنوبية جنوباً ، أى أن منطقة الشرق الأدنى تضم مصر والشام وآسيا الصغرى وبلاد الرافدين وإيران والجزيرة العربية ، وعموماً كانت المنطقة التى تمتد من النيل إلى الفرات هى قلب الشرق الأدنى ، وهى منطقة تتميز بالسهول والأنهار والتنوع الجغرافى والتنوع السكانى والعرقى ، كما كانت مهد الحضارات القديمة التى قامت على ضفاف الأنهار فى النيل والرافدين وفى سهول الشام ، كما أن هذه المنطقة مهبط الأديان السماوية الكبرى ، ومن سمات هذه المنطقة أيضاً أنها منطقة منفتحة ، مما جعلها قبلة للهجرات السكانية المختلفة منذ أقدم العصور ؛ غير أن العنصر السامى كان هو العنصر الغالب على سكانها ؛ ونظراً لانفتاح الحدود ، فان الشرق الأدنى كان دائما محل

صراعات دائمة ، وشهد على طول تاريخه — قيام عدة إمبراطوريات حاولت ضم أكبر جزء منه ، خاصة فى المنطقة الواقعة بين النيل والفرات ، وعموما كانت القوتان الأساسيتان اللتان كانتا تتنازعان على هذه المنطقة فى بادىء الأمر هما الامبراطورية المصرية فى وادى النيل ، والامبراطورية الأكادية فى بلاد الرافدين ، ولقد كان التغير فى إحدى هاتين القوتين هو الذى يؤثر على تطور الأحداث فى الشرق الأدنى ، إذ كان يؤدى إلى قيام أو سقوط دويلات صغرى فيه ، ولما كانت هذه المنطقة تطل على بحرين من أهم بحار العالم هما البحر الاحمر (بخليجيه الهامين وهما الخليج العربى وخليج السويس) والبحر المتوسط ، فقد لعبت دوراً أساسيا فى تجارة العالم القديم ، التى كانت تأتى إليها إما بحراً من الهند والشرق الأقصى حتى البحر الأحمر ، أو تلك التى تأتى إليها براً عبر الطرق التجارية الكبرى التى كانت تربط بين شمال العراق وآسيا الوسطى ، ومن ثم لعبت التجارة دوراً هاما فى حياة شعوب الشرق الأدنى القديم ، وظهرت من بين شعوبه شعوب عرفت بمهارتها التجارية مثل الفينيقيين والسبأيين ، الذين قاموا بنقل تجارة الشرق الأقصى وشرق أفريقيا إلى مناطق الأسواق فى جنوب أوروبا ، وبسبب الاحتكاك الدائم بين هذه الشعوب الناتج من التجارة ، مزج الشرق الأدنى بين حضارات هذه الشعوب التى تعامل معها ، مما ساعد على نضوج حضارته العريقة ، والتى كانت البذور الأولى للحضارة الإغريقية منذ منتصف الألف الثانى قبل الميلاد .

وعموما فإن ما يسمى اليوم بالعالم العربى يكون الجزء الأكبر من الشرق الأدنى القديم ، وكان ثمار تفاعله مع بعضه البعض عبر عصور طويلة ، أن توحد لغة وثقافة و دينا بسهولة بعد أن قام العرب المسلمون بتوحيده ، ونرى أن الفتح الإسلامى للشرق الأدنى وتوحيد لغته وثقافته فى القرن السابع الميلادى هو اكمال للمحاولات المتكررة التى كانت تقوم بين شعوبه من أجل توحيده أو ادماجه فى امبراطورية ، كما كان محصلة لمحاولة توحيد الفرس له ، ثم الفتح المقدونى الذى حطم الحدود الفاصلة بين الدويلات السياسية من ناحية ، وبين

الحدود التقليدية الفاصلة بين الشرق والغرب ، مما أدى إلى حدوث التفاعل الحضارى الذى سبق الإشارة إليه .

وعموما فإننا سوف نركز على أهم مناطق الأحداث فى هذا العصر وهى : (أ) مصر (ب) الشام (ج) بلاد الرافدين (د) الجزيرة العربية . فهذه المناطق الأربعة تمثل الركائز الأساسية للشرق الأدنى . ولهذا فلابد أن نعالج بإيجاز شديد تاريخ هذه المنطقة قبيل الفتح المقدونى ، حتى لا نقطع تسلسل الأحداث التاريخية ، وحتى لا نبدو وكأننا نبدأ من فراغ ، وحتى نرصد الظواهر التاريخية التى يتشابه حدوثها فى تاريخ هذه المنطقة الهامة قبل وبعد الفتح المقدونى .

* * *

أهم المراجع العامة للفصل الأول

١ — و. تارن : الحضارة الهللينستية : ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ، ١٩٦٦ (أنظر الأصل الإنجليزى أدناه رقم ٥) .

٢ — و . ج دى بورج : تراث العالم القديم ،الجزء الأول ، ترجمة زكى سوس مراجعة يحيى الخشاب ومحمد صقر خفاجة ، الناشر دار الكرنك ، سلسلة الألف كتاب (٥٥٧) ، القاهرة ، ١٩٦٥ * .

٣ — لطفى عبد الوهاب يحيى : دراسات فى العصر الهللينستى ، بيروت ١٩٧٨ .

٤ — هـ . ج ولز : معالم تاريخ الإنسانية ، المجلد الثانى (ويشمل الكتابين الرابع والخامس) ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، ومراجعة زكى على ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٩ .

4. J.B. Bury(et alia) : The Hellenistic Age, Cambridge University Press, 1952.

5. W.W. Tarn and G. Griffith : Hellenistic Civilization, University Paperbacks, Third edtion, Methuen, Lonodn, 1952.

6. W.G. De Burgh : The Legacy of the Ancien tWorld (A. Posthumous edition), Reading, England, 1947.

(*) ننصح بعدم الاعتماد على الترجمة العربية ، والرجوع إلى الأصل الانجليزى ، وذلك لركاكة الترجمة ، وعدم مطابقتها للنص الأصلى ، وإسقاط أجزاء ، وكتابة المصطلحات بطريقة خاطئة .

الفصل الثانى

الأوضاع فى الشرق الأدنى

قبل الفتح المقدونى

أولا : الأوضاع فى مصر قبل الفتح المقدونى :

بنهاية الأسرة العشرين حوالى عام ١٠٧٠ ق.م . بدأ مجد الفراعنة يتوارى ، وأصبح من الواضح أن مصر مقبلة على فترة طويلة من الركود والضعف ، اللذين أديا الى وقوعها فى قبضة الاحتلال ، ولذلك يطلق المؤرخون على الفترة الممتدة من عام ١٠٧٠ ق. م ، وحتى عام ٣٣٢ ق. م وهو تاريخ الفتح المقدونى لمصر) اسم العصر المتأخر .

فلقد كانت الأسرة الواحدة والعشرون (١٠٧٠ — ٩٥٠) أسرة ضعيفة ، لم يبرز من بين ملوكها ملك واحد ذو شأن وسطوة ، بل كادت مصر خلالها أن تعود الى ما قبل توحيدها على يد مينا حوالى عام ٣١٨٠ ، إذ كانت على وشك أن تنقسم الى قسمين . قسم جنوبى يتحكم فيه كهنة آمون من طيبة ، وقسم شمالى عاصمته تانيس (صان الحجر شرقية) وهو مقر حكم الأسرة الواحدة والعشرين ، وكانت تانيس فى ذلك الوقت قد برزت كميناء تجارى عظيم الأهمية نظراً لاهتمام الرعامسة بالشام .

وما أن مات آخر ملوك الأسرة الواحدة والعشرين حتى تمكن زعيم الجالية الليبية وقائد قواتها فى الجيش المصرى من انتزاع السلطة وتأسيس أسرة قوية حكمت مصر من ٩٥٠ ق. م حتى ٧٣٠ ق. م ولقد حاول شيشنق أن يقلد الفراعنة — حيث كان الليبيون قد تمصروا لغة وعقيدة — فى اعادة الوحدة والقوة الى مصر ، ولذلك حاول أن يعيد نفوذها القديم فى فلسطين والشام من أجل ضمان التجارة لصالحها ، ولقد ورد فى التوراة أخبار هذا الغزو لفلسطين ، فقد جاء فى سفر الملوك الأول الاصحاح الرابع عشر ٣٥ « وفى السنة الخامسة

للملك رحبعام صعد شيشنق ملك مصر إلى أورشليم . وأخذ خزائن بيت الرب ، وخزائن بيت الملك ، وأخذ كل شئ ، وأخذ جميع أتراس الذهب التى عملها سليمان » .

ولكن بعد موت شيشنق لم يكن خلفاؤه بنفس القوة والجسارة ، فضلا عن أن حدثا جديدا حدث فى الشرق الأدنى ألا وهو ظهور دولة آشور كقوة فتية ، وتطلعها الى ضم الشرق الأدنى اليها خاصة الشام ، مما أدى الى انكماش الفراعنة الليبيين ، وعودة الضعف للبلاد ، مما نتج عنه تفكك مصر داخليا ، مرة أخرى فقد تحولت الى أقاليم متنازعة ، واستمر ذلك التفكك خلال حكم الأسرتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين :

خلال ذلك الوقت كانت دولة الكوشيين (ملوك النوبة) تشهد تصاعداً فى قوتها بعد تدهور القوة المصرية ، وكان الفراعنة القدماء قد حرصوا على فرض نفوذهم فى النوبة ، ونشر حضارتهم وثقافتهم فيها باعتبارها أرضا مقدسة بالنسبة لهم ، وقد تمصر النوبيون واعتنقوا عبادة آمون ، وكانت طيبة بالنسبة لهم مدينة مقدسة حيث مركز عبادة آمون ، كما كان ملوك كوش على علاقة وطيدة مع كهنة آمون ، وكانوا يعتبرون أنفسهم ورثة الحضارة المصرية ، وورثة الفراعنة ، ولذلك قام ملكهم بعنخى سواء بمبادرة منه أو بتحريض من كهنة آمون فى طيبة بجمع قواته والسير شمالا للاستيلاء على مصر ، بحق الأرث ، ولم يجد مقاومة فى الجنوب ، ثم استولى على منف العاصمة الدينية الشمالية واقام عاصمة سياسية لمصر ، وأعلن تأسيس الأسرة الخامسة والعشرين عام ٧١٥ ق. م حيث توج فرعونا . وشرع بعنخى فى اعادة القوة الى مصر ، وفرض نفوذها فى فلسطين كما فعل شيشنق ، لكنه لم ينجح لأن التوراة تذكر هزيمة الكوشيين فى فلسطين ، وعلى العموم استمر حكم النوبيين والكوشيين لمصر حتى عام ٦٦٣ ق. م .

استولى آشور بانيبال على مصر واسقط الأسرة الكوشية ، واحتل منف ،

ثم سار الى طيبة فدمرها تدميرا شاملا ، ولما ادرك كهنة آمون أن معابدهم ومقدساتهم وتماثيل ملوكهم فى خطر دفنوها فى حفرة تحت ارضية معبد الكرنك ، وهى الخبيئة الشهيرة التى عثر عليها صدفة عام ١٩٨٨ ، وعلى العموم أحدث تدمير طيبة بهذه الطريقة البشعة فى دويا العالم القديم ، حتى ان النبى ناحوم حذر نينوى من مصير قاتم مثل مصير طيبة (نو آمون) ، فتقول التوراة هل أنت أفضل من « نو آمون » الجالسة بين الأنهار وحولها المياه التى هى حصن البحر ومن البحر سورها ، (كوش قوتها مع مصر وليست نهاية) :

هى أيضا قد مضت إلى المنفى بالسبى وأطفالها حطمت فى راس جميع الأزقة وعلى اشرافها ألقوا قرعة وجميع عظمائها تقيدوا بالقيود [ناحوم الاصحاح الثالث ٨ — ١٠] إلى أن يقول مخاطبا نينوى كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بأيديهم عليك لأنه على من لم يمر شرك على الدوام (نفس الاصحاح ١٩) .

قيام الأسرة الصاوية (السادسة والعشرين) :

وإذا كان الأشوريون قد سحقوا المقاومة المصرية فى الجنوب ، فإنها لم تمت فى الشمال ، فقد نجح أمير مصرى من سلالة ليبية إسمه بسمتيك (٦٦٣ — ٦٠٩) من تطهير الدلتا من الأشوريين ، ثم نجح فى توحيد مصر تحت زعامته جاعلا مدينة سايس Sais (صالحجر غربية) عاصمة لحكم أسرته الصاوية. ولقد حاول ملوك هذه الأسرة استكمال مشروعات شيشنق الخاصة بأعادة القوة إلى مصر . وكانوا أكثر نجاحاً ، فقد قام ملوك العصر الصاوى بإحداث نهضة جديدة عن طريق الاستعانة بخبرات الإغريق من جنود وبحارة وتجار ، ففتح أمامهم أبواب مصر على مصراعيها ، فمثلا استعان بأغريق كورنثا من أجل بناء أسطول حربى حديث لمصر ، وأصبح لمصر فى عصرهم أسطولان أحدهما فى البحر الأحمر ، والآخر فى البحر المتوسط ، وذلك لتنشيط تجارة مصر ، بل إن هيرودوت ذكر أن ثانى ملوك هذه الأسرة وإسمه نيخو Necho (نخاو الثانى ٦٠٩—٥٩٤ ق . م) كلف بعض البحارة الفينيقيين بالدوران

حول أفريقيا حوالى عام ٦٠٠ ق . م Herodotus, IV, 42 وهو عمل جرئ لم يسبق لأحد أن قام به ، ولم يجرؤ أحد على القيام به إلا فى مطلع العصر الحديث عندما قام البرتغاليون بالدوران حول رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٢ ، ولقد استمرت هذه الرحلة ثلاث سنوات حول الشاطئ الأفريقى ، حتى عادوا إلى بوغاز جبل طارق ثم إلى مصر محملين بجميع خيرات أفريقيا . فى هذه الأثناء كانت آشور تحاول الانتقام لنفسها من غريمتها بابل ، فأراد نخاو الثانى أن يستفيد من هذه الظروف ، وأن يجعل لمصر صوتاً مسموعاً فى سياسة هذا الجزء من العالم ، فقرر معاونة آشور ضد بابل ، فجهز جيشاً سار به إلى بلاد الرافدين ، ولكن يوشيا ملك يهودية والذى كان حليفاً لبابل تصدى لجيش مصر ، وجهز بمعونة بابل جيشاً كبيراً وتقابل الجيشان المصرى واليهودى عند مدينة مجدو Megido وانتصر المصريون ، وقتل يوشيا ملك يهوذا ، وتولى من بعده إبنه، ولكن لم تمض ثلاثة شهور أخرى حتى تمكن جيش نخاو من أسره وأرسله إلى مصر ، وعين نخاو ملكاً جديداً على مملكة يهوذا وهو شقيق الملك الأسير ، وكان إسمه اليقيم ولكنه غير إسمه إلى « يهوقيم » وقبل الخضوع لمصر ودفع تعويضاً لها، وتقديم الجزية السنوية للفرعون الصاوى .

ولقد أخضع نخاو الشام لمصر ، ووصل إلى الفرات كما فعل تحتمس الثالث من قبل ، وتذكر التوراة (سفر الملوك الثانى ٢٣ ، ٢٤ وأرميا ٤٦) أن نبوخذ نصر ملك بابل سحق جيش نخاو عند قرقيش فانسحب إلى مصر وذلك فى العام الرابع من حكم يهوقيم .

ومن أهم المشروعات الجريئة التى فكر فيها نخاو مشروع توصيل البحرين الأحمر والأبيض عن طريق قناة تخرج من فرع النيل، وهى قناة سيزوستريس القديمة التى أنشئت فى أيام الأسرة الثانية عشرة، ولكنها كانت قد ردمت، ونفذ نخاو الجزء الأكبر من هذا المشروع الذى هلك فيه مائة وعشرون ألفاً من المصريين ، غير أنه ترك المشروع فجأة عملا بتحذير نبوءة أن هذه القناة ليست فى صالح مصر ولن يستفيد منها سوى الاجانب .

خلف بسمتيك الثانى (٥٩٤–٥٨٧) أباه نخاو الثانى ، ولم تزد مدة حكمه

عن سبع سنوات ، وزار الشام ، وقاد جيشه فى حملة على جنوب الوادى ، ووصل حتى الشلال الثانى ، وكان جيشه مؤلفاً من قوة مصرية وقوة من الأجانب المرتزقة أكثرهم يونانيون ومنهم أراميون ويهود ، وقد ترك المرتزقة الكاريون اليونانيون نقشاً على ساق أحد تماثيل رمسيس الثانى أمام معبد أبى سنبل .

وفى عهد بسمتيك ازدهرت تجارة الإغريق المقيمين بمصر ، وكثر عدد الجنود المرتزقة من الإغريق الأسيويين فى مصر ، وأصبح لهم ثلاث حاميات رئيسية كبيرة ، واحدة عند ماريا على شاطئ بحيرة مريوط لحراسة الجبهة الغربية لمصر ، وفرقة لحراسة شرق مصر عسكرت عند تل دفنه ، والفرقة الثالثة لحراسة الجنوب وعسكرت فى جزيرة الفانتين (أنس الوجود) .

وفى عام ٥٨٨ خلفه على العرش الملك واح أب — رع الذى سماه الكتاب الأغريق أبريس (٥٨٨ — ٥٦٨ ق. م) ونحن نعرف تفاصيل حكم هــذا الفرعون من التوراه ، ومن هيرودوت ومن بعض الآثار القليلة . وفى عصره استولت جيوش نبوخذ نصر الأشورى على مملكة يهودية التى كانت مواليه لمصر ، ودمرت اورشليم وأسرت الآلاف من اليهود ثم حملهم الى بابل (سفر الملوك الثانى ٢٥) .

وهرب كثير من اليهود إلى مصر بعد هذا الأسر البابلى الثانى ، وانتشرت جالياتهم فى أماكن مختلفة من مصر حتى الفانتين فى أقصى الجنوب ، حيث كانت لهم جالية كبيرة هناك .

وذكر هيرودوت أن أبريس قاد جيشاً إلى فلسطين ، وهزم أسطول صيدا ، ولقد كان أبريس مثل من سبقوه من ملوك هذه الأسره الصاوية محباً للاغريق ، فكون منهم فرقة كبيرة فى الجيش مما سبب غضب الوطنيين المصريين . وعندما استنجد الليبيون بالفرعون أبريس لانقاذهم من تدفق الاستيطان الأغريقى على بلادهم ، أرسل أبريس الفرقة المصرية ، ولم يرسل الفرقة الأغريقية خوفا من أن ترفض محاربة بنى جلدتهم ، ولما حاصر المستوطنون الأغريق ليبيا القوات

المصرية، وكادوا أن يبيدوها قامت ثورة فى مصر ضد أبريس، وتمردت القوات المصرية فى ليبيا، عندئذ أرسل أبريس أحد قواده المصريين وأسمه أحمس، ولكن الجنود الثوار التفوا حول أحمس، وحرضوه على الثورة ضد الملك أبريس، فقاد قواته نحو مصر، حيث هزم أبريس وأجبره على قبوله شريكا له فى الحكم، ولما حاول أبريس أن يتمرد على شريكه أحمس بمعاونة أنصاره من الجنود المرتزقة، دارت معركة بين الملكين انتهت بموت أبريس فى هذه المعركة وقد استغل أحمس كراهية المصريين للمرتزقة الأغريق فذكر المصريين بما أصاب مصر من كوارث بسببهم. وهذا النص موجود على إحدى اللوحات المحفوظة بالمتحف المصرى.

وهكذا أصبح أحمس الثانى ملكا على مصر ٥٦٨ — ٥٢٥ ق. م وأراد هذا الملك أن يهدئ من ثورة المصريين ضد المرتزقة الأغريق، لكنه لم يكن على استعداد لطرد هؤلاء المرتزقة لأنه كان فى حاجة ماسة اليهم بسبب تزايد خطر الفرس، ولم يكن من الحكمة أن يضعف قوة الجيش فى هذا الوقت، فضلا عن أنه أدرك أن طرد اليونانيين سيؤدى الى كسب عداوة المدن اليونانية التى زادت قوتها فى البحر المتوسط فى ذلك الوقت، كما سيؤدى الى فوضى فى الاقتصاد الذى كان يسيطر عليه اليونانيون ولهذا سلك سلوكا وسطا، إذ أرضى شعور المصريين باستدعاء الحاميات اليونانية من على الحدود، وأحل محلها حاميات مصرية، وجمع المرتزقة اليونانيين ليقيموا فى منف، كما أرضى شعور التجار المصريين بأن جمع التجار اليونانيين فى مكان واحد وفى مدينة خاصة بهم فى غرب الدلتا عرفت بأسم نقراطيس، وسمح لهؤلاء اليونانيين أن يقيموا فيها معابدهم وأسواقهم وبيوتهم ومقابرهم وهى أول مستوطنة أغريقية فى مصر وموقعها الآن تل نقرش (كوم جعيف مركز كوم حماده بمحافظة البحيره). وسرعان ما أصبحت هذه المدينة مركزا رئيسيا للتجارة والثقافة اليونانية بمصر، وقد ظلت مزدهرة حتى أواخر القرن الثانى بعد الميلاد.

ولقد أحب الأغريق أحمس الثانى، ولهذا أطنب هيرودوت فى مدحه وذكائه وحبه للعربدة والبذخ.

ولقد حصن أحمس حدود مصر خاصة على السواحل ، وفى الواحات التى جعلها حصونا وبنى فيها المعابد والقلاع ، لصد أى هجمات يقوم بها أغريق ليبيا ، وفى الشرق كان خطر الميديين يتصاعد بعد أن أسس قورش Cyrus لأول مرة مملكة للفرس وأجتاح آسيا الصغرى ، ودخل بابل نفسها عام ٥٣٩ ق. م وأخذت عيونه تتطلع لاحتلال مصر ، ولقد استعد أحمس لذلك باحتلال قبرص ، وتصالح مع الأغريق الليبيين فى مدينة قورينة Cyrene بل تزوج أميرة منها دعما للعلاقات . ورغم الازدهار الاقتصادى الذى ساد مصر فى عهده ، الا أن خطر الفرس كان يهدد استقلال مصر ، ولحسن حظ هذا الفرعون أنه مات قبل أن يشهد وصول هذا الخطر الى مصر .

الفتح الفارسى الأول لمصر ٥٢٥ ق . م :

وفى عام ٥٢٥ ق. م تولى عرش مصر بسماتيك الثالث ، الذى شهد حكمه اجتياح قمبيز — خليفة قورش وابنه — لباقى دويلات آسيا الصغرى وجـزر بحر إيجه ، وأخذ يستعد لاحتلال مصر ، خاصة أن أحد قادة المرتزقة الأغريق فى الجيش المصرى كان قد فر الى بلاد الفرس فى عهد أحمس الثانى ، وراح يغرى قمبيز بفتح مصر ، ويرشده على مواطن الضعف فى استحكامات الدفاع فى هذا البلد ، وعلى اثر موت أحمس الثانى وتولى بسماتيك الثالث عام ٥٢٥ ق. م سارت قوات الفرس تحت قيادة قمبيز نفسه ، وبمساعدة قائد المرتزقة الأغريق ، ولم يكن بسماتيك الثالث ندا لقمبيز وجيشه ، اذ سحق جيش قمبيز القوات المصرية عند بيلوزيوم (تل الفرما حوالى ٢٧ كيلو متر شمال شرق بور توفيق) ولقد زار هيرودوت فيما بعد المكان الذى دارت فيه المعركة ، وادعى أن قد تعرف على جماجم الجنود المصريين بأنها كانت صلبة لاتكسر بسهولة ، بينما كانت جماجم الفرس هشة سهلة الكسر(١) ، وعلى أثر الهزيمة فى سيناء تقهقر الجيش المصرى الى منف وتحصن بها ، غير أن جيوش الفرس تتبعتهم الى هناك وحاصرتهم حتى استسلموا .

بعد ذلك سار قمبيز وجيوشه إلى طيبة فاستولى عليها ، وبعد أن استتب

---

(1) Herodotus, Book III, 12.

له الأمر أرسل حملتين : واحدة للاستيلاء على بلاد كوش (النوبة) مصدر الخطر القومى الذى كان قد يهدد الوجود الفارسى فى مصر ، فأمنها ، أما الحملة الثانية فكانت لفتح الواحات وخاصة واحة سيوة ، حيث يوجد المعبد الشهير معبد آمون ، وذلك لكى يحظى باعتراف الكهنة به ملكاً ، ولتحصين الجبهة الغربية لمصر .

وهكذا انتهت الأسرة السادسة والعشرون ، وضاع آخر أمل لإحياء الإمبراطورية المصرية ، وعودة نفوذها فى الشرق الأدنى ، وفقدت مصر استقلالها بعد أن أصبحت مجرد ولاية فارسية مثلها مثل با قى ولايات الشرق الأدنى .

لقد كان فتح الفرس لمصر ضربة موجهة ضد مصالح الإغريق التجارية فى المقام الاول ، وحلقة من حلقات الصراع الأبدى للسيطرة على البحر المتوسط والبحر الأحمر . ولهذا كان هيرودوت متحيزاً فى كتاباته ضد الفرس ، فعزى إلى قمبيز الكثير من الأفعال الدنيئة ، وبالغ فى بشاعة الجرائم التى ارتكبها فى حق المصريين ، فكتابات هيرودوت دعاية وتهويل ضد الامبراطورية الفارسية ، والدليل على ذلك أن الأدلة الأثرية لا تؤيد ما قاله هيرودوت ، فقد كان ملوك الفرس عقلاء ، توددوا إلى المصريين لكى يكسبوهم إلى جانبهم فى صراعهم ضد الإغريق ، موضحين خطرهم على الشرق الأدنى بأكملة ، ويوجد نقش مكترب على تمثال أحد الشخصيات المصرية البارزة فى ذلك الوقت واسمه وجا — حررسنت محفوظ الآن فى الفاتيكان . ويقول فيه على لسان هذا الوجيه المصرى ، بأنه كان شخصية موقرة فى بلاط قمبيز ، وكان أميراً للأسطول المصرى ، ويقول أنه نجح فى جعل قمبيز يشعر بالاحترام نحو الآلهة المصرية ، ونحو المدن المصرية خاصة صالحجر Sais عاصمة الأسرة السادسة والعشرين ، ولم يذكر أبداً أن قمبيز أساء معاملة الكهنة المصريين ، أو ذبح عجل أبيس وأقام من لحمه وليمة فى منف ، إذ ثبت أن قمبيز قام بترميم المعابد المصرية التى دمرت خلال الغزو الأشورى ، وخلال المقاومة التى واجهها الفرس عند فتح مصر ، صحيح أن قمبيز قد يكون قد حمل معه بعض الآثار المقدسة لعرضها فى عاصمة الامبراطورية ، أو فى معبد جامع لكل آلهة شعوب الامبراطورية الفارسية ، رمزاً لوحدتها وتماسكها ، ولقد بقيت هذه الآثار المقدسة ،

حتى أعادها بطليموس الأول لمصر عند تأسيسه لحكم أسرته، كنوع من استغلال مشاعر المصريين وكسب رضاهم ، وكإشارة لرد الاعتبار لهم لكي يقبلوه فرعوناً عليهم .

واستمراراً لسياسة احترام مشاعر المصريين، جاء دارا ابن قمبيز بنفسه إلى مصر ، وأمر بالاستمرار فى تعمير وترميم وبناء المعابد المصرية ، ففى عهده تم بناء معبد واحة الخارجة الذى كان أحمس الثانى قد شرع فى بنائه ، كما أصدر أوامره المتشددة للوالى الفارسى بمراعاة مشاعر المصريين الدينية ، وتقديم الأضاحى فى معابدهم ، واحترام عجل أبيس ، والدليل على ذلك أن عالم الآثار الفرنسى « ماريت » عثر على تابوت ضخم فى سيرابيوم منف ، أعد لدفن عجل أبيس ، وكتب عليه أن العجل جهز جنائزياً فى عصر حكم هذا الملك الفارسى . ولقد أدت هذه السياسة إلى هجرة أعداد كثيرة من الفرس للعيش فى مصر ، وتمصروا واتخذوا أسماء مصرية ، ولقد بقيت سلالة هؤلاء المهاجرين الفرس مميزة حتى فى العصر الرومانى . كما أتم دارا حفر القناة بين فرع النيل الشرقى وخليج السويس ، والتى كان الفرعون نخاو قد توقف عن حفرها .

تتميز أحداث القرن الخامس والرابع ق . م بالعداء الشديد بين الفرس الذين يمثلون الشرق ، والإغريق الذين يمثلون الغرب الأوروبى ، وقادت مدينة أثينا حملة الكراهية وتأليب المدن الإغريقية الأيونية فى آسيا الصغرى والتى أخضعها الفرس لدولتهم ، وتحت تأثير هذا التحريض ثارت أيونيا فى عام ٤٩٩ ق . م ضد الفرس ، وبذل ملك الفرس دارا الأول مجهوداً كبيراً فى القضاء عليها .

ورداً على ذلك قام دارا الأول بحملته الشهيرة لغزو بلاد اليونان، وتحطيم أثينا مركز الكراهية والثورة ضد الفرس عام ٤٩٠ ق . م فيما يعرف « بالحروب الميدية » ، ولكن أثينا نسيت خلافاتها مع منافستها أسبرطة وقادتا معاً باقى المدن الأغريقية لطرد الغزاة الفرس ، حتى انتصروا عليهم فى معركة سهل

الماراثون عام ٤٩٠ ق . م ، وبعد موت دارا اصر خليفته خشار شاى على إكمال مشروعه لغزو بلاد اليونان وتأديبها ، فجهز حملة كبيرة عام ٤٨٠ ق . م وجمع جيشاً اشتركت فيه كافة شعوب الإمبراطورية الفارسية ، وكان من بين المشتركين المصريون والكوشيون والعرب(١)، ونجح خشار شاى فى الاستيلاء على شمال اليونان، ودخل أثينا ودمر معابدها فوق الأكروبول، لكن الأغريق قاوموا الغزو حتى هزموا الفرس فى معركة سلاميس عام ٤٨٠ ق.م، ثم هزموا أسطولهم فى بحر إيجة عام ٤٧٩ ق . م وانسحبت الجيوش الفارسية إلى بلادها واحتفل الأثينيون وحلفاؤهم بانتصار الأغريق على الشرق ، وبدأت أثينا تتحول إلى إمبراطورية بإخضاع سائر المدن والجزر الأغريقية لسيادتها تحت اسم محاربة الفرس ، والقضاء عليهم لأنهم أعداء الحضارة والأغريق .

ومنذ وقوع مصر فى حوزة الإمبراطورية الفارسية، لم يتوقف الأغريق عن تحريض المصريين على الثورة ضد الفرس ، لأن احتلال الفرس لمصر كان ضربة اقتصادية مدمرة للأغريق ، كما أن كان لهم مدينة خاصة بهم فى مصر هى نقراطيس . فبعد موت خشار شاى Xerxes تولى ابنه أرتاخشار شاى Artaxerxes عام ٤٦٤ ق . م، وبعد أربعة أعوام من حكمه، قامت فى مصر ثورة عام ٤٦٠ ق . م ضد الفرس تزعمها أميران مصريان، وقدمت أثينا المعونة لهذه الثورة وكان أحد هذين الثائرين يدعى «آمون حر» الذى عرف فى النصوص اليونانية باسم ايناروس Inaros ، ووصل حد التأييد أن أرسلت أثينا أسطولا كبيراً من السفن الحربية ذات الثلاثة طوابق ، وصلت من البحر المتوسط ، ثم سارت فى النيل حتى منف ، ونجحت الثورة، وهزم الجيش الذى أرسله أرتاخشارشاى ، وفرت فلوله إلى منف، وتحصنوا فى قلعتها البيضاء ، وظل الثوار المصريون يحاصرونهم على مدى ثمانية عشر عاماً حتى وصلت مساعدات أخرى من فارس ، ولم يتمكن الثوار المصريون من الصمود ، ودمر جزء كبير من الأسطول الأثينى عام ٤٥٤ ق . م ، وعاد إلى بلاده ، ولكن

(1) Herodotus, Book vll, 60-70.

الثورة ضد الفرس ظلت مستمرة فى شكل حرب عصابات ، وكانت أثينا زعيمة حلف ديلوس الأغريقى تدعم الثوار المصريين ، حيناً وحينا تتركهم دون مساعدة حسب درجة علاقاتها مع الفرس .

وأخيراً اضطر الطرفان الأغريقى والفارسى إلى عقد هدنة عام ٤٤٩-٤٤٨ق.م اعترف فيها كل طرف بمصالح الطرف الآخر ،ففى فارس كانت هناك قلاقل ومؤامرات على العرش ، وفى أثينا كان هناك الاستعداد للدخول فى حرب شاملة بين المعسكر الأثينى والمعسكر الأسبرطى ،ولهذا عقدت الهدنة . وخلال ذلك عمل الفرس على تحسين صورتهم لدى المصريين ، فبعد موت أرتا خشار شاى وتولى إبنه داريوش الثانى عام ٤٢٤ ق . م بذل هذا الأخير جهداً كبيراً فى تهدئة الأوضاع فى مصر غير أن تحرق المصريين للاستقلال لم يتوقف حتى أصبحت الثورة شاملة عام ٤١٠ ق . م .

استقلال مصر عن الامبراطورية الفارسية :

كان اليهود منذ هروبهم إلى مصر على أثر دخول الأشوريين أورشليم يعيشون فى تجمعات ، فقد أحسن الملك الصاوى ابريس استقبالهم،وكان لهم حامية عسكرية عند الفانتين ، وبالرغم من ذلك تعاونوا مع الفرس فى قمع الثورة الوطنية . وفى عام ٤١٠ ق . م وهو عام بدء الثورة ، ثار المصريون على اليهود عملاء الفرس ، خاصة على حامية الفانتين (قصر أنس الوجود) حيث ودمر الثوار المصريون معبداً لليهود هناك عام ٤١٠ ق . م ، وتشتت جالية اليهود فى الفانتين ، وامتدت الثورة إلى كل أنحاء مصر . وفى عام ٤٠٧ ق . م كان يهود الفانتين قد أخذوا يبذلون مساعيهم لإعادة بناء معبدهم الذى حرق ونهبت محتوياته ، وأخذوا يبعثون الرسائل إلى جميع زعماء اليهود فى الشرق يطالبون بمساعدتهم للتوسط لدى ملوك الفرس ليسمحوا لهم بإعادة بناء المعبد ، متعهدين ألا يحرقوا فيه أى حيوانات أو مأكولات احتراماً لديانة الفرس الزرادشتية التى كانت تحظر تنجيس النار بحرق أشياء فيها . وقد عثر فى خرائب الفانتين (قصر أنس الوجود) حيث كانت تقيم الجالية اليهودية على رسائل مكتوبة بالآرامية لغة اليهود فى ذلك الوقت،تتحدث هذه

الرسائل عن الثورة ، وتذكر أن حرق المعبد كان فى العام الرابع عشر من حكم داريوش الثانى وأن الشخص الذى أصدر الأمر بحرقه كان يدعى فيدارانج » وهو اسم على ما يبدو كوشى ، أما زعيم الجالية اليهودية فكان يدعى « يدوينياه بن جمارياه » ومن بين هذه الرسائل واحدة كانت موجهة إلى الوالى الفارسى يعرض فيها بالأصالة عن نفسه ، وبالنيابة عن جميع زعماء اليهود فى مصر استعداده لتقديم كمية من المال (فقد الرقم لسوء الحظ) بالإضافة إلى ألف أردب من الشعير كرشوة للوالى الفارسى ، مقابل أن يسمح لهم باعادة بناء المعبد فى مكانه.

الأسرة الثامنة والعشرون ٤٠٤–٣٩٨ ق . م :

كان قائد الثورة هو « آمون – حر » الذى أصبح ملكاً على البلاد بعد طرد الفرس ، وأسس الأسرة الثامنة والعشرين ، وبايعه جميع حكام الأقاليم ، كما أعلنت الجالية اليهودية مبايعتها له ، فتركها تعيش دون انتقام ، والأثر الوحيد الذى وصلنا من عهده إحدى البرديات الآرامية من الفانتين ، وهى مؤرخة فى السنة الخامسة من حكمه . ولكن لم يكن للملك آمون حر أى وريث ، فبعد موته انتقل العرش إلى أسرة أخرى ، وهم الذين سماهم المؤرخ المصرى مانيتون بملوك الأسرة التاسعة والعشرين .

الأسرة التاسعة والعشرون : (٣٩٨–٣٧٨ ق . م) :

كانت الأسرة الجديدة تحكم من منديس Mendes (ددت) ، والتى كانت تعرف بالمصرية القديمة باسم Pi-binib-didi (ومكانها الآن تل الرابعة بالقرب من تمى الأمديد محافظة الدقهلية) وكانت عاصمة الأقليم السادس عشر من أقاليم مصر ، وقد انتقل الحكم سلمياً إلى هذه الأسرة ، وكان مؤسسها هو نايف–عاو–رود الذى سماه اليونانيون باسم نفريتيس Nepherites وربما كان زميلا للملك السابق آمون حر فى حربه ضد الفرس . وقد حكم نفريتس ست سنوات (من ٣٩٨–٣٩٢ ق . م) .

ومن أهم أعماله تحالفه مع الأسبرطيين ضد الفرس ، فقد أمد اسبرطة بالقمح ، وبالأموال لكى تبنى أسطولا لها قوامة مائة سفينة ذات ثلاث طوابق ،

غير أن هذا الأسطول دمره الأثينيون ، فانعزل وعكف على الإصلاحات الداخلية وانسحب من ساحة الصراع بين الفرس والأثينيين والاسبرطيين .

وبعد موته تولى خليفته « هكر » والذى عرفه الأغريق باسم اكوريس (٣٩٢–٣٨٠) وكان حليفاً لأثينا فى صراعاتها مع الفرس ، لكنه لم يهمل الإصلاحات الداخلية ، ولا يزال إسمه موجوداً على محاجر طره والمعصرة كما عثر على هياكل له فى الكرنك وفى مدينة هابو وفى الكاب ، وفى غيرها من مدن الصعيد ، وبعد موته تولى بى — سا — مرت المعروف عند اليونان باسم باساموثيس Pasamouthis وحكم لمدة عام واحد ، ثم خلفه ملك يدعى نفريتس الثانى لمدة أربعة شهور فقط ، وأخيراً استولى أمير قوى على الحكم وأسس الأسرة الثلاثين وهو نخت — نيف المعروف عند الأغريق باسم نختنب أو نختنبو Necktanebo .

الأسرة الثلاثون (٣٧٨–٣٤١ ق . م) وفكرة تيسير حملة لفتح فارس :

من المحتمل جداً أن يكون نختنبو قد وصل إلى العرش بمساعدة كهنة سايس Sais (صاالحجر) أغنى كهنة مصر فى ذلك الوقت ، لأنه خصص لهم عشور الضرائب المحصلة على تجارة نقراطيس المدينة الأغريقية ، وكانت علاقة المصريين بالأغريق متأزمة فى ذلك الوقت بسبب موقف الأغريق المتأرجح من ثورة المصريين الوطنية ضد الفرس ، فقد كان هناك مرتزقة إغريق يحاربون مع جيوش الفرس . وعندما حاول والى مصر الفارسى استعادة السيطرة على جميع أجزاء مصر ، اشترك المرتزقة الإغريق فى هذا الجيش الذى توغل فى الدلتا ، ولم ينقذ مصر من هذا الغزو سوى فيضان النيل العالى فى ذلك الوقت الذى أحبط الغزو ، فعادت قوات الفرس أدراجها إلى سوريا .

ولقد ترك نختنبو آثاراً كثيرة فى الدلتا والصعيد ، وفى أواخر حكمه أشرك معه إبنه فى الحكم واسمه « جدحر » والذى عرف عند الإغريق باسم تيوس Teos ، وكان ميالا للصداقة مع الإغريق ، ومعجباً باسبرطة الأسطورة

العسكرية ، ولهذا تحالف معها ، وكانت أحلام جدحر (تيوس) بناء جيش وأسطول كبيرين من المصريين والمرتزقة الإغريق ، بالاضافة إلى متطوعين من اسبرطة ، ليعيد فتح الشرق القديم ، وربما لسحق الدولة الفارسية فى عقر دارها ، ولقد استعد تيوس لذلك المشروع المصرى – الإغريقى ، وجمع جيشاً يتكون من ثمانين ألف مصرى وعشرة آلاف من المرتزقة الإغريق ، وألفا من مشاة اسبرطة الفولاذيين ، وجهز أسطولا تزيد سفنه على مائتى سفينة حربية من السفن ذات الطوابق الثلاث Triremes ، وقد كلفه ذلك أموالا كثيرة ، مما اضطره إلى فرض ضرائب باهظة على الناس ، وإلغاء الامتيازات التى كان أبوه قد منحها لكهنة سايس صالحجر ، بل إنه استولى على ثروات المعابد ونذورها الثمينة ليسك منها نقوداً يدفعها أجوراً للمرتزقة الأجانب ، وبعد أن أعد هذا الجيش ، سار به إلى الشام . وكادت مصر تستعيد ممتلكاتها فى الشام وفلسطين لولا حدوث خيانة من أخيه الذى كان قد تركه ليحكم نيابة عنه ، فقد كان تيوس قد اصطحب معه ابنه نختنبو الثانى ، فقام شقيق الملك بالاتصال سراً بهذا الإبن فى الشام ، وعرض عليه مبايعته بالحكم فى مصر بشرط أن يعود فى الحال ، فعاد نختنبو الثانى وعاد معه الفيلق الإسبرطى ، وكذلك وشطر من القوات المصرية ، مما شجع قوات المرتزقة من الأثينيين على العودة أيضا ، عندئذ فشل المشروع العسكرى الكبير ، هرب تيوس لاجئاً إلى بلاط الفرس ليعلن توبته ، وربما كان هذا الانقلاب من تدبير الفرس لتعطيل الحملة المصرية . وهكذا سبقت مصر مقدونيا فى مشروع غزو بلاد الفرس ، وفتح الشرق ولو نجحت مصر فى ذلك المشروع لتغير وجه التاريخ .

عاد نختنبو الثانى إلى مصر ليجد فتنة كبرى ، إذ حاول أحد المطالبين بعرش الأسرة التاسعة والعشرين إعادة العرش إلى منديس Mendes ، وكاد أن ينجح لولا تمكن نختنبو الثانى من استخدام المرتزقة والفيلق الإسبرطى فى قمع هذه الفتنة ، وبعد أن استتب له الأمر ، قام بإصلاحات كبيرة عادت بالثروة على البلاد ، مما ساعده على بناء الكثير من المعابد فى جميع أرجاء مصر ، وظهرت عبقرية الفنان والمهندس المصرى فى أروع صورها ، وذلك من خلال بعض

قطع النحت التى تثير الإعجاب . هكذا نعمت مصر بالهدوء والطمأنينة ، قبل أن تتجمع السحب منذرة بعودة الفرس للاستيلاء على مصر والقضاء على الأسرة الثلاثين آخر الأسر الوطنية المصرية .

الفتح الفارسى الثانى لمصر (٣٤٣–٣٣٣ ق . م) :

فى عام ٣٥٨ ق . م تولى عرش الامبراطورية الفارسية الملك الفارسى ارتاخشار شاى الثالث Artaxerxes والذى لقبه الإغريق باسم أوخوس Ochos ، وكان مصراً على استرجاع مصر لحوزة الامبراطورية الفارسية بأى ثمن ، فهاجم الدلتا عام ٣٥١ ق . م ولكنه رد على أعقابه ، ثم عاد فى عام٣٤٣ ق.م على رأس قوات كبيرة ، وبصحبة أسطول كبير ، وهاجم مصر براً وبحراً ، ولم يكن جيش نختنبو نداً لجيش أوخوس ، فانسحرت القوات المصرية المكونة من المصريين والمرتزقة الإغريق والبدو الليبيين ، ودخل الفرس منف ، وهرب نختنبو الثانى إلى الصعيد ، وفى عام ٣٤١ سير خشار شاى الثالث حملة ثانية أكملت فتح مصر . واعيدت البلاد مرة أخرى إلى حوزة الامبراطورية الفارسية ، غير أن المقاومة المصرية للاحتلال الفارسى لم تتوقف . إذ نجح أحد أمراء الدلتا واسمه خباشا فى الاستقلال بالبلاد لبعض الوقت ، واعترف به الكهنة فى منف ، كما عثر فى السيرابيوم فى سقارة على تابوت مؤرخ فى العام الثانى من حكم خباشا ، وهناك أيضا تمثال يرجع إلى بداية عصر البطالمة يسمى تمثال الستراب ، ذكر نقش عليه أن المصريين كانوا دائمى الثورة طيلة الأعوام الثمانية التى قضاها الفرس خلال فتحهم الثانى لمصر .

كما أنه من الثابت لنا أن أميراً مصرياً من مدينة أهناسيا اسمه تاف ـ نخت اشترك مع الاسكندر الأكبر فى حربه ضد الفرس ، وقاتل معه فى معركة أسوس الشهيرة التى هزم فيها دارا الثالث ملك الفرس ، وأن تاف ـ نخت هو الذى حرض الإسكندر على غزو مصر ، وقد استجاب الإسكندر لرأى صديقه المصرى .

ثانياً : الأوضاع فى بلاد الشام قبل الفتح المقدونى :

الشام هو الاسم الذى أطلقه العرب على تلك المنطقة الهامة من الشرق الأدنى ، التى تمتد جغرافيا من جبال طوررس شمالا حتى شبه جزيرة سيناء جنوبا ، ومن الفرات شرقا حتى سواحل البحر المتوسط غربا ، وهى تشمل الآن ثلاث وحدات سياسية وهى سوريا(١) ولبنان(٢) وفلسطين(٣).

ويعتقد المؤرخون أن كلمة « شام » العربية كلمة آرامية الأصل هى « سامال » أو « شمال » وذلك بالنسبة إلى باقى أجزاء الجزيرة العربية الذى يعتبر « جنوبا » . أو ربما نسبة إلى شام بن نوح .

وعلى العكس من مصر ، لم تعرف الشام الاستقرار السياسى ولا السلام فى أغلب تاريخها ، لأن انفتاح حدودها الجغرافية جعلها هدفا للغزاة من القوميات المختلفة ، جاءت إليها من الشرق والشمال ، وساعدها على ذلك طبيعتها الجغرافية المتنوعة ، الذى شجع على قيام ممالك عرقية متصارعة ، فهى عموما لم تعرف الانسجام السكانى بين شعوبها بعكس الحال فى مصر .

ومنذ عصور ضاربة القدم ، كان الساميون هم العنصر السائد فى الشرق الأدنى عموماً ، وفى الشام على وجه الخصوص . غير أن وجودهم لم يتحقق تاريخياً إلا فى العصور التاريخية ، بعد أن اخترعوا الكتابة وأخذوا يدونون أخبارهم عن طريق النقوش . ويؤكد المؤرخون أن الساميين كانوا يعيشون

---

(١) إسم سوريا الحالى Syria هو التحريف اليونانى لإسم « سورين » الآرامى وكان هيرودوت أول من ذكر الصيغة اليونانية (سوريا) .

(٢) يرجع الأصل لإسم لبنان إلى كلمة « لابن » بمعنى البياض ، وقد سميت بهذا الإسم بسبب الثلوج التى تغطى قمم جبالها نحو ستة شهور فى السنة .

(٣) أما إسم فلسطين ، فهو مشتق من إسم قبائل « الفلسط » وهى قبائل ترجع إلى العنصر الهندو أوروبى غزت الشرق الأدنى القديم مع شعوب البحر ، واستقرت بالمنطقة بعد هزيمتها على يد رمسيس الثالث وأعطتها إسمها .

فى هذه المنطقة منذ القرن الثلاثين ق. م وأن هؤلاء الساميين دخلوا الشام والرافدين من شبه الجزيرة العربية ، الخزان الأكبر للشعوب السامية ، وأن هذه القبائل السامية كانت قبائل بادوية مرتحلة ، ولذلك كانت تندفع فى هجرات نحو الشمال أى نحو الشام والعراق بحثاً عن الأنهار ومصادر المياه . وقد كان تحرك تلك القبائل السامية من البادية إلى أودية الأنهار الخصبة ظاهرة متكررة منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الفتح الإسلامى .

إن التاريخ السياسى للشرق الأدنى القديم فى مجمله ما هو إلا صراع دائم بين الساميين الأقوياء الذين نجحوا فى الاستيلاء على أودية الأنهار الخصبة ، وبين شعوب أخرى حاولت الاستقرار فى هذه المناطق ، مثل العيلاميين والفرس الذين جاءوا من هضبة إيران فى الشرق ، ومثل الحيثيين والفريجيين ، وغيرهم من الشعوب الأسيوية التى جاءت من شبه جزيرة الأناضول ، ومثل شعوب البحر والأيونيين وهم الإغريق الذين استقروا على سواحل الأناضول وجزر بحر إيجة . كما شهد تاريخ الشام حروباً طويلة بين الشعوب السامية المستقرة وقبائل العبرانيين المهاجرة إلى فلسطين والطامعة فى إخضاع الشام . ولقد صمد سكانها فى مواجهة هذا الغزو وصمدوا صموداً شديداً ، وتمسكوا بأرضهم ، وطوروا الحضارة فيها . فلم يعد أحد ينكر أن الساميين قد ساهموا فى وضع أساس الحضارة والثقافة العالمية ، فهم أول من عرفوا الزراعة واستأنسوا الحيوان واخترعوا الأبجدية الكتابية لتدوين اللغة المنطوقة ، وهم الذين وضعوا أصول علوم الفلك والرياضيات والطب والكيمياء ، وهم الذين صنعوا الفخار من الطين وحرقوه ، وصنعوا الآجر (طوب البناء) والأوانى الحجرية ، وعرفوا التعدين وصنعوا « العجلة » واستخدموها فى الحياة العملية ، واستأنسوا الجمال والخيول والحمير . وتفتخر الشعوب السامية دائماً بأنها أول من عرف الدين ، وأنهم لقبوا بالساميين نسبة إلى أحد أبناء نوح وهو سام (١) ، ولا غرو فإن الأديان السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام كان مهبطها الشرق الأدنى .

(١) طبقا للتوراة كان لنوح ثلاث أبناء « سام » الذى سكن الشرق الأدنى و « حام » الذى سكن أفريقيا السوداء و « يافث » الذى اتجه إلى أوروبا .

وعلى العموم لكى تفهم تاريخ الشام ومشاكله فى العصور السابقة على الفتح المقدونى ، لا بد من التعرض لظروفه الجغرافية وأهميتها الاستراتيجية .

الظروف الجغرافية للشام :

كما سبق وأن ذكرنا تبدأ الحدود الجغرافية للشام من جبال طوروس شمالا وحتى شبه جزيرة سيناء جنوبا ، ومن شواطىء الفرات شرقا إلى سواحل البحر المتوسط غرباً ، ومن ناحية التنوع البيئى تجد أنها تضم خمسة مناطق جغرافية وبيئية مختلفة :

١ — **منطقة السهل الساحلى :** الممتد من خليج الاسكندرونة شمالا حتى مدينة غزة على الحدود المصرية جنوباً .

٢ — **منطقة المرتفعات الجبلية :** وهى التى تشرف على هذا الساحل وتمتد من مرتفعات الأمانوس التى تحيط بخليج الاسكندرونة فى الشمال حتى سلسلة جبال سيناء فى الجنوب وهذه المرتفعات تمثل حاجزاً بين منطقة السهل الساحلى ، وباقى أجزاء الشام .

٣ — **منطقة الحوض الأوسط :** وهو عبارة عن حوض ضيق يبدأ عند المنحنى الغربى لنهر العاصى ويستمر نحو لبنان ، حيث يعرف بسهل البقاع ، ويستمر جنوباً ليصل إلى نهر الأردن ، ومنه إلى البحر الميت ، ثم ينحدر نحو خليج العقبة ، وقد عرف سهل البقاع لدى الجغرافيين والمؤرخين الإغريق باسم جوف سوريا . (Koile Syria)

ولما كان سهل البقاع شبيهاً بوادى النيل من حيث التربة الغنية والأنهار (إذ يجرى فيه نهرا الليطانى والعاصى) ، فقد كان موضع اهتمام مصر دائماً منذ العصور الفرعونية ، خاصة أن سهل البقاع تنمو فيه أشجار الأرز الصالحة لبناء السفن فضلا عن أهميته الاقتصادية والاستراتيجية لمصر ، واستمر اهتمام مصر بجوف سوريا طوال عصور البطالمة ، وخاضت مصر من أجل ذلك حروباً مريرة عرفت باسم الحروب السورية ، حتى وضع الرومان لذلك

الصراع حداً بعد احتلالهم للشام ، ثم احتلالهم لمصر نفسها ، وضم للشرق الادنى كله إلى حوزة الامبراطورية الرومانية .

٤ — منطقة المرتفعات الشرقية :

وهى التى تبدأ من جنوبى حمص Emesa حتى هضبة حوران وجبال الصفا ، ثم تتجه هذه المرتفعات إلى شرق الأردن ، فيما يعرف بهضبة مؤاب Moab ومرتفعات السلسلة الشرقية التى تنتهى عند جنوب البحر الميت ، مارة بسلسلة جبال لبنان الشرقية التى ينبع منها نهر بردى (إبانا فى التوراة) ثم تتجه نحو الأراضى السورية ، وهو السبب فى قيام أهم مدن الشام وأقدمها وهى دمشق ، ومن جنوب شرق دمشق تبدأ هضبة حوران ، وهى هضبة بركانية ، تتمثل قمتها فى صخور البتراء الرملية الشاهقة .

٥ — البادية الكبرى :

وهى المنطقة الصحراوية الشاسعة التى تمتد من شرق هضاب حوران وجلعاد فى شرق الأردن وتتجه نحو منطقة السهوب ، وهى جغرافيا مكملة لمنطقة الصحراء الكبرى التى تتوسط الجزيرة العربية فى الجنوب وبلاد الرافدين فى الشرق ، ومرتفعات الشام الشرقية من الغرب ، فى شكل مثلث قاعدته ترتكز عند الخليج العربى شرقاً ، وخليج السويس غرباً وقمته عند منطقة حلب . ويعرف الجزء الشرقى منها باسم بادية الجزيرة ، والقسم الشمالى منها باسم بادية ما بين النهرين ، أما القسم الجنوبى منها فيعرف باسم بادية العراق أو بادية السماوة . ومن هذه الصحراء الشاسعة التى يحيطها الغموض ، خرجت أغلب الهجرات السامية متجهة نحو مصادر المياه والأنهار سواء فى الرافدين أوالشام أومصر .

هكذا يتضح أن إقليم الشام ، يتصف بالتنوع الذى يتمثل فى وجود خمس بيئات جغرافية مختلفة ، كان لها أكبر الأثر فى اختلاف السكان وأتجاهاتهم الحضارية والعرقية واللغوية وأختلاف دياناتهم ومعتقداتهم .

أهمية الموقع الاستراتيجى للشام :

تأثرت الشام فى تاريخها بعدة عوامل أهمها :

١ — عامل التضاريس :

وهى التى جعلته ينقسم إلى وحدات منفصلة، لم تبلغ أى منها درجة من الإتساع والقوة بحيث تسمح بتكوين دولة قوية يمكنها أن توحد الأقاليم الأخرى تحت سيطرتها مما جعل الصراع مستمراً وغير محسوم لصالح قوة محلية معينة .

٢ — عامل الموقع الجغرافى :

تمتد الشام من أطراف الخليج العربى ونهر الفرات شرقا حتى ساحل البحر المتوسط غربا ، فهى حلقة اتصال بين قارات العالم القديم الثلاث مما هيأ لها دوراً تجارياً هاماً ، جعلها مطمعاً للغزوات المختلفة والهجرات التى لم تتوقف ، خاصة سكان المناطق الجبلية الشمالية وبدو الصحراء من الجنوب ، كما كانت مطمعاً لشعوب عديدة بدءاً بالمصريين فالبابليين ، والأشوريين ، والحيثيين والفرس ، والإغريق ، والرومان والروم الشرقيين . وبعد الفتح الإسلامى تعرضت بلاد الشام لغزوات المغول والتتار ، والعثمانيين والصليبيين ، وهى تشهد اليوم غزواً صهيونياً عالمياً .

ومن ناحية أخرى فإن وقوع الشام بين أقدم مركزين للقوة السياسية والحضارية فى العالم القديم وهما مصر فى الغرب، والعراق فى الشرق لعبا دوراً هاماً فى تحديد قدرها التاريخى ، وكان الصراع بين هاتين القوتين ينعكس آثاره على تلك المنطقة بوضوح ، بل على الجزيرة العربية بأكملها . كما كان لمجاورة الشام لأقدم المراكز الحضارية فى مصر وبلاد النهرين وآسيا الصغرى سبباً فى تأثرها بتلك الحضارات التى نشأت فيها ، كما كانت الشام وسيطاً للتبادل التجارى والثقافى والفنى بين هذه الحضارات المختلفة ، غير أن نسبة التأثر بهذه الحضارات كانت تختلف وتتنوع حسب قرب موقعها من مناطق هذه الحضارات ، ففى المناطق الشرقية الشام نرى تأثير حضارة الرافدين

الحيثية واضحاً ، وفى شمال الشام يظهر تأثير الحضارة فى الأناضول مؤثراً بينما فى جنوب الشام نجد تاثير الحضارة المصرية قوياً . ولكن على العموم نجد أن حضارة الشام القديم مزيجاً من هذه الحضارات الثلاث .

ولقد تعرضت أطراف الشام الجنوبية لصراع متواصل بين قبائل البادية الرحل ، وسكان السهول الحضر ، ومن أبرز هذه القبائل البدوية التى أحالت المنطقة إلى بؤرة من الحروب فى العصور القديمة القبائل العبرانية أو قبائل بنى إسرائيل ، التى هاجمت فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد السكان الكنعانيين المستقرين فى سهول فلسطين ، وما يورده العهد القديم عن ذلك هو خير دليل ، وحتى قبل مجىء قبائل العبرانيين تعرض سكان سهول الشام لهجمات كثيرة من قبل الهجرات السامية القادمة من قلب بادية الشام الكبرى .

سكان الشام القدماء :

يجمع العلماء على أن الإنسان الأول قد ظهر فى منطقة الشرق الأدنى فى الدهر الجيولوجى الرابع فى إحدى الفترات الدفيئة التى تخللت العصر الجليدى ، وبدأ يصنع أدواته من الظران ومر بمرحلة طويلة وسحيقة حقق فيها الإنسان تقدماً ملموساً فى حياته الاجتماعية والفكرية خلال العصور الحجرية

ففى نهاية العصر الحجرى القديم ، كان يسكن الشرق الأدنى إنسان استأنس الحيوان وعرف الزراعة ، ومن ثم انقسم سكان الشرق الأدنى إلى شعوب رحل مارست الرعى ، وشعوب زراعية استقرت فى المناطق القريبة من مصادر الأنهار ومارست الزراعة ، واقامت القرى ذات الأسوار لحمايتها من البدو الذين كانوا يغيرون عليها من آن لآخر ، واختارت لها زعيما أو قائداً لتصريف شئونها ، بل واتجهت إلى عبادة قوى الخصب والنماء لكى تمدهم بمحاصيل وفيرة ، وعلى رأس هذه القوى الربة الأم Magna Mater أو الأرض الأم .

وكان من أول الأجناس التى سكنت الشرق الأدنى جنس البحر المتوسط ، الذى يتميز بالرأس الطويلة ، والقامة المتوسطة واللون الداكن . وقد دخل إليها هذا العنصرمن بحر إيجة ومن قبرص، واحتل السواحل والسهول . وقد حدث ذلك فى أزمان سحيقة قبل وصول الهجرات السامية إلى الجزيرة العربية .

كان الأموريون (Amorites) أو العموريون هم أول الشعوب السامية التى دخلت الشام ، وانتشرت فى المنطقة الممتدة من جبال طوروس شمالا حتى بادية الشام جنوباً ، ومن وادى الفرات شرقاً إلى سواحل البحر المتوسط غرباً ، كما اجتاحوا بلاد الرافدين ذاتها وأسسوا فيها أسرات حاكمة ، وذلك ما بين القرن الواحد والعشرين والقرن الثامن عشر ق . م . وأقدم هذه الأسرات أسرة حمورابى الذى قام بفتح الشام كلها ، والتى كانت تسمى بأرض « أمورو » أى أرض الأموريين .

وعندما اجتاح الحيثيون شمال الشام واحتلوه ، دفعوا أمامهم الأموريين إلى الجنوب ، وعندما غزت قبائل العبرانيين فلسطين فى أواخر القرن الرابع عشر ق . م ، وجدوا فيها جماعات من الأموريين قد سبقتهم إليها حسبما تذكر التوراة ، وعموما سيطر الأموريون فى القرن الثالث عشر ق . م على مناطق السهول ، بينما سكن الآراميون البادية .

كان الكنعانيون أيضاً إحدى فروع القبائل السامية التى خرجت من الجزيرة العربية واحتلت السهل الساحلى للشام ، وهم الذين أطلق الإغريق عليهم اسم « الفينيقيون » ويرى البعض أن اسم « كنعان » اسم سامى مشتق من كلمة Knaggi بمعنى الصبغة القرمزية(١) ، إذ كانت هذه المنطقة الساحلية من الشام تشتهر بهذه الصبغة، وهى التى ترجمها الإغريق إلى لغتهم إلى لفظ فينيقى،

(١) يقال أن الحوريين هم الذين أطلقوا هذا الاسم على تلك البلاد فى القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م ، وقد انتقلت الكلمة الحورية إلى اللغة الأكادية فأصبحت « نوى كناخى » ، وفى رسائل تل العمارنة نجدها كناحى ، وبالفينيقية «كنع» ، وفى العبرية كنعنان» أى بلاد الأرجوان : أنظر د. محمد عبد القادر ، الساميون فى العصور القديمة ، ص ١٩١ .

أى أحمر أرجوانى . وقد عرف الساحل الفينيقى فى الوثائق الأكادية باسم كنعان ، ويعتقد المؤرخون أن الكنعانيين دخلوا ساحل الشام فى القرن الرابع والعشرين ق . م ، فى نفس الوقت الذى دخل فيه الأموريون تقريباً . ويعتقد البعض أن الكنعانيين جاءوا أصلا من جزيرة البحرين (دلمون) ، وهاجروا إليها غرباً متجهين نحو سواحل البحر المتوسط .

ولقد أقام الكنعانيون مدناً وموانئ هامة مثل أرواد وصور وصيدا ، كما أن وفرة الأخشاب جعلتهم يتفوقون فى صناعة السفن وركوب البحار ويبدعون فى أسس التعامل التجارى . كما قامت فى الشام دويلات مدن كثيرة ، وكانت هذه المدن فى الأصل قلاعاً وحصوناً بنيت لتحمى الحضر من غارات البدو ، ولكى تكون سوقاً فى وقت السلم . ولقد وصل الكنعانيون إلى قمة مجدهم فى الألف الأول ق . م عندما نشطت دويلات مدنهم فى التجارة ، وبدأوا ينتشرون وينشرون نفوذهم فى غرب البحر المتوسط وساحل أفريقيا الشمالى .

مراحل تاريخ الشام :

وينقسم تاريخ الشام قبل الفتح المقدونى إلى مراحل أربعة هى :

١ — المرحلة الأولى : وهى تبدأ منذ استقرار الهجرات السامية وحتى أواخر القرن الثانى عشر ق . م وكان الشام خلال تلك الفترة متأثراً بالنفوذ المصرى ، بل واتحد مع مصر معظم الوقت .

٢ — المرحلة الثانية : وهى تمتد منذ نهاية القرن الثانى عشر وحتى نهاية القرن العاشر قبل الميلاد (من ١٢٠٠—٩٠٠ ق . م) وفى هذه المرحلة كانت الإمبراطوريات الكبرى فى الرافدين ومصر قد ضعفت ، وبالتالى بدأت الشام تستقل عن التبعية لتلك القوتين ، ونشأت فى الشام دويلات مستقلة ، لم تتحد فى وحدة سياسية كبيرة إلا لفترة قصيرة .

٣ — المرحلة الثالثة : وهى تبدأ من القرن التاسع وحتى القرن السادس

قبل الميلاد . وذلك عندما اجتاحت الدولة الأشورية الشام واستولت عليه بأكمله فى القرن التاسع ، وفى القرن السادس حل البابليون محل الأشوريين .

٤ — المرحلة الرابعة : وتبدأ من أواخر القرن السادس ق . م حتى الفتح المقدونى فى أواخر القرن الرابع ق . م وفى هذه المرحلة حل الفرس محل البابليين ، وأصبحت الشام — كما أصبحت مصر — ولاية من ولايات الإمبراطورية الفارسية .

بداية الاهتمام المصرى بالشام :

بدأ أول اهتمام لمصر بالشام فى عصر الدولة القديمة وبالتحديد منذ الأسرة الرابعة ، فقد كان المصريون فى حاجة ماسة إلى أخشاب الأرز اللازمة لصناعة السفن ولبناء المنشآت العمرانية والحضارية ، ولحماية حدود مصر الشرقية من تسلل قبائل البدو المتجولة فى الصحراء ؛ وفى عصر الأسرة الثانية عشر — كما نفهم من قصة سنوهى البحار ، واتصاله بأهل ببلوس (بيت جبيل) — زاد اتصال مصر بالشام . ويلحظ الأثريون أن هذه العلاقات تركت بصماتها على الحياة والثقافة فى الشام . وفى عام ١٧٣٠ ق . م عندما هاجمت قبائل الهكسوس الشام ومصر ، دفعوا أمامهم قبائل الأموريين الذين كانوا يسكنون سوريا العليا والذين كانوا متأثرين بثقافة بلاد الرافدين والأناضول . كما دفع الهكسوس أمامهم أيضا الكنعانيين الذين كانوا يقطنون ساحل الشام . وفى ذلك الوقت يظهر الأراميون الذين جاء تاريخهم فى قصة ابراهيم عليه السلام . الذى خرج من أور الواقعة جنوب بابل ثم اتجه إلى حران الواقعة على أحد روافد الفرات ثم وجد طريقه إلى كنعان فى فلسطين . . .

وبعد انتهاء موجة غزوات الهكسوس وما أحدثوه من فوضى وهرج ، ونجاح المصريين فى طرد هؤلاء الرعاة ، بدأت مصر تفكر جديا فى فرض نفوذها المباشر على الشام بقوة السلاح ، وذلك لأن غزو الهكسوس لقنهم درسا ، وهو أهمية الشام الاستراتيجية لتأمين وادى النيل ومن أجل ذلك تكررت غزوات مصر للشام خلال الأسرة الثامنة عشرة فى عصر تحتمس

الأول وتحتمس الثالث ، وكانت ببلوس بالذات هى بؤرة اهتمام المصريين كما يتضح من رسائل تل العمارنة ، بينما كانت أوغاريت تؤثر التحالف مع الحيثيين ، ولم يكن غرض المصريين هو الاستيلاء على الشام واحتلاله ، بل إدارته كجزء من مصر كأى مديرية أو إقليم من أقاليم مصر ، وكانوا يكتفون بجمع الضرائب من الأمراء والحكام المحليين واستيراد ما يحتاجون إليه من المواد الطبيعية ، وتصدير الفائض من منتجات وادى النيل إليها ، ولم يؤثر المصريون كثيراً فى التكوين العرقى والبشرى لشعوب الشام ، بينما نجد أن كثيراً من أهل الشام جاءوا إلى مصر للعمل بالتجارة ، وبعضهم تولى وظائف هامة ، بل وصل بعضهم إلى منصب الوزارة ومستشارى الملك ، كما تزوج المصريون والأمراء والملوك أحيانا من نساء الشام .

كانت ثورة إخناتون الدينية فى مصر وما أعقبها من قلاقل بداية لضعف النفوذ المصرى فى الشام . وبدأت مصر تفقد ممتلكاتها واحدة تلو الأخرى فى سوريا ، فقد عكف الملك على عقيدته الجديدة ، ولم يكلف نفسه حتى عناء الرد على رسائل الأمراء الذين استغاثوا به طالبين العون والنجدة ، كما رفض هذا الفرعون مقابلة الوفود والرسل الذين جاءوا لمقابلته ، فاستغل ملك الحيثيين هذا الموقف واحتل الشام كلها ، وتوالى سقوط المدن الفينيقية واحدة تلو الأخرى . وكان من بين الرسائل التى أرسلتها المدن رسالة أهل تونيب وفيها يقولون للفرعون : « والآن فإن مدينتك (تونيب) تبكى ودموعها تسيل ، ولا ناصر لها ، لقد أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا فرعون مصر ولا من مجيب » .

ولقد عثر فى عام ١٨٨٧ فى خرائب تل العمارنة بمصر الوسطى على ألواح طينية ، وهى عبارة عن مجموعة من رسائل ديوان الفرعون أمنوحتب الثالث (١٤١٧–١٣٧٩ ق . م) وابنه الفرعون أمنوحتب الرابع (إخناتون) ١٣٧٩–١٣٦١ ق . م وهى صور لرسائل دبلوماسية متبادلة بين ديوان الفرعون وبين حلفائه فى الشام ، ومكتوبة باللغة البابلية ، المدونة بالخط المسمارى ، على ألواح من الطمى غير المحروق وهذه الرسائل تؤكد مكانة

الشام لدى الفراعنة ، ومكانة الفراعنة لدى امراء الشام ، كما تدل على وجود مترجمين للغة البابلية فى الديوان الفرعونى . ويبدو أن اللغة البابلية المكتوبة بالخط المسمارى كانت هى اللغة السائدة فى الشرق الأدنى ، فى ذلك الوقت . وفى نفس الوقت كانت لغة الدبلوماسية المصرية .

عادت السيادة المصرية للشام مرة أخرى فى عصر الأسرة التاسعة عشرة ، فقد نقل رمسيس الثانى (١٣٠٤–١٢٣٧ ق . م) عاصمته من جنوب مصر إلى بر رعمسيس (الذى ورد ذكرها فى التوراة وهى بالقرب من مركز فاقوس بالشرقية * فى شرق الدلتا) ، ليراقب منها الشام عن كثب . فقد قام فى العام الثانى من حكمه بحملة على الشام ، حيث أقام نصباً تذكارياً تخليداً لانتصاراته بالقرب من بيروت الحالية ، وإلى الشمال من قادش تقابلت جيوشه مع جيوش الحيثيين ، وانتهت المعركة بعقد معاهدة سلام مع الحيثيين عقدت عام ١٢٨٧ ق . م وهى أول معاهدة للعلاقات الدبلوماسية فى تاريخ العالم القديم .

وفى عهد مرنبتاح (١٢٣٦–١٢٢٣ ق . م) الذى خلف رمسيس الثانى ، حدثت تطورات هامة فى المنطقة ، وهو خروج بنى اسرائيل من مصر بقيادة موسى عليه السلام ، واتجاههم نحو فلسطين . وعلى أثر ذلك بدأت الحروب بين بنى اسرائيل المهاجرين وبين الكنعانيين والفلسطينيين المقيمين فى فلسطين ، وبدأت فلسطين تصبح بؤرة الأزمات فى الشرق الأدنى ، وفى نفس الوقت تعرضت منطقة الشرق الأدنى لهجوم من شعوب البحر حوالى عام ١٢٠٠ ق.م وحاولت هذه الشعوب غزو سواحل مصر والشام ، ولولا قوة رمسيس الثالث (١١٩٨–١١٦٦ ق . م) لاحتلوها ، غير أنه بضعف الملوك المتأخرين فى الأسرة العشرين والواحدة والعشرين انهار النفوذ لمصرى فى الشام . والمثل على ذلك واضح من المعاملة التى لقيها « ون – آمون » مبعوث الكاهن لأكبر حريحور لإحضار الأخشاب اللازمة لصنع سفينة آمون – رع المقدسة من أمير ببلوس جريا على العادة ، فقد رفض أمير ببلوس مقابلته وطلب منه

(*) وفى رأى آخر أنها كانت بالقرب من تانيس (صان الحجر شرقية) .

مغادرة الميناء وظل « ون — آمون » ينتظر مقابلة الأمير تسع وعشرين يوما حتى قابله أمير ببلوس التى كانت تابعة لمصر ، ولما كرر ون — آمون عرضه ، تهكم عليه الأمير ، وأخبره بأنه لم يعد تابعا لمصر وأنه ليس هناك ما يجبره على إرسال هذه الأخشاب دون دفع ثمنها .

ومنذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر قبل الميلاد بدأ اتصال الإغريق الموكينيين بالشرق الأدنى ، خاصة بمدن سواحل الشام فقد بدأوا ينهضون كقوة بحرية فى شرق البحر المتوسط بعد زوال القوة البحرية المصرية وبعد تدمير طروادة ، وبدأت أسماء بلدان وشعوب الشرق الأوسط يتردد إسمها فى الوثائق الموكينية الطيبية وفى الأساطير (١) ، ونقلوا أسماء التوابل الشرقية إلى لغتهم ووصلت سفنهم إلى السواحل الفينيقية ، وبدأ التعامل بين الفينيقيين والإغريق الموكينيين ، وقد أدى ذلك إلى نهضة المدن الفينيقية واستقلالها ، فقد كانت القوتان العظميان فى الشرق الأدنى قد ضعفتا ، كما كانت الامبراطورية الحيثية قد سقطت بعد أن قضت عليها شعوب البحر ، وبالتالى استقلت أقاليم الشام وقامت فيه دويلات مدن مستقلة . وعموما كانت الفترة من ١٠٠٠ — ٥٠٠ ق . م هى أسعد عصور المدن الفينيقية ، فقد تخلصت من النفوذ المصرى ، كما كانت آشور فى صراع مرير مع بابل ، وخلال تلك المرحلة ازدهرت مدينة صور ، وأسست لنفسها مستوطنات تجارية فى شمال أفريقيا وجزر البحر المتوسط ، وكما حاول العبرانيون بعد أن استتب لهم الأمر فى فلسطين وأسسوا مملكة لهم أن يبسطوا نفوذهم على الشام ، خاصة فى عهد داود وابنه سليمان ، كما حاول الفينيقيون فى عهد الملك حيرام التعاون مع العبرانيين لملء الفراغ فى المنطقة .

قيام الإمارات الآرامية فى الشام :

ففى غياب القوة المصرية ، اتحدت الجماعات العبرانية الغازية لفلسطين ، وبدأت فى إخضاع السكان الكنعانيين والآراميين ، وكونت مملكة اختارت

---

(1) f., Edwin M. Yamauchi : Greece and Babylon — Early Contacts between the Aegean and Near East, Michigan, 1967, pp. 33 — 24, William Taylor The Mycieans (Ancient peoples and places no. 39), Thames and Hudson, London 1961: p. 135.

لها ملكا إسمه شاوُل الذى تطلع إلى إخضاع الممالك الأرامية فى الشام والتى كانت تتزعمها إمارة صوبا .

وفى القرن التاسع قبل الميلاد ، بدأت آشور تظهر على مسرح الأحداث كقوة عسكرية ، واختطت لنفسها خطة حربية للتوسع تجاه الغرب ، وملء الفراغ فى الشرق الأدنى ، وبدأت بإرسال حملات إلى الشام ، غير أنها لم تقض نهائيا على مقاومة الممالك الأرامية التى كانت تشهد نشاطا ملحوظاً منذ القرن الحادى يتمثل فى الانتشار الاستيطانى فى شمال الشام ، وظهرت إمارات أرامية فى شمال الشام وأعالى نهر العاصى وفى وادى الليطانى ، وفى جنوب الشام والرافدين ، وشواطئ دجلة الشرقية وسهول الفرات ، وكان أكبر الممالك الآرامية إمارة صوبا فى سهل البقاع ، وإمارة دمشق ، ولم يجد الآراميون فى انتشارهم أى مقاومة من أبناء عمومتهم سواء من الكنعانيين أو الأموريين ولقد كانت الإمارات الأرامية فى الشام حجر عثرة فى وجه التوسع الأشورى ، بل إن هذه الإمارات الأرامية هى التى كسرت شوكة العبرانيين حيث قادت دمشق المقاومة ضدهم ، وبقدر ماكان العداء شديداً بين العبرانيين والآراميين ، بقدر ما كانت العلاقات هادئة بين الكنعانيين (الفينيقيين) وجارتهم الدولة العبرية .

الغزو الآشورى للإمارات الآرامية فى الشام :

ولما فرغت آشور من صراعها مع بابل ، استدارت لابتلاع الإمارات الآرامية فى الشام ، والقضاء على الدولة العبرية ، متبعة سياسة الضم المباشر ، والقضاء على استقلال هذه الممالك قضاء لا رجعة فيه ، بإدماج الشام عن طريق نقل السكان وتوطين آخرين من بلاد الرافدين مكانهم . ولقد طبقت هذه السياسة على اليهود ، وأدت إلى القضاء على الشام كوحدة تاريخية مستقلة .

ولقد خططت آشور للقضاء على الدولة العبرية التى كانت قد شهدت أقصى توسعها وازدهارها فى عهد سليمان بن داود ، والذى بنى لنفسه قصراً منيفاً فى أورشليم . كما بنى المعبد الشهير والذى اشترك فى بنائه المهندسون والعمال المصريون ، فجاءت عمارته مزيجاً من العمارة المصرية والبابلية (إرجع

إلى سفر الملوك)، وبعد موت سليمان انقسمت الدولة العبرية إلى مملكتين : مملكة إسرائيل الشمالية وعاصمتها السامرة وذلك منذ عام ٩٢٩ ق . م ومملكة يهودية فى الجنوب والتى أسسها خلفاء سليمان من سبطى يهوذا وبنيامين وكانت عاصمتها أورشليم .

ورغم ضعف مصر خلال الألف الأخير قبل الميلاد ، إلا أنها لم تكف من حين لآخر عن محاولة استعادة نفوذها فى الشام وفلسطين ، فقد رأينا كيف أن شيشنق انتهز فرصة انقسام الدولة العبرية إلى دولتين فقاد قواته نحو أورشليم فى السنة الخامسة من حكم رحبعام بن سليمان ، ودخلها ونهب خزائن معبد سليمان لكنه عاد أدراجه إلى مصر .

أما مملكة اسرائيل فى الشمال فقد استمرت من ٩٢٩ إلى ٧٢٢ ق . م وكانت نهايتها عندما اجتاح الأشوريون الشام بقيادة ملكهم سرجون الثانى وقضوا على مملكة اسرائيل ودمروا عاصمتها السامرة ، ونقلوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى اليهود إلى العراق ، فيما يعرف بالسبى البابلى ، وبذلك سقطت دولة العبرانيين فى الشمال بعد أكثر من قرنين من تأسيسها ، وكانت مملكة يهوذا أسعد حظاً وذلك لأنها كانت مملكة فقيرة يعمل سكانها بالرعى ويعيشون حياة البدو الرحل ، فقد بقيت من عام ٩٣٩ ق . م حتى سقوطها عام ٥٨٦ ق . م على يد نبوخذ نصر الذى دمر أورشليم عاصمتها وأسر ملكها وحمل معه أيضاً عدداً من سكانها كأسرى فيما يعرف بالأسر البابلى الثانى . وقام نبوخذ نصر بتوطين القبائل البابلية فى شرق الأردن ، ومن بين هذه القبائل البابلية التى وطنها نبوخذ نصر قبائل العرب الأنباط (كلمة نبط كانت فى الأصل تطلق على سكان بلاد النهرين)، وكان سكان شرق الأردن قبل مجئ الأنباط يدعون « الأدوميون » وانتزع الأنباط منهم مدينتهم « سلع » وحولوها إلى عاصمة لهم، وهى التى عرفت فيما بعد باسم البتراء وبوصول الأنباط إلى الشام دخل عنصر سكانى جديد قدر له أن يلعب دوراً كبيراً فى تاريخها فى العصور المتأخرة .

أما بقية الإمارات الأرامية فى الشام ، فقد كانت قد وقعت من قبل تحت

النهر الأشورى ، وذلك عندما قام تجلات بيلاصر (٧٤٥–٧٢٦) باجتياح الشام فاستسلمت دمشق عام ٧٣١ ق . م ، كما استسلمت صور وسائر الممالك الأرامية فى الشام . ولقد أتم سرجون الثانى ٧٢٠–٧٠٤ ق . م) فتح الشام وتوحيدها تحت زعامة أشور ، بل قام أسرحادون بالزحف على مصر ودخل منف عام ٦٧١ ق . م وضم مصر إلى آشور ، وبذلك أصبحت آشور القوة الكبرى فى الشرق الأدنى فى القرنين الثامن والسابع ق . م وكان آخر ملوك آشور الأقوياء هو آشور بانيبال ٦٦٧–٦٢٦ ق . م ولكن بعد موته تفككت إمبراطوريته وضعفت ، عندئذ تحالف ضدها أعداؤها ، فتكون حلف من مصر وميديا (إيران) وليديا وبابل لإسقاط الامبراطورية الأشورية . وقد تم ذلك عام ٦١٢ ق . م وقاد نابولاصر البابلى الهجوم على نينوى عاصمة آشور ،وتم سحق الجيش الأشورى فى معركة كبرى عام ٦٠٦ ق . م ، ومن الطريف أن اليهود استقبلوا نبأ سقوط نينوى بفرحة عارمة ، إذ نقرأ فى سفر ناحوم « كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بأيديهم عليك ، لأنه على من لم يمر شرك على الدوام ! » وهكذا بسقوط نينوى عاصمة آشور ، تقسمت أملاكها ، فاستولى الميديون على أقليم آشور الأصلى ، بينما استولى البابليون على بلاد النهرين والأراضى السورية الفينيقية . وتولى بعد نابولاصر ملك بابل إبنه الشهير نبوخذ نصر (٦٠٤– ٥٦٣ ق . م) الذى مد سلطان بابل أو « كالديا » كما سماها الإغريق على جميع المناطق التى كانت آشور تحتلها فى السابق ، كما قام بوضع نهاية للنفوذ المصرى فى الشام ، وقضى على دولة يهوذا ودمر أورشليم عام ٥٨٦ ق . م ، وحمل عدداً كبيراً منهم إلى بابل فيما يعرف بالأسر البابلى الثانى ، ووطن الأنباط فى بلاد الأدوميين فى شرق الأردن ، كما وطن البابليين والعيلاميين فى السامرة ، وظل بنو اسرائيل مشردين فى الأرض يتطلعون للعودة إلى فلسطين .

هكذا بقيت الشام تحت حكم البابليين حتى ظهرت الدولة الفارسية الأخمينية بزعامة قورش الذى استولى على بابل ذاتها عام ٥٣٩ ق . م ، ومن بعده قام قمبيز (٥٣٠–٥٢١ ق . م) بالاستيلاء على مصر والشام وفلسطين .

وبذلك أصبحت الشام وقبرص السترابية الخامسة فى الامبراطورية الفارسية وبقيت كذلك حتى الفتح المقدونى ، رغم محاولة الأسرة الثلاثين فى مصر لأستعادة نفوذها فى الشام فى عهد الفرعون تيوس (جدحر) .

ثالثاً : الأوضاع فى بلاد الرافدين والخليج العربى قبل الفتح المقدونى :

المفهوم التاريخى والجغرافى لبلاد النهرين هو وادى نهرى دجلة والفرات وهذان النهران الشهيران يكونان الطريق المائى الذى يصل آسيا الصغرى بالخليج العربى ويحصران بينهما حوضا غنيا يحده من الشرق مرتفعات عيلام التى منها يتدفق نهرا كارون Karun وخركا Kherka الموصلان لهضاب إيران وبلاد الهند . ومن الشرق أيضاً تشهق جبال زاجروس التى منها يتدفق روافد دجلة مكونة الطرق المؤدية إلى بحر قزوين . أما من الغرب فتمتد صحراء الشام الشاسعة ، والتى شقتها القوافل التجارية المتجهة إلى الجزيرة العربية أو إلى سواحل البحر المتوسط . وإذا ما صعدنا شمالا متتبعين نهر دجلة وجدناه يمر بسهل غنى هو سهل آشور ثم بلاد الميتانيين ، لنجد أنفسنا أخيراً فى أرمينيا .

أما نهر الفرات ، الذى يبدأ منبعه بنحو مائة كيلو متر من البحر الأسود فهو يسير محاذيا لمرتفعات طوروس التى تفصل بين الشام العربية وآسيا الصغرى ، ثم يقترب من البحر المتوسط عابراً لبلاد امورو (الأموريين) ثم ينحنى ليسير بعد ذلك موازياً لنهر دجلة ، حتى يلتقيان فى مجرى واحد عند شط العرب ، ويصب هذا المجرى فى الخليج العربى .

وفى الأصل كان وادى دجلة والفرات خليجاً قديماً يمتد على رقعة من الأرض يبلغ طولها خمسمائة كيلو متر ، وكانت مليئة بالطمى والغرين الذى يغمرها من الربيع وحتى الخريف .

ويختلف وادى دجلة والفرات عن وادى النيل ، فالظروف الجغرافية جعلت وادى دجلة أقل تماسكا من الناحية السياسية ، فالمنطقة الجنوبية

من الرافدين ، كانت قديما وحدة اقتصادية وسياسية تعتمد فى حياتها على مياه وتربة النهرين ، وفى هذه المنطقة ظهرت دولة الأكاديين (بابل) كما ظهرت فيه أيضا دويلات المدن التى ازدهرت منذ قيام الحضارة السومرية .

وإلى الشمال من بغداد الحالية تجرى أنهار هامة مثل ديالى ، والزاب الأكبر ، والزاب الأصغر ، والخابور ، والبلخ وقد شكلت هذه المنطقة بدورها أيضا وحدة سياسية واقتصادية قامت فيها دولة آشور المنافسة لدولة بابل فى الجنوب . أما السومريون فقد سكنوا ذلك الأقليم الذى يقع بين الفرات ودجلة ويمتد من نيبورحتى مياه الخليج (من بغداد الحديثة تقريبا حتى الخليج العربى) . وهم الذين وضعوا الأساس الأول للحضارة فى بلاد الرافدين وتبناها وزاد عليها كل من الأكاديون والأشوريون . ولما كانت المنطقة التى قامت فيها الدولة البابلية (الأكادية) أكثر خصوبة من المنطقة التى قامت فيها دولة سومر ، فقد اهتم السومريون بالتجارة أكثر من الزراعة ، بينما اهتم البابليون بالزراعة أكثر من التجارة ، ولهذا تظهر الروح الإقطاعية والفكر الزراعى عند البابليين بصورة واضحة .

ولقد كانت منطقة بلاد الرافدين بثرائها الزراعى ، وبحكم موقعها الاستراتيجى محط أنظار الشعوب الغازية ، وفدت إليها من كل مكان من مرتفعات عيلام (جبال زاجروس) ومن صحراء الشام ، ومن أصقاع الشمال ؛ ووفد إليها القوقازيون وقبائل آسيا الصغرى ، كما كانت قبائل البدو دائمة الإغارة على المدن السومرية والبابلية وتأتى إليها من الصحراء الكبرى .

وبمرور الزمن ، وبسبب التجارة والحروب ، شقت الطرق الكبرى التى كانت تسير فيها القوافل تحمل على ظهور الجمال منتجات الشعوب المختلفة كما بنت الشعوب الغازية طرقا حربية لنقل جيوشها وعتادها ومؤنها .

كان أول من استقر فى وديان الرافدين شعوب البحر المتوسط ، واستمر استقرارها طوال العصور الحجرية ، ولم تظهر التجمعات المستقرة فيها فى مناطق ثابتة وحضرية إلا منذ نهاية الألف الخامس ق . م .

ومنذ الألف الثالث ق . م بدأ نجم شعب يسمى السومريين (نسبة إلى مدينتهم الكبرى سومر أو شومر) يظهر في الأفق ، ويستقر في الوادى الأدنى للرافدين (من بغداد الحديثة حتى الخليج تقريبا) ،وكان السومريون أغلب الظن ينتمون إلى العنصر الألبانى . وفى نفس الوقت استقرت مجموعة أخرى من السكان تعرف بالأكاديين (نسبة إلى مدينتهم أكاد أو آجاد) فى المنطقة التى تقع إلى الشمال من سومر ، وكان الأكاديون ينتمون إلى العنصر السامى وهذا واضح من دراسة اللغة التى كانوا يتكلمون بها . وكان السومريون والأكاديون يكونون كل بلاد الرافدين فى ذلك الوقت .

وعاش هذان الشعبان فى قرى صغيرة مكتفية ذاتيا ، ولقد تعلم الأكاديون من السومريين الكثير من فنون الزراعة والتجارة والحرف ، وظهرت حكومات لإدارة هذه القرى وتصريف شئونها . وكانت بعض هذه المدن تحاول فرض سيطرتها على المدن الأخرى من أجل إقامة دولة أكبر ، مما أدى إلى قيام الحروب والمنازعات بينها .

وفى مطلع الألف الثالث ق . م — وهو ما يوازى عصر بناة الأهرام — كانت أهم مدن بلاد الرافدين المتصارعة هى بابل ، وأريدو ، وكيش ، ولاجاش ، ولارسا ، ونيبور ، وأوما Uma وأور ، وأوروك (الوركاء) وأوبس ،ولارسيا. وكان يحكم كل مدينة كاهن(يعرف باسم الباتيسى Patesi يحكم نيابةعن رب المدينة الذى يملك الماء والأرض. ولهذا كان الحكم ثيوقراطيا. ولما بدأ الصراع بين هذه المدن ، كانت المدينة المنتصرة تفرض على المدينة المهزومة قبول الخضوع لمعبودها ، وبالتالى تحول الكاهن الحاكم فى المدينة (باتيسى) إلى منصب أكبر وهو « اللوجال » Lugal (أى كاهن ملك يحكم دولة تضم أكثر من مدينة) . وقد انتشر من حملوا هذا اللقب فى مناطق مختلفة فى الوادى الأدنى للفرات .

ظهور الممالك السومرية فى بلاد الرافدين :

ولكن منذ عام ٢٥٠٠ ق . م نجح « لوجال » مدينة أور فى سهل سومر فى إخضاع سائر « اللوجالات » الآخرين خاصة فى كيش وأوروك . وبذلك تكونت مملكة سومر الأولى وقد اعتبر السومريون أن بلدهم تكون الحد

الجنوبى للدنيا . ولذلك فضلوا التوسع شمالا متتبعين منابع النهرين وقد استولوا على أرض «آكاد» وأخضعوها لحكمهم . وظلوا يخضعونها حتى عام ٢٢٦٠ تقريبا . وتتفق الآراء على أن السومريين قد جاءوا من مكان ما فى شرق أو جنوب بلاد الرافدين سواء عن طريق البر أو البحر أو الإثنين معاً ، وكان لهم نشاط تجارى واسع وبحرى مع شعوب وادى السند وبلوخستان ، وكانت جزيرة دلمون مركزاً تجاريا بحريا هاماً ، بل لاحظ علماء الآثار وجود تشابه فى بعض الجوانب الحضارية بين حضارة السومريين وحضارة مصر فى عصر الأسرات الأولى . ولكنهم لم يتوصلوا إلى تفسير لهذا التشابه .

وفى عام ٢٢٦٠ ق . م تدهورت أوضاع مدينة أور مركز الدولة السومرية الأولى ، بينما بدأ الأكاديون ينهضون ، فقد ظهر قائد من العنصر السامى كان حاكماً على مدينة «أكاد» وبدأ يغزو أرض سومر ، وهو سرجون الأكادى الأول . وأخضع سرجون مدينة سومرية ليجعلها عاصمة لحكمه ، ووقع اختياره على «بابل» . وبذلك قام حكم الأسرة البابلية الأولى ، لكنه بعد موته خلفه سلسلة من الملوك الضعفاء فشلوا فى صد غزوات قام بها جماعات من شعوب أقل تحضراً جاءت من الشمال ويعرفون باسم الجوتيين الذين تمكنوا من إخضاع شعوب الرافدين وحكموها لما يقرب من ثمانين عاماً من ٢١٥٠ — ٢٠٧٠ ق .م، لكن سرعان ما نهضت سومر مرة أخرى ولكن تحت زعامة لوجال مدينة أوروك (الوركاء) ، الذى نجح فى استعادة أجزاء من أراضيها السليبة إلى حد ما . وبذلك قامت الدولة السومرية الثانية . وأصبح يسكن بلاد النهرين إلى جانب السومريين والأكاديين شعب الجوتيين الذين حطوا رحالهم عند سفوح جبال زاجروس . وفى نهاية الألف الثالثة وفد إلى بلاد الرافدين أيضاً الأموريون الذين كانوا يسكنون المنطقة الواقعة إلى الشمال الغربى من نهر الفرات ، كما وفد الأشوريون وهم شعب سامى هو مزيج من الأكاديين والأموريين ، واستوطنوا سهول شمال شرق العراق ، وأطلقوا على دولتهم اسم «آشور» نسبة إلى الرب الذى كانوا يعبدونه . كما جاء أيضاً العيلاميون الذين ينتمون إلى العنصر الألبانى ، وكانوا يسكنون السهول المتاخمة إلى الشرق

من سومر ، وخلال هذه الفترة جاء إلى المنطقة الكاشيون الذين استوطنوا سفوح جبال زاجروس بين الجوتين والعيلاميين ، وكذلك جاء الحوريون الذين استوطنوا المناطق الواقعة حول بحيرة فان وقرب منابع نهرى دجلة والفرات .

وبعد عام ٢١٠٠ ق. م بأعوام قليلة ، تزعمت مدينة أور السومرية الثورة ضد الغزاة الجوتيين ، وتمكن لوجال أور فى عام ٢٠٧٠ ق . م من فرض سيطرته على أغلب ساحات وادى النهرين ، وبذلك قامت الدولة السومرية الثالثة بعد أن استعادت أور زعامتها من مدينة الوركاء مقر الدولة السومرية الثانية ، وكان من أهم ملوك الدولة السومرية الثالثة المشرع العظيم دونجى Dungi ، الذى كسب شهرة كبيرة فى التاريخ كأعظم مشرع ، قام بجمع موسوعة قانونية عرفت باسم موسوعة دونجى القانونية ، لكن بعد موت دونجى لم يخلفه على العرش وريث قوى مما أدى إلى طمع الحكام المحليين من الكهنة (الباتيسات : Patosi) الذين تمردوا على الإدارة المركزية فى أور ، وخرجوا عن طوع « لوجالها » ، وبذلك سقطت الدولة السومرية الثالثة حوالى عام ١٩٤٤ ق . م . وبذلك انتهى الدور السياسى للسومريين .

المملكة الأكادية :

فى ذلك الوقت كانت الشعوب الأمورية قد بدأت تهاجر إلى الشطر الغربى من الفرات ، وبدأوا فى غزو المدن السومرية والأكادية واختاروا مدينة بابل لتكون مقر أسرة حاكمة استمرت تحكم لمدة ثلاثة قرون تقريباً من ١٩٤٤ حتى ١٦٧٠ ق . م وبذلك قامت الدولة البابلية الثانية وكان من أشهر ملوكها حمورابى (١٧٢٨—١٦٨٦ ق . م) ، الذى مد نفوذه من جبال زاجروس شرقاً إلى سواحل البحر المتوسط غرباً ، ومن بحيرة فان عند منابع النهرين شمالا ، حتى الخليج جنوباً ، كما قام بنشر الثقافة السومرية الأكادية فى كل أنحاء مملكته ، وغطت شهرته على شهرة دونجى السومرى فى مجال التشريع ، حتى أنه إكتسب لقب المشرع العظيم بعد أن وضع موسوعته القانونية التى عرفت باسم موسوعة « حمورابى القانونية » بالرغم من أنها قامت أساساً على تراث موسوعة دونجى القانونية الذى عاش قبله بنحو ثلاثة قرون .

سقطت الدولة البابلية الثانية تحت هجمات الغزاة ، فقد هجم الكاشيون

واستولوا على معظم وديان دجلة ، وفى نفس الوقت فرض المصريون نفوذهم على الجزء الجنوبى الغربى من الرافدين ، وظلوا يجبون الضرائب منها خلال بعض عصور الدولة الحديثة ، كما بسط الميتانيون والحيثيون نفوذهم على المناطق الشمالية الغربية ، وبقيت « بابل » وتوابعها مستقلة عنهم وتحكم نفسها بنفسها .

المملكة الأشورية :

وخلال هذه الفترة كانت آشور خاضعة لنفوذ الحيثيين ، وتؤدى لهم الجزية ، ولكن منذ أواخر الألف الثانى قبل الميلاد تدهور نفوذ الحيثيين ، فثارت آشور وأعلنت استقلالها . وبدأت تظهر كقوة سياسية وعسكرية مؤثرة عندما تولى عرشها الملك الأشورى الشهير تيجلات بيلاسر الأكبر (١١١٥–١١٠٢ ق . م) الذى وسع دولة آشور بالقيام بعدة غزوات نحو سواحل البحر المتوسط ، وبذلك قامت الدولة الأشورية الأولى ، لكنها لم تبق طويلا بعد موته ، إذ وقعت تحت حكم الغزاة الآراميين لبعض الوقت .

كانت الدولة الآشورية الثانية أطول عمراً وأشد قوة من سابقتها ، وكان مؤسسها هو آشور ناصربال (٨٨٥ — ٨٦٠) ومن أبرز ملوكها تجلات بيلاسر الثالث (٨٢٨ — ٧٤٦ ق . م) الذى ضم إقليم بابل والشام إلى مملكة آشور . كما كان من أشهر ملوكها سرجون الثانى (٧٢٠ — ٧٠٤) ، الذى توسع غرباً فغزا الشام وفلسطين ، وقضى على دولة إسرائيل ودمر عاصمتها السامرة فى عام ٧٢١ ق . م ، ولم يستقر سرجون فى عاصمة واحدة ، إذ اتخذ فى أول حكمه مدينة آشور وجعلها عاصمة له ، ثم إنتقل منها إلى كالح (نمرود) ثم فى منتصف حكمه إنتقل إلى نينوى وجعلها عاصمة له ، وأخيراً فى السنة التاسعة من حكمه عام ٧١٣ ق . م أسس عاصمة جديدة سماها شاروكين أى مدينة سرجون (على بعد ١٢ كم إلى الشمال من مدينة نينوى وهى خرسباد الحالية) ، وبعد موت سرجون الثانى تولى ابنه سناخريب (٧٠٤ — ٦٨١ ق. م) فترك عاصمة أبيه الجديدة ، وعاد إلى نينوى لأنها مدينة مقدسة وعمل على تجميلها ، ثم اتجه إلى آسيا الصغرى وضم المستوطنات

الإغريقية التى كانت قائمة على سواحل آسيا الصغرى ، وبذلك بدأ أول اتصال مباشر بين الإغريق الأيونيين وبلاد الرافدين ، مما أدى إلى تبادل الثقافة بينهما . كما اتجه جنوباً إلى فينيقيا وأخضع صور وصيدا وعسقلان وحاصر أورشليم ، لكن بابل ثارت عليه ، فأعاد فتحها . كما بنى أسطولا عملاقاً بمساعدة الفينيقيين والقبارصة واتجه به جنوباً حتى الخليج العربى ، ولما ثار عليه العيلاميون وهاجموا أواسط العراق ، حاصرهم فى بابل ، ثم دمر هذه المدينة ، ودك أسوارها ، وحرق قصورها ، وفتح مياه الفرات عليها حتى غمرتها . ثم اندفع نحو شمال شبه الجزيرة العربية واخترق الصحراء متجهاً نحو سواحل البحر المتوسط ، ووصل حتى غزة وهو ينوى محاربة الملك النوبى طهارقة الذى كان يحكم مصر فى ذلك الوقت كآخر ملوك الأسرة الخامسة والعشرين ، والذى كان متحالفاً مع أعداء آشور من أمراء الشام وفلسطين ، فترك سنا خريب مشروع فتح أورشليم وتفرغ لفكرة فتح مصر ، غير أنه اضطر إلى التراجع بسبب إنتشار وباء الطاعون فى جيشه . ومن بعده تولى ابنه آسر حدون الذى أكمل مشروع أبيه فى فتح مصر ، غير أن المصريين تمكنوا من هزيمة الآشوريين ، وردوهم عن حدود بلادهم ، لكنه سرعان ما عاد أشد قوة واجتاح مصر ودخل منف ، وفر طهارقة إلى الجنوب ، ونهب الآشوريون مصر ، ونقلوا الكثير من آثارها إلى نينوى ، وقد عثر فى بلدة تل النبى يونس بالعراق على بعض الآثار المصرية المنهوبة ، وبذلك نجح الآشوريون فى ضم مصر مؤقتاً إلى الامبراطورية الآشورية التى وصلت إلى اقصى إتساع لها من جبال زاجروس فى الشرق حتى وادى النيل فى الغرب . وبعد موته تولى حكم الامبراطورية الآشورية الملك الشهير آشور بانيبال (٦٦٨–٦٢٦ ق.م) ، الذى قضى على عيلام وانتصر على بابل المتمردة واخضعها لكى تصبح جزءاً من الامبراطورية واصبح آشور بانيبال حاكماً على الشرق الأدنى بأسره .

كان الشرق الأدنى فى ذلك الوقت فى حالة ضعف تام باستثناء القبائل المختلفة التى كانت تقطن شرق بلاد الرافدين مثل عيلام التى كانت مصدر خطر على الآشوريين ، ثم قبائل الفرس الميديين التى قضت على

الامبراطورية الآشورية فيما بعد . أما الشام فقد تحولت إلى إمارات صغيرة لم تكن تستطع الوقوف أمام هذه الجيوش الغازية إلا بالاتحاد ، وهو أمر كان محالا ، ففي شمال الشام قامت الإمارات الحيثية ، وفي وسط وجنوب الشام قامت دويلات المدن الفينيقية ، والآرامية ، كما كانت هناك دولة يهوذا والفلسطينيون ، وكانت المستوطنات الإغريقية الأيونية تنتشر على طول ساحل آسيا الصغرى . أما مصر فقد كانت ضعيفة ومنقسمة على نفسها كما رأينا . إلى أن جاءت الأسرة السادسة والعشرون التي قامت بعد طرد الآشوريين والتي أسسها بسماتيك الأول .

المملكة البابلية الأخيرة :

وعلى العموم ، فقد قضى آشور بانيبال سنواته الأخيرة في بابل ونينوى حيث أقام مكتبته الشهيرة في نينوى ، والتي كشف عنها خلال أعوام ١٨٤٩ — ١٨٥٧ ، وبعد موته لم يظهر ملك قوي في آشور ، إنما ظهر في بابل ، وكان اسمه نابو بولاسر ، وكان هذا الأخير في الأصل والياً طموحاً على بابل ومعيناً من قبل آشور ، وعلى أثر موت آشور بانيبال أعلن نابو بولاسر إستقلاله ببابل عام ٦٢٥ ق. م مؤسساً بذلك الدولة البابلية الأخيرة . وفي عام ٦١٤ق.م تحالف مع ملك ميديا وملك ليديا ومع المصريين لإسقاط الامبراطورية الآشورية . وبالفعل قاد نابو بولاسر هجوماً ناجحاً على نينوى عاصمة الآشوريين وسقطت نينوى في أغسطس عام ٦١٢ق.م بعد معركة دموية ، ثم هزم الجيش الآشوري هزيمة نهائية في معركة قرقميش عام ٦٠٥ ق. م وعلى أثر ذلك تقاسم المنتصرون الامبراطورية الآشورية ، فاحتفظ الميديون باشور وشمال الرافدين ، بينما حصل ملك بابل الجديد نبوخذ نصر (٦٠٤ — ٥٦٣ ق. م) على مملكة بابل في سهل كالديا وهي التي ورثها بالإضافة إلى الشام . كما قام نبوخذ نصر بالقضاء على دولة يهودية في أورشليم ، وحمل معه عدداً من اليهود كأسرى إلى بابل فيما يعرف بالأسر البابلي الثاني وذلك في عام ٥٨٦ ق. م ، غير أن أعداء نبوخذ نصر وجيرانه بدأوا يتحالفون ضده ، وراحوا يستعدون لتوجيه ضربة إلى سهل كالديا (بابل) ، وبعد

موت نبوخذ نصر سادت الفتن فى الدولة البابلية الأخيرة، واستمرت من ٥٦٢ إلى ٥٥٥ ق. م كما أن الملك الذى تولى بعد هذا التاريخ كان اسمه نابونيد وهو آرامى من حران(٥٥٥ — ٥٣٨ق.م)كان مسالماً ولكنه انحاز للرب سن وأهمل عبادة مردوخ الرب القومى لبابل . فأثار الكهنة الناس عليه فهرب لاجئاً إلى واحة تيماء فى الجزيرة العربية وتولى ابنه بيل شاصر بعده .

وفجأة تغير الموقف فى الشرق الأدنى بظهور قورش الأكبر ملك ميديا الفارسية وتأسيسه الامبراطورية الفارسية الاخمينية وأسدل الستار عن امبراطوريات الرافدين عندما قام أحد ضباط قورش بفتح بلاد الرافدين عام ٥٣٨ ق. م وأصبحت بلاد الرافدين إحدى ولايات الامبراطورية الفارسية وبقيت كذلك حتى الفتح المقدونى لها .

رابعاً : قيام الإمبراطورية الفارسية الأولى وتوسعها فى الشرق الأدنى :

على النقيض من شعوب الشرق الأدنى ، لم يكن الفرس ينتمون إلى العنصر السامى ، بل كانوا ينتمون إلى العنصر الآرى . والوطن الأصلى للعنصر الآرى (الهندو أوروبى) هو شواطىء بحر قزوين ومنطقة جبال الأورال ، وفى حوالى عام ٢٠٠٠ ق. م وبسبب ذوبان الثلوج فوق قمم الجبال والتى سالت فأغرقت الأراضى التى يسكنها هذا العنصر ، تدفقت قبائله شرقاً نحو الصين والهند ، كما اتجهت غرباً نحو آسيا الصغرى وهضبة إيران وبلادالرافدين وشبه جزيرة البلقان . وكان الميديون (الفرس) أحدى هذه القبائل الآرية التى سكنت إقليم بخارى وسمرقند ، ثم توغلت نحو الجنوب حتى وصلت إلى هضبة إيران (أى الآريين) . وبعد ألف سنة من ذلك التاريخ نجدالميديين يقطنون إلى الجنوب من بحر قزوين . والبارثين فى خراسان والبكتيريين عند منحدرات جبال الهندوكوش الشمالية، والفرس فى الجبال التى تشرف على الخليج العربى (الفارسى) من ناحية الشمال الشرقى ، وكانت سلسلة جبال الهندوكوش وسليمان تشكل حاجزاً بينهم وبين الهند . ولقد أحضر هؤلاء الآريون معهم الحصان والذى نقله الآشوريون عنهم كسلاح فى جيوشهم ، كما جلبوا معهم ديناً متميزاً

يقوم على الثنائية ، أى أن العالم يحكمه « ربان » لا رب واحد ، أولهما هو أهورا مازدا وهو الخير والنور والحياة ، أما الآخر فهو أهريمن وهو الظلام والموت .

وتذكر النقوش الآشورية التى ترجع إلى القرن التاسع ق. م بعضاً من هذه الشعوب الآرية ، والتى كان الميديون الذين سكنوا شمال إيران أكثرها استقراراً . ويذكر هيرودوت أحد ملوكهم وهو فار اورتيس Pharortes تمكن من توحيد هذه القبائل الآرية ، ثم نجح فى إخضاع القبائل الفارسية الأخرى فى الجنوب ربما حوالى ٦٧٠ ق . م ، وأسس لهم عاصمة هى إكبتانا Ecbatana (همدان الحالية) . ولقد انشغل الميديون فى أول أمرهم فى صراع مع قبائل السكيثيين Scythians الرعاة . كما قام خليفة فارأورتيس وابنه واسمه كواكسارس Cyaxares بالتحالف مع نابو بولاسر ملك البابليين ومع ملك ليديا فى آسيا الصغرى ومع فرعون مصر لإسقاط الامبراطورية الآشورية ، واستولى كواكسارس على نينوى عاصمة آشور عام ٦١٢ ق . م ، وبدأ يمد نفوذه حتى آسيا الصغرى .

ومن بعده نسمع عن كيخسرو الذى زاد من رقعة الدولة حتى أصبحت تشمل آشور وميديا وبلاد الفرس .

وفى حوالى عام ٥٥٠ ق . م كان يجلس على عرش هذه الدولة الميدية ملك ضعيف اسمه اسبتاجس ، بينما كان يحكم ولاية « إنشان » الفارسية التابعة للميديين حاكم قوى اسمه قورش ، فأعلن الثورة على هذا الملك وأيده الميديون وبايعوه ملكاً ، وكان ذلك نقطة تحول فى أحداث الشرق الأدنى القديم .

ولقد كان قورش محارباً وملكاً قديراً ، فأسس الأسرة الأخمينية "Achaemenian" ومعها الامبراطورية ، وعند موته عام ٥٢٨ ق . م كانت ممتلكاته تمتد من بحر إيجة فى الغرب إلى جبال هندوكوش فى الشرق ، ومن بحر قزوين فى الشمال إلى بلاد الرافدين وصحراء العرب فى الجنوب ، ولقد خلع على نفسه لقب ملك الملوك (الشاهنشاة) وبعد موته تولى ابنه قمبيز وهو الذى

أتم فتح مصر وأدمجها فى امبراطوريته الكبرى، وبذلك أصبحت مصر والشام وبلاد الرافدين ولايات فى امبراطورية واحدة ، كما فتح قمبيز المستوطنة الإغريقية قورين Cyrene (برقة فى ليبيا) . أما ثالث الملوك الأقوياء هو دارا الأول ٥٢١–٤٨٥ ق.م الذى يعتبر منظماً من الطراز الأول ، فقد كانت الإمبراطورية مزيجاً من مختلف الشعوب والقوميات والديانات واللغات وكانت تنقسم إلى عشرين ولاية أو سترابية ويحكم كل ولاية « ستراب » بدرجة نائب للملك ، وخوفاً من انفصال الولاة بولاياتهم جعل السلطتين العسكرية والمدنية منفصلتين وفى أيد مختلفة . كما كان يشرف على الأحوال فى ولايات الامبراطورية مساعد للملك يحمل لقب « عين الملك » مهمته الإشراف على الأحوال العامة فى الولايات عن طريق عيون له يبثهم سراً فى كل مكان .

ولقد كان أروع ما حققه دارا هى شبكة الطرق التى بناهـا لربط الإمبراطورية وإدخال نظام البريد ، فالطريق الملكى الذى يبدأ من سوسا (جنوب غرب إيران وهى عيلام فى التوراة وكانت المركز الإدارى للإمبراطورية) إلى إفسوس فى آسيا الصغرى أعيد بناؤه لربط وادى الرافدين الأدنى بساحل آسيا الصغرى ، بالإضافة إلى الطرق الأخرى التى كانت تقطع آسيا الصغرى من الشمال إلى الجنوب ، ومن بابل إلى بلخ . ومن بلاد النهرين عبر الشام إلى مصر ، مما سهل تحريك الجيوش وبفضل هذه الطرق تمكن الإسكندر من اجتياح الشرق الأدنى وإسقاط الإمبراطورية الفارسية .

ولقد كان دارا الأول يعطى اهتماماً خاصاً لولاية مصر ، فحرص على رضاء شعبها ، واقتبس الكثير من حضارتها ، فمثلا استخدم التقويم الشمسى المصرى ، كما لم يخف إعجابه بفن الطب فى مصر ، فأعاد بناء مدرسة الطب فى تانيس Tanis (صان الحجر شرقية) والتى كانت قد تهدمت واختار بعض أطبائه من مصر ، وكرم عدداً من أعيانها الذين تمتعوا بالاحترام والتبجيل ، ومن أهم أعماله فى مصر أيضاً إعادته لمشروع حفر القناة التى تربط بين النيل وخليج السويس والتى كان نخاو قد شرع فيها ثم هجر المشروع . واحتراماً للمكانة الدينية فقد أعلن نفسه ملكاً على كل من مصر وبابل .

العلاقات بين الفرس والإغريق قبل الفتح المقدونى للشرق الأدنى :

ولقد شغل الملك دارا نفسه فى الأعوام الأخيرة من حكمه فى تنظيم حملة عسكرية ضد بلاد الإغريق وخاصة أثينا التى كانت تتزعم المدن والجزر الإغريقية . وكان بداية الصراع بين الفرس والإغريق سببه استيلاء الفرس على آسيا الصغرى ، وضم المدن والمستوطنات الإغريقية هناك لحوزة الامبراطورية الفارسية ، وتعيين طغاة من أبنائها حكاماً عليها .

وكان الأثينيون قد تخلصوا من حكم الطغاة فى بلادهم عام ٥١٠ ق . م وراحوا يسقطون الطغاة ليبشروا بنظامهم الديموقراطى الجديد ، ولا شك ، أن عيونهم اتجهت إلى إسقاط الطغاة العملاء للفرس فى ظاهر الأمر ، بيما كان الأمر فى الحقيقة هو اولة نشر نفوذهم فى أيونيا بعد إجلاء الفرس عنها ، بالإضافة إلى ذلك فقد كان الأثينيون ينظرون بعين القلق إلى تزايد قوة الأسطول الفارسى الذى بنيت سفنه فى القواعد البحرية فى فينيقيا وجندت بحارته من مدنها . وبفضل سيطرته على موانئ آسيا الصغرى ، أصبح بحر إيجة بحراً فارسيا مما هدد الاقتصاد والتجارة الأثينية ، و التى كانت قد تعرضت لنكسة سابقة بعد استيلاء الفرس على مصر ، وحرمانهم من التجارة معها . ولهذا لم يتوقف الأثينيون عن تحريض المصريين على الثورة ضد الفرس ، وقد اعتبر الفرس ذلك عملا عدائياً . أما ادعاء الأثينيين بإسقاط الطغاة وتحرير أيونيا من نير الطغيان الفارسى فهو ادعاء أجوف ، لأن المدن الأيونية التى استولى عليها الفرس عاشت أسعد أيامها فى ظل السلام الفارسى ، مما أدى إلى الاستقرار وازدهار الحضارة الأيونية خاصة الفلسفة التى كانت الأساس الأول للحضارة الإغريقية الكلاسيكية ، فقد كانت أثينا وحلفاؤها تسعى للسيطرة على التجارة فى بحر إيجه ولهذا حرضت المدن الأيونية على الثورة ضد الفرس عام ٤٩٩ ق . م .

وقادت مدينة ميليتوس الثورة على الفرس ، فكان تجارها هم المحرضون عليها ، وامتدت الثورة الأيونية لتشمل كل ساحل الأناضول من البسفور شمالا

إلى يامفيليا جنوباً ، بل أنها امتدت إلى قبرص ، وأشعل الثوار النار فى مدينة سارديس عاصمة ليديا القديمة ، وقد بذل دارا وحلفاؤه الفينيقيون مجهوداً كبيراً فى قمع هذه الثورة الأيونيه ولذلك عزم دارا على معاقبة مدينة أثينا الرأس ، المدبر للثورة ، وساعده على اتخاذ هذا القرار طاغية أثينا المطرود هيبياس Hippias والذى كان يقيم فى بلاط دارا ، على أمل أن يعيده بالقوة إلى أثينا ليحكمها ويسقط نظامها الديمقراطى .

وفى عام ٤٩٢ ق . م أرسل دارا أسطولا إلى سواحل آسيا الصغرى الشمالية وقام بإدخال مقدونيا فى حوزة الإمبراطورية الفارسية ، وبعدها بعامين أرسل الفرس أسطولا آخر إلى بحر إيجة أخضع جزر الأرخبيل Cyclades اليونانية وأنزل العقاب بجزيرة أرتريا إحدى هذه الجزر التى حرضت على حرق سارديس إبان ثورة المدن الأيونية .

وفى عام ٤٩٠ ق . م اتجه الأسطول الفارسى إلى سواحل بلاد اليونان ونزل عند سهل الماراثون ولكن هذه الحملة فشلت ، ومات دارا الأول وهو يستعد للجولة الثانية للانتقام من الأثينيين وحلفائهم . وبعد عشر سنوات من الحملة الأولى قاد ابنه خشارشياى xerxes حملة ثانية ولكنها هزمت براً فى سلاميس Salamis عام ٤٨٠ ق.م وبحراً فى بلاتيا ببلاد الإغريق عام ٤٧٩ ق.م فانسحب عائداً إلى بلاده بعد أن دمر أثينا ونهبها ، وحمل معه بعض آثارها لتعرض فى عاصمة الإمبراطورية . ولم ينس الإغريق هذه الإهانة أبداً رغم أن الاسطول الأثينى تمكن من السيطرة على ساحل الاناضول من بحر مرمرة شمالا حتى بامفيليا فى الجنوب . وبعد موت خشيار شاى عام ٤٦٠ ق . م حرضت أثينا أميرين مصريين على الثورة ، وأرسلت أسطولها إلى منف فأرسل الملك الفارسى أرتا خشارشياى الأول Artaxerxes أسطولا دمر السفن الأثينية عام ٤٥٤ ق . م وكانت ضربة كبيرة لأثينا لأن أسطولها كان هو قوتها الفعلية . وأخيراً عقد الطرفان الإغريقى والفارسى هدنة عام ٤٤٩ـــ٤٤٨ ق.م ، واعترف كل طرف بمصالح الطرف الآخر لوجود قلاقل داخلية فى كل منهما . ففى بلاد اليونان كان الصراع يوشك أن يندلع بين أثينا واسبرطة

فيما يعرف بالحروب البيلوبونيسية ، وفى بلاد الفرس كانت هناك بوادر صراع على العرش . وبمقتضى هذا الصلح الذى عرف بصلح كالياس "Calias" اعترف الفرس بسيطرة أثينا على ساحل الأناضول وبحر إيجة مقابل ألا تتعرض لمصالح الفرس فى هذه المناطق . وفى الحقيقة لم يؤثر انسحاب الفرس من هذه المناطق على الامبراطورية الفارسية اقتصادياً أو استراتيجياً ، فقد أصبحت حدود امبراطريتهم أكثر أمناً بفضل سلسلة جبال الأناضول التى أصبحت تحد امبراطوريتهم غرباً ، وفى ظل هذا السلام سعى الفرس إلى السيطرة الاقتصادية على المدن الأيونية وربط مصالحها بمصالحهم ، وفى نفس الوقت انفتح الفرس على الحضارة الإغريقية واستفادوا من خبرتها ، وفتحت فارس أبوابها للعلماء والفنانين والمفكرين واللاجئين السياسيين من الإغريق ، بل فتح الجيش الامبراطورى أبوابه لقبول الجنود المرتزقة والبحارة من الإغريق ، فقد كان الفرس يهدفون إلى بناء امبراطورية عالمية تجمع بين شعوب مختلفة وتعيش فى حرية واستقلال ولا يربطها بالامبراطور الفارسى سوى الولاء ودفع الضرائب . ولقد سعدت كثير من المدن الأيونية بهذا السلام الفارسى ، ونشطت تجارتها ،وأصبحت من أشد المؤيدين للفرس حتى أنهم هم الذين وقفوا فى وجه الإسكندر المقدونى عندما جاء لفتح الشرق دفاعاً عن الإمبراطورية الفارسية .

أما بالنسبة لأثينا وحلفائها فقد أكسبهم هذا النصر ثقة بأنفسهم وظهرت نزعة القومية الإغريقية المتعالية على الفرس البرابرة ، واستقر فى ضمير الساسة الإغريق أن الفرس هم عدوهم الأول ، وبدأت أحلام إرسال حملة لإسقاط الامبراطورية الفارسية وفتح الشرق للإغريق أملا يراود بعض الساسة العسكريين من الإغريق ، غير أن الحروب البيلوبونسية وما جرته من هزائم على أثينا عطلت تحقيق ذلك الحلم الدفين .

ومن ناحية أخرى كان هناك إعجاب متبادل بين دويلة إسبرطة وبين الفرس ، لأن الخوف من أطماع أثينا وتوسعاتها كان يجمع بينهما ، ورأينا ذلك حتى أثناء تحالف أثينا وإسبرطة أثناء الحملة الثانية للفرس على بلاد

اليونان ، فقد تعاون الملك الأسبرطى باوسانياس Pausanias مع الفرس ضد الآثينين عام ٤٧٩ ق . م وفضحت أثينا هذا التآمر كخيانة لقضية الإغريق ، وعادت إسبرطة لتتقوقع فى البيلوبونيسوس تاركة أثينا تجنى ثمار النصر وحدها.

ولما أدركت فارس أن أثينا وامبراطوريتها على وشك من الهزيمة على يد الأسبرطيين ، بدأت تخطب ودهم علنا فعقدوا معهم تحالفاً قوامه موافقة الأسبرطيين على استعادة الفرس لممتلكاتهم السابقة فى أيونيا ، مقابل أن يشترك الأسطول الفارسى فى تدمير الأسطول الأثينى فى المياه الشرقية ، وتم عقد هذا التحالف عام ٤١٢ ق.م غير أن أثينا تصدت لذلك التحالف . وظل هذا الحلف حبراً على ورق إلى أن أوكل الملك دارا الثانى الإشراف على شئون آسيا الصغرى للأمـــير قورش الثانى يساعده الوالى الداهية تسافرنيس Tissaphernes ، وكان قورش الثانى عازماً على تنفيذ بنود التحالف مع اسبرطة ، وساعده على ذلك ظهور لوساندر كقائد على الأسبرطيين ، وقيام الصداقة الحميمة بينه وبين الأمير قورش ، واتفاقهما على التعاون من أجل هزيمة أثينا . ولقد سبب هذا التحالف غضب المدن الإغريقية من أسبرطة واتهموها بخيانة أشقائهم الإغريق فى آسيا الصغرى عندما تخلت عنهم للفرس فى صفقة سلام . وبالفعل هزمت أسبرطة أثينا وأجبرتها على الاستسلام لشروطها .

كان التحالف بين الفرس والأسبرطيين يقوم أساساً على الصداقة بين القائد الأسبرطى القوى لوساندر وبين الأمير قورش . وقد استطاع لوساندر بنفوذه أن يعين آجيسلاءوس ملكاً على أسبرطة بدلا من شقيقه، أما قورش فكان أميراً ذا طموح يتمنى أن يجلس على عرش فارس بمساعدة أسبرطة .

مغامرة المرتزقة الأغريق فى الشرق الأدنى :

وبالفعل أعلن الأمير قورش التمرد على أخيه الملك ارتاخشارشياى الثالث . وبدأ فى إعداد حملة عسكرية من الإغريق المرتزقة للإطاحة بأخيه ، وراهنت أسبرطة على قورش ملكا وسار قورش فى ربيع عام ٤٠١ ق. م فى صحبة عشرة آلاف جندى إغريقى مرتزق أغلبهم من الأسبرطيين ،

مخترقاً آسيا الصغرى فى الرحلة الشهيرة التى سجلها لنا المؤرخ الإغريقى كسينوفون فى كتابه الصعود Anabasis ، وبعد أن اخترقوا أراضى ليديا وفريجيا اتجهوا نحو كيليكيا ثم نحو شمال الشام ، ثم اخترقوا صحراء الشام إلى الفرات فى طريقهم إلى بابل ، ولكنهم ضلوا الطريق ولم يصلوا أبدا إلى بابل . ثم لقى الأمير قورش مصرعه . وظلت القوة الإغريقية فى التيه فى قلب آسيا الصغرى حتى وصلت إلى مدينة طرابيزون على البحر الأسود فى ربيع عام ٤٠٠ ق. م ، وكان كل ما بقى منهم حوالى ستة آلاف جندى .

أحلام اسبرطة لفتح الشرق الأدنى :

ونتيجة للتدخل الأسبرطى فى شئون العرش الفارسى تأزمت العلاقات بين الفرس والأسبرطيين ، وأدركت أسبرطة أن الحرب واقعة لا محالة بينها وبين الفرس ، ففجأة أعلن الأسبرطيون حق المدن الإغريقية فى آسيا الصغرى أن تتمتع بالحرية والاستقلال ، وانضم الناجرن من حملة العشرة آلاف إلى القوة الأسبرطية بقيادة دركيلبداس Dercyllidas والتى كانت فى طريقها إلى آسيا الصغرى من أجل الضغط على الامبراطورية الفارسية لقبول معاهدة سلام تعترف فيها بحق المدن الإغريقية فى الاستقلال ، لكن الامبراطورية الفارسية قاومت وأبطلت مفعول هذه الحملة بفضل قائد الأسطول الأثينى اللاجىء إلى الفرس بعد تحطيم الأسبرطيين لأسطوله .

كان الاسبرطيون أيضاً يحلمون بفتح بلاد الفرس ونهب خيراتها ، فما أن عين أجيسلاءوس ملكا فى اسبرطة حتى قاد قواته فى طريقه الى آسيا الصغرى ومعه قوة من شباب الاسبرطيين تقدر بألفين من الجنود ، كما كان يرافقه فى هذه المغامرة مجلس استشارى عسكرى يتكون من ثلاثين خبيرا على رأسهم لوساندر نفسه ، ووصلت الحملة الى آسيا الصغرى عام ٣٩٦ ق. م ، لكن سرعان ما حدث خلاف بين الملك ومستشاره لوساندر ، وطلب الأخير أن يرسل على رأس حملة لتأمين منطقة بحر مرمرة والبحر الأسود ، ووافق الملك على طلبه ، حيث حقق بعض الانتصارات لأسبرطة فى هذه المنطقة ، واستمر الملك أجيسلاءوس فى تحقيق انتصارات محدودة فى آسيا الصغرى تسببت فى عزل الوالى الفارسى هناك . ووافق الفرس على عقد معاهدة مع

الأسبرطين يتنازلون لهم فيها عن المدن الأيونية، ولكن بعد هزيمة الأسطول الأسبرطى هزيمة ساحقة على يد الأسطول الفارسى ثارت المدن الأيونية على الحاميات الأسبرطية الموجودة فيها ، وأعلنت ولاءها للأمبراطورية الفارسية لأنها أفضل بكثير من حكم الأسبرطين . رغم هذا لم يتوقف حلم أسبرطة لفتح الشرق الأدنى ، وتقويض الأمبراطورية الفارسية . فقد سبق أن رأينا تعاون الملك المصرى جدحر المعروف عند الأغريق بأسم تيوس Teos (الأسرة الثلاثين) مع اسبرطة فى مشروع حربى كبير ضد الأمبراطورية الفارسية وتعاون معهما أغريق كثيرون . ولكن ذلك المشروع لم ينجح .

وعلى العموم ترك لنا المؤرخ أكسينوفون الأثينى وصفا لأحوال الامبراطورية الفارسية فى نهاية القرن الخامس ق. م ، نتبين منه مدى الضعف الذى حاق بها ، كما نفهم من بلو تارخوس الذى كتب عن حياة الملك أرتا خشار شياى الثالث (أوخوس) ، ومحاولته اعادة السيطرة على بعض ولايات الامبراطورية التى كادت تستقل عنها ، فقد تمكن من اعادة مصر الى حوزة الامبراطورية الفارسية عام ٣٤٣ ق.م فقد كان آخر ماوك الفرس المقاتلين ، وبعد موته عام ٣٣٨ ق.م تولى ملوك ضعاف فضعفت سطوتهم على الادارة ، وانتشر الفساد ، وكثرت مؤامرات القصور ، وتدخلت النساء فى الحكم ، وازدادت سطوة الستراپات (الولاة) فى الأقاليم ، وفقدت شعوب الأمبراطورية حماسها الشديد للأمبراطورية الفارسية وأضحت ساخطة عليها ، كما دب الضعف فى جيوش فارس ، وسيطر عليها الجنود المرتزقة. ولقد شبه أحد المؤرخين وضع الأمبراطورية الفارسية فى القرن الرابع قبل الميلاد بالأمبراطورية العثمانية فى القرن الثامن عشر الميلادى عندما كانت الرجل المريض والتى كانت على وشك الانهيار عند أول ضربة عسكرية .

وباختصار كانت الامبراطورية الفارسية — سيدة الشرق الأدنى — قد أدت دورها وفى انتظار من يسقطها . وكان حلم تقويضها يداعب خيال الإغريق ، ولكن الحروب الطويلة بينهم جعل مدنهم — المحدودة القوة — فى غياب القيادة القوية — عاجزة عن تحقيق ذلك الحلم الكبير . هكذا كان حال الشرق الأدنى قبل الفتح المقدونى .

أهم مراجع الفصل الثانى

(أ) مراجع عربية ومترجمة :

١ – أحمد فخرى : مصر الفرعونية ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧١

٢ – أحمد فخرى : دراسات فى تاريخ الشرق القديم ، القاهرة ١٩٥٨

٣ – اندريه ايمار وجانين أو بوابيه : الشرق واليونان القديم بيروت ١٩٦٨

٤ – دى بورج : تراث العالم القديم ، القاهرة ١٩٦٥

٥ – سامى سعيد الأحمد : تاريخ الخليج العربى منذ أقدم الأزمنة ، بغداد ١٩٦٤

٦ – طه باقر : تاريخ العراق القديم ، بغداد (بدون تاريخ)

٧ – عبد الحميد زايد : الشرق الخالد : مقدمة فى تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق م ، دار النهضة العربية القاهرة (بدون تاريخ)

٨ – عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، مصر والعراق ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٩٠

٩ – فركوتيه (جان) : قدماء المصريين والأغريق – بحث فى العلاقات بين الشعبين منذ أقدم الأزمنة إلى نهاية الدولة الحديثة ، ترجمة محمد على كمال الدين كمال الدسوقى ، ومراجعة د. محمد صقر خفاجه ، دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٠ .

١٠ – فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، بيروت ١٩٥١ .

١١ – فيليب حتى : لبنان فى التاريخ منذ أقدم العصور التاريخية الى عصرنا الحاضر (ترجمة) بيروت وزارة الثقافة ١٩٥٩ .

١٢ – محمد عبد القادر محمد : الساميون فى العصور القديمة ، دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٦٨

١٣ – محمد على كمال الدين : الشرق الأوسط فى موكب الحضارة ، القاهرة ١٩٥١

١٤ – نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم ، الجزء الخامس ١٩٥٨ .

(ب) مراجع الأوروبية :

1. M.M. Austin : Greece and Egypt in the Archaic Age (Proceedings of the Cambridge Philological Society), 1970.

2. Cambridge Ancient History.

3. P.K. Hitti : History of Syria, 2nd edition, London, 1957.

4. H.D. Hogarth, The Ancient East, Home University Library, London, 5th edition, 1933.

5. K.A. Kitchen : The Third Intermediate Period in Egypt (1100—650 B.C.), Oxford, 1973.

6. Leemans : Foreign Trade in Old Babylonian Period, London, 1938

7. E. Yamauchi : Greece and Babylon — Early Contacts betwen. Aegean and Near East (Michigan, 1967).

الفصل الثالث

الفتح المقدونى للشرق الأدنى

ظلت مقدونيا طوال عصور التطور الحضارى والسياسى لبلاد اليونان منطقة يحيط بها الغموض[1] ، وذلك بالرغم من مساحتها الشاسعة ، وغناها بالمصادر الطبيعية ، فقد كانت عالماً نائياً بعيداً عن المنافذ البحرية والتيارات الحضارية المتفاعلة فى جنوب بلاد اليونان .

وفى عصر الانتشار والاستيطان أقامت بعض المدن الأغريقية لنفسها مستوطنات بالقرب من ساحل بحر إيجة الشمالى وحول خليج سالونيك ومنطقة خالكيديكى ، فوضعوا بذلك أيديهم على المنافذ المؤدية إلى مقدونيا ، وحالوا بين المقدونيين وبين العالم الخارجى ، وأبقوهم سجناء معزولين ، يحيون حياة البداوة من رعى وصيد وقتال ، ولم يعرف الأغريق عن المقدونيين سوى أنهم قبائل بدائية همجية تسكن الغابات والجبال . حتى أن أرسطو ضرب بهم المثل فى الشراسة ، بينما وصفهم آثينايوس بأنهم شعب مجنون بالصيد ، لا يعرف حداً للشراب ، ويعبون الخمر قبل الطعام حتى لا يفيقوا من السكر ، وبالطبع لم يعترف الأغريق بأن المقدونيين ينتمون للعنصر الهللينى المتحضر ، بل دمغوهم بأنهم برابرة .

وعندما اندلعت ثورة المدن الأيونية ضد الامبراطورية الفارسية عام ٤٩٩ ق . م بتحريض من أثينا زعيمة العنصر الأيونى ، وما تلى ذلك من قيام الامبراطورية الفارسية بحملتين لتأديب هذه المدينة ، والقضاء على نظامها السياسى الوليد الذى كان يزكى لهيب الثورة ضد السلام الفارسى المستقر ، وجدت مقدونيا نفسها — بعد أن كانت نسياً منسياً — وسط دوامة الأحداث. فمن ناحية خافت المدن الأغريقية — خاصة أثينا — أن تنضم مقدونيا إلى جانب الفرس فى حملتهم ضد الأغريق مثلما فعلت جارتها تراقيا . فتسمح للجيوش

الفارسية بالمرور عبر أراضيها فى طريقها لغزو بلاد اليونان ، ومن ثم خفف الأغريق من نظرتهم الاستعلائية للمقدونيين كبرابرة ، فأعلنوا اعترافهم بأن ملك مقدونيا فى ذلك الوقت - وهو الاسكندر الأول - ملكاً أغريقياً ، غير أن هذا النفاق لم يخدع الملك المقدونى ، فقد كان يربطه بالعرش الفارسى صلة نسب ومصاهرة ؛ كما أنه كان معجباً بالامبراطورية الفارسية المتحدة التى تدين شعوبها لها بالولاء ، بينما كان الأغريق دويلات متناحرة فيما بينها. ولذلك قبل الاسكندر الأول على الفور دعوة الملك الفارسى دارا الأول للدخول فى تحالف معه ، وفتحت مقدونيا أراضيها للحملة الفارسية الأولى لتمر عبرها عام ٤٩٠ ق . م ، وفى الحملة الفارسية الثانية على اليونان ، اشترك الاسكندر الأول ملك مقدونيا فيها بنفسه ، وهى الحملة التى نجحت فى احتلال أثينا وإحراقها عام ٤٨٠ ق . م ، غير أن هــذا الملك أنبه ضميره فانقلب على الفرس ، وساعد الأغريق على طردهم من بلاد اليونان ، ولم ينس الأثينيون بعد النصر من أن يوفوه حقه من التبجيل ، ووصفوه بأنه ملك محب للأغريق .

ومنذ منتصف القرن الخامس ، بدأ ملوك مقدونيا ، فى قبول اللغة والثقافة الأغريقية كتراث قومى لتوحيد شمل القبائل المقدونية المتنافرة ، وفتح ملوك مقدونيا قصورهم للأدباء والشعراء ورجال الفكر والسياسة من كافة المدن الأغريقية ، وزاد ارتباط مقدونيا ببلاد الأغريق خلال الحروب البيلوبونيسية الكبرى بين معسكر أثينا ومعسكر اسبرطة ، فقد تنافس المعسكران على كسب رضاء المقدونيين حتى لا ينحازوا لواحد ضد الآخر. كما بدا المستقبل فى صالح مقدونيا بعد أن أرهقت الحروب طاقة المدن الأغريقية واستنزفت إقتصادها ، بينما كانت مقدونيا لا تزال أرضاً بكراً .

وعندما بــدأ الضعف يحل بالامبراطورية الفارسية منذ أواخر القرن الخامس ق . م بدأت مقدونيا تسقط عنها التبعية لفارس ، وتكون لنفسها شخصية مستقلة وذلك منذ حكم الملك المقدونى أرخيلاءوس (٤١٣ - ٣٩٩ ق . م) ولكن بعد موت هذا الملك غرقت مقدونيا فى صراع على العرش تسبب فى تأخير بسط نفوذها على الجنوب الأغريقى ، بل إن المدينتين

الكبيرتين فى ذلك الوقت وهما أثينا واسبرطة سارعتا بالتدخل فى صراع العرش المقدونى .!

فقد كان زعيم طيبة الشهير بيلوبيداس يخشى أن تتحالف أثينا مع مقدونيا لتكوين تحالف يقضى على امبراطوريته ، فقاد حملة عسكرية كبرى ضد مقدونيا فى عام ٣٦٧ ق . م ، وأجبر ملكة مقدونيا يوريديكى أن تعلن ولاءها له . وضماناً لذلك بعثت الملكة بأبنها فليب لكى يكون رهينة عند بيلوبيداس فى طيبة . وظل فيليب ثلاث سنوات يتدرب فى مدرسة طيبة الحربية ، التى كانت من أشهر مدارس القتال فى ذلك الوقت ، فتعلم أحدث فنون التدريب والقتال ، التى نبغت فيها طيبة ، وبفضلها فرضت سيادتها على كل بلاد اليونان ، ومن ناحية أخرى أعد بيلوبيداس الأمير فيليب لكى يكون ملكاً موالياً لطيبة لكى يجلسه على العرش فى الوقت المناسب .

وبالفعل بعثوا به فى عام ٣٦٥ ق . م عندما نشب القتال على عرش مقدونيا مرة أخرى ليساعد أخاه برديكاس الثالث فى إنقاذ عرشه ، فدفعوا به ، وعندما سقط أخوه قتيلا فى الصراع ، بايع المقدونيون فيليب ملكا على مقدونيا عام ٣٥٦ ق . م بأسم فيليب الثانى ، وعلى الفور تخلص فيليب من المطالبين بعرش مقدونيا واحداً تلو الآخر ، وأعاد الرسوخ والاستقرار إلى المملكة ثم بدأ يتفرغ للدور الكبير الذى ينتظر مقدونيا على ساحة الأحداث .

فيليب وأحلام فتح الشرق الأدنى :

كان فيليب عندما جلس على العرش فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان قد تلقى تدريبه فى أحدث مدرسة عسكرية ، وهى مدرسة طيبة — كما ذكرنا من قبل — كما درس الثقافة والأدب والفكر الأغريقى ؛ فشرع على الفور فى استخدام خبرته فى تدريب وتنظيم رجال القبائل المقدونية فى الفيالق العسكرية Phalanx على غرار فيالق جيش طيبة الشهير ، وبدأ فى استغلال مناجم الذهب والفضة فى بلاده لتحقيق ثروة تساعده فى تنفيذ مشروعاته ، كما قام بنشر اللغة ، والحضارة الأغريقية فى كافة أنحاء مقدونيا لخلق رابطة فكرية وثقافية بين سائر أقاليم وقبائل مقدونيا من ناحية ، وبين مقدونيا والعالم الأغريقى من ناحية أخرى .

وما أن تم له بناء الدولة والجيش ، حتى شرع يختبر قوته ، فاستولى على تراقيا المجاورة ، وأخضع حوض بحر إيجة الشمالى ، وبسط نفوذه على اقليم تساليا واليونان الوسطى ، ثم بدأ يخضع المدن الأغريقية واحدة تلو الأخرى .

وفى معركة خايرونيا عام ٣٣٨ق.م ، سحق جيوش المدن الأغريقية الرافضة للخضوع لمقدونيا بزعامة أثينا وطيبة ، وغدت بلاد اليونان كلها تحت قدميه ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح تاريخ مقدونيا هو تاريخ الأغريق .

كان اخضاع الأغريق فى نظر فيليب هو مجرد خطوة لتحقيق مشروع بناء امبراطورية كبرى ترث الامبراطورية الفارسية التى كانت مقدونيا فى يوم من الأيام احدى توابعها ، وكان ذلك حلما داعب رجال السياسة والفكر من الأغريق ، منذ أن هزم الأغريق الفرس فى بلاد اليونان عامى ٤٩٠ ، ٤٨٣ ق.م ، تحت شعار الانتقام من الفرس لغزوهم بلاد اليونان ، وتبلورت هذه الفكرة فى القرن الرابع ، ونادى بها سياسيون مثل ايسوقراط Isocrates ؛ وفلاسفة مثل أفلاطون ، وأرسطو ؛ وكان هؤلاء المفكرون يرون أن القيام بحملة كبرى ضد الشرق لتقويض الامبراطورية الفارسية البربرية سوف يكون فرصة لتوحيد الأغريق ، وامتصاص طاقاتهم فى القتال حتى أن ايسوقراط دعى فيليب للقيام بهذه المهمة علنا فى خطاب وجهه إليه :

ورغم تآمر الأثينيين ضد فيليب ، ومقاومة المدن الأغريقية لمقدونيا ، إلا أن فيليب الثانى بعد أن تمكن فى عام ٣٣٨ق.م من هزيمة الأغريق فى خايرونيا أعلن عن عزمه على فتح الشرق الأدنى وأعد جيشاً بقيادة بارمينيون Parmenion كان على أهبة عبور الدردنيل ؛ وكان مقترحا أن يبدأ الزحف عام ٣٣٦ ق.م غير أن طعنة خنجر قاتل أبعدت فيليب عن انجاز هذا الحلم ، ليكون من نصيب ابنه الاسكندر .

الأسكندر وفتح الشرق الأدنى :

كان المسرح معدا لكى يلعب الأسكندر الثالث الذى عرف فيما بعد بالأسكندر الأكبر — الدور الكبير وهو الفتح المقدونى للشرق الأدنى ؟ فالجيش مكتمل ومدرب ، ويقف على أهبة الاستعداد ؛ وعقول الأغريق والمقدونيين قد تشبعت بهذه الفكرة ؛ وبسرعة سحق الأسكندر الثالث حركات التمرد التى اندلعت على أثر مقتل أبيه ؛ وأعاد إخضاع الأغريق ؛ والحصول منهم على لقب قائد عام اليونان ومقدونيا فى اجتماع عام عقد بمدينة كورنثا ؛ وقد حضر ذلك الأجتماع كل المدن الأغريقية فيما عدا اسبرطة ؛ التى انزوت على نفسها ؛ ولم تكن بذات قيمة بالنسبة للأسكندر الثالث ؛ كما أيد ممثلو الأغريق المجتمعون فى كورنثا مشروع غزو الأمبراطورية الفارسية، وووعده بتقديم المساعدات العسكرية والسفن اللازمة وهو نفس الوعد الذى كانوا قد قطعوه على أنفسهم أمام والده الراحل .

وفى ربيع عام ٣٣٤ ق.م عبرت القوات المقدونية براً وبحرا مضيق البسفور فى طريقها الى آسيا الصغرى ؛ وتمكن الاسكندر وقائده بارمينيون Parmenion من هزيمة الفرس فى آسيا الصغرى ، واستولى على المدن الساحلية بعد معركة نهر جرانيكوس ، ثم استولى على اقليم كاريا واقليم ليكيا واقليم فريجيا ، وكذلك الجزر المتاخمة لساحل الأناضول : مثل جزر خيوس ، ولسبوس ، وموتيليني ؛ وتقدم الى قبادوقيا عن طريق أنقرة وكذلك إلى قليقية ، ولقد واجه الاسكندر مقاومة شرسة من بعض المدن على ساحل بحر ايجة : مثل كاريا وهاليكارناسوس ، وميليتوس ، فقد كانت هذه المدن خاصة هذه الأخيرة تنعم بالرخاء التجارى فى ظلال الحكم الفارسى . وتستولى على نصيب الأسد من تجارة بحر ايجة وأسيا الصغرى ولم تخدعهم الرسالة القومية التى ادعى الاسكندر أنه يقوم بها من أجل الاغريق وضد عدوهم الشرقى اللدود ، الذى أذلهم وأهانهم عندما غزا بلادهم ، وحطم آلهتهم ، وسلب ممتلكاتهم ؛ إذ لم تنطلى هذه الحجة الا على عدد قليل من المدن الأغريقية ، التى أعماها التعصب ضد الفرس ، فمنذ أن ظهرت

الدعوة الى حملة انتقامية ضد الأمبراطورية الفارسية ، لم يكن ادعاء رد الشرف الأغريقى الا غلافا يحيط بالرغبة فى جمع الغنائم والأسلاب ، وفتح وديان الشرق الأدنى الغنية بأنهارها ، وثرواتها أمام المهاجرين الأغريق ؛ فقد كان الأغريق يعانون فى ذلك الوقت من الافلاس الاقتصادى بسبب الحروب الكثيرة ومن تزايد عدد السكان ، وركود التجارة بسبب سيطرة الفرس وحلفائهم الفينيقيين على تجارة شرق البحر المتوسط ؛ ومن ثم فقد كان هناك تسابق فى جنى هذه الثمرة الدانية التطوف . فقد كان الأغريق يحنقون على مقدونيا بزعامة الاسكندر ، لقدرتها على تنفيذ هذا الحلم ، أكثر مما كانوا يباركون حلتها . ولمـــا أحس الاسكندر بذلك — بعد سقوط ميليتوس أسقط مساعدة الأغريق له من حسابه ، وأدرك أن المعركة معركة مقدونيا وحدها . إذ لم تتقدم أى من كبريات المدن الأغريقية بأى مساعدة له سواء بتقديم السفن أو العتاد ، أو الرجال ؛ بل على العكس ، وجدهم يتآمرون مع الفرس لافشال حملته ؛ ومن ثم ، أجل متابعة الزحف الى قلب الأمبراطورية الفارسية فى الداخل الى بعدما تأمين خطوط الامداد والتموين البحرية سواء فى موانىء آسيا الصغرى أو الشام أو مصر .

وبناء على ذلك غير خط حملته ليتجه نحو الجنوب ، فى ربيع عام ٣٣٣ ق.م سار جنوبا حتى وصل الى طرسوس (اسوس القديمة Issos) ، وتحت مرتفعات جبال الأمانوس فى شمال الشام ، التقى بجيوش الملك الفارسى دارا الثالث حيث الحق به هزيمة أخرى مثل هزيمة نهر جرانيكوس السابقة ؛ وأسر والدة الملك وزوجته . واستولى على درعه وعربته الملكية وردائه ، كما وقع فى يد الاسكندر رسائل بعثت بها بعض المدن الأغريقية لتأييد الملك الفارسى ؛ وألقى الأسكندر القبض على بعض مبعوثى المدن الأغريقية الذين كانوا يخططون للملك طريقة للقضاء على الأسكندر ، وهزيمة حملته . واحتفاء بذلك النصر أمر الأسكندر ببناء مدينة وثغر عند خليج اسوس ، وأطلق على هذه المدينة الجديدة اسم الأسكندرية . ثم تحول اسمها بعد ذلك الى

الأسكندرونة تحريفاً للكلمة الأغريقية الكساندروسكينى Alexandroscene أى خيمة الأسكندر أو فسطاطه .

وبعد انتصاره فى أسوس أصبح الطريق الى الشام مفتوحا ، وبدأت الامارات الآرامية تسقط فى حوزته واحدة تلو الأخرى دون مقاومة تذكر ؛ واتجه الى ساحل الشام ؛ وبدأت الموانىء الفينيقية الشهيرة والتى كانت أهم قواعد االأسطول الفارسى فى البحر المتوسط تستسلم واحدة تلو الأخرى ، بل تسابق أهلها للتقرب الى الاسكندر ، وكسب رضاه ؛ فخرج للترحيب به سكان أرواد ، وبيلوس ، وصيدا Sidon ، وعندما اقترب من صور — القاعدة الرئيسية للأساطيل الفارسية ؛ أغلقت هذه المدينة أبوابها فى وجه االفاتح المقدونى ، رغم أنه لم يكن هناك حاميات فارسية بها ؛ ولم يجد الأسكندر بدا من ضرب الحصار حولها سبعة شهور كاملة ، وهو عاجز عن اقتحامها ؛ فقد كانت صور تتربع على عرش تجارة شرق البحر المتوسط وغربه ؛ تعمل فى سلام تحت مظلة الحماية الفارسية . وأخيراً قام الأسكندر بردم المجرى المائى الواقع بين الجزيرة القابعة أمام ميناء صور وبين المدينة ذاتها ؛ ولما وصل الى منتصف المجرى المائى ، طوق المدينة من البر والبحر ؛ وجمع أربعة وعشرين سفينة من حلفائه من المدن الفينيقية الأخرى التى كانت تحقد على صور لنجاحها ؛ وتتمنى زوالها لترث تجارتها ؛ وعلى رأسهم بيلوس وأرواد ؛ كما ساعدته قبرص أيضاً ؛ فأكمل الجسر ، وضيق الحصار على صور حتى سقطت بعد سبعة شهور من الحصار . وكان لسقوط صور أثره الكثير فى الاستيلاء على باقى إمارات الشام ؛ فقد سقطت بعد ذلك أمارة دمشق ، واستمر فى سيره جنوبا نحو الحدود المصرية وهو ينوى معاقبة صور بتحويل الطريق التجارى عنها ، ببناء ميناء جديد على ساحل مصر الشمالى .

فتح الأسكندر لمصر :

وفى خريف عام ٣٣٢ ق . م تقدم بقواته نحو غزة فاستسلمت الحامية الفارسية ، ووجد الأسكندر نفسه يدق أبواب مصر غازيا . وكما سبق أن رأينا أن مصر كانت رافضة لحكم الفرس ، رغم محاولة ملوكهم ارضاء

المصريين بشتى الطرق ؛ إذ رفضت مصر أن تكون مجرد سترابية فارسية مثل غيرها ؛ كما أنها لم ترض بفصل الشام عنها . ولقد استطاعت بعد عدة ثورات أن تستقل عن الامبراطورية الفارسية عام ٤٠٤ ق.م ، وتعاونت مع أثينا ، ثم اسبرطة فى صراعها مع الفرس ؛ بل ان الفرعون تيوس (جدحر) — أحد ملوك الأسرة الثلاثين — كان يحلم بتجريد حملة ضد الامبراطورية الفارسية بمساعدة اسبرطة ؛ ونجح فى الزحف على الشام ؛ وكاد أن يحررها لولا حدوث خيانة فى القصر الملكى فى غيابه ؛ ولم يتمكن الفرس من استعادة مصر الا فى عام ٣٤٣ ق.م ، فى عهد الملك أرتاخشار شياى أوخوس .

رغم ذلك لم تتوقف حركات التمرد والعصيان ضد الفرس . وربما كان المصريون أحدى الشعوب التى كانت تتمنى زوال الامبراطورية الفارسية لاستعادة سيطرتهم السليبة على الشرق الأدنى . ويقال أن مصريا اسمه تاف — نخث حارب الى جانب الاسكندر فى موقعة أسوس ؛ وكان هذا الأمير المصرى من اهناسيا (هيراقليوبوليس) ؛ وأنه كان يحث الاسكندر على فتح مصر ، وشرح له الظروف غير المستقرة فى ذلك البلد ؛ بل ربما أعطاه صورة عن آلهة المصريين ، وكيف يستطيع أن يستأثر بعواطف المصريين ومشاعرهم ؛ ولاشك أن هذا المصرى كان دليل الاسكندر فى رحلته إلى مصر .

لم يجد الاسكندر أى مقاومة لامن المصريين ، ولا من الحامية الفارسية عند الحدود ؛ واتجه الى «منف » ، أقدم عاصمة وأول مدينة كبيرة يحط فيها القادم من الشام ؛ وكانت هذه المدينة قد نمت فى العصور المتأخرة حيث فضل كثير من الأجانب العيش فيها ؛ فأصبحت تعج بالأغريق ، والفرس ، والعرب ، والفينيقيين ، والآراميين ، وغيرهم من شعوب الشرق الأدنى ؛ وبالطبع كانت الجالية الإغريقية أكبر الجاليات ؛ ويبدو أن هذا الامتداد والتوسع جعلها تشمل جزءا يقع شرق النيل (فى مصر القديمة) . وكان كهنة منف — بعكس كهنة طيبة فى الجنوب — أكثر انفتاحا على الحضارات والعبادات المختلفة ، وعلى الشعوب المتباينة العرق واللسان . كما كانت منف تلعب فى ذلك الوقت

دورا دينيا هاماً . فهى مقر بتاح (الذى عادله الأغريق بربهم هيفايستوس) ومقر عجل أبيس المقدس ؛ وفى جبانتها الكبرى فى سقارة أقيمت مدافن مقدسة لدفن هذا العجل بعد موته ، وهوما يسميه علماء الآثار خطئا بالسيرابيوم . ويبدو أن دليله ومساعده المصرى « تاف نخت » ، أشار عليه بالتوجه الى معبد المدينة لتقديم القرابين والصلوات للكهنة ؛ ولم يكن هناك ما يمنع من زيارته لعجل أبيس ؛ وتقول المصادر الاغريقية أنه توج نفسه فرعونا على مصر فى معبد « بتاح » ؛ فقد كان الاسكندر مقتنعا بأنه ابن آمون رع ومن صلبه ، وبالتالى فقد جاء لتحرير أرض أبيه من الفرس ، وتوكيدا لذلك ذهب ليحظى بمباركة كهنة رع فى معبد « أوون » الكبير (هليوبوليس) الباقية آثاره لليوم بالقرب من المطرية .

تأسيس الاسكندرية :

ثم سار بحزاء الفرع الغربى للنيل فى طريقة إلى قورينة Cyrene ، تلك المدينة المستوطنة التى بناها الأغريق على ساحل ليبيا (حالياً قرية شحات محافظة الجبل الأخضر) ، والتى كان الفرس يحتلونها ويهددون منها مصر وبلاد اليونان . وقد توقف الاسكندر بالقرب من بحيرة مريوط ، وراعه الأهمية الاستراتيجية للشريط الضيق الممتد من الشرق إلى الغرب ، والمحصور بين البحيرة والبحر المتوسط ، ووجود مصب فرع النيل الكانوبى بالقرب منه ؛ وبحسه الغريزى والعسكرى بأهمية المكان ، رأى أنه يستطيع أن يقيم حاضرة وميناء تلتقى فيه تجارة الشرق والغرب ؛ وتتحول إليه طرق التجارة من الساحل الفينيقى ، فقد كانت صور تحتكر التجارة البرية والبحرية طوال حكم الفرس ؛ بل ومنذ تدهور النفوذ المصرى فى الشام ؛ ولذلك فكر الاسكندر فى معاقبة صور لمقاومتها له ، وذلك بإبعادها عن عرش التجارة العالمية ، بتحويل طريق التجارة عنها ؛ ومن ثم فكر فى بناء هذا الميناء الجديد ذى الموقع الفريد ؛ وبالقرب قريه مصرية كانت تدعى راقودة ، أسس مدينته التى أسماها بالاسكندرية والتى ظلت تتربع على عرش التجارة بين الشرق والغرب ردحاً من الزمن . ولم يكن هناك وقت للاقامة ، حتى اكتمال بناء المدينة ؛ فاكتفى بأن أوكل إلى أحد معاونيه من المهندسين الذين كانوا يرافقونه وإسمه دينوقراط

Deinokrates باكمال بنائها ، وجعلها نموذجاً أمثل لهندسة بناء المدن الأغريقية . ولا نعرف بالضبط التاريخ الذى وضع فيه أساس المدينة ، إلا أن البطالمة — ورثة الاسكندر فى حكم مصر — احتفلوا بعيد وضع أساسها كل عام فى اليوم الخامس والعشرين من الشهر الخامس من السنة المصرية القديمة وهو شهر طوبة (الموافق العشرين من شهر يناير سنة ٣٣١ ق . م) .

وبعد إختيار المكان سار الاسكندر وجنوده بحزاء الساحل الشمالى لمصر فى طريقهم إلى قورينى ؛ وعند مدينة « بارايتونيوم » (مدينة مرسى مطروح الحالية)التقى الأسكندر بو فد من مدينة قورينى يعلن المبايعة ،ويقدم الهدايا ؛ عندئذلم ير الاسكندرمبرراً لمتابعة السير ،خاصةأن المعركة مع غريمه دارا الثالث — ملك الفرس — لم تنته ؛ وأن معركة الشرق الأدنى لم تحسم بعد .

لم تمنع هموم المعركة وعدم وفاء الأغريق له الاسكندر من أن ينتهز فرصة وجوده فى مرسى مطروح ليقوم برحلة روحية إلى معبد آمون رع بسيوة ، ليحصل على اعتراف كهنة هذا المعبد بأنه فعلا ابن آمون رع من صلبه فى صورة بشر ؛ والحصول على مباركة كهنته ، وبذلك يكون قد حصل على اعتراف ثلاث هيئات دينية كبرى فى مصر وهى كهنة منف ، وكهنة هليوبوليس ، وكهنة سيوة ؛ وكذلك ليسأل آمون رع عن هوية قاتل أبيه الانسان فيليب . ويقال أن الكهنة تهربوا من الإجابة قائلين أنه لا أحد يستطيع أن يقتل أباه (لأنه حى لا يموت) ، وكان هذا ما يريده ، ويقال أن سلوكه قد تغير بعد هذا الاعتراف ؛ إذ بدت عليه مظاهر التأله وجنون العظمة وتقليد الفراعنة المؤلهين .

تنظيم الاسكندر لمصر :

ومن تصرفات الاسكندر فى مصر عامة وفى منف خاصة ، نرى أن الاسكندر بالرغم من ادعائه بنوة آمون رع ، وقيامه بتقديم الأضاحى فى المعابد ، وفروض الاحترام لعجل أبيس ، وسائر الآلهة المصرية بصفته

أول فرعون مقدونى على مصر ، إلا أنه أعلن عن قدوم الحضارة الأغريقية بشكل رسمى إلى هذا البلد ، وأنها أصبحت مفتوحة لحضارة العنصر الأقوى التى جاءت لتتعايش مع الحضارة المصرية ، وتمتزج بها وتتفاعل معها . ففى « منف » أقام مهرجاناً ثقافياً ورياضياً على طريقة المهرجانات الأغريقية ، وأرسل فى طلب أشهر المغنيين والراقصين ، والفنانين والشعراء الأغريق ، ليعرضوا روائع الحضارة الهللينية أمام جمهور منف من مصريين وأجانب ؛ وعند الوضع أساس الاسكندرية قيل أن الاسكندر اشترك بنفسه فى تحديد مواقع مرافق المدينة على النمط الأغريقى ، فحدد موقع الأسوار ، وموقع معبد إيزيس ، وسائر الآلهة الأغريقية . فقد كان هدفه أن تحل هذه المدينة بعنصريها الأساسيين الأغريقى والمصرى — محل منف كعاصمة جديدة لمصر ؛ ومعنى ذلك أن الحضارة الجديدة فى مصر كانت تقوم على تفاعل الحضارتين المصرية الخالدة ، والأغريقية المنتصرة ، وتذليل التنافر القومى بينهما .

ولقد انعكست هذه الفلسفة فى طريقة إعادة تنظيمه لمصر ، فقد حرص على الإبقاء على النظم المصرية القديمة ، فى نفس الوقت وضع المناصب الفعالة فى أيدى موظفين من الأغريق . ولذلك جعل الحكم فى مصر ثنائياً يقوم على مشاركة المصريين للأغريق ؛ فقد وضع فى أيدى المقدونيين والأغريق السلطتين العسكرية والمالية ، وأبقى للمصريين السلطة الإدارية ؛ وبذلك ضمن عدم قيام ثورة وطنية ضد الحكم المقدونى ؛ وأرضى مشاعر المصريين القومية والدينية . كما أن حرصه على توزيع السلطة الخاصة بالجانب الأغريقى بين أكثر من فرد ، يعكس خوفه من احتمال قيام أحد الأغريق بالاستقلال بمصر ، لأنه كخبير بالاستراتيجية ، أدرك أن مصر بلد يسهل حكمه ، ويسهل الدفاع عنه فى نفس الوقت ، كما نلاحظ الدقة فى توزيع الحكم فى الجانب الأغريقى ؛ فقد وضع السلطة العسكرية فى أيدى المقدونيين السادة الجدد ، بينما وضع السلطة المالية فى أيدى الأغريق من غير المقدونيين . كما أنه لم يعين حاكماً مقدونياً معيناً ، بل وزع السلطات بتوازن دقيق يمنع مثل هذا الاحتمال . وجدير بالذكر ، أن مصر هى البلد الوحيد الذى نظمه

الاسكندر بهذا الحرص دون سائر البلدان الأخرى ، التي فتحها سواء في آسيا الصغرى أو الشرق الأدنى .

ولحين إكتمال بناء الاسكندرية ، أبقى الاسكندر على « منف » كعاصمة لولاية مصر المقدونية ؛ وأبقى على التقسيم التقليدى والإدارى لمصر ؛ وهو مصر العليا ومصر السفلى ؛ وعين على كل منها حاكماً مصرياً إقليمياً . وتقول المصادر الأغريقية أن حاكم مصر العليا المصرى كان إسمه بتيشيس Petesis (أو بت إيزيس أى ابن إيزيس) ، أما حاكم الوجه البحرى فكان إسمه دولو أسبيس Dulo Aspis ، وكما حرص الاسكندر على ترك حامية مقدونية عسكرت فى صحراء سقارة بالقرب من منف ؛ وعين ضابطاً مقدونياً إسمه بيوكستاس Peukestas (*) قائداً لها . كما بعث بحامية إلى الجنوب ، لمنع النوبيين من إثارة المصريين أو الزحف إلى الشمال ؛ وقد عسكرت هذه الحامية قرب الشلال الأول جنوب أسوان ؛ وجعل على قيادتها مقدونياً إسمه أمونتاس Amyntas ؛ وعند سواحل مصر الشمالية ترك أسطولا ، جعل قيادته لأغريقى إسمه بوليمون بن ثيرامينيس ؛ كما ترك حامية أخرى صغيرة عند بيلوزيوم (تل الفرما) وهى بوابة مصر الشرقية ، ومن المحتمل أنه ترك حامية صغيرة عند بارايتونيوم (مرسى مطروح) لحماية مصر من هجوم قد تشنه القبائل الليبية عليها من الغرب ؛ وبتأمين هذه المنافذ الثلاث أصبحت مصر مؤمنة فى يده تماماً . ولعل هذا الحرص الشديد على تأمين مصر ، يوضح نظرته الاستراتيجية المستقاة من تاريخ مصر الطويل أن مصر هى مفتاح السيطرة على الشرق الأدنى .

وكما سبق أن ذكرنا لم يحدث الاسكندر أى تغيير فى نظم مصر الادارية لحكم أقاليمها ؛ فبقيت مصر مقسمة إلى مقاطعات ، والتى أصبحت تعرف الآن بإسم النومات Nomes ؛ وترك حكم كل مقاطعة لحاكم مصرى محلى ، بجمع الضرائب والعوائد ، وينفذ الأوامر الصادرة إليه ؛ لكنه عزل السلطة الإدارية عن السلطة المالية ؛ وقد اختار لإدارة السلطة المالية أحد كبار تجار ووجهاء مستوطنة نقراطيس الأغريقية فى مصر ؛ وكان إسمه

(*) أغلب الظن أن هذا الاسم هو الترجمة الاغريقية لاسم مصرى لانه يتعلق بثعبان الكوبرا (واجت) معبود الوجه البحرى القديم (انظر ص ٧٧) .

كليومينيس النقراطيسى Kleomenes ؛ ولقد ثبت أن هذا الأغريقى المستوطن لمصر كان تاجراً جشعاً ، واستغلالياً ماكراً ؛ فقد عهد إليه الاسكندر بتحصيل الضرائب والعوائد لينفق منها على إكمال بناء الاسكندرية ، وترميم معابد مصر الكبرى ؛ فما أن غادر الاسكندر مصر ، حتى ظهر نفوذه المالى القوى ، فاحتكر تجارة القمح لنفسه ، ومنع تصديره إلى خارج البلاد ، إلا عن طريق وكالته ؛ وكان يشترى القمح بثمن بخس من الزراع ؛ بينما كان يصدره بأثمان باهظة ؛ ولم تتوقف تحدياته عند هذا الحد ، بل أرغم الكهنة المصريين على التبرع بمبالغ كبيرة بحجة ترميم المعابد ، وكان هدفه إخضاعهم لسلطته وتقليم أظافرهم ، كما حرص على جمع المتأخرات الضريبية من الفلاحين كاملة ، وبذلك حنق عليه الكهنة والشعب على السواء .

وتطبيقاً لسياسة « أغرقة مصر » ، فقد فتح الاسكندر أبواب مصر على مصراعيها للمهاجرين الأغريق خاصة المقدونيين ؛ لأن مصر كما تخيلها الاسكندر كانت ولاية مقدونية أغريقية فكراً وثقافة ؛ وكان ذلك نقطة انعطاف كبرى فى تاريخ مصر ؛ إذ دخلت فى طور حضارى جديد من أطوار حضارتها المتنوعة ظل سائداً حتى قدوم الحضارة العربية الإسلامية .

وبالرغم من أن الفترة التى قضاها الاسكندر فى مصر كانت فترة وجيزة ؛ إلا أن حماسة « وديناميكيته » المتفجرة جعلته يقوم بأعمال كثيرة ، منها إصدار الأوامر ببناء جسر على النيل يربط بين منف القديمة غربى النيل ، ومنف الجديدة شرق النيل (مصر القديمة تقريباً) ؛ بل قيل أنه أمر بارسال بعثة لاستكشاف منابع النيل ؛ لأن مسألة من أين ينبع النيل كانت قضية حيرت العلماء والفلاسفة الأغريق ؛ ومن الواضح أن الاسكندر كان يصطحب معه مجموعة من العلماء . وهذا تقليد اتبعه غزاة مصر فيما بعد . كما قيل أنه لم يكن لديه وقت لزيارة طيبة (الأقصر) العاصمة الدينية الأولى لمصر ، والتى خرج منها ودفن فيها أغلب فراعنة مصر العظام ؛ ومن ثم أوصى بأن تجدد معابدها ، وطلب أن تبنى له مقصورة فى معبد الكرنك

بجوار مقصورة تحتمس الثالث ، أعظم ملوك الدولة الحديثة ، ولا تزال هذه المقصورة موجودة حتى الآن .

ولقد أكسبه هذا السلوك المهذب إعجاب المصريين ، فاعترفوا به فرعونا عليهم ؛ ونقش إسمه فى خرطوش على النحو الذى كان تكتب به فراعنة مصر ؛ بل ومنح الألقاب الملكية الخمس ، مثل « ابن رع » ، و « صفى رب الشمس » ، و « حبيب آمون » ، و « ملك الوجهين » . ولا تزال هذه الألقاب منقوشة بجوار صورته ؛ التى صورت على الطريقة المصرية ؛ وهو يرتدى تاج الوجهين ، الذى تزينه حية الكوبرا المقدسة (رمز التاج والخلود الأبدى عند المصريين) مصورة على جدران مقصورته بمعبد الكرنك فى مدينة الأقصر . ولقد بالغ التراث فى حبه لمصر حتى قيل أنه أوصى بأن يدفن جثمانه فى سيوة حيث معبد آمون رع .

يتضح مما سبق أن فتح مصر كان بالنسبة للاسكندر أمراً ملحاً يجيء قبل فتح آسيا الصغرى والشام ، ويستحق من أجله أن يوقف القتال مع عدوه دارا الثالث ، مغامراً باعطائه فرصة لالتقاط أنفاسه ، وإعادة تنظيم فلول قواته ؛ لأنه كعارف بفن الاستراتيجية أدرك أن مصر بحكم تاريخها وموقعها هى مفتاح الشرق الأدنى ، ولقد قيل أن الاسكندر كان يتمنى أن يعود لزيارة مصر بعد أن يفرغ من تقويض الامبراطورية الفارسية ، ولكن القدر شاء أن يعود إليها محنطاً وموضوعاً فى تابوت ، ليكون مثواه الأخير فى تراب مصر الخالدة .

إكمال فتح الشرق الأدنى :

وفى ربيع عام ٣٣١ ، غادر الاسكندر مصر متجهاً إلى صور ، حيث بدأ فى الاستعداد للزحف الأكبر نحو قلب الامبراطورية الفارسية ؛ ولما أتم إستعداداته ، تحرك على رأس جيش يبلغ تعداده حوالى أربعون ألف رجل ، وسبعة آلاف فارس ، متجهاً شرقاً نحو بلاد الرافدين ؛ فوصل إلى مدينة ثابساكوس Thapsacus الواقعة على أعالى نهر الفرات (مدينة الرقة

حاليآ) ، وذلك فى صيف عام ٣٣١ ق.م وهناك أقام معبرين عبر بهما نهر الفرات موليآ وجهه شطر بابل ؛ تلك المدينة ذات التاريخ العريق ، والتى كانت تستولى على خياله ؛ متخذآ طريقه عبر شمالى بلاد النهرين ؛ ثم سار جنوبآ بحزاء نهر دجلة من ناحية الضفة الغربيه ؛ ولقد قدم له اليهود — الذين كانوا ينتشرون فى ميديا ، وبابل منذ الأسر البابلى — المعونة على أمل مساعدتهم فى العودة إلى فلسطين ؛ بعد ذلك ، لم يشأ الاسكندر أن يتبع نفس الطريق الذى سار فيه الأمير قورش خلال رحلة العشرة آلاف ، وإنما سار شمالا نحو أعالى بلاد النهرين ، ثم تحول نحو الجنوب بحزاء الشاطىء الشرقى لدجلة .

ولما كان دارا الثالث وجيشه يعسكران على الجانب الآخر من النهر ، فقد تفادى الاسكندر عبور النهر عند نينوى عاصمة آشور القديمة ، وإنما عبره عند مدينة بيزابدى Bazabde ؛ وسار لعدة أيام نحو الجنوب ، ولما علم أن دارا يعسكر وقواته فى مكان قريب من سهل جاوجاميلا Gaugamela ، تحرك الاسكندر ليلا ليسيطر على التلال المطلة على السهل .

وفى أول أكتوبر عام ٣٣١ تقدم الملك دارا الثالث وهو فى وسط قواته ، ويحيط به الحرس الملكى من كبار الضباط الفرس ؛ وكان جيش الملك الفارسى يمثل عناصر قومية وعرقية مختلفة ؛ فقد كان فى جيشه جنود مرتزقة من الأغريق ؛ وجنود من الهند ، معهم فيلة ضخمة ومدربة على القتال ؛ كما كان بين صفوف جيشه جنود من كاريا ؛ بل أن مؤخرة الجيش الفارسى دعمت من الخلف بخط من القوات البابلية الموالية ، وبعض رجال قبائل الخليج العربى ؛ وغيرهم من مختلف الشعوب الآسيوية التى كانت خاضعة للفرس ؛ والتقى الجيشان فى معركة شرسة ؛ انتهت بفرار الملك دارا ، وتبعه بقية جيشه بعد هزيمته فى جاوجاميلا ؛ غير أن الاسكندر استمر فى تعقبه ، واتجه إلى أربيل ، وهناك لم يجد الملك الذى تابع فراره شرقآ إلى ميديا ؛ غير أن الاسكندر استولى على عربته وقوسه ودرعه . عندئذ تابع الاسكندر طريقه إلى المدينة التى كان يشتاق إليها دائمآ ، وهى « بابل الساحرة » بحدائقها المعلقة ، ومعابدها الشامخة فى كبرياء .

الإسكندر فى بابل :

ولما وصل إلى بابل ، فتحت له المدينة أبوابها راضية مرضية ، وخرج كهنتها وشعبها للترحيب به ، وقد ترك ذلك ذكرى طيبة فى نفس الاسكندر ، فسلك مع المدينة العريقة سلوكاً نبيلا شبيه بسلوكه مع منف ؛ وسلم له الوالى الفارسى مازايوس Mazaeus مفتاح المدينة والقلعة . وظهر الاسكندر بمظهر الغيور على الديانة البابلية ، والحامى لمعابدها ؛ وعلى الفور شرع فى ترميم المعابد التى كانت فى حالة سيئة ؛ وأمر بالاهتمام على وجه الخصوص بإعادة ترميم معبد الرب « بعل » "Bel" (مردوخ) ؛ كما أمر بأن يبقى الوالى مازايوس فى منصبه كستراب على ولاية « بابل » ؛ ثم بدأ فى تنظيم هذه الولاية ، وإعطائها عناية خاصة ، مثلما فعل فى مصر ؛ فعين مقدونياً كقائد أعلى للقوات ؛ وأغريقياً كمسئول عن الإدارة المالية ؛ وسمح بتجنيد الوطنيين من أبناء الولاية لتكوين قوة لحفظ الأمن والنظام ، تحت قيادة ضباط مقدونيين .

ولقد حرص الاسكندر على كسب ود كهنة بابل وحكامها ، وقدم الطقوس التقليدية كملك على بابل ، وكان ملوك الفرس أيضاً يحرصون على حمل ذلك اللقب . غير أنه بدءاً من الملك خشارشاى ، لم يعد ملوك الفرس يحرصون على حمل ذلك اللقب ، بسبب الثورة العارمة التى قامت ضد الفرس فى بابل ، وحيث اقتحم خشارشاى على أثرها معبد بابل الكبير ، وألحق به أضرارة كبيرة ؛ وكان للاسكندر شرف ترميمها . ولقد كانت المدة التى قضاها الاسكندر فى بابل أقل من المدة التى قضاها فى مصر ، إذ بقى فى بابل ستة أسابيع ؛ بينما ترك قواته لتستريح وتمرح ؛ لكن لم نسمع عن حالة واحدة تعرض فيها معبد من معابد بابل لسلب أو نهب من جانب جنود الاسكندر .

نهاية الإمبراطورية الفارسية الأخمينية :

وفى مطالع شهر ديسمبر عام ٣٣١ ق . م سار الاسكندر فى اتجاه الجنوب الشرقى قاصداً صوص (سوسا Susa) ، التى كان أحد ضباطه

وإسمه فيلوكسينوس Philoxenos قد استولى عليها ؛ وفى داخل قلعة « صوص » استولى ضابط الاسكندر على كنوز من الذهب والفضة والحرير القرمزى ؛ ومن بين التحف التى استولى عليها أيضاً تمثالين كبيرين كان خشارشياى قد أتى بهما معه بعد أن استولى على آثينا فى حملته الفارسية الثانية وهما تمثالا هارموديوس وأرسطو جيتون Harmodius and Aristogeiton ، وهما يقومان باغتيال الطاغية هيبارخوس ؛ وقد عرفت هذه المجموعة بإسم Tyrannicidesأى « قتلة الطاغية » ؛ وعلى الفور أمر بأعادتها إلى آثينا ليقاما فوق الأكروبول ، لتعود إلى مقرها الذى كانت عليه منذ تسعة وخمسين ومائة سنة سبقت ، كرسالة للأغريق بأن الاسكندر قد أعاد شرف الأغريق الذى انتهكه الفرس .

وبعد أن استراح الاسكندر فى القصر الصيفى لدار الثالث ، استأنف مسيرته نحو هضبة إيران ؛ وكان هدفه توجيه الضربة القاضية للامبراطورية الفارسية فى عقر دارها ؛ ثم التفرغ لاكتشاف هذا الجزء الغريب والغامض من الشرق ، وخلال السير استولى الاسكندر على القصور الملكية الفارهة فى « مرف داشت Mervdasht » حيث الثراء الخرافى ، ثم مدينة « أصطخر Istacher » التى اعتقد الفرس أنها أقدم مدينة فى العالم ؛ وكان بها قصر آخر للملك ، بعدها دخل الاسكندر عاصمة الامبراطورية ، وهى مدينة « برسوبوليس Persopolis »(١) وأضرم النار فى قصورها ، ونهب كنوزها ، ثم تقدم نحو مدينة « باسارجادا » ، مسقط رأس قورش الأكبر ؛ ولما علم الاسكندر بوجود الملك دارا الثالث فى « اكباتانا Ekbatana » ؛ تقدم نحو هذه المدينة ؛ ولما اقترب منها ، علم بأن دارا قد فر هارباً إلى بحر « قزوين » ؛ فاتجه إليها ودخلها وكانت « اكباتانا » ؛ هى عاصمة إقليم ميديا الأصلى الذى تأسست منه الامبراطورية الفارسية الأخمينية ؛ ووضع الاسكندر كل الكنوز التى استولى عليها من قصور ملوك الفرس ، خاصة قصور برسوبوليس فى

---

(١) هذا هو الأسم الذى عرفت به فى المصادر الأغريقية ، أما اسمها الفارسى فقد كان « فارساً Parsa» على اسم فارس ، وهى تقع جنوب شرق إيران .

خزانة فى هذه المدينة؛ وعين عليها حارساً مالياً إسمه هارباالوس Harpalus ، يساعده فرقة من الحرس المقدونى ؛ ثم تابع السير نحو مدينة قدوسيا Kadusia للقبض على دارا الثالث ، ماراً بمدينة راجاى Ragae التى تقع إلى الجنوب قليلا من موقع طهران الحالية ؛ ولما وصل إلى هناك ، علم أن دارا قد عبر الممرات الجبلية المؤدية إلى بحر قزوين ؛ فاستراح فى هذه المدينة ، ولما علم أن أحد أعداء دارا الثالث قد عزله عن العرش ، وتولى مكانه ؛ أسرع للاحقتهما معاً ؛ وإذ به يعثر على جثمان دارا ؛ فأقام له التكريم اللازم ؛ وأمر بإرساله مكرماً ليدفن فى المقبرة الملكية للفرس فى برسوبوليس ، وبذلك سقطت الامبراطورية الفارسية .

غير أن الأسكندر استمر يطارد قاتل دارا وإسمه بيسوس Bessos ، فأحتل إقليم هركانيا ، وإربا ، وباكتريا ، وسوجديانا ؛ جاعلا حدود إمبراطوريته الجديدة هو نهر جاكسارتس Jaxartes (سور داريا) ، الذى يصب فى بحر الأورال . ويقال إن الأسكندر هو أول من اكتشف ذلك النهر ؛ وعلى ضفافه أنشأ مدينة أخرى من سكندرياته المشهورة وهى « الأسكندرية القصوى أو آخر الدنيا » Alexandria Eschate (ربما مدينة خوجند الحالية) ، وذلك فى عام ٣٢٨ ق . م ، وبذلك وضع يده على نقطة الاتصال بين الصين وجنوب شرق آسيا . وهنا أدرك الأسكندر بحدسه الأستراتيجى بأن يجعل وادى فرغانة الذى يجرى فيه هذا النهر هو حدود امبراطوريته فى الشرق .

وبعد قتله لمدعى العرش الفارسى بيسوس Bessos ، اعتبر الأسكندر نفسه وريثاً لعرش الأمبراطورية الأخمينية ؛ وعاد إلى سمرقند ؛ وبعد أن قضى على جيوب المقاومة فى الأصقاع الشرقية ، عاد إلى باكتريا ؛ حيث أقام حفل قران جماعى له ولرفاقه الضباط المقدونيين على زوجات فارسيات ؛ إذ تزوج هو نفسه من الأميرة الفارسية ستاتيرا Statira إبنة الملك دارا وقلده رفاقه ؛ فقد كانت سياسة الزواج من فارسيات رمزاً لأتحاد شطرى الأمبراطورية الشرق والغربى ؛ وتحطيماً للفواصل العرقية

التى كان الأغريق يقيمونها بين الشرق والغرب ، أى بين الهللينين Hellenes والبرابرة Barbaroi ؛ توكيداً لوضع الأسكندر الجديد كملك على المشرق. وقد تم ذلك فى حفل كبير فى عام ٣٢٧ ق . م .

الإسكندر والهند :

ولقد كانت الرغبة فى استكشاف العالم المجهول هى التى دفعت الأسكندر لكى يتقدم نحو الهند؛ وبالفعل وصل إليها ، وكان دارا الأول قد ضم إلى إمبراطوريته بعض أجزاء الهند ؛ وتقدم نحو إقليم البنجاب ؛ وحاول التوغل فيه ، غير أن عدة عوامل جعلته لا يكمل هذه المغامرة ؛ منها المناخ الأستوائى الممطر الرطب ، والارهاق الذى أصاب جنوده ؛ فضلا عن مقاومة ملوك أقاليم الهند له ؛ مما أدى إلى رفض جنوده لمتابعة التوغل فى أراضيها؛وكان أقصى ماوصل إليه هو إقليم بلوخستان (فى أفغانستان الحالية) شمال الهند . ولما أعلن قراره بالعودة ، تعالت هتافات الفرح من جنوده وضباطه .

وعلى أثر ذلك أصدر الأسكندر أوامره إلى قائده كراتيروس Craterus ليلقاه عند كرمان Kirman بالقرب من سواحل الخليج العربى الشرقية ؛ بينما أبحر شطر من الجيش متجهاً إلى شط العرب عند مصب الرافدين . وقد كان ذلك فى موعد هبوب الرياح الموسمية المسماة بإسم المونســون Monsoon ، والتى تهب من الجنوب الغربى ؛ ولما كان المقدونيون لم يألفوا هذه الرياح من قبل ، فقد فقد الأسطول كثيراً من السفن ؛ وفى «كرمان» ، كلف الأسكندر أحد ضباطه وإسمه نيارخرس Nearchas بالقيام برحلة بحرية للكشف عن طريق بحرى جديد يربط بين شطرى أمبراطوريته ، أما هو فقد شرع فى السير براً فى الخريف عائداً أدراجه ، ماراً بعاصمة الفرس « برسوبوليس » ثم إلى سوس (سوسا) ؛ أما نيارخوس فقد شرع فى رحلته البحرية فى نهاية خريف عام ٣٢٥ ق . م .

مشروعات الإسكندر فى المشرق العربى :

١ — اختيار بابل كعاصمة للأمبراطورية :

ترك الأسكندر صوصة متجهاً إلى اكباتانا ، ثم ركب السفينة إلى الخليج العربى ؛ وعند وصوله إلى شط العرب ، أمر الأسكندر برفع الحواجز التى كان الفرس قد أقاموها لمنع الملاحة فى هذا الشريان الحيوى الموصل إلى الخليج ؛ وفى أواخر عام ٣٢٤ ق . م إتجه نحو « بابل » ؛ وعند بوابتها تلقاه المنجمون محذرين إياه بعدم دخول المدينة ، لأن ربهم « بل Bel » أوحى إليهم أن دخول الأسكندر لهذه المدينة المقدسة لن يكون لصالحه ؛ لكنه لم يعبأ برأيهم ، ضارباً عرض الحائط بتحذير المنجمين ؛ فقد كان متلهفاً على إعادة بناء بابل وبالذات معبد « بل » (مردوخ) ؛ بينما كان كبار الكهنة البابليين خائفين من أن تنفق كنوز معابدهم فى مشروعات التعمير ، والتى كانوا يحرصون عليها أكثر مما يحرصون على المعابد .

ولقد كان الأسكندر يخطط لجعل « بابل » المقدسة عاصمة لأمبراطوريته ولهذا أمن المدينة ، ونظفها ، وقضى على قطاع الطرق فيها ؛ وانشغل فى ترميم معبد رب بابل الأكبر « مردوخ » .

لقد كان الأسكندر حريصاً على هدم الحواجز النفسية بين الشرق والغرب ، فقد أزال العوائق وكشف اللثام عن غموض الشرق ؛ وفتح أبوابه على مصراعيها للأغريق والمقدونيين ، وفتح أمام شعوب البحر المتوسط عالم التجارة مع الهند والشرق الأقصى ؛ والتى كان لا يعرفها إلا عرب جنوب الجزيرة ، وأبقوها سراً ؛ ووقفاً عليهم ؛ غير أن مشروعات الأسكندر الفكرية والحضارية كانت تفوق مشروعاته الأقتصادية ؛ فقد كان مهتماً بمزج العنصر المقدونى والأغريقى بالعناصر الشرقية لأحداث وحدة عرقية لشعوب إمبراطوريته ، ومن أجل ذلك ، وضع عدداً من الخطط ؛ منها أنه اقترح تهجير المقدونيين والأغريق إلى الشرق ؛ وتهجير الشرقيين إلى بلاد اليونان ومقدونيا ؛ ومن أجل ذلك بنى عدداً من الحواضر التى

جعل سكانها يمثلون العنصرين أملا فى الامتزاج . ومن خططه أيضاً ، تشجيع الزواج المشترك بين الشرقيين والأغريق . ولقد إفتتح هو نفسه هذا المشروع بحفل الزفاف الجماعى الذى أقيم فى صوصة ، وكان هو أول الذين أعلن زواجه من الأميرة ستاتيرا إبنة الملك دارا الثالث ، ولكن زواجه مهما كان لهدف إنتقال العرش له بحكم المصاهرة ؛ كما تزوج صديقه القائد هيفايستيون Hephaestion من شقيقة هذه العروس فى حفل واحد ؛ وطبقاً لطقوس الزواج الفارسى ؛ حيث أقام حفلاً كبيراً ، دعا فيه تسعة آلاف ضيف ؛ ويقال أن عشرة آلاف مقدونى من جنوده وضباطه حذو حذوه ؛ وقد أمر الأسكندر بتكريمهم وترقيتهم ؛ وكان حلمه أن ينجب هؤلاء جيلا يجمع بين الدماء الشرقية والدماء الغربية . ومن الواضح أن الأسكندر قلد الشرقيين فى زواجه من أكثر من واحدة ، فتزوج من عدد من الفارسيات ؛ أشهرهم روكسانا والتى شاء القدر أن تحمل منه إبنه الوحيد(١) .

وكان من سياسة الأسكندر تدريب الشباب فى الشرق على الأساليب العسكرية المقدونية ، وتكوين فرقة منهم يعتمد عليهما إذا ما تمرد الجيش المقدونى عليه ؛ وأن يكون جيشه ممثلاً لكل شعوب المشرق ؛ مما أدى إلى تمرد المقدونيين عليه . ولقد أثار الأسكندر غضب جنوده بتقليده الشرقيين ملبسه وسلوكه . ولقد كان حرصه على المزج العنصرى يواكب حرصه على مزج الثقافة الأغريقية مع ثقافات الشرق الخالد ؛ مصدر الألهام ومهد الحضارة . ولذلك حرص الأسكندر على إرضاء شعوب المشرق الأدنى ؛ وحاول توحيد آلهته فى صورة رب واحد يعبده جميع شعوب الأمبراطورية ، فكان يربط نفسه بقرابة أو بنوة مع كل رب فى كل قطر ؛ كما فعل فى مصر وبابل ؛ وربما كانت فكرة « توحيد الآلهة » فى « رب واحد » يتصل بشخصه ، ألهمت إليه من قبل أستاذه أرسطو طاليس .

كما كانت أحلام الأسكندر ترتبط بالرخاء الأقتصادى ، وتحطيم القيود والعوائق للتجارة بين الشرق والغرب ، ولهذا السبب حرص على توحيد

---

(١) وتعرف عند الفرس بأسم روشان .

نظام النقد، وجعل قيمة العملة ثابتة ومقبولة فى كافة أنحاء إمبراطوريته.
ولما كان العرب القدماء قد نبغوا فى فن التجارة مع بلدان الشرق الأقصى ، فقد كان من الطبيعى أن يشجع الأسكندر تجارهم ، ولما كان المشرق العربى أيضاً هو مهد التجارة بين الشرق الأدنى والأقصى ، ويحتل مكانة ممتازة تساعده على هذا التبادل ؛ فقد لقى عناية خاصة من قبل الأسكندر لجعله جسر اللقاء ؛ ولذلك وقع اختياره على بابل لجعلها عاصمة الأمبراطورية المتحدة ، فقد كانت بابل شبيهة بمصر ؛ وإحدى مخازن غلال العالم الرئيسية ؛ كما أن المدينة كانت تقوم على ضفاف الفرات ؛ وكانت منذ فجر الألف الثانية مقراً لأمبراطوريته ؛ وبها حدائقها المعلقة إحدى عجائب الدنيا فى العصر القديم ؛ وكان محيط دائرة أسوارها ما يقرب من ٦٥كيلومترا طبقاً لما ورد عند هيرودوت ، وقال أرسطو عن بابل « أنها أمة أ كثر منها مدينة » .
وإلى جانب مواردها الزراعية ، كانت بابل أيضاً مركزاً لصناعة النسيج ؛ وقبل كل شيء كانت السوق الكبير والمركز العالمى للتجارة ، الذى جذب إلى أسواقه محاصيل الهند وفارس . كما كانت « بابل » ملتقى طرق القوافل القادمة عبر الطرق الصحراوية من جزيرة العرب والشام إلى بلاد الرافدين . وكذلك القادمة من أواسط آسيا .

ولقد أدى امتداد سلطان بابل التجارى والسياسى إلى انتشار حضارتها على مساحة كبيرة من الشرق الأدنى ، وبالذات كان تأثيرها شديداً على العبرانيين القدماء ؛ ولقد كانت بابل حاضرة تزخر بعلماء الفلك والتنجيم ؛ فلقد أثر البابليون فى التراث العلمى للأغريق ، خاصة فى علم الفلك ؛ فلقد توصل البابليون إلى رصد ملاحظات دقيقة حول مواقع الأجرام السماوية لمدة تزيد على ألفى سنة ؛ فهم الذين عرفوا الكواكب السيارة ، وجعلوا لكل منها إسماً ؛ ورصدوا ظواهر الكسوف والخسوف ، وابتكروا النظام الستينى فى الحساب ، وابتكروا المزولة لحساب الوقت ،وعرفوا موعد حدوث الأنقلابين والأعتداليين . ولقد أدى نشاط التجارة فى بابل ، أن انتشرت عملتها ، ومقاييسها ، ومعاييرها انتشاراً واسع النطاق فى آسيا الصغرى وعالم البحر المتوسط ، فقد عرف أهل الهند فى الشرق ، كما عرف

الأغريق فى الغرب « المنـا Mna » البابلى كوحدة للوزن منذ الألف سنة السابقة على الميلاد . كل هذه المميزات جعلت الأسكندر يختارها كعاصمة للأمبراطورية المقدونية . ولكن القدر لم يمهله ليعلن ذلك رسمياً وفعلياً .

استكشاف سواحل جزيرة العرب :

كشفت الحفائر الأثرية التى أجريت سواء فى جزيرة فيلكا فى الكويت ، أو فى جزيرة البحرين ، أو فى مناطق أخرى من الخليج ، عن وجود آثار لكتابات أغريقية ترجع إلى القرنين الخامس أو الرابع قبل الميلاد ، أى قبل الفتح المقدونى ، مما يدل على أن التجار والجنود المرتزقة الاغريق الذين كانوا يتعاملون مع الأمبراطورية الفارسية كانوا يمرون ويتاجرون مع بلدان الخليج العربى . غير أن ذلك كان أمراً محدوداً . أما انفتاح التجارة مع الخليج العربى وشبه جزيرة العرب بشكل واسع ومباشر ، فلم يحدث إلا بعد فتح الأسكندر للمشرق الأدنى .

ولهذا فقد كانت أهم مشروعات الأسكندر قبل موته هو الدوران حول شبه الجزيرة العربية بدءاً من الخليج العربى حتى خليج السويس ، تمهيداً لاستكشافها ، وإماطة اللثام عنها ، والكشف عن الغموض الذى كان يحيط بها ، فقد كانت شبه جزيرة العرب قبل فتح الأسكندر للشرق الأدنى ، عالماً تطويه الأسرار ، لا يعلم أحد عنه شيئاً إلا من خلال الروايات التى يبتكرها البحارة الفينيقيون حول هذا الكيان الغريب ، فقد كانت جبال السراة الممتدة على طول ساحل البحر الأحمر الشرقى بمثابة الحائط العازل(١) ، ولقد نقل لنا هيرودوت بعضاً من الحكايات التى سمعها من البحارة الفينيقيين ، أو من الكهنة المصريين عن جزيرة العرب ؛ وهى حكايات أغلبها من نسج الخيال ، تتسم بالمبالغة والتهويل ، أما بعد فتح الأسكندر للشرق الأدنى فقد كان بداية انتهاء عصر الغموض بالنسبة للجزيرة العربية ؛ وبداية الأستكشاف العلمى والجغرافى القائم على القياس والحساب والوصف العينى ، وليس النقل السماعى ؛ ومن ثم بدأت الكتابات العلمية ، والزيارات الميدانية ،

---

(١) ولهذا يرى البعض أن إسم الحجاز مشتق من الفعل الثلاثى حجز أى منع وعزل .

لسواحل شبه الجزيرة من قبل الجغرافيين ، وعلماء النبات ؛ وبدأ التعامل المباشر بين الأغريق والعرب . ومن ثم بدأ كتاب الأغريق يدرسون طباع العرب ، ويصفون بلادهم ، وغرائب النبات فيها . ولعل ما سمعه الأسكندر عن ثراء التجار العرب من تجارة العطارة والبخور والعطور ، وجلبهم لمنتجات الهند وأفريقيا — عن طريق ميناء عدن — ثم براً عبر طريق البخور القديم ، (الذى كان يسير بحزاء جبال السراة حتى الشام ، ويتفرع منه طرق إلى الخليج وآخر إلى مصر) — هو الذى أوحى إليه بمشروع الدوران حول الجزيرة ، ومسح سواحلها ، ورصد موانيها ؛ فلقد بعث الأسكندر وهو فى الشرق بما قيمته خمسمائة تالنت من العطور والتوابل العربية لأستاذه أرسطو ، وهى هدية بلا شك ثمينة ، تعبر عن تقدير ملك عظيم لأستاذه الكبير .

وفى الوقت الذى اجتاح فيه الأسكندر الشرق الأدنى ، كانت مملكة سبأ فى جنوب الجزيرة العربية تشهد قمة ازدهارها التجارى ، ولها مستوطنات تجارية فى شمال الجزيرة العربية مثل دادان (العلا فى الحجاز) ، ولقد روى أن المستوطنات السبئية فى شمال غرب الجزيرة العربية (أى الحجاز) لم تخرج لأستقبال الأسكندر أثناء غزوة للشام ، ولم تعلن مبايعتها له ، أو تقدم له الهدايا ؛ مما جعله يتوعدهم بفتح بلادهم فى الوطن الأم فى الجنوب ؛ لكن ذلك ليس مؤكدا ، لأن الدافع الحقيقى لمشروع استكشاف الجزيرة العربية ، هو فتح الطريق البحرى بين الخليج العربى ، وخليج السويس ، بالأضافة الى رغبة التجار الأغريق فى استغلال تجارة العطارة والعطور ؛ وتأمين وصولها الى عالم البحر المتوسط ؛ وهو نفس السبب الذى جعل الأمبراطور اكتافيوس أغسطس يقوم بحملة عسكرية مماثلة ضد جنوب الجزيرة العربية بعد ثلاثة قرون ونصف قرن تقريباً من هذا التاريخ ، فلقد شعر الأسكندر أن غزواته للشرق ستظل ناقصة ما لم يفتح الجزيرة العربية .

ولقد كان اهتمام الأسكندر بالخليج العربى اهتماماً خاصاً ، فقد تمنى

أن يعيد النشاط الى موانيه ، حتى يصبح فينيقيا الشرق الأدنى . ومن أجل ذلك بعث يطلب بحارة من الساحل السورى ، ويغريهم على استيطان موانىء وجزر الخليج الهامة ؛ وكان من بين مشروعاته فتح طريق دائم للتجارة بين وادى السند ، وبين وادى دجلة والفرات ، حيث تنقل السفن تجارة الهند الى الخليج العربى ، ثم الى خليج السويس ؛ وبالطبع كان الأسكندر سيعيد تطهير قناة سيزوستريس ؛ والتى حاول الفرعون نخاو إعادة شقها ؛ وشاء دارا الأول أن يكمل ما بدأه نخاو ؛ فعن طريقها تنقل السفن النيلية البضائع حتى الأسكندرية ؛ ومن ميناء الأسكندرية تقوم سفن كبرى ينقل هذه البضائع الى موانىء ، بلاد اليونان وباقى أجزاء العالم . وبسبب اهتمامه بالخليج اختار بابل لتكون عاصمة امبراطوريته ، وقد شرع الأسكندر فعلا فى بناء ميناء كبير فى بابل يتسع لألف سفينة .

وتنفيذا لتعليمات الأسكندر ، أقلع قائد الأسطول نيارخوس فى خريف عام ٣٢٥ ق.م من سواحل الهند الى الخليج العربى ، ثم عبر شط العرب الى الفرات ، ليصل الى بابل ، وليلتقى بالأسكندر وكانت رحلة نيارخوس أعلانا عن أفتتاح خط ملاحى دائم بين الهند وبين بلاد الرافدين ، وتصبح بابل عندئذ هى محطة التجارة البحرية مع الشرق الأقصى . ومن أهم ملاحظات نيارخوس خلال الرحلة ، أن الأسطول المقدونى ليس كافيا لتنفيذ المشروعات البحرية . ولهذا أصدر الأسكندر أوامره ببناء سفن كبيرة عابرة للبحار فى ترسانات فينيقيا ، واعداد أسطول جديد يتكون من أثنتا عشرة سفينة ذات ثلاث طوابق من المجدفين Triremes ، وثلاث بوارج من ذات الأربعة طوابق من المجدفين ، وأربعة أخرى من ذوات الأربع طوابق من المجدفين ، بالأضافة الى ثلاثين سفينة امداد صغيرة . وتم صنع هذه السفن كأجزاء منفصلة ، ثم نقلت على ظهور الأبل والعربات الى ميناء ثابساكوس على الفرات ، حيث اعيد تركيب أجزائها ؛ بالأضافة الى ذلك بنيت عدة سفن أخرى من خشب السرو فى بابل . كل هذا استعدادا للرحلة الكبرى لاستكشاف واخضاع جزيرة العرب . وكان الوقت المحدد أن تبدأ هذه الرحلة البحرية

فى صيف عام ٣٢٣ ق.م ، وكانت الثلوج قد بدأت تذوب . كما أن الأمطار هطلت بشدة فى ذلك العام مما أدى الى حدوث فيضان عالى فى دجلة والفرات وغمرت المياه سهل بابل ؛ وهنا أصدر الأسكندر أوامره بحفر قناة لتصريف مياه الفيضان التى تجمعت فى مستنقعات ، امتدت لمسافات كبيرة جنوب بابل ؛ وكانت هذه القناة تبدأ من جنوب بابل حتى منطقة المستنقعات فى الجنوب الغربى . وكانت قناة التصريف هذه تغلق بهويس فى الخريف وقت التحاريق للمحافظة على منسوب المياه ، وقد قام الأسكندر بنفسه يتفقد منطقة المستنقعات جنوب بابل ، واقترح مكانا آخر لشق قناه جديدة ، كما أختار موقعاً آخر لوضع أساس مدينة بابل الجديدة ؛ وشرع العمال والمهندسون فى البناء على الفور ، وربما كانت هذه المدينة هى أولى سلسلة من القلاع والأبراج ، ومحطات الأستراحة ، التى تمتد من بابل حتى خليج السويس ، وقد أبحر الأسكندر بنفسه فى قارب متفقداً هذه القناة .

نتائج فتح الاسكندر للشرق الأدنى :

وبينما كان الأعداد للحملة الكبرى لفتح الجزيرة العربية واسكتشافها يسير وفق خطة محكمة ؛ اقيم فى بداية شهر يونيو حزيران عام ٣٢٣ ق.م وليمة كبرى على شرف قائد الرحلة نيارخوس ورفاقه من البحارة والعلماء بمناسبة قرب قيامهم بالرحلة الخرافية التى تبدأ من الفرات الى الخليج ؛ ثم عبر المحيط الهندى (أو بحر العرب) ، لتدور حول سواحل شبه الجزيرة العربية ، وفى صبيحة اليوم التالى للحفل أصيب الأسكندر بالحمى ، وهى وباء يكثر فى الصيف بسبب الملاريا الناتجة من البعوض الذى يكثر فى هذه المستنقعات ؛ ورغم ملازمة الأسكندر للفراش ، الا أنه لم يتوقف عن الاعداد للحملة البحرية ؛ حتى اشتد عليه المرض ، ومات فى الثالث عشر من شهر يونيو حزيران عام ٣٢٣ ق.م قبل أن يتم عامه الثانى والثلاثين .

لقد كان فتح الأسكندر المقدونى للشرق الأدنى بداية فاتحة لعصر جديد ، وبداية نهضة حضارية وثقافية ، فقد قوض الأسكندر السد الذى كان يفصل بين حضارة الشرق ، وحضارة الغرب ، فأنسابت حضارة الشرق لتغير وتؤثر بتراثها الصوفى العميق ، وعلومها الرائعة على حضارة الغرب ؛

كما انسابت حضارة الأغريق لبروى وديان الشرق الأدنى ، فقد أنتشرت اللغة الأغريقية وثقافتها لتصبح لغة التعليم الراقى والثقافة الرفيعة ،وبفضل فتح باب الهجرة للأغريق، وتشجيعهم على الزواج من شرقيات ، بدأت الفنون وطريقة الحياة عند الأغريق تجد لها صدى فى الشرق الخالد ؛ فقد أنشئت فى مدن الشرق العريقة أحياء سكنها الأغريق ؛ كما أقام الأسكندر عددا من الحواضر أو السكندريات كان يحرص على أن يكون بها أحياء للوطنيين الشرقيين ؛ وتلالأت حواضر أغريقية تمتد من وادى النيل الى وادى دجلة والفرات ؛ ومن خليج الأسكندرونة الى الخليج العربى ؛ وبدأ الخليج العربى بالذات يشهد حركة نشطة لم يشهدها العرب من قبل ؛ وبدأت حضارات الشرق الخالد كالبابلية ، والأرامية ، والمصرية ، والسبئية تمتزج مع حضارة الأغريق فى سيمفونية رائعة؛ ولم يعد الأغريقى يربط نفسه بمدينة يعتبرها وطنه ، بل أصبح العالم كله وطنه . وتيسرت طرق الأنتقال، وانهارت الحدود، واختفى العداء العنصرى بين الشرق والغرب ، وأصبحت بلاد الشرق الأدنى تستقبل المهاجرين ، والزوار ، والعلماء والباحثين ، فى شتى فروع المعرفة والثقافة ، وأصبحت المعلومات التى يكتبها الإغريق عن الشرق أكثر دقة ، وتعتمد على المشاهدة والقياس العلمى والحياد الفكرى ، ولم تعد تكتب بدافع عقدة الأستعلاء العنصرى ، ومن ثم بدأت الدراسات العلمية الدقيقة تصل عن شعوب الشرق الأدنى ، ومن ثم أدى ذلك الى ازدهار علم الجغرافيا والنبات ولم تعد شبه جزيرة العرب تعيش فى معزل عن تيار الحضارة العام ، فبدأ الرحالة والمستكشفون يترددون عليها ويدرسون حضاراتها القديمة ، ولأول مرة سمع الأغريق عن حضارة سبأ ومعين وقتبان وحضرموت كما بدأت الدراسات العلمية للشرق الأدنى على الطبيعة ، وبدأ الكتاب والبحاثه الأغريق يترددون على الشام ومصر وبلاد الرافدين وجنوب الجزيرة ويكتبون عن جغرافيتها ، وشعوبها ونباتاتها وموانيها وامكانياتها الأقتصادية ، وبدأت سلع الشرق وتوابله وعطوره وحريره تؤثر فى طريقة الحياة اليومية عند الأغريق ، ونتيجة لفتح الشرق الأدنى لم يعد الشرق الأقصى فى معزل هو الآخر عن الحضارة العامة

بفضل الاحياء البحرى لدور الخليج العربى ، وتطورت صناعة السفن لتواجه الرحلات البعيدة فى بحار الشرق الأقصى .

لقد كانت المعلومات عن بلاد العرب قبل الفتح المقدونى غامضة ومبتورة وساذجة وسماعية ، والمثل على ذلك نقرأه فى كتابات هيرودوت عن شبه الجزيرة العربية ، لكن بعد فتح الأسكندر بدأت الأبحاث العلمية والجغرافية والنباتية والحضارية تكتب عنها ، حيث جذبهم إليها أنها موطن البخور واللبان والطيوب والأحجار الكريمة والعطارة والتوابل ، ولفت نظرهم أن سكانها يعشقون الحرية ويعتزون بها ويعتدون بأنفسهم وهكذا بدأ عهد جديد ودور جديد للشرق الأدنى فى العصر الهلينستى استمر حتى ظهور الاسلام .

مراجع الفصل الثالث

(ا) المراجع العربية والمعربة :

١ — و. تارن : الأسكندر الأكبر : قصته وتاريخه (ترجمة زكى على ومحمد سليم سالم) ، سلسلة الألف كتاب رقم ٤١١ ، القاهرة ١٩٦٣ .

٢ — سيد أحمد على الناصرى : الأغريق تاريخهم وحضارتهم ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ (خاصة من صفحة ٥١٤ — ٥٤١) .

٣ — عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، الفصل السابع (حملة الاسكندر على الشرق) ص٦٥٨— ٦٨٠ .

٤ — هـ. ج ولز : معالم تاريخ الانسانية (ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ومراجعة زكى على) المجلد الثانى ، الطبعة الثانية لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٩ (الفصل الثانى والعشرون : سيرة الاسكندر ص ٤٠٥ — ٤٤٦) .

المراجع الأوروبية : —

1. A.R. Burn : Alexander the Great and the Middle East, A. Pelican Book, 1963.

2. J.B. Bury : A History of Greece to the Death of Alexander, the Great, 3rd edition, 1951 (Chapter XVIII, PP. 747—822).

3. Cambridge Ancient History (C.A.H.) : Edited by J.B. Bury, S.A. Cook and F.E. Adcock, 1923.

4. M. Cary : A History of Greek World from 323—149 B.C., London 1951, Methuen and Company.

5. A.Weigal : Alexander, the Great, Thornton Butterworth Ltd London, 1935 (Part II : The Road to Egypt, PP. 133—166

الفصل الرابع

الحروب بين ورثة الاسكندر وحضارة العصر الهللينستى

قيام الممالك الهللينستية :

روت احدى الحكايات أن الاسكندر وهو فى النزع الأخير ، سأله أحد معاونيه عمن هو أجدر بحكم الامبراطورية من بعده ، فأجاب للأقوى منكم .. وقد كان ذلك حقيقة . فقد كان موت الاسكندر المفاجىء وبلا وريث مدرب على حكم الامبراطورية الجديدة ، ومدعم من الجيش المقدونى ، بمثابة الزلزال الذى عصف بالامبراطورية ، وإستمر ما يقرب من أربعين عاما . تحطمت فى نهايته بالدنيا ، وتحولت الى ممالك صغيرة ، حكمها هؤلاء الورثة ، وأورثوها من بعدهم لأولادهم وهو ما عرف باسم الممالك الهللينستية . فقد كان يحيط بالاسكندر مجموعة من كبار الضباط ؛ كل واحد منها كان طامعا فى أن يرث الاسكندر ، ويتخلص من رفاقه ؛ كما كانت بلاد اليونان تتحين الفرصة للتخلص من السيادة المقدونية ، التى فرضها عليهم فيليب الثانى وابنه الاسكندر ؛ فعندما وصلت أنباء موت الاسكندر الى أثينا ، صاح أحد الخطباء من أصدقاء الاسكندر واسمه ديماديس Demades قائلا « ماذا سيحدث للدنيا ؟ » فقد اعتبر رفاق الاسكندر أنفسهم ورثة للامبراطورية ، وكل كان يتصور نفسه الأقوى .

مؤتمر بابل لتقسيم الإمبراطورية :

أجتمع كبار ضباط الجيش المقدونى بعد موت الاسكندر لأختيار ملك جديد لعرش الامبراطورية ، وكان أقرب المستحقين لوراثته من البيت المقدونى أخوه فيليب أرهيدايوس ؛ وكان شقيقاً له من أبيه ؛ ولكنه كان مصابا بداء الصرع ، وليس فى مقدرته السيطرة على نفسه ، وفى نفس

الوقت ، لم تحمل أى من زوجات الاسكندر الفارسيات سوى أحبهن الى نفسه ، وهى روكسانا التى كان قد تزوجها فى مقاطعة سوجديانا عام ٣٢٧ ق.م ، وكانت تحمل فى أحشائها ابنا للاسكندر ، وعقد ضباط الفرقة الخاصة بحراسة الملك Stomaphylakes ، وكان عددهم ثمانية اجتماعاً . فى أحد أيام شهر يونيو حزيران عام ٣٢٣ ق.م وجثمان الاسكندر لا يزال مسجى فى خيمته فى بابل ، وطبقاً للتقاليد العسكرية المقدونية ترأس الاجتماع أكبر الأعضاء سنا وكان اسمه برديكاس Perdikaas ، قائد فرقة الألف Chiliarch ؛ وكان الاسكندر قبل موته قد سلمه أختامه الخاصة ؛ وكان من بين أعضاء هذه اللجنة أيضاً قائد خبيث ، ذو أنف معقوف ، وعينان غائرتان ، واسمه بطليموس بن لاجوس ، وانقسم الجيش المقدونى الى فريقين : فريق يرى أن يؤجل البت فى مسألة الوريث حتى تضع روكسانا ما فى بطنها فان كان ذكراً فليكن هو الملك الجديد ؛ ويختار أوصياء عليه يديرون الامبراطورية باسمه حتى بلوغه مبلغ الرجال ؛ وكان هؤلاء يمثلون «الفرسان» الذين تشبعوا بفكرة الاسكندر فى تفضيل وريث يجمع بين الدماء المقدونية والدماء الفارسية ؛ ويتمنون أن تضع روكسانا ذكرا ، أما مشاة الجيش من رجال القبائل المقدونية ، وكانوا أجلافا متعصبين ؛ فقد طالبوا أن يتولى شقيق الاسكندر من أبيه وهو فيليب أرهيدايوس العرش ، لأنه لايجب أن يجلس على العرش الا ملك مقدونى لحما ودما . ورد الفرسان بأن فيليب أرهيدايوس مختل العقل ؛ فضلا عن أنه ابن راقصة من تساليا اسمها فيلينا Philinna ؛ أما ما فى بطن روكسانا ان قدر له أن يكون ولداً ، فهو من دماء ملكية ، ويجمع بين دماء الشرق والغرب ، وبالتالى يمثل عنصرى الامبراطورية ، وذلك يتماشى مع فكر الاسكندر . وكاد الالتحام أن ينشب بين الفريقين خارج أسوار بابل القديمة ، فقد قاد برديكاس الفرسان ، بينما قاد ملياجروس المشاة ؛ لولا وساطة اغريقى اسمه يومينيس Eumenes وكان صديقاً للقادة ، وأمينا على خزانة الاسكندر ، ومن أشد المؤمنين برسالته الانسانية ؛ فقد اقترح حلا وسطا هو تعيين فيليب أرهيدايوس ملكا على

الامبراطورية باسم فيليب الثالث ؛ ويحفظ حق ابن الاسكندر من روكسانا إذا ولد ؛ ويعين برديكاس مفوضا على الامبراطورية ، ، بينما يعين كراتيروس وصياً على الملك فيليب ؛ وعلى أن يكون مقر برديكاس هو بابل . وبناء على اقتراح بطليموس بن لاجوس أول من رشح برديكاس لمنصب المفوض العام — قسمت ولايات الامبراطورية الى سترابيات على طريقة التنظيم الفارسى ، ووزع كبار القادة كولاة عليها ؛ كل منهم يحكم بصفته « ستراب » ، يخضع للمفوض العام برديكاس فى بابل ، وبتواضع شديد اختار بطليموس أن يعين سترابا على مصر ؛ ووافق الأعضاء لأنهم اعتقدوا أن تعيين بطليموس على ولاية بعيدة مثل مصر سوف يبعده عن لعبة الصراع ، فقد كان كل منهم يريد أن يتولى حكم ولاية قريبة من مقدونيا لكى يسهل له الدخول فى لعبة الصراع التصفوى القادم ؛ كما وافق المجتمعون أيضاً على تعيين انتيباتر Antipater سترابا على ولاية مقدونيا ؛ وكذلك لوسيماخوس Lysimachus سترابا على ولاية تراقيا فى شمال بحر ايجة ؛ وعين انتيجونوس Antigonus على ولاية آسيا الصغرى ، وملياجروس على فينيقيا ؛ كما عين لاء وميدون على الشام ؛ وعين أيضاً أحد كبار الضباط وكان اسمه سليوكوس (أو سليوقوس) Seleucus قائداً على بابل ؛ وكان سليوقوس قائدا لفرقة المدروع Hypaspitae وكان عملاقا ضخما وطموحاً ولا يقل دهاءا عن بطليموس بن لاجوس .

وقبل أن يرحل السترابات لتولى مناصبهم ، كانت روكسانا قد وضعت ما فى بطنها ، ولفرحة الفرسان كان المولود ذكراً ، وأعطى المولود اسما هو الاسكندر الرابع ؛ لكنه كان يعرف فى الوثائق باسم الأسكندر بن الأسكندر وبذلك عين ملكا شريكا لفيليب أرهيدايوس ، واختير أنتيجونوس وصياً عليه. وبذلك حسمت مؤقتا مسألة الأرث فى الامبراطورية .

تجهيز جثمان الإسكندر :

وكان القادة على إثر موت الاسكندر قد أسرعوا فى طلب بعض الكهنة المصريين المتخصصين فى التحنيط الى بابل ، لكى يقوموا بتحنيط جثمان

الاسكندر ، تمهيداً لإعداد موكب جنائزى يليق بالقائد العظيم ؛ وطبقاً للتقاليد المقدونية كان على برديكاس أن يتكفل بالاشراف على اعداد الدفن بصفته المفوض العام على الامبراطورية ؛ وكان ذلك مهما بالنسبة له ؛ لأن هذا العمل يدعم من سلطاته ومركزه ؛ فضلاً عن علمه بمدى عشق شعوب الامبراطورية المقدونية للاسكندر ، خاصة فى ولايات الشرق الأدنى ؛ ولذلك كلف برديكاس احد معاونيه ويدعى أرهيدايوس (لا علاقة له بالملك فيليب ارهيدايوس) للأشراف على الجناز ، ولقد اثار بطليموس مشكلة دفن الاسكندر ؛ وذكر أنه ما دام الاسكندر قد اعلن أنه ابن آمون — رع فيجب أن يدفن فى سيوة فى محراب معبد أبيه آمون ؛ وبالتالى فقد كان يطمع أن يصطحب معه جثمان الاسكندر ليدخل به مصر ؛ ولكن رفاقه القادة أدركوا ما يهدف اليه فرفضوا طلبه ، وأصروا على أن يدفن الاسكندر فى الجبانة الملكية المقدونية فى مدينة ايجيا Aegea التى كانت العاصمةالدينية القديمة لمقدونيا . ولقد كان برديكاس منذ البداية يشك فى نوايا بطليموس ولذلك عين نائبا له من اتباعه وهو كليومينيس النقراطيسى ، الذى كان الاسكندر قد اقامه امينا على المالية فى مصر . وكان بطليموس آخر الولاة الذين غادروا بابل ، لأنه تخلف لكى يطالب بحقه فى ثروة الاسكندر التى وضع عليها برديكاس يده ، لكنه لم ينجح فى مسعاه ؛ وأخيرا طالب بطليموس بحقه كوال على مصر أن يعيد الى مصر التماثيل والكتب المقدسة التى كان قمبيز قد حملها معه الى عاصمة بلاد الفرس برسبوليس عقب فتحه لمصر ؛ متعللا أن الاسكندر كان قد أمر باعادة التماثيل التى كان خشارشاى Xerxes قد نهبها من اكروبول أثينا عقب احتلاله للمدينة ؛ ولم يجد برديكاس بدا من الموافقة على ذلك ؛ وبذلك حقق بطليموس أول نصر معنوى له على منافسيه من كبار ضباط الاسكندر .

حروب الورثة Diadochi ق . م ٣٢٣ — ٢٨١ :

لايخطىء من يقول ان الأمبراطورية المقدونية ماتت مع موت الاسكندر فلقد اندفع الاسكندر كالاعصار يغزو الشرق ؛ ولم يكن لديه الوقت الكافى

لتدعيم هذا الغزو وتأمين بقائه ؛ كما أن امبراطوريته امتدت بقاع شاسع لا يمكن السيطرة عليه ؛ فهناك حد يجب عنده القائد الغازي أن يقف ؛ بالإضافة الى ذلك ، لم يكن للاسكندر وريث معد اعدادا خاصاً ليتولى حكم هذه الشعوب المتعددة القوميات واللغات والديانات ؛ وربما فكر الاسكندر فى هذه القضايا بعد عودته من الهند ؛ غير أن القدر لم يمهله طويلا ؛ ولذلك فقد بات واضحاً أن امبراطوريته بانت فى مهب الريح ، فقد عصفت الحروب بين قادته لما يزيد على أربعين عاما ، ولا نستطيع أن نروى تفاصيل هذه الحروب المملة ، سوى أنها كانت بين قادة مقدونيين طموحين ومستبدين ؛ محنكين فى السياسة والحرب ، كما لعبت الأقدار بمصائر بعضهم ، ولم يكن لشعوب الشرق الأدنى أو الأغريق أى دور فيها .

ولقد كان اللاعبون الكبار فى هذه الحرب ستة من كبار قادة الاسكندر هم : أنتيجونوس وأنتيباتر ، وكاساندر ، ولوسيما خوس ، وبطلميوس ، وسليوقوس .

وخلال ذلك الصراع الدموى هلكت أسرة الاسكندر المقدونى نفسه . فقد اختفى الملك فيليب الثالث أرهيدايوس أولا ؛ والذى كان منذ البداية غير مؤهل للحكم ، ولكنه فى عام ٣٢٢ ق.م تزوج من احدى أميرات البيت المقدونى وتدعى يوريديكى Eurydike ، وكانت طموحة تسعى لأن تجلس هى وزوجها على عرش الامبراطورية المقدونية بعد التخلص من منافسيها ؛ ولذلك زجت به فى أتون الصراع ؛ غير أن أولمبياس أم الاسكندر العجوز كانت لهما بالمرصاد ؛ لأنها كانت ترى أن العرش من حق حفيدها الاسكندر بن روكسانا (ابن روشان بالفارسية) وحده ؛ واستطاعت بمساعدة أتباعها أن تلقى القبض على فيليب وزوجته يوريديكى ؛ ثم دبرت اغتيال فيليب ارهيدايوس عام ٣١٧ ق . م ، وبعدها بشهور قليلة أجبرت زوجته يوريديكى على تجرع السم .

أما الاسكندر بن الاسكندر من روشان الفارسية ؛ فقد استخدمه الورثة المتصارعون كورقة رابحة فى الصراع لأضفاء الشرعية على حق كل منهم فى

إرث الامبراطورية ؛ كما أن أولمبياس تدخلت فى الصراع أملا فى ابقاء العرش لحفيدها ، ولكنها خسرت عندما كسبت عداء كاساندر ، الذى كان يكره الاسكندر الأكبر منذ البداية ؛ منذ أن كان معه فى فتح الشرق ، بل كان متأثرا بأصدقائه من الفلاسفة المشائين الأغريق Peripatetic (*) الذين كانوا يحنقون على الاسكندر المقدونى ؛ وكان كاساندر قد أمن لنفسه حكم مقدونيا وبلاد اليونان خلال ذلك الصراع ؛ ولما حاولت أولمبياس استخدام سحر الاسكندر لاثارة الجنود على كاساندر فى مقدونيا ؛ قرر كاساندر أن يتخلص من ذرية الاسكندر جميعاً حتى لاينافسه على عرش مقدونيا أحد ؛ ولهذا ألقى القبض على الأسكندر بن الاسكندر وأمه روشان وتخلص منهما عام ٣١٠ ق.م ؛ واعتبره المؤرخون قاتل ابن الاسكندر ؛ أما أولمبياس فلم يشأ أن يقتلها بيده ، وإنما سلمها لأعدائها من البيت المقدونى ليقتلوها بأيديهم أخذاً بالثأر ؛ وبذلك اندثرت سلالة الأسكندر المقدونى منذ ذلك التاريخ وأصبح الورثة فى حل تماماً من مسألة الولاء لأمبراطورية واحدة .

ولقد حسمت مشاحنات هؤلاء الورثة فى معركتين هامتين : الأولى معركة ابسوس Ipsus فى اقليم فريجيا فى آسيا الصغرى عام ٣٠١ ق.م ؛ عندما تكاتف أربعة من المتصارعين وهم : كاساندر ، ولوسيماخوس ، وسليوقوس وبطليموس ، للقضاء على أقواهم وهو انتيجونوس ، الذى كان يفرض هيمنته على آسيا الصغرى ، وأطبقوا عليه ، وكان أنتيجونوس قد تقدم به العمر وشارف على الثمانين . وعند أبسوس فى فريجيا فى خريف عام ٣٠١ ق.م قتلوه ، وتفرق جيشه ، وهرب ابنه ديمتريوس الى بلاد اليونان ؛ وقسم المنتصرون ممتلكاته ؛ فحصل بطليموس على جنوب الشام ، ودخلت قواته الى صور وصيدا وببلوس ، بينما حصل سليوقوس

(*) نسبة إلى الفيلسوف المعلم أرسطو الذى قيل أنه كان يلقى دروسه على طلابه سواء فى ملاعب الرياضة أو فى معهدة الليسيوم (والذى منه اشتقت كلمة ليسيه عند الفرنسيين) وهى يتحرك جيئه وذهابا . وكانت هذه المدرسة تدعو إلى المنطق والبحث العلمى ، والتأمل الميتافيزيقى ، ومن أشهر إستاذتها المؤسسين ثيوفراستوس وستراتون .

على أرمينيا ، وقبادوقيا ، وسوريا العليا ؛ وحصل لوسياخوس على ما يريد من الأناضول . وكان بطليموس قد انسحب من المعركة على أثر شائعة أن انتيجونوس وابنه قد انتصرا ، ولهذا طالب المنتصرون بحرمانه من ثمار النصر ، وطالبوه بالجلاء عن جنوب الشام ؛ لكن سليوقوس الذى كان فى يوم من الأيام لاجئا فى بلاط بطليموس عندما طرده انتيجونوس ، وساعده فى العودة الى امارة بابل، لم يشأ أن يدخل فى حرب مع بطليموس، فترك له جوف سوريا لحين أن يفرغ من تأمين مملكته ؛ ولذلك بقيت مشكلة الشام قائمة بين خلفاء بطليموس وسليوقوس ، بين الحق التاريخى الذى طالب به بطليموس ، وبين الحق القانونى الذى قرره المنتصرون فى أبسوس وأدى فيما بعد الى حروب بين البطالمة والسليوقيين .

أما المعركة الفاصلة فى حروب الورثة ، فقد كانت معركة كوروبيديون Kouropedion (أى معركة سهل قورش) فى صيف عام ٢٨١ ، وكان لوسياخوس قد انتزع مقدونيا وتساليا من ديمتريوس بن انتيجونوس عام ٢٨٥ ق.م ، وبذلك أصبح أقوى المتصارعين ، مما جعل رفاقه يحنقون عليه ، خاصة سليوقوس الذى أراد أن يطرد لوسياخوس من آسيا الصغرى ؛ والتقى الجيشان فى سهل قورش فى صيف عام ٢٨١ ق.م فى إقليم مغنيسيا Magnesia وحقق سليوقوس نصراً حاسماً ؛ وهلك فى هذه المعركة لوسياخوس ؛ الذى كان قد تقدم به العمر ، وطحنته المعارك ، وبذلك اختفى رأس كبير من الورثة ، ولم يبق من الورثة سوى إثنان هما بطليموس وسليوقوس، أما سليوقوس فلم يقنع بحكم آسيا والشرق الأدنى ، بل ركبه الغرور بعد أن ضم اليه ممتلكات لوسياخوس ، وتطلع للاستيلاء على عرش مقدونيا . ولذلك عين ابنه الأكبر أنطيوخوس Antiochus نائباً عنه لحكم الولايات الآسيوية فى الشرق الأدنى ، وسار على رأس جيش نحو مقدونيا ولكنه اغتيل قبل أن يعبر البسفور والدردنيل من آسيا الى أوروبا على يد بطليموس الصاعقة ، الأبن البكر لبطليموس من زوجته الأولى .

وبذلك انقشع غبار معارك الورثة عن ثلاثة ممالك كبرى هى : مملكة البطالمة فى مصر ؛ ومملكة آل سليوقوس فى سوريا الكبرى وبلاد الرافدين

وإيران وبعض أجزاء آسيا الصغرى ؛ ثم ولاية مقدونيا التى آلت فى أول الأمر الى بطلميوس الصاعقة ، ثم آلت من بعده الى انتيجونوس جوناتاس ابن دمتريوس وحفيد انتيجونوس الكبير ؛ واستطاع انتيجونوس جوناتاس أن يؤمن العرش لأسرته من بعده فى مقدونيا ، وأصبحت تعرف بآل انتيجونوس Antigonids ، وظلت تحكم مقدونيا حتى استيلاء الرومان عليها عام ١٦٨ ق.م وكانت أول مملكة هللينستية تسقط فى حوزة الرومان .

تحول الحضارة الأغريقية من المرحلة الكلاسيكية إلى الهالينستية :

تحطمت كل أمانى المفكرين والفلاسفة الذين ظهروا منذ مطلع القرن الرابع ، والذين دعوا دويلات المدن أن تتنازل عن كبريائها ، وتسلم قيادتها لمقدونيا ، حتى تقوم بحملة مقدسة لفتح الشرق أمام المهاجرين والتجار الأغريق ؛ فالأحداث التى عصفت ببلاد اليونان عقب موت الاسكندر ، خيبت الآمال ؛ ففى خلال حياة الاسكندر الأكبر كانت الأمور تبدو طيبة ؛ فالخيرات والغنائم كانت تتدفق على بلاد اليونان من الشرق ، مما أنعش الاقتصاد وخلق حالة من الرواج والاستقرار ؛ وخفف من حدة الأزمة الاقتصادية التى كانت بلاد اليونان تعانيها قبل مجىء الاسكندر ؛ غير أن الصورة تغيرت فجأة بعد رحيل الاسكندر ، فقد توقف تدفق الثروات من الشرق ، بل ان المدن الأغريقية — ذات التاريخ التليد — وجدت نفسها فجأة وقد فقدت مكانتها السياسية القديمة ؛ وما تبقى لها من حرية واستقلال منحها لها الاسكندر ؛ ووجد مواطنوها أنفسهم وقد تحولوا الى رعايا لملوك مقدونيين مستبدين ، أكفاء فى الحرب والسياسة ؛ وكثيرا ما كانوا « رومانسيين » فى شخصياتهم وأحلامهم ؛ مغامرين ممجدين لذواتهم ؛ وهواة للفنون والآداب ؛ ميالين لحياة الأبهة والعظمة ؛ ذوى تصرفات عاطفية تنزع إلى العنف والانتقام ، اما اهمية هؤلاء الحكام فى التاريخ ، فانها ترجع الى توسيع سياسة الاسكندر فى صبغ الشرق الأدنى بالصبغة الهيللينية ؛ أما خلاف ذلك فقد ساروا فى طريق التعاظم الشخصى ؛ واتبعوا فى مناهجهم فى الإدارة النماذج التى سار عليها السلف من فراعنة مصر ، وملوك الامبراطورية الفارسية ومقدونيا .

لقد أحدث فتح الشرق تغيرا فى ذوق كل من شعوب الشرق الأدنى والاغريق معا ؛ فمن ناحية ، تحرر الشرقيون من الاستبداد والسلطة التى كانت تحكمهم طوال تاريخ حضاراتهم ، ومن سيطرة الكهنة الصارمة على الفنون بالذات ، وبدأوا يتحررون من قيود التراث الدينى العتيق الذى كان يشكل أفكارهم ، فبسقوط الفراعنة ، وملوك بابل ، وآشور المؤلهين ، الذين ذاب الفرد فى سطوتهم ، وكذلك سقوط عرش الطاووس فى فارس ، تحرر الفرد فى الشرق من الكبت ؛ وذاق حلاوة الابداع وحرية التفكير ؛ ولم يعد يخاف لا من الكهنة — حراس العقائد ؛ ولا من جبروت حكامه المؤلهين ؛ فتحرر لأول مرة من نزعات السيطرة والاستبداد ؛ أما بالنسبة للاغريقى المهاجر الى الشرق ، فقد ترك وراءه عقد المدينة وصرامتها ؛ والتى كانت تقيد حرية الفرد ، وتفرض عليه أفكاره ومعتقداته ؛ فلم يعد سجينا لفلسفة المدينة السياسية والأخلاقية ؛ ووجد نفسه فى مدن الشرق وحواضره الجديدة حرا ؛ ينعم بالحرية الشخصية ؛ وحرية الابداع والتعبير الذى لايعرف حدود ؛ ولم تعد هناك موانع تحدد له حرية البحث العلمى ؛ بعد أن هجر السياسة والتعصب ؛ وتعلم من مواطنيه الشرقيين أصول التسامح والتعايش ، ولم يجد من يمنعه أو يصده من أن يعب من حضارة الشرق فى كل جوانبها ، ويتعلم من الذين كان يتعالى عليهم أجداده قديما ، ويلقبونهم بالبرابرة ، فتطورت الحضارة الجديدة — الهللينستية كما أطلق عليها — وازدهرت مدارس الفلسفة فى الشرق ؛ هكذا تغير المهاجر الأغريقى عندما عاش فى رحاب الشرق ؛ فقد نسى عقد المدينة Polis الكلاسيكية ؛ والتى كانت طوال تاريخها أتونا للحرب ، استنفذت طاقاته ؛ ونسى النزعة العنصرية والاستعلاء القومى ؛ واستبدل ذلك باحساس إنسانى متدفق وحار ، يدعو الى محبة الانسان والبشر والأخوة بين الناس ، وتقديس السلام ، لأنه السلوك الطبيعى للانسان المتحضر ؛ ووجد فى تراث الشرق الفلسفى ضالته المنشودة ، فراجت فلسفات التبشير بالمحبة من أجل تحقيق السعادة القصوى ، والسلام والاستكانة للنفس البشرية . فظهرت كلمة Anthropos (أى الانسان) ومشتقاتها ، كما

ترددت كلمة العالمية Cosmopolitanisim ، وأصبح العالم المسكون هو العالم المتحضر ؛ بل أصبح الأغريقى يتفاخر بأن هذا العالم المتحضر هو وطنه وليس مدينة متعصبة ضيقة الأفق ، كما كان الحال قبل الاسكندر .

فى عالم ما بعد الاسكندر ، كان واضحاً أن مستقبل الحضارة لم يعد فى مدن بلاد اليونان التى كان دورها قد انتهى ، وإنما فى مدن الشرق الأدنى التى كان دورها على وشك أن يبدأ ؛ والشرق هو مهد الحضارة الانسانية الأولى ؛ والذى من حضارته نسج الأغريق الأقدمون حضارتهم ؛ ولذلك تسابق الأغريق أفرادا وجماعات للهجرة الى مدن الشرق الفتية الجديدة ، وكان ملوك الشرق الجدد أغريقا فى السلالة واللغة والعادات ؛ يديرون دفة البلاد من قصورهم الفارهة ، فى عواصم ممالكهم الجديدة بمعاونة الخبراء ورجال الفكر من الاغريق ، وتعتمد ركائز حكمهم على جيوش من المهاجرين ومن المرتزقة الأغريق ، وكانوا عازمين على نشر المدنية الأغريقية فى كل ربوع الشرق ؛ والحفاظ عليها حتى لاتذوب فى بحر حضارات الشرق العريق ؛ فراحوا يدعون ويروجون لفكرة الهجرة إلى ممالكهم ، ودفعوا للشعراء لكى يروجوا لفكرة أن الشرق هو الجنة الموعودة للأغريق ؛ وبفضل هذا النزوح الكبير الى الشرق ، قويت شوكة الملوك الجدد ؛ فقد أصبح لهم جيوش من بنى جلدتهم ؛ ولاؤهالهم ، فبقاؤهم فى هذة البلاد رهن ببقاء الملك المقدونى فى الحكم ، فهم يقفون ورائهم إذا ما ثار أهل البلاد الأصليون عليهم ؛ ولذلك التف المهاجرون الأغريق فى الشرق حول الملوك ؛ يتملقونهم ، مهما كانت شخصيتهم وأفكارهم ؛ وانهالوا عليهم بألقاب التكريم ؛ متأثرين بذلك بشعوب الشرق التى درجت على تأليه ملوكها ؛ وبذلك أصبح الملوك آلهة ، والآلهة ملوكا .

لقد كان العصر الهلينستى عصر ازدهار حضارة مدن الشرق الأدنى ، خاصة ، فقد كان عصر بناء الحواضر فى كل أرجائه ، وتحويل هذه الحواضر الى منارات لاشعاع الفن والثقافة ، وتطوير البحث العلمى ؛ ولقد ساعد على ذلك أن الملوك عملوا على قيام طبقة من الأثرياء والأعيان حولهم لمساعدتهم فى الحكم ، بالاضافة الى ذلك ، ففى غمار حروب الورثة ، ازدهرت طبقة

انتهازية من البرجوازيين الجدد من سكان المدن والمستوطنات ، التى استغلت الظروف ، وغرقت فى بحر من الثراء ، بينما كانت الغالبية العظمى من باقى السكان سواء من المهاجرين أو الوطنيين تعانى من شظف العيش ، فى عصر ارتفعت فيه الأسعار ارتفاعا جنونيا ، وظهرت فيه الأزمات ، ولذلك استلهم المفكرون الأغريق من فلسفات الشرق الدواء والعلاج ، كما نبغ الشرقيون المظلومون فى وضع أساس فلسفات انسانية ، تحطم الحواجز الاجتماعية والعنصرية . فقد وضع زينون القبرصى ، وهو فى الأصل فينيقى ، عاش فى مدينة كيتيون القبرصية Ctiium حوالى عام ٣٠٠ ق.م أسس الفلسفة الرواقية كعلاج لأزمات العصر ، وازدهرت فى صيدا فى فينيقيا مدرسة رواقية خرج منها أشهر الفلاسفة الرواقيون من أمثال زينون الصيداوى الرواقى ، وبويثوس Boethos ، الصيداوى ، ومن أعلام فلاسفة الشرق الأدنى الرواقيين زينون الطرسوسى ، وقد ترك من بعده تلاميذا ازدهرت بهم مدرسة طرسوس فى الشام منهم انتياتر الطرسوسى ، وأرخيديموس الطرسوسى ، وخرج من صور أيضا انتياتر الصورى الرواقى ، فى القرن الاول الميلادى . وفى القرن الثانى قبل الميلاد أخرجت مدينة سلوقية على نهر دجلة ديوجين البابلى .

وكما ابتكر فلاسفة الشرق الفلسفة الرواقية الانسانية العالمية للأغريق ، فقد ساهموا أيضاً فى تطوير الفلسفة الابيقورية ، فنسمع عن أعلام الابيقورية الجديدة مثل زينون الصيداوى الابيقورى فى القرن الثانى ق.م وعن ديوجين الطرطوسى الأبيقورى . هذه الفلسفات التى ابتدعها أو طورها الشرقيون كانت العلاج الروحى والفكرى للقلق النفسى ، والظلم الاجتماعى ، الذى ساد بلاد الأغريق فى الغرب ، فقد فلاسفة صور ، وصيدا ، وطرسوس ، وسلوقية دجلة ، العلاج الشافى لأزمات الغرب . فقد دعت الرواقية الى المساواة بين البشر ، والزهد فى متاع الدنيا ، وحب الواجب ، وبشرت بالتصوف ، وكبح جماح النفس ، كعلاج للجشع المادى ، والتكالب على الثروة ، واستبدال ذلك بأمتاع النفس بالمعرفة ، لأنه الامتاع الذى لايتبعه

ألم ، بينما نادت الأبيقورية بالتحرر من الخوف ، والاستمتاع بقدر الامكان بحياة الدنيا ، قبل الرحيل إلى عالم غير معروف .

وبالرغم من الخلل المادى والاجتماعى ، الذى ساد مدن ومستوطنات العصر الهللينستى ، الا أن الحواضر نجحت فى الاستفادة من تراث الشرق الخالد ، فازدهرت الفنون ، وعرف المستوطنون بذخ الشرق وترفه من حرير وعطور ، وطيب وبخور ، وعطارة وتوابل ، وأصبح الفن الهللينستى فن إمتاع فاضح ، بعد أن تحرر من كل القيود والتقاليد الأغريقية الكلاسيكية التى كانت سائدة فى بلاد اليونان قبل مجىء الاسكندر ، وأصبح فنا فى خدمة رغبات الطبقة الغنية البرجوازية من سكان المدن الجديدة . ووجد الفنانون طلبا عليهم من جانب هؤلاء الأثرياء ، وجندوا قدراتهم لامتاعهم بالفن . ولهذا فقد جاء الفن الهللينستى تعبيراً عن رغبات الفرد ، وليس املاء لرغبات الدولة السياسية أو الكهنوت الشرقى .

لقد كانت حضارة العصر الهللينستى هى حضارة الحواضر الأغريقية فى الشرق ، فقد كان ملوك الممالك الهللينستية يعتقدون أن رسالتهم — بعد أن استتب الأمر لهم واختفت حروب الورثة — هى نشر الحضارة الهللينستية فى أرجاء ممالكهم ، فازدهرت مدن عامرة كالاسكندرية فى مصر ، وأنطاكية على نهر العاصى (Orontes) ، وسلوقية على نهر دجلة ، ومائة مدينة أخرى كانت تدين بوجودها الى الاسكندر وخلفاؤه ، ولقد وقع العبء الأكبر فى بناء الحواضر فى الشرق الأدنى على ملوك الأسرة السليوقية بالذات ، فبعكس الحال فى مصر أو مقدونيا ، كانت الامبراطورية السليوقية فى الشرق الأدنى وآسيا الصغرى مترامية الأطراف ، يعوقها عدم الوحدة الجغرافية والتماسك العرقى ، وتعدد القوميات واللغات ، ولذلك وبمرور الزمن فقدت كثيرا من أطرافها البعيدة ، ووجدت نفسها فى النهاية محصورة بين الشام والفرات وآسيا الصغرى ، ففى خلال القرون الثلاثة حقق السليوقيون نجاحاً عظيما فى بناء المدن فى الشام وبلاد الرافدين وحول الخليج العربى ، وكذلك فى آسيا الصغرى والأراضى الواقعة حول بحر قزوين ، فغرسوا

جذور الحضارة الهللينستية فى الشرق الأدنى ، ومهدوا لتزاوج الفكر الأغريقى الوافد ، مع الفكر الشرقى الضارب بجذوره فى أرض الشرق الأدنى ، فقد حلت سلوقية على نهر دجلة محل بابل ، التى أصبحت منذ ذلك الحين مركزاً دينياً ، وحلت أنطاكية محل دمشق ، كما حلت الأسكندرية فى مصر محل منف وطيبة .

وإذا كانت الثقافة الهللينية الوافدة قد تأصلت فى عالم الشرق الأدنى وآسيا ، فان ديانات وفلسفات الشرق الأدنى ومصر بدأت تغزو عالم البحر المتوسط المادى ، ولقد كان الملوك السليوقيون مخلصين فى وفائهم للحضارة الهللينية ، لأنهم كانوا يرون أن السبيل الوحيد لتوحيد شعوب الشرق وقومياته المختلفة فى بوتقة واحدة هو اجبار السكان على التأغرق ؛ فمثلا حاول انطيوخوس الرابع الملقب بالرب الظاهر أو المتجلى Epiphanes (۲۱۵ - ۱٦۳ ق . م) عندما تولى العرش عام ۱۷٥ ق. م أن يرغم اليهود على التأغرق للاندماج مع باقى شعوب مملكته فى الشرق الأدنى ؛ مما أدى الى رفض اليهود لذلك ، واحياء النعرة القومية لديهم ؛ ولقد عرف أنطيوخوس الرابع بنشاطه المحموم فى بناء الحواضر فى الشرق الأدنى ؛ بل أنه فقد حياته وهو يواصل فتوحاته فى أعماق الشرق الأدنى ليقيم الحواضر ؛ ولقد أدت هذه الحواضر خدمة كبيرة للأغريق ، إذ وسعت آفاق تفكيرهم ، وأوجدت لهم مصالح جديدة ، فبوجود التجارة والمصالح الكبرى فى أيدى الأغريق المهاجرين أضاف الأغريق بصماتهم فى تنشيط التجارة الشرقية ، وبعث الروح الجديدة فيها ، فقدموا مناهج جديدة للتعامل ، وظهرت النقود السليوقية والبنوك الأغريقية كعامل مؤثر ، فاتسعت هوة الخلاف بين صاحب رأس المال والعامل ، وتعقدت المشاكل الاجتماعية ، وأصبح السلام فى المدن التجارية مهددا بالخوف من اندلاع الثورات الاجتماعية أو القومية ، ونتيجة لنشاط التجارة تجمع رأس المال لدى فئة قليلة من التجار والأغنياء ، مما أدى الى انتشار الفقر بين الغالبية العظمى من سكان المدن الجديدة ، وبسبب نشاط رأس المال ارتفعت الفائدة ، وبالتالى ارتفعت أسعار السلع ارتفاعاً لم يتناسب

مع المدخول ، وفقدت الدراما الأغريقية نصف قيمتها فى القرن الثالث ، وكانت الجماهير فى خطر دائم من حدوث مجاعة ، بل حدثت بعض الاضطرابات ، وعرف العالم البطالة ؛ إذ لم يوجد طبقة وسطى لتكون جسرا بين الأغنياء والفقراء ، ولهذا تعالت الأصوات مطالبة ببعض العلاجات الثورية : كالغاء الديون ، واعادة توزيع الملكية الزراعية ، ومصادرة الممتلكات الشخصية ، والدعوة لتحرير الرقيق ؛ وهى تلك القضايا التى طرح الرواقيون لها حلولا ، ومن ثم ، انتشرت الرواقية بين الطبقات المستنيرة من أبناء الشرق والغرب على السواء ، بل وجدت الرواقية لها أنصارا فيما بعد عند الرومان .

ولقد كان الفن والأدب من أهم نتاج هذا التغيير فى العصر الهلينستى ؛ فقد أصبح الأدب يتميز بالوضوح والثقة ؛ وبالنقد والتأمل ، واحياء التراث القديم فى ثوب جديد ؛ وأصبح المسرح يقدم الروايات الاجتماعية الانسانية لجمهور رفيع الذوق ؛ فقد كانت قصور الملوك مراكز للنشاط الأدبى والعلمى ، تماما مثلما كانت قصور الخلفاء فى العصر العباسى . فقد كانت المعرفة تحظى برعايتهم فظهر شعر « الرعاة » الغارق فى رومانسية الريف وجماله الحالم ، هربا من المدينة ومشاكلها وهمومها ، ولينسى الناس ما أحدثته حروب الورثة من دمار ، وسفك للدماء ؛ وانتشر فى عاصمة البطالمة حتى أطلق عليه النقاد إسم « شعر الاسكندرية » ، ولمع نجمه الأول الشاعر ثيوكريتوس Theocritus ، الذى وجد الرعاية من بلاط بطليموس الثانى . وطور ميناندر الكوميديا الجديدة لتختار موضوعات انسانية لا شأن لها بالسياسة ، وتمثل كافة قطاعات المجتمع وتناقضاته ، وأصبح العشق والحب أفكارا تسيطر على المسرح وعلى الشعراء ، وبرزت العاطفة الانسانية الجياشة فى فى شعر المراثى المؤثر .

ولعل أهم ما تعلمه الأغريق من مدن الشرق الأدنى اقامة المكتبات الكبرى لجمع عيون التراث ؛ ولقد ذكرنا سابقاً كيف أن آشور بانيبال كرس السنوات الأخيرة من حياته فى إقامة مكتبة كبرى فى نينوى عاصمة ملكه ، وأرسل الرسائل لجمع الألواح القيمة ، ولم يدخر وسعا فى الحصول

على أية نسخة فريدة لنص موجود ؛ بل ازدهر فن المكتبات فى بلاد الرافدين منذ أيام السومريين ؛ حيث كان لعلم المكتبات أصل ثابت وخبرة فنية متوارثة فى فن الأرشيف ؛ ويعترف العالم الآن بأن الأغريق قد تعلموا فن المكتبات من مكتبة آشور بانيبال ابان العصر الهلينستى ؛ ولهذا نقل البطالمة هذه الفكرة على نطاق أحدث ، وحافظوا على التقاليد البابلية والآشورية الخاصة بالفهرسة ؛ فأقاموا فى الاسكندرية أضخم مكتبة عرفها العالم القديم ؛ بل عندما ازدحمت المكتبة أقاموا ملحقاً لها ؛ وكانت المكتبة وملحقها تحتويان على سبعمائة ألف مخطوط من كافة اللغات والعلوم ؛ وهذا يدل على وجود جمهور كبير من المثقفين عكف على الدراسة والقراءة ؛ وأصبح هناك متخصصون فى علوم الشرق الأدنى ولغاته وحضارته ، وذلك نظراً لأهتمام البطالمة بالمشرق العربى . هذا النشاط والحماس الذى جمع به الملوك المقدونيون عيون التراث لكافة الثقافات ، وبكافة اللغات ، أدى الى ظهور فن الترجمة من اللغات السامية الى اللغة الأغريقية الجديدة (Koine) ، فنشط فن الترقيم والتصنيف ؛ وظهرت مدارس من النقاد والشراح ، أظهرت مهارتها ، وازدهر فن النقد اللغوى ، والنقد الجمالى ، ونقد النصوص وتحقيقها ، وبفضل اهتمام البطالمة بصناعة الورق من نبات البردى وتطويره ، وجعل مصانع الورق من احتكار الدولة ، وبفضل تيسير اللغة الأغريقية الشعبية لتصبح عامة للجميع ، وليس وقفاً على قلة من اللغويين المتحذلقين ، اتسع نطاق المعرفة ، بل أن المثقفين من الشرقين عكفوا على تعلم الأغريقية ، وفضلوا الكتابة بها على لغاتهم العتيقة الكهنوتية ؛ فكتب مانيتون المصرى تاريخ بلاده باللغة الأغريقية الجديدة ؛ وأعاد كتابة تاريخ مصر وفق منهج علمى جديد ؛ فقسم تاريخ مصر الى ثلاثين أسرة ؛ وهذا التقسيم لا زلنا نسير عليه حتى يومنا هذا ؛ كما كتب بيروسوس Berosus — وكان أيضاً كاهنا من بابل تحول إلى الأغريقية واتخذ لنفسه اسم سليوقوس — كتب تاريخ بابل بناء على طلب الملك السليوقى أنطيوخوس الأول بدءا من الطوفان وحتى موت الأسكندر فى ثلاث مجلدات ؛ بل قام بترجمة بعض أبحاثه فى علم الفلك الى

الأغريقية ، ووضع نظرية جديدة تقول بمركزية الشمس بالنسبة للأجرام فى الكون . وفضل اليهود فى الاسكندرية استخدام الأغريقية المبسطة على لغتهم العبرية والآرامية ؛ فقاموا بترجمة أسفار العهد القديم Septuagint من العبرية الى الأغريقية ؛ وفيما بعد ترجمت أناجيل العهد الجديد من الآرامية الى هذه اللغة أيضا لأنها هى اللغة العالمية المعروفة فى كل مكان .

وفى عصر اهتم بالبحث العلمى ، والاستقصاء العملى ، والكشف الجغرافى ، والقياس الرياضى ، قفز العلم قفزة كبيرة الى الأمام بمعاونة الوسائل والمعطيات الجديدة ، وتهافت على الاسكندرية خيرة العلماء ، الذين وجدوا كل رعاية من القصر الملكى ؛ ومن بين العلماء الذين نبغوا فى جامعة الاسكندرية يوقليد عالم الرياضيات ، وأرشميدس Archimedes واضع قوانين الطفو وأسس الروافع ، والجغرافى أراتوستين Eratotshenes القوريني أول من قاس درجات العرض على سطح الأرض ، فقدر محيط الأرض بحوالى تسعة عشرين ألف كيلومتر ، وكان من ثمرات دراساته الجغرافية ، تلك الرحلة الذائعة الصيت التى قام بها بيثياس Pytheas من ميناء مرسيليا (ماسيليا) فى أواخر القرن الرابع ق.م ، حيث سار بمحازاة سواحل أوروبا على المحيط الأطلنطى ، حتى بريطانيا وسواحل بحر الشمال وحتى مصب نهر الألب . وتقدم من بناء السفن فأصبحت تبحر لأول مرة عبر البحر الأحمر والخليج العربى الى الهند فى خطوط منتظمة ، بعد ان كان ذلك وقفاً على العرب السبئيين ، وسراً من أسرار حضارتهم . كما ازدهر علم الجغرافيا . وفى الأسكندرية أيضاً ازدهر علم الطب ، وكانت مدرسة الطب فى مصر مزدهرة منذ أيام الفتح الفارسى ، وكان مركزها تانيس ، لكن البطالمة نقلوا مقرها الى الأسكندرية وبفضل النتائج التى توصل إليها المصريون عبر القرون ، استفاد العلماء الأغريق وبدأوا من حيث انتهى الأطباء المصريون ؛ ففى الاسكندرية أصبح علم التشريح لأول مرة هو أساس علم الطب على يد هيروفيلوس Herophilus حوالى عام ٣٠٠ ق.م ، كما ازدهر علم السموم وعلم الصيدلة من الأعشاب الطبية ، والتى كانت سراً من أسرار التطبيب ، عند المصريين فأصبحت علما معروفا ومتاحا للجميع .

وبسبب تحرر الفرد من القيود الأخلاقية والسياسية للمدينة الإغريقية ، وبسبب تحرر الشرقيين من قيود الكهنوت والفكر الديني العتيق ، واستبداد الفراعنة وملوك الشرق ؛ ازدهرت الفصاحة والبلاغة ، وقامت مراكز للبحث العلمي ، والأكاديميات في مدن الشرق العامرة مثل الأسكندرية ، وطرسوس ، وأنطاكية ، وفي سلوقية دجلة ، وفي بابل ، وصيدا ، وصور وبرجامة ، ورودس . ولم يعد الأدباء والعلماء يكتبون لأجل مواطنيهم ، ولكن لأجل العلم كله ، ووفقاً للنظرة العالمية الجديدة ، لأن جمهور القراء أصبح عالميا وليس اغريقيا .

وبالمثل أصبح الفن هو الآخر عالمياً ، ومرآة لمفاهيم الحياة الجديدة ، فحقق الفنانون درجة عالية في اتقان الصنعة اتقانا حاذقا ، ونجحوا في تصوير العواطف والانفعالات النفسية ؛ كما حقق المصورون والنحاتون درجة عالية في تحقيق ورصد الخصائص والملامح الفردية لكل انسان . فقد أصبح الفنانون يصنعون التماثيل للملوك والعظماء ، فقد جلس الاسكندر نفسه طويلا أمام النحات الشهير لوسيبوس Lysippos المتخصص في نحت تماثيله ؛ كما جلس عدة مرات أمام المصور الأغريقي ابيلليس Apelles ، وبذلك نجح الفنانون في رصد قسمات الزعماء حتى اننا يمكن التعرف عليهم من وجوههم ، وبذلك ازدهر فن البورتريه (Portraiture) . وظهرت أعظم الأعمال الفنية خارج بلاد اليونان وفي الشرق خاصة ؛ وأشهرها ضريح الملك الشرقي ماوصولوس Mausolus ٣٥٠ ق.م ، والمسمى الموصوليوم ؛ وكان ماوصولوس ملك كاريا في آسيا الصغرى محبا للفن الأغريقي ، ولذلك استدعى الفنان الشهير سكوباس Scopas لينفذ له هذا العمل . وفي الاسكندرية أقبل الفنانون على احياء الفن المصري القديم بروح أغريقية كما نرى في تماثيل ايزيس وهي ترضع حورس ، والتي تحولت في الفن المسيحي فيما بعد الى العذراء ترضع الطفل يسوع . وفي رودس أقام أهلها تخليدا لنجاحهم في ضد ديمتريوس عام ٣٠٤ ق.م تمثالا عملاقا لرب الشمس Helios بلغ ارتفاعه مائة قدم ، وكان أحد عجائب الدنيا السبع ، ولقد انتصر أهل رودس بفضل مساعدة

صديقهم بطلميوس الأول فرعون مصر المقدونى ، واعترافاً بذلك إلجميل ، منحوه لقب المنقذ Soter ، واختاروا ربا له علاقة برب مصر الأبدى «رع» رب الشمس ، الذى كان يعبد فى رودس باسم Helios ، ليقيموا له التمثال العملاق ، ولا شك أن عبادة رب الشمس فى رودس مصرية الجذور ؛ ولذلك جاء التمثال مزيجا من فن الشرق وفن الغرب ، الفكرة مصرية والتنفيذ أغريقى .

أما فن التصوير فقد بلغ أوج عظمته ممثلا فى فن التصوير السكندرى حيث أبدع المصورون فى تصوير المناظر المألوفة من الريف التى تماشى مع « شعر الرعاة » السكندرى ، كما تسابق الأغنياء فى ملء جدران منازلهم بالرسومات الساحرة ، وفى عهد السليوقيين ذاع الفن الأغريقى صوب الشرق حتى وصل الى الشرق الأقصى ، حتى ان الهنود تأثروا به فى نحت تماثيلهم المقدسة .

وخلاصة القول . لقد جلبت فتوحات الأسكندر عالماً أوسع الى داخل النفس البشرية ، وفى نفس الوقت لم يختف التراث القديم سواء فى الشرق أو فى الغرب ، إنما أعيد بعثهما فى لغة جديدة ، وبشكل جديد ، يمثل روح العصر وفلسفاته الكونية الانسانية ، ولم تعد الحضارة سراجا يهدى الأغريق وحدهم وإنما أصبحت شمسا سطعت على الشرق الأدنى كله ، بل والعالم المسكون بأسره ، لأنه فى الوقت الذى خبا فيه نور هذا المصباح فى بلاد اليونان ، توهج نوره فى مكان آخر ، فى ربوع مصر والشرق الأدنى .

* * *

أهم المراجع للفصل الرابع

أولا : المراجع العربية والمعربة :

١ - و. ج دى بورج تراث العالم القديم ، الجزء الأول الفصل السادس (ص ٢٠٧ - ٢٢٣) .

٢ - و. تارن ، ج جريفث : الحضارة الهللينستية (ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد) . القـاهرة ١٩٦٦ .

٣ - و. جران (فيليب جران) شعر الاسكندرية ، ترجمة محمد صقر خفاجة ، دار النهضة العربية القاهره ١٩٥٢ .

٤ - ج . سارتون (جورج) تاريخ العلم ، الجزء الرابع (ترجمة لفيف من العلماء : العلم والحضارة الهللينسيتة في القرون الثلاثة قبل الميلاد ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ .

٥ - د. سيد أحمد على الناصرى ، التأثير الرومانسى للحضارة المصرية على تفكير شعوب البحر المتوسط (مصر وعالم البحر المتوسط - إعداد وتقديم رءوف عباس) القاهرة ١٩٨٦ .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

1. H. Bengston : Die Diadochen — Die Nachfolger Alexanders (323—281 V.Ch.), Munich, Ch. Beck, 1987.

2. R.M. Berthold : Rhodes in the Hellenistic Age, Ithaca Cornwell University Press, 1984.

3. J.B. Bury (et alia) : The Hellenistic Age, Cambridge, 1952.

4. M. Cary : History of Greek World from 323 — 146 B.C., London 1951.

5. P. Clȩche : La dislocation d'un empire, paris 1959.

6. F.G. Grant (editor of the series and writer of the Introduction) Hellenistic Religions, Liberal Arts Press, New York, 1953.

7. P.Jouget : l'Imperiali sm ma cedonian et l'hellenisation de l'orient, Paris, 1926 (Translated into English by J. Ogden: Macedoniam Imperialism and the hellenization of the East, London, 1928

8. G.M.A. Richter : Three Critical Periods in the Greek Sculpture, Oxford, 1951.

9. M. Rostovtzeff : Social and Economie History of the Helleinistic World, Oxford, 1953.

10. P. Roussel, La Grece et l'Orient : Des guerres medique a la Cnoqquete romaine, Paris, 1928.

11. K. Schneider : Kulturgeschichte des Hellenismus, Munich, 1967

12. W.W. Tarn : Hellenistic Naval and Military Development, Cambridge University Press, 1930 .

13. W.W. Tarn and Griffith : Hellenistic Civilization, London, 1952.

14. F. Theodore : Hellenis tic Architecture : An Introductory Study Cambridge university Press, 1936.

15. V. Tscherikower : Die Hellenistischen Staedtgrundungen von, Alexander Dem grossen bis auf die Roemerzeit, Philologus, Supplement band XIX, Heft 1, Leipzg. 1927.

16. F.W. Walbank : The Hellenistic World : Fontana History of Ancient World, William. Collins, Son andCompany,Glasgow, 1981.

17. T.B.L. Webster : Hellenistic Poetry and Art, Methuen, London, 1964.

18. T.B.L. Webster : Hellentic Art, London, 1967.

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس

امبراطورية البطالمة فى مصر والشرق الأدنى
٣٢٢ - ٣١ ق.م

بطليموس الأول (٣٦٧ - ٢٨٢ ق. م) :

كان بطليموس بن لاجوس - مؤسس الأسرة البطلمية - رفيق حياة الاسكندر منذ صباه ، فعندما كان الأسكندر غاضباً من أبيه فيليب ، قام فيليب بنفى بطليموس معه ، ولم يعد بطليموس من المنفى الا بعد مقتل فيليب وتولى صديقه الأسكندر ملكا ، وبالطبع قرب الأسكندر إليه صديقه بطليموس ؛ فجعله واحدا من ندمائه المقربين (Hetairoi) ؛ وجعله أحد ضباط حرسه الخاص Somatophylax ، ومشرفا ورقيبا على طعامه Edeatros . ولقد رافق بطليموس صديقه الأسكندر فى كل فتوحاته ومعاركه ، حيث أبدى شجاعة فى الهند لفتت نظر الأسكندر ؛ بل كان بطليموس يقوم بتسجيل وقائع هذه المعارك ويوميات الأسكندر فى مؤلف تاريخى فقد، ولم يصل الينا ؛ غير أن هذا المؤلف كان المصدر الأول للمؤلف الذى كتبه أريانوس Arrianos عن حياة الأسكندر . وفى حياة الأسكندر كان بطليموس متشبعا بأفكاره العالمية ؛ فعندما دعا الأسكندر رفاقه للزواج من فارسيات لتكوين جيل يجمع بين دماء الشرق ودماء الغرب ، وتزوج الأسكندر نفسه فى الحفل الذى أقيم فى سوسا عام ٣٢٤ ق.م ، من ستاتيرا ابنة دارا الثالث ، عقد بطليموس قرانه على فارسية اسمها أرتا كاما Artacama ابنة الوالى الفارسى Artabazos ، لكن ما أن مات الأسكندر حتى نبذ بطليموس هذه الأفكار ، فهجر زوجته الفارسية ؛ واقترن بزوجة مقدونية اسمها يوريديكى Eurydike وهى ابنة انتيباتر والى مقدونيا فى ذلك الوقت وهى ، التى أنجب منها ابنه الأكبر بطليموس الصاعقة ، غير أن هذا الزواج لم يستمر ،

وذلك لأنه هجرها ربما بعد تصاعد الخلافات مع أبيها أنتيباتر ، وفضل عليها شقيقته من أبيه ، وكان اسمها بيرينيكى Berenike ، فتزوجها قبل عام ٣١٦ ق.م ، وهى التى أنجبت له ابنته أرسينوى ، التى ولدت عام ٣١٥ ق.م ، كما أنجبت له ولدا ، ولد فى جزيرة كوس فى بحر ايجة عام ٣٠٨ ق.م ، وهو بطليموس فيلادلفوس .

١ — قيام الأسرة البطلمية فى مصر :

رأينا كيف أن بطليموس كان آخر الضباط الكبار الذين غادروا بابل لتولى الحكم فى ولايا الامبراطورية المقدونية ، وبعد موافقة المؤتمر على تعيينه « سترابا » على مصر ، تقدم بثلاثةمطالب إلى برديكاس المفوض العام على الامبراطورية] : أولها أن يدفن الاسكندر فى مصر ليكون فى رحاب أبيه آمون رع فى سيوة ، وقد رفض هذا الطلب تخوفا من نوايا بطليموس ؛ وثانيها أن يعيد لمصر الآثار والكتب المقدسة التى كان الفرس قد نقلوها الى عاصمتهم ؛ وقد وافق عليها برديكاس على مضض ، وثالثها أن يطالب بنصيب من الأموال التى جمعها الأسكندر من الفتوحات ، ليشرع بها فى تأسيس حكمه فى مصر ، ولم يوافق برديكاس على هذا الطلب ؛ ولذلك كان هناك تخوف وكراهية متبادلة بين برديكاس وبطليموس — ستراب مصر — منذ البداية . فقد كان كل منهما يشك فى نوايا الآخر ، ويخطط التخلص منه ، ولذلك سارع برديكاس بكسب كليومينيس النقراطيسى الى جانبه ، والذى كان الاسكندر قد عينه أمينا على خزانة مصر ، فقام بتعيينه نائباً لبطليموس حتى يراقبه ، وكان ذلك فى عام ٣٢٢ ق.م ، وبالطبع لم يعجب ذلك بطليموس .

ووصل بطليموس بن لاجوس الى مصر بعد خمسة شهور من موت الاسكندر وهو ينوى الاستقلال بمصر ، وتأسيس أسرة حاكمة وراثية بها على أمل أن يوحد امبراطورية الأسكندر تحت زعامته ، بعد أن يتخلص من منافسيه واحدا تلو الآخر . كان بطليموس فى ذلك الوقت فى حوالى الرابعة والأربعين من عمره ، وربما أحضر معه من بابل عددا من الضباط والجنود

المقدونيين ، الذين وثق فيهم ، ليساعدوه فى حكم بلد غالبية سكانه من الوطنيين ذوى الحضارة العريقة .

منذ البداية كان بطليموس مصمماً على دفن جثمان الاسكندر فى مصر ، حتى يلفت انتباه العالم المحب للاسكندر — خاصة فى الشرق الأدنى — ؛ وصمم على تنفيذ ذلك بأى وسيلة ؛ فقد كان برديكاس الوصى العام على الامبراطورية قد كلف أحد الضباط المقدونيين باعداد موكب جنائزى لجثمان الاسكندر يبدأ من بابل ويتجه نحو شمال الشام وآسيا الصغرى، ثم يعبر مضيق البسفور والدردنيل الى مقدونيا ، حيث يدفن جثمان الاسكندر فى المقبرة الملكية فى آجاى Aegae مسقط رأس فيليب المقدونى ؛ وكان هذا الطريق هو نفس الطريق الذى سلكه الاسكندر وهو ذاهب لفتح الشرق ؛ غير أن بطليموس قبل أن يغادر بابل تفاهم مع الضابط أرهيدايوس ، حتى يغير طريق الموكب فيتجه به الى جنوب الشام بدلا من شمالها ، متتبعا نفس الطريق الذى دخل منه الاسكندر مصر ، وفوجىء شعب مصر بموكب جنائزى كبير يدخل بلادهم ، يقوده الساتراب بطليموس فى خشوع ، ويتجه به الى منف ، ليدفن هناك فى رحاب بتاح ، الذى كان أول آلهة مصر القديمة التى قدم لها الاسكندر فروض الطاعة والولاء بعد وصوله إليها . وبالطبع كان بطليموس يفضل أن يدفن الاسكندر فى مدينة الاسكندر فى مصر ، وهى الاسكندرية ، ولكنها كانت تحت الانشاء والتأسيس . ويذكر الكاتب الرحالة باوسانياس Pausanias أن جثمان الاسكندر بقى فى منف حتى نقله بطليموس الثانى الى الاسكندرية بعد اربعين عاما ، إذا اصبح من المؤكد أن بطليموس لم ينقل الجثمان الى سيوة ؛ إنما كان ينوى دفنه فى الاسكندرية — مدينة الاسكندر الكبرى ؛ والذى لاشك فيه أنه أصدر أوامره على الفور بالشروع فى بناء ضريح يليق بالجثمان ؛ ولما كانت عادة الملوك المقدونيين أن يقوم الملك الجديد بالأشراف على مواراة جثمان الملك الرحل التراب ، كنوع من انتقال السلطة من الملك الراحل الى الملك الجديد ؛ فربما كان المقصود من ذلك أن يعلن بطليموس عن عزمه أن يكون هو ، وليس برديكاس ، الذى يجب أن يخلف الاسكندر على العرش ؛ وأن

الاسكندرية وليس « بابل » هى التى يجب أن تكون عاصمة الامبراطورية الجديدة . ويؤكد باوسانياس مرة أخرى أن من بين ذنوب بطليموس الثانى التى ارتكبها فى مطلع حكمه نقل جثمان الاسكندر من مثواه فى منف الى الاسكندرية إذ لم يعرف الأغريق فكرة اعادة الدفن .

ولعل بطليموس وهو يدرك متطلبات تأسيس أسرة جديدة فى مصر ، كان يهدف أيضاً الى لفت نظر المصريين إليه ؛ وتملق مشاعرهم الدينية وكسب رضاء الكهنة فى منف وسيوة ؛ وتحويل بلادهم الى مزار يفد اليه مريدو الاسكندر من كل مكان فى العالم الهللينيستى ، ويؤكد ذلك حرصه على أن يتقدم موكب قدومه الى مصر التماثيل المقدسة للآلهة المصرية التى كان الفرس قد نقلوها الى عاصمتهم ، وذلك كرد اعتبار الكهنة والشعب المصرى ويؤكد ذلك أيضا استماعه الى شكوى الكهنة وكبار المزارعين وسائر أفراد الشعب من تصرفات كليومينيس النقراطيسى معهم ، وجشعه فى جمع الأموال ، والاستيلاء على خزائن المعابد ، وفرض الضرائب الباهظة ، واحتكار شراء القمح من الفلاحين بثمن بخس ، حيث يقوم هو بتصديره لحسابه بثمن عال . ووجد بطليموس أن مصلحته تلتقى مع مطالب الكهنة والشعب المصرى فى وجوب التخلص من كليومينيس النقراطيسى ؛ وعلى الفور قدمه للمحاكمة حيث أصدر حكما باعدامه ، وتنفث الكهنة والشعب الصعداء . وبدأ الكهنة يلتفون حوله كفرعون جديد حتى قبل أن يعلن نفسه رسميا كملك على مصر عام ٣٠٥ ق.م . فقد كان بطليموس عازما على تحويل الاسكندر الى رب يعبد من جانب المصريين والاغريق المستوطنين على السواء ، لأنه باعتراف كهنة منف وسيوة أصبح الاسكندر الاكبر هو الفرعون الجديد، الذى حلت فيه روح آمون رع ، ومن ثم أصبح فى امكانه اقامة تماثيل للأسكندر داخل المعابد المصرية ، وبالتالى يصبح من حق أى مقدونى أو أغريقى مستوطن أن يتردد على المعابد المصرية لأداء طقوس العبادة للاسكندر فى صورته الأغريقية ، وهناك أدلة على قيام عبادة رسمية للاسكندر ابن آمون رع ، وتأسيس كهنوت لهذه العبادة ؛ حيث عين أخاه مينالاءوس

Minalaous كاهنا أكبر لعبادة الاسكندر ؛ وأصبحت الوثائق الرسمية فى مصر فيما بعد تؤرخ بتاريخ تولى كاهن الاسكندر منصبه ؛ وربما كان مقر هذه العبادة الجديدة فى أول الأمر فى المعبد الجنائزى الذى دفن فيه الاسكندر فى منف قبل الانتهاء من بناء الضريح « السوما » Soma فى الاسكندرية .

ولقد أثار تصرف الساتراب بطليموس فى مصر غضب برديكاس ، وبدأ العداء يندلع بينهما ، ولكن برديكاس كان غارقا فى مشاكل الامبراطورية وقمع الثورات فى بلاد اليونان ، وربما استغل بطليموس ذلك فى بداية توسيع ممتلكاته ، عندما استجاب لطلب التدخل فى قورينة ؛ تلك المستوطنة الأغريقية المجاورة لمصر على ساحل ليبيا ؛ فأرسل على الفور قوة احتلت هذه المستوطنة ، وضمها الى ممتلكاته ، وذلك فى أواخر عام ٣٢٢ ق.م ؛ فقد كان فى حاجة لتأمين ظهر الاسكندرية ومصر ؛ فقد كانت مصر دائما تتعرض لهجوم القبائل الليبية من الغرب منذ أيام الفراعنة ، كما أنه كان فى حاجة لنقل بعض المستوطنين الأغريق من قورينة الى مصر لزيادة عدد الجالية الأغريقية التى يعتمد عليها فى تأسيس مملكته ، ولقد قدمت قورينة عددا من كبار الأدباء والعلماء الذين هاجروا الى الاسكندرية فيما بعد ، من أمثال الشاعر كاليماخوس القوريني ، واراتوسثين الجغرافى ، وغيرهم ؛ بالاضافة الى عدد كبير من الجنود الذين انضموا الى قوات بطليموس . فقد حرص منذ البداية على تكوين جيش أغريقى قوى ، لأنه كان يدرك أن رفاقه من الورثة لن يتركوه دون محاولة اسقاطه . ويؤكد ذلك أن عدداً كبيرا من الجنود المستوطنين فى الفيوم ومصر الوسطى جاءوا اصلا من قورينه ؛ وعلى أثر ضم قورينة ، عين بطليموس نائبا عنه لحكمها وهو أوفيللاس .

وما أن فرغ برديكاس من مشاكله ، حتى التفت للتخلص من بطليموس

فقاد قواته الى مصر فى ربيع عام ٣٢١ ق.م ، ولكنه فشل فى احتلالها ولقى مصرعه ، ولم يشأ بطليموس أن يحل محله ، ويعلن نفسه مفوضا على الامبراطورية لأنه أدرك أن مصر أهم وأكثر ضمانا من غيرها ؛ فقد كانت بمثابة القلعة الحصينة ، لأنها بلد يسهل الدفاع عنه ، ولها وجود جغرافى محدد ومضمون ، وعلى أثر مصرع برديكاس ضم بطليموس قوات برديكاس الى قواته ، ولقد كان لسقوط شخصية كبيرة مثل برديكاس ، أثره فى صراع الورثة ؛ إذ عقدوا اجتماعا فى مكان ما فى شمال الشام اسمه تريباراديسوس Triparadisos (الجنة المثلثة)حيث أعيد تقسيم الامبراطورية فى خريف عام ٣٢١ ق.م ، وكان من نصيب بطليموس مصر وقورينة . وبذلك حصل على اعتراف بأحقيته فى ضم قورينة الى مصر رسمياً . وكان ذلك أول خطوة نحو تأسيس الامبراطورية .

سياسة بطليموس الأول فى الشرق الأدنى :

وبينما كان الورثة الآخرون يتصارعون على كرسى الزعامة ، ويتسابقون لحكم مقدونيا ، التى كانت فى نظرهم المقر الذى يجب أن يكون للامبراطورية المقدونية التى يحلم بها كل منهم ؛ وخاضوا من أجل ذلك حروبا دامية ، كان بطليموس يدرك أن زعامة الامبراطورية ليس لمقدونيا ، ولكن لمصر مقر جثمان الاسكندر ، فضلا عن أن مصر فى عصور فراعنتها كان لها أمبراطورية فى الشرق الأدنى وبلاد النوبة ، ومن حقه أن يطالب بارث هذه الامبراطورية ، لأن ذلك قد يحقق رضاء المصريين . وكان بطليموس يرى أن امبراطوريته الجديدة هللينستية فى المقام الأول ، أى أن توسعها يجب أن يكون شمالا لا جنوبا ، اى فى حوض البحر المتوسط وجزره ، لأن ارتباطات مصر السياسية والاقتصادية والحضارية يجب أن تكون مع العالم الهللينستى فى المقام الأول ؛ ولكى يحقق ذلك فلابد من أن يكون لمصر قوة بحرية كبيرة تسيطر على جزر وسواحل حوض البحر المتوسط الشرقى ؛ ولذلك لم يشأ أن يتوسع جنوبا نحو النوبة ، واكتفى بالحدود التى توقف عندها

الفراعنة عند الشلال الأول . لكنه كان مصراً على استعادة نفوذ مصر فى الشام ، خاصة فى فلسطين وجنوب سوريا لأسباب دفاعية ، سبق ذكرها عند معالجة اهتمام الفراعنة بجنوب الشام، وأيضاً لأسباب اقتصادية ، فقد كانت تجارة الشرق الأقصى التى تحمل من الهند الى الخليج ، تنقل براً عبر الطريق الرأسى الذى أقامه دارا ، والذى كان يخترق صحراء الشام حتى سواحل البحر المتوسط ، حيث منافذ التصدير الى سائر أنحاء العالم الهلينستى . وكذلك كان الطريق التجارى القادم من ميناء عدن ، والذى يسير بمحازاة جبال السراة فى الحجاز ويتجه شمالا حتى الشام ومصر ، والذى كان يسمى طريق البخوروكان يسيطر عليه العرب السبئيون ، وينتهى فى جنوب الشام ،وكان هذان الطريقان هما اللذان يغذيان العالم الهلينستى بسلع الشرق الأقصى ، والتى كان الطلب يتزايد عليها فى عالم البحر المتوسط ؛ وبالتالى أدرك بطليموس أنه إذا ما وضع يده على جنوب الشام ، فانه سوف يتحكم فى اقتصاد الشرق الأدنى كله ، بل وفى اقتصاد عالم البحر المتوسط ؛ بالاضافة الى ذلك فان حاجة مصر الماسة الى الأخشاب لصنع الأساطيل الحديثة ، القادرة على حماية الامبراطورية البحرية ، كانت تقتضى السيطرة على هذا الجزء من الشام ، حيث تكثر أشجار الأرز الصالحة لبناء السفن الكبيرة العابرة للبحار ، والتى كانت أخشابها تقاوم ملوحة البحر ، وكان الفراعنة يجلبون هذه الأخشاب من فينيقيا مجانا أثناء حكمهم لها ، لكنهم فقدوا هذا المصدر مع فقدانهم لحكم الشام ، والذلك لم يتوقف اهتمام فراعنة مصر منذ سقوط الأسرة الواحدة والعشرين وحتى فتح الفرس الثانى لمصر عن محاولة استعادة جنوب الشام ؛ ولهذا عزم بطليموس على أن يعيد حق مصر التاريخى فى هذه المنطقة ، وساعده على ذلك التقارب الحضارى والثقافى الذى كان قد نشأ فى هذه المنطقة من الشام عبر عصور التاريخ القديم مع مصر ؛ كما أن ذلك كان يتماشى مع الشكل الجديد للامبراطورية التى يتخيلها ، وهى امبراطورية تضم سواحل حوض البحر المتوسط وتسيطر على الشرق الأدنى ، الى جانب الجزر الهامة فى هذا البحر خاصة فى حوض بحر ايجة وساحل الأناضول .

ومن أجل تحقيق ذلك ، عزم على الاستيلاء على جزيرة قبرص المتاخمة لساحل الشام ؛ وكان ملوك الأسرة الصاوية قد سبقوه فى أهمية امتلاك قبرص منذ عهد أحموسى الثانى ، الذى لقبه الأغريق باسم أماسيس Amasis فى القرن السادس ق.م لأن امتلاكها سوف يحقق له السيادة على سواحل الشام ، وجزر بحر ايجة ، وسواحل آسيا الصغرى ، وبعض المناطق الهامة فى بلاد اليونان ذاتها . فضلا عن أن سواحل قبرص مهيئة لأن تكون مرافىء طبيعية ، فسواحلها فى الشرق والجنوب تحقق له السيطرة على موانئ الشرق الأدنى ، وتكون قاعدة بحرية لحماية مصر ، وصد العدوان البحرى عنها ؛ وفى نفس الوقت تمكنه سواحلها الشمالية والغربية من التدخل فى شئون جنوب بلاد اليونان إذا اقتضى الأمر ، بالاضافة الى ذلك فقد اشتهرت قبرص بأخشاب الأرز التى يحتاج اليها ، وبمناجم الفضة ذلك المعدن الذى يندر فى مصر والذى كان الفينيقيون، ثم الأغريق يحتكرون تصديره اليها؛ كما كان فى حاجة ماسة لسك عملة جديدة لمصر تفرض نفوذها السياسى فى حوض البحر المتوسط ، وكانت العملة السائدة فى العالم الأغريقى هى التترادراخما Tetradrachma الفضية ؛ ومصر تملك الذهب الكافى ، ولا تملك الفضة الكافية لسك القدر الكاف من هذه العملة المقبولة فى العالم الهللينستى ، صحيح أن البطالمة سكوا عملات ذهبية ، ولكن الذهب كان مطلوبا عند شعوب الشرق الأدنى لتمويل صفقات التجارة معهم ؛ وبقى ذلك محدودا ؛ ولذلك أقام البطالمة فيما بعد دور سك العملات المصرية الفضية فى قبرص ، والتى ظلت تعمل فى هذه الجزيرة حتى استيلاء الرومان عليها. ومن أجل تثبيت محاور هذه الامبراطورية كان بطليموس مستعدا للدخول فى حروب ومغامرات سواء بالحرب أو بالسياسة .

كان ساحل الشام من لبنان حتى غزة جنوبا يحكمه حاكم أغريقى من مواطنى مدينة أمفيبوليس Amphipolis اسمه لأوميدون Laomedon وذلك طبقاً لقرارات مؤتمر تريباراديسوس Triparadisos عام ٣٢١ ق.م ؛ ولقد حاول بطليموس أن يدفع له مبلغاً كبيرا من المال مقابل أن يتنازل لبطليموس عن هذه المنطقة ، ولكنه رفض ، فانتزعها منه بالقوة ، ويعتقد المؤرخون

أنه فى خلال ذلك الغزو اقتحم بطليموس الأول أورشاليم — القدس يوم السبت لأنه كان يعلم أن أغلب سكانها من اليهود الذين يقدسون يوم السبت ، ويرفضون العمل أو الحرب فيه ، وكان ذلك قبل عام ٣١٨ ق.م .

وبعد سقوط برديكاس ، صعد مكانه انتيجونوس ، الذى بسط نفوذه على الولايات الشرقية عام ٣١٦ ق . م ؛ وأطلق على نفسه اسم ملك آسيا ؛ وطرد عامله على بابل وهو سليوقوس ، فهرب لاجئاً عند بطليموس الذى عينه قائداً على أسطوله فى البحر المتوسط ، على أمل أن يجهز له قوة تعيده إلى بابل ، وقد احتفظ به بطليموس لأنه كان يعلم أن المعركة القادمة ستكون ضد أنتيجونوس ، وفى عام ٣١٥ ق . م اجتاح انتيجونوس بجوف سوريا Koile Syria ؛ واضطر بطليموس إلى الانسحاب من الشام بسرعة ؛ واحتل أنتيجونوس مدن الساحل السورى حتى غزة ؛ بينما كان أسطول بطليموس بقيادة سليوقوس يواصل المعارك ضد أنتيجونوس ، وتعويضاً عن انسحابه من الشام ، هاجم بطليموس قبرص ، وأخضع ممالكها كلها ؛ وحولها إلى قاعدة بحرية للعمل ضد أنتيجونوس ، الذى كان يتحكم فى الموانئ الفينيقية والساحل السورى . وفى عام ٣١٣ ق . م فقد بطليموس أيضاً قورينة ، ولكنه سرعان ما استعادها . وفى عام ٣١٢ ق . م قاد بطليموس قواته لاستعادة الشام ، وكان أنتيجونوس قد ترك فيها ابنه الشاب ديمتريوس Demetrios ، وقد نجح بطليموس فى أن يلحق به هزيمة ساحقة قرب غزة ، وقد لعب سليوقوس دوراً هاماً فى إلحاق الهزيمة بديمتريوس ؛ ومكافأة له ، جهزه بطليموس بقوة تمكن بها من العودة إلى بابل فى أكتوبر عام ٣١٢ ق.م ؛ فبدأ أصبح يؤرخ بتاريخ قيام الامبراطورية السليوقية منذ ذلك اليوم . وللمرة الثانية تقدم بطليموس بقواته ليخضع مدن ساحل الشام لسيطرته ، لكن الأمور لم تستقر له بعد ؛ إذ عاد ديمتريوس لينتقم لهزيمته ، وأوقع هزيمة بالقوات البطلمية فى شمال الشام عام ٣١١ ق . م بينما لحق به أبوه انتيجونوس متجهاً لاحتلال فلسطين ؛ وللمرة الثانية انسحب بطليموس من الشام ، كما ان حاكم قورينة اوفيللاس Ophellas اعلن استقلاله عن بطليموس فى نفس العام ؛ وبسبب

سطوة انتيجونوس، وقوة ولده ديمتريوس، اذعن القادة المقدونيون لمطالب انتيجونوس الذى عين كاساندر Cassander حاكماً على مقدونيا ؛ ولوسيماخوس حاكماً على تراقيا شمال بحر إيجة ، وأن يبقى بطليموس حاكماً على مصر بشرط ان يتعهد بالانسحاب من جوف سوريا وساحل فينيقيا . وأذعن بطليموس لهذا الطلب، لكنه كان يعتبر ذلك مؤقتاً، لأنه كان عازماً على ضم الشام لمصر . وقرر ان ينقل معاركه بعد عام ٣١١ ق . م إلى سواحل آسيا الصغرى، معتمداً على تعزيز وجوده فى قبرص رغم تآمر عملاء أنتيجونوس فى قبرص عليه . ولقد ظهرت قواته فى عام ٣٠٨ ق . م فى بلاد اليونان حيث تمكن من احتلال أهم مدن اليونان مثل ميجارا وكورنثا، وسيكيون Sicyon ، وفى نفس العام نجح فى احتلال جزيرة أندروس كبداية لفرض نفوذه على جزر الكيكلاديس (الأرخبيل) فى بحر إيجة ليكمل سيطرته على سواحل البحر المتوسط الشمالية ؛ بل تمكن من تحرير جزيرة ديلوس من نفوذ أثينا لأول مرة منذ ما يقرب من قرنين ؛ وكانت مدينة ذات أهمية دينية وتجارية عند الإغريق ؛ وفى عام ٣٠٨ ق . م نجح ماجاس Magas ابن زوجته من استعادة قورينة حيث عينه بطليموس نائباً عنه لحكمها ، غير أن قوة بطليموس البحرية تلقت ضربة بحرية مؤلمة فى عام ٣٠٦ ق . م قرب قبرص على يد ديمتريوس الذى كسب شهرة بأنه أحسن محاصر للمدن Poliorketes ، حيث تمكن من طرد أنصار بطليموس من قبرص ، التى وقعت فى يد ديمتريوس ؛ وبذلك فقد بطليموس ساحل الشام وفلسطين وقبرص فى عام ٣٠٦ ق.م لكنه ظل يحتفظ بقورينة وتوابعها . إذ أنه لم يتوقف عن عزمه فى استعادة الشام وقبرص أبدا .

ولقد كان عام ٣٠٦ ق.م نقطة تحول فى تاريخ الامبراطورية المقدونية ، فلقد هلك ابان هذا الصراع فيليب أرهيدايوس عام ٣١٧ ق.م على يد أولمبياس والدة الاسكندر ؛ ثم اغتيل الاسكندر بن الاسكندر على يد كاساندر عام ٣١١ ق.م ، وبعده، سلم أولمبياس لأعدائها ليقتلوها ، ولم يعد هناك خليفة للاسكندر الأكبر ، وكان من الممكن للورثة المتصارعين أن يعلنوا

استقلالهم بولاياتهم عن الامبراطورية المقدونية ، لكنهم كانوا متخوفين من اعلان ذلك رسمياً ، لكن قوة انتيجونوس المتصاعدة خاصة بعد انتصاره على بطليموس فى قبرص بعد معركة سلاميس Salamis عام ٣٠٦ ق.م ، أعطته ثقة لكى يعلن رسمياً تغيير لقبه ليصبح ملكا Basileus . وتذكر الوثائق الديموطيقية أن بطليموس أعلن نفسه ملكا فى خريف عام ٣٠٥ ق.م ؛ فمنذ ذلك التاريخ بدأت الوثائق تؤرخ بحكم بطليموس . أما قبل ذلك التاريخ فكانت تؤرخ بحكم الاسكندر ابن الاسكندر حتى بعد مقتله عام ٣١١ ق.م . ولم يعد بطليموس يوصف باسم الستراب ولكن باسم الملك . وظهر ذلك واضحاً على النقود التى سكها . أما بالنسبة للمصريين فقد بايعه الكهنة فرعونا وكتب اسمه فى الخرطوش الملكى بالهيروغليفية ، ومنح الألقاب الخمسة التى كان الفرعون يحملها ، وانهال الكهنة عليه بالألقاب المقدسة كما لو كان فرعونا منذ موت الاسكندر ، أو أنه ورث مصر نيابة عنه مباشرة ، بل أصبح يؤرخ للأحداث منذ مجيئه الى مصر ، وليس منذ عام ٣٠٥ ق.م . حين أسقطوا اسم « الساتراب » ليحل محله اسم الملك Basileus .

كان انتيجونوس عازما على خلع بطليموس من ولاية مصر ، فقد قاد قواته لغزو مصر بعد طرد بطليموس من قبرص وساحل الشام ، مرتكبا نفس الخطأ الذى ارتكبه برديكاس من قبل ، إذ جمع قواته فى مدينة انتيجونيا بشمال الشام (وهى التى أصبحت فيما بعد أنطاكية) ؛ وتحرك فى أواخر عام ٣٠٦ ق.م صوب غزة ، وقد بالغ ديودوروس فى حجم قواته وسفنه ؛ وعند غزة استعدت الحملة بالمؤن اللازمة ، واصطحب معه قافلة من بدو سيناء بجمالهم المحملة بالمؤن والعتاد وعلف الخيول والأفيال ؛ ولكن الخطأ الذى وقع فيه أنتيجونوس أنه اختار وقتاً كانت فيه مياه الفيضان لاتزال تغطى أراضى الدلتا ، كما أن « النوات » التى تحدث على الشواطىء المصرية فى ذلك الوقت من العام عاقت الأسطول الذى كان يقوده ديمتريوس محاصر المدن ؛

وضاع التعاون بين المشاة والبحرية ؛ وعندما وصلوا الى بيلوزيوم وجدوها محصنة ؛ وبعث بطليموس عملاء يعرض على جنود إنتيجونوس الرشاوى ، والوعود بالأراضي الجيدة على ضفاف النيل ؛ ولما شعر انتيجونوس بذلك إنسحب خوفا من مصير مشابه لمصير سلفه برديكاس . وفى نفس الوقت لم يستطع ديمتريوس أن يرسو بسفنه ؛ وبسبب « النوات » أيضاً اضطر الى الانسحاب ؛ وغادر انتيجونوس وابنه مصر وأعلن بطليموس انتصاره ، أما أنتيجونوس ، فقد اتجه لمحاصرة جزيرة رودوس ، التى كانت على علاقة طيبة ببطليموس ؛ وضرب ديمتريوس الحصار حول الجزيرة ما يقرب من العام ونصف العام ٣٠٥ — ٣٠٤ ق.م وفشل فى النهاية فى اقتحامها ؛ وقد تحدث المؤرخون والشعراء كثيرا عن حصار رودوس ، وكأنه حصار طروادة . ويرجع الفضل فى مقاومة أهل رودوس للحصار الى إمدادات بطليموس التى لم تتوقف ، وقد أظهر أهل رودوس اعترافهم بالجميل لكل من ساعدهم فى ضد العدوان ، فأرسلوا الى معبد أمون رع فى سيوة يستشيرون الوحى عما إذا كان فى مقدورهم تقديس بطليموس كرب ؛ وقد أجابهم الوحى بالموافقة ؛ ولذلك أقاموا تمثالا عملاقا عند الميناء فى رودوس لرب الشمس « هليوس » الذى هو صورة أغريقية من رع المصرى . وبالتالى كان ذلك أشارة الى عبادة بطليموس وربما كان أهل رودوس ، هم الذين منحوه لقب سوتر Soter أى المنقذ وذلك منذ عام ٣٠٤ ق.م

معركة إبسوس :

وفى خريف عام ٣٠٢ — ٣٠٣ ق.م تكون حلف من كل من كاساندر ملك مقدونيا ، ولوسيماخوس ملك تراقيا ، وسليوقوس ملك بابل ، وبطليموس ملك مصر ، ضد انتيجونوس . وفى ذلك الوقت كان سليوقوس فى قلب آسيا يحاول اعادة فتح الأقاليم الآسيوية حتى الهند ، للحصول على فيلة ، مثل التى كان يستخدمها انتيجونوس فى حروبه . وعلى أثر قيام التحالف ضد انتيجونوس ، اندفع سليوقوس غربا ليقدم لحلفائه دعما من القوات والفيلة المدربة. وكان بطليموس حريصاً فى تعامله مع هذا التحالف ؛ فكل ما كان يهمه هو استعادة جنوب الشام ، فانتهز فرصة انشغال حلفائه بأمر

المعركة ؛ وللمرة الثالثة اندفع بقواته لاستعادة الشام ؛ غير أن شائعة عمت الشرق ان انتيجونوس قد سحق أعداءه فى معركة فاصلة ؛ وأنه فى طريقه الى الشام ، جعلت بطليموس للمرة الثالثة يسرع بالانسحاب خوفا من جيوش انتيجونوس وولده ديمتريوس ، أما الحقيقة ، فقد كانت أن الحلفاء الآخرين سحقوا جيوش انتيجونوس فى سهل ابسوس فى صيف عام ٣٠١ ق.م ، حيث لقى انتيجونوس مصرعه ، وفر ابنه هاربا . وقد شعر المنتصرون بخيانة بطليموس وتقاعسه عن مساعدتهم ؛ ولذلك عندما عقدوا اجتماعا لتوزيع تركة انتيجونوس عليهم فى موقع المعركة ، قرروا حرمان بطليموس من الوعد الذى قطعوه على أنفسهم قبل المعركة وضم الشام بكاملها الى ممتلكات سليوقوس ملك الشرق الأدنى وآسيا ، بينما رفض بطليموس هذا القرار وتمسك بالقرار السابق على المعركة ؛ وقد أدى ذلك الى قيام نزاع سياسى بين أسرة سليوقوس وأسرة بطليموس حول أحقية كل منهم فى المطالبة بجوف سوريا وفلسطين . وتسبب ذلك فى حروب طويلة بينهم حول جنوب الشام ، عرفت فى التاريخ باسم الحروب السورية ، وأعاد ذلك الى الأذهان الصراع القديم الذى كان يدور بين ملوك الفراعنة ، وملوك بابل وآشور حول الشام ، مع تغير الأدوار فى الشرق الأدنى ، اذ حل السليوقيون محل الأشوريين والبابليين ؛ وحل البطالمة محل الفراعنة ؛ وعلى أثر صدور قرار حرمان بطليموس من جنوب الشام ، قام بطليموس وللمرة الرابعة باحتلال جنوب الشام والساحل السورى ، وعندما تقدم سليوقوس لاحتلال جنوب الشام ، وجد قوات بطليموس وقد تحصنت فى مواقعها ، ولم يشأ سليوقوس أن يرفع السلاح فى وجه بطليموس ، لأنه كان يتذكر الجميل الذى كان بطليموس يطوق به عنقه ؛ عندما ساعده وهو لاجىء هارب من انتيجونوس وجهزه بالقوات اللازمة التى أعادته الى ولايته فى بابل عام ٣١٢ ق.م ؛ ولذلك قرر أن يؤجل تنفيذ قرار الحلفاء فى ابسوس ، لينظر فى تنفيذه فيما بعد . وكان هذا هو أساس الصراع الدائم بين الأسرتين ، والذى لم يتوقف الا بعد أن ضم الرومان الشام على يد بومبى عام ٦٢ ق.م أى بعدما يقرب

من قرنين وأربعين عاما ، وبفضل استعادة جنوب الشام والساحل الفينيقى ، أمكن لبطليموس أن يستعيد قبرص عام ٢٩٤ — ٢٩٥ ق.م .

المصاهرات السياسية بعد ابسوس :

ولقد كانت معركة ابسوس عام ٣٠١ ق.م نقطة تحول فى تاريخ العالم الهللينستى ؛ فقد أنهت بشكل رسمى وضع الامبراطورية المقدونية التى تحولت الى ممالك ؛ كما أصبح قطبى الصراع هما سليوقوس وبطليموس ؛ وبدأ الورثة الباقون، والجيل الثانى من أبناء الورثة فى الانضمام الى أحد المعسكرين، فمثلا انحاز ديمتريوس بن انتيجونوس الى سليوقوس أملا فى مساعدته للجلوس على عرش مقدونيا ، ودعم سليوقوس هذا التحالف بزواجه من ستراتونيكى Stratonike ابنة ديمتريوس ؛ بينما قام لوسيماخوس بالتحالف مع بطليموس ، ودعم هذا التحالف بالزواج من أرسينوى Arsinoe ابنة بطليموس من زوجته بيرنيكى وشقيقة ولى العهد بطليموس الثانى . وذلك ما بين عام ٣٠٠ و ٢٩٨ ق.م ؛ كما قام كاساندر ملك مقدونيا بالتحالف مع بطليموس ، وزوج ابنته لوساندرا Lysandra من ابن كاساندر الأكبر وولى عهده ، وكان اسمه الأسكندر ؛ كما قام بطليموس بدعم علاقاته مع بيرهوس Pyrrhos ملك ابيروس المجاورة لمقدونيا وزوجه من ابنة زوجته برنيكى من زواج سابق . وكان اسمها انتيجونى Antigone وذلك ما بين ٢٩٨ — ٢٩٥ ق.م ، وزوج شقيقتها وكان اسمها ثيوكسينا Theoxena من أجاثوكليس ملك سيراكوزة فى صقلية وذلك حوالى عام ٣٠٠ ق.م ؛ أى أن عالم مابعد إبسوس كان عالم المصاهرات السياسية . وخلال ذلك نجح بطليموس فى تطهير الشام من الجيوب الباقية ، والتى كان ديمتريوس قد تركها فى بعض مدن الشام وكذلك فى قبرص. بعدها هدأت نفس بطليموس فقد حصل على كل ما يريد فأصبحت امبراطوريته تشمل الى جانب مصر كل جنوب الشام ، وساحل فينيقيا وفلسطين ، وكذلك قورينة وقبرص . وخلال عام ٢٨٧ ق.م نجح الأسطول المصرى فى فرض نفوذ بطليموس على حوض بحر ايجة ، وجزر الكيكلاديس ، والتى كان نواتها جزيرة ديلوس المقدسة ، والتى بدأت تكسب شهرة كسوق دولية للرقيق . وكانت

مقدونيا تعتبر هذه الجزر تابعة لها . مما سيؤدى الى قيام العداء بين مملكة مقدونيا ومملكة البطالمة ؛ كما أقام بطليموس علاقة خاصة مع مدينة ميليتوس Miletus المطلة على الساحل جنوب الأناضول ؛ لتكون قاعدة بحرية تمكنه من فرض نفوذه على حوض بحر ايجة وسواحل الشام . وبذلك اكتملت ملامح الامبراطورية كما أرادها مؤسسها .

وأخيرا شعر بطليموس فى عام ٢٨٥ ق.م أنه قد بلغ من العمر عتيا ؛ إذ كان فى الثانية والثمانين من عمره ؛ بعد حياة مليئة بالكفاح والحروب والمغامرات والمؤامرات ؛ ورأى أن الوقت قد حان لتسليم زمام الامبراطورية لولى عهده الذى اختاره وهو ابنه من زوجته بيرينيكى ؛ الذى أصبح يعرف فيما بعد باسم بطليموس فيلادلفوس ؛ وفى مطلع عام ٢٨٤ ق.م أعلن رسميا تتويجه ملكا فى مدينة الاسكندرية التى كان بناؤها قد اكتمل ؛ والتى نقل إليها مقر الحكم رسميا ؛ وفى عام ٢٨٢ ق.م مات بطليموس سوتر وتولى بطليموس فيلادلفوس .

تنظيمات بطليموس الأول للإدارة فى مصر :

منذ الفتح المقدونى لم تعد مصر كما كانت — عبر آلاف السنين — بلدا يتكون من نسيج قومى واحد ، بل أصبحت بلدا يتكون من قوميتين وحضارتين مختلفتين ؛ الغلبة والسيادة للقومية الغازية المستوطنة بحق الفتح ؛ وهم المقدونيون وفى ركابهم الأغريق من كافة أنحاء العالم الأغريقى ؛ أما القومية المغلوبة فهم المصريون ، والذين لقبهم المستوطنون باسم قاطنو الوادى Enchorioi ؛ فقد فتح بطليموس أبواب مصر على مصراعيها للمهاجرين ، بل كان من أهم دعائم سياسته تشجيع الهجرة والاستيطان إلى مصر ، لكى يخلق طبقة مقدونية أغريقية يعتمد عليها فى حكم البلاد ؛ كما كان فى حاجة الى تكوين جيش مقاتل من بقايا جيوش الاسكندر ، ومن الأغريق المرتزقة المدربين على خوض المعارك ، بحيث يكون ولاء الجيش له ، وعلى هذا

الجيش يقوم العرش البطلمى :. الأغريقى يقاتل ويملك ويحكم ؛ والمصرى يزرع ويدفع ويطيع .

ولم يشأ بطليموس أن يهجر المصريين الوطنيين من بعض مناطق مصر ، ليحل محلهم مهاجرون مقدونيون وأغريق على طريقة الآشوريين فى الشام ؛ بل آثر أن يتركهم وشأنهم يفلحون ويزرعون ؛ وكان يدرك أنهم شعب فخور بماضيه التليد ؛ وبفراعنته الخالدين ؛ الذين تركوا لهم آثارا خالدة كان السائحون يأتون من كل فج عميق لمشاهدتها ؛ والتفرج عليها ؛ بل كان المصريون يشعرون بينهم وبين أنفسهم بالاستعلاء على الأغريق عنصر وحضارة ؛ ولهذا آثر بطليموس أن يكون ملكا على شعبين مختلفين ؛ فهو بالنسبة للمصريين فرعون ، وخادم الآلهة والمعابد المصرية ؛ وبالنسبة للأغريق هو ملك وخليفة للاسكندر ؛ وحامى حما الحضارة الأغريقية والمدافع عنها . ففى الحقيقة لم يكن هناك مبدأ أو عقيدة تحرك بطليموس سوتر سوى تأسيس أسرة حاكمة فى بيته .

لم يشأ بطليموس أيضاً أن يحدث أى تغيير جذرى فى نظام الحكم وأجهزته عند المصريين ، لأنه نظام ضارب فى القدم ، وزاد رسوخا على مرور الزمن ، ولأنه كان الأنسب والأصلح . فقد أبقى على التقسيم الادارى لمصر كما كان أيام الفراعنة مع وضع تغيير بسيط تطلبته الظروف الجديدة . ولهذا أبقى بطليموس الادارة المحلية فى أيد المصريين ؛ ولما كانت مصر مقسمة منذ قديم الزمان الى حوالى اثنين وأربعين مقاطعة وهى بالمصرية القديمة حسبيو Hesepu ، فقد أبقى على هذا التقسيم لكنه غير الاسم الى Nomoi أى أقاليم ، كما قسم كل اقليم الى عدد من المراكز Topoi ، وكل مركز كان مقسما الى عدد من القرى Komai ؛ كما اعترف بامتيازات وحقوق الكهنة المصريين ، ووضع مهمة جمع الضرائب فى أيد المصريين فى الأقاليم ؛

وفى أيام الفراعنة كان يحكم كل مقاطعة حاكم ؛ وبالتالى أبقى التقسيم الجديد على هذا المنصب فأصبح يعرف باسم النومارخوس ؛ كما أصبح يحكم

كل مركز الطوبارخوس Toparchos ، أى حاكم المركز ؛ وكل مافعله بطليموس هو ادخال تعديل بسيط ، هو أنه جعل بجانب النومارخوس مساعدا ماليا من الأغريق ؛ وكذلك بالنسبة « الطوبارخوس » ، وكلاهما خاضع لاشراف القصر الملكى ، وللأدارة المركزية فى مدينة الاسكندرية . وبالتالى نجح بطليموس فى خلق إدارة فعالة ، ومنظمة ، ومقننة ، ومركزية فرضت النظام ، وقد ركز بطليموس فى يده السياسة الخارجية ، والعسكرية وإدارة الاقتصاد بطريقة تشبه مافعله محمد على باشا فى مصر ، أما الادارة فى الأقاليم ، فقد تركها للموظفين من الأغريق المهاجرين ؛ وترك السواد الأعظم من المصريين الوطنيين للعمل فى الأرض والأنتاج لصالح الدولة التى أقامت نظاما احتكاريا اشتراكيا "State Socialism" يتحكم فيه الملك وحدة بصفته المالك لمصر وما فيها وما عليها بحق الفتح أو حق السيف . هذا بالنسبة للريف المصرى ، الذى سماه الأغريق الخورا Chora ، وعرفوا سكانه باسم سكان الخورا Enchorioi . وكانت حدود الخورا تبدأ من خارج الاسكندرية وحتى حدود مصر جنوب الوادى .

تعمير إقليم الفيوم لتوطين الجنود المرتزقة فيه :

ولكى يشجع بطليموس نظام الاستيطان العسكرى الأغريق والمقدونيين فى مصر ، قام بتوزيع أراضى جيدة عليهم يزرعونها ويتعيشون من دخلها حتى يمكن استدعاؤهم القتال فى أى وقت ، بدلاً من دفع رواتب مالية ، وبدلا من مغامرة الاحتفاظ بالجنود المتفرغين فى معسكرات مما قد يدفعهم الملل فى المعسكرات فى أوقات السلام الى القيام بأعمال الشغب ، أو الثورة على السلطة. وبذلك انتشر الأغريق فى كافة أنحاء الوادى ، ولكن نلاحظ أن أكثرهم كان يتركز فى عواصم الأقاليم المصرية .

ويدخل فى عملية الاستيطان العسكرى مشروع تعمير واحة الفيوم ، لتوفير أكبر مساحة من الأراضى لهؤلاء الجنود ؛ وبذلك يخلق مقدونيا جديدة فى هذه المنطقة . وكان منخفض الفيوم يتحول الى بحيرة كبيرة

تمتلىء بالتماسيح عقب كل فيضان ، مكوناً بحيرة قارون التى شاهدها هيرودوت وسماها بحيرة مو — ايريس Moeris ، وكلمة « مو » فى المصرية القديمة تعنى المـاء ، مما يشرح وضع المنخفض ؛ وكان فراعنة الدولة الوسطى قد شرعوا فى مشروع تجفيف المنخفض ، وبناء سد لحفظ مياه الفيضان ، ولكن المشروع أهمل . وكانت الفيوم ترتبط بطريق برى مع منف ، وكذلك بقناة مائية فقد كانت منتجات الفيوم تصدر إلى الاسكندرية عن طريق ميناء منف (أثر النبى) ؛ وكانت ترتبط معها أيضا بطريق قوافل وتدل أوراق البردى على أن مكوس التصدير والجمارك عن ميناء منف كانت تدفع عند نقاط مخارج الفيوم ، وأن أغلب الذين استوطنوا هذا الأقليم كانوا من جنود قورينة وجاءوا إليه عبر الصحراء الغربية .

تأسيس مدينة بطلمية فى الصعيد Ptolemais Hermiou

وعلى طريقة الاسكندر أيضاً ، قام بطليموس ببناء مدينة إغريقية فى صعيد مصر لتوطين الجنود المسرحين من المقدونيين ، بالقرب من أبيدوس القديمة فى إقليم طيبة Thebaid وسماها بطلمية على اسمه ؛ ومكانها الآن المنشأة محافظة سوهاج بالقرب من مركز البلينا ؛ وطبقاً للتقاليد الإغريقية ترك لمستوطنيها الحق فى وضع قوانينهم وحكم أنفسهم ذاتياً ، وربما أدرك بطليموس أنه لا توجد فى مصر سوى مدينتين أغريقيين هما الاسكندرية ونقراطيس ؛ وهذا لا يتناسب مع الأعداد الغفيرة من المهاجرين الإغريق إلى مصر ؛ إذ لم يكن فى الصعيد أى مدينة إغريقية على الإطلاق ؛ ومن ثم ، فقد أقام هذه المدينة لكى تشع الحضارة الإغريقية فى قلب الصعيد مركز القومية المصرية ، ومصدر الثورات ضد الغزاة والأجانب . ولقد نجحت هذه المدينة وأصبحت تعد ثالث المدن الإغريقية فى مصر بعد الاسكندرية ونقراطيس ؛ حتى أن استرابون الجغرافى ساواها فى أهميتها بمنف ؛ بل أنها فاقت نقراطيس وأصبحت تلى الاسكندرية فى الأهمية . وقد دلت النقوش التى عثر عليها فى خرائبها على وجود مجلس شورى بها ، وعدد من المعابد أقيمت لعبادة بطليموس الأول كمؤسس لها .

تنشيط التجارة وسك أول عملة لمصر :

اهتم بطليموس بدعم وتوطيد تجارة مصر مع الشام وعالم البحر المتوسط ،

خاصة أن المنتجات المصرية مثل القمح ، وورق البردى ، والكتان ، والزجاج كانت سلعاً رائجة فى الخارج ؛ كما أنه أراد لمدينة الاسكندرية أن تلعب دورها التجارى كنقطة إلتقاء لطرق التجارة الدولية ؛ ووجد بطليموس أنه لا يستطيع تنشيط التجارة داخلياً وخارجياً إلا عن طريق سك عملة قوية تتماشى مع نفوذ مصر السياسى ، ولقد كان المصريون قبل الفتح المقدونى يفضلون نظام المقايضة أو التعامل بقطع المعادن مثل الذهب والفضة على أنها بديل للنقود ؛ بل تداولوا الدراخما الإغريقية الفضية على أنها قطع من الفضة وليس لأنها عملة ، ولم يكن لمصر عملة رسمية ، وهذا يعيق حركة النشاط التجارى ؛ ولهذا قام بطليموس بسك عملة لمملكته مستغلا رصيد الذهب والفضة الموجود لدى المعابد ، وعن طريق صهر عملات المدن الإغريقية المتداولة فى مصر سكت عملة بطلمية هى التترادراخما من الفضة على غرار عملات المدن الإغريقية والفينيقية رغم ندرة الفضة فى مصر بالنسبة إلى الذهب . فقبل الفتح المقدونى كانت نسبة الذهب إلى الفضة هى ضعف القيمة ، وعلى أثر دخول الاسكندر مصر ، أراد أن يدمج مصر إقتصادياً مع عالم البحر المتوسط ، فطبق السعر السائد فيه ، وبالتالى أصبحت نسبة الذهب إلى الفضة عشرة أمثال على غرار النظام الأثينى ؛ ولما ضم بطليموس الأول إليه المدن الفينيقية التى كانت تتعامل بالفضة وتفضل الذهب ، اضطر بطليموس إلى إجراء تخفيض فى قيمة الفضة بالنسبة للذهب ، فأصبح الذهب ثلاث عشرة مرة من قيمة الفضة ، لتتماشى مع النظام الفينيقى المطبق فى الشرق الأدنى ؛ ولذلك أصبحت عملة مصر الفضية تسك من دور سك النقود فى صور ، وصيدا ، ومن يافا وعكا ، حيث تكثر الفضة ، ويلاحظ أنه كلما بقيت الشام فى أيدى البطالمة فإن وزن التترادراخما البطلمية الفضية ظل ثابتاً ونقياً . وبعد فقدان الشام بعد عام ٢٠٠ انخفض وزن التترا دراخما الفضية ؛ وزادت نسبة الرصاص فيها ؛ ولهذا انتقلت دار سك النقود الفضية إلى قبرص . وظلت تسك العملات الفضية البطالمة حتى بعد إستيلاء الرومان عليها فى القرن الأول ق. م .

كانت التترادراخما البطلمية فى البداية تحمل اسم الملكين المقدونيين ؛ وبعد إختفائهما ، استبدلت بعملة تحمل رأس الاسكندر وهو يضع على رأسه جلد الأسد ، وعلى ظهر العملة وضعت صورة زيوس — آمون وتحت أقدامه النسر الطائر المقدس عند الرب الإغريقي.. وبعد عام ٣٠٥ ق. م. ، استبدلت هذه العملة بعملة جديدة تحمل صورة بطليموس وهو يرتدى الأكليل الملكى وتحتها ظهر اسمه « بطليموس ملكاً » . وعلى ظهرها ظهرت صورة النسر الذى يمسك بقاذف الصواعق Thunderbolt ، وهو رمز لقوة زيوس . وقد انتشرت هذه العملة فى حوض البحر المتوسط والشرق الأدنى . أما بالنسبة للتعامل الداخلى فقد سك عملة برونزية كبيرة لأن نسبة البرونز للذهب كانت ١ : ٤٨٠ عند المصريين ، وعلى وجهها ظهرت صورة بطليموس يرتدى الأكليل ، أما على الظهر فقد ظهرت صورة للنسر البطالمة.

سياسة بطليموس الأول الدينية :

والى جانب احترامه لديانة المصريين ، فكر بطليموس فى مشروعين دينيين ، أولها : تأليه الاسكندر ، الذى كان يلقى الاحترام والعبادة من المصريين ، الذين سمحوا بوضع صورته كأبن آمون فى معابدهم ، ولهذا فكر فى خلق شعائر وكهنوت من أجل عبادة الاسكندر ، وكذلك فكر فى وضع أساس ديانة مقبولة للمصريين وللأغريق على السواء ، تربط الشعبين روحانيا من أجل السلام والتعايش السلمى . وكان المشروع الأول سهلا وممكنا ، وهدف بطليموس منه اعطاء مدينة الاسكندرية عاصمة مملكته مهابة دينية لأنها تحوى ضريح الاسكندر الأكبر مؤسس الامبراطورية المقدونية . ولهذا بنى ضريحا هو « السوما » وسمى الشارع الرأسى الرئيسى فى الأسكندرية باسم شارع السوما (النبى دانيال) ، وأعلن بطليموس عيدا قوميا لتأسيس مدينة الاسكندرية وهو الخامس والعشرين من شهر طوبة (الموافق ٢٠ يناير عام ٣٣١ ق.م) حيث تقام الأحتفالات والمآدب والمهرجانات ؛ أما أساس عبادة الاسكندر فهى تقوم على أساس عبادة البطل ، الذى عاد الى آبائه الآلهة بعد موته ، وهى انعكاس لعبادة وتقديس الموتى عند الأغريق من ناحية ، ومن ناحية أخرى عرفت الديانة المصرية عبادة الفرعون الذى يقدم نفسه قربانا لا فتداء شعبه ، ودرء الخطر عنه ؛ ولهـــذا

وصف الاسكندر بأنه الروح المباركة Agathodaemon والروح الخيرة Agatho-tyche التى كانت تصور فى شكل حية . وأغلب الظن أنها خصائص دينية مترجمة عن المصرية كان يوصف بها الفراعنة بعد موتهم .

لقد وجد بطليموس أن المعابد المصرية وطبقة الكهنة تسيطر على مايقرب من ثلث مساحة الأراضى المزروعة ، فضلا عن الثروات الأخرى ، وكانت كلمة المعبد مسموعة ، وحكم الكهنة لاينقض ، وأوامرهم قوانين ، ولهذا كان بطليموس حريصا على التعامل بحذر مع الكهنة ، فى نفس الوقت ، سعى الى فرض سيطرة الدولة على المعابد ؛ فقد أعاد لها ما نهبة الفرس من آثار وكتب مقدسة ، وحرص على تجميل طيبة (الأقصر) عندما كان ستراباً ، فبنى فى الكرنك مقصورة لفيليب ارهيدايوس وهو يتعبد الى جحوتى أو « تحوت » رب المعرفة ؛ وأقام فى بهو الأعمدة تمثالا للاسكندر بن روكسانا ؛ وصور نفسه على احدى البوابات وهو يتعبد أمام موت ربة السماء ، وزوجة آمون ووالدة خونسو ، وكان هذا هو ثالوث طيبة . كما ظهرت معه زوجته وهى تعزف الهارب ، وبناته وهن يدقون الطبول لطرد الأرواح الشريرة ، بينما كان هو يهز السستروم Sistrum المقدس ؛ كل هذا تم بالشكل المصرى ومن اجل تملق الكهنة ومشاعر المصريين الدينية ، كما حرص على حضور الاحتفالات الدينية مثل عيد « سيد » (عيد التتويج) ، ورمم المعابد الشهيرة فى صعيد مصر وفى الدلتا ؛ والتى كانت تعرضت للنهب أو الدمار .. ووصف بطليموس نفسه بأنه محبوب آمون ، وحمل الألقاب الملكية الخمسة ، التى كان يتلقب بها الفراعنة ، وأمر بوضع اسمه فى « خرطوش » على طريقة الفراعنة ، لأنه حرص على ممارسة حقوقه كاملة كفرعون مصر .

قيام عبادة سيرابيس :

وبالرغم من هذا كله ، حرص بطليموس على ابتكار عبادة جديدة تلقى الاعتراف من الوطنيين المصريين ومن الأغريق على السواء ، فقد كان يدرك أن الديانة تلعب دوراً هاماً فى حياة الشعب المصرى ، الذى هو شعب زراعى ، تتحكم فيه التقوى والورع ؛ ويخضع خضوعا مطلقاً للمعبد وللكهنة . وأراد بطليموس أن يستغل هذه الظاهرة لدعم حكمه وربط هذه

الديانة الجديدة بالعرش ؛ ومن ناحية أخرى كان يدرك مدى حاجة الناس إلى عقيدة جديدة تعيد إليهم الأطمئنان الذى افتقدوه ، وتريحهم من القلق الذى كانوا يعانون منه ، وأخذ الأغريق يتطلعون إلى الشرق الأدنى بحثا عن الخلاص الروحى

ويبدو أن عبادة محلية كانت تقوم فى منف حول معبد بتاح وهى عبادة أوزوريس فى شكل أبيس العجل ، أو عبادة العجل فى شكل أوزوريس الرب ، ولكنها كانت محدودة ، غير أن بطليموس أدرك أن أزووريس هو الرب المحبوب عند المصريين ، لأنه يرتبط بالفيضان وبالزراعة ، وكذلك بالعالم الآخر وبالبعث ، فضلا عن ذلك هو زوج ايزيس الأمومة ، التى ترمز الى الأرض الطيبة ، وهو والد حورس الذى يحمى الملوك ويرعاهم . وكانت العبادات الكبرى فى مصر قد أهملت فى عصور التدهور التى سادت منذ القرن الثانى عشر ق.م ، واستبدلت الأرباب الكبرى بالآلهة الصغرى المحلية ، التى كان معظمها فى شكل الحيوانات المقدسة ، عندئذ أدرك بطليموس لماذا لا يتزعم حركة بعث عبادة أوزوريس وايزيس و حورس فى شكل جديد ، وبصورة وملامح أغريقية تناسب الوضع الجديد ؟ فمثلا لماذا لا يضفى على هذا الثالوث صورة انسانية رقيقه جميلة بدلا من الصورة التى كان الفراعنة يصورون بها هذه الآلهة ؟ فجمع بين صورة زيوس وهاديس الأغريقيين ، وبين صورة أوزوريس وآمون المصريين فى ملامح واحدة ؛ الفكرة الدينية مصرية ، والتنفيذ الفنى أغريقى ، وخلق منهما ربا مشتركا اشتق اسمه من أوزوريس آبيس العجل المقدس ؛ ليتحول الى سيرابيس الرب ، الذى ظل يثبت وجوده ، حتى نهاية حكم الرومان ودخول المسيحية ؛ بل انتشرت عبادته خارج مصر فى حوض بحر ايجه وايطاليا وصقلية . ومع سيرابيس ظهرت ايزيس الهللينستية فى الزى الأغريقى ؛ جالسة على العرش ترضع طفلها حورس ؛ الذى اصبح اسمه بعد التأغرق هربوقراطيس Harpocrates . ولم يمانع الأغريق فى ذلك ، لأن الديانة الأغريقية تدين فى أصولها للديانة المصرية والشرقية ، فضلا على ان الامتزاج والتسامح بين الديانات Syncretism كان الطابع السائد فى العصر الهللينستى. فقد امتزج رب الزراعة والخمر الأغريقى ديونيسوس Dionysus بأوزوريس رب الزراعة

فى مصر ، وامتزج أوزوريس فى نفس الوقت مع الرب هيفايستون الأغريقى لأنهما يشرفان معا على العالم السفلى ، ويحكمان بين الأموات كما امتزج هيفايستون مع بتاح منف ، وتساوت افروديت ربة الجمال الأغريقية بهاتور المصرية وبأيزيس أيضاً ؛ وتساوت نايت ربة العدل المصرية مع اثينا الأغريقية . . . الخ . وهكذا ظهر الثالوث السكندرى الهلينستى ، بصورة جذابة لشعوب البحر المتوسط المتأغرقة ، اكثر مما هى جذابة المصريين انفسهم . وأصبحت الاسكندرية هى مقر الثالوث الجديد ، حيث أن ايزيس وأوزوريس كانا يعبدان فى الاسكندرية عندما كانت قرية صغيرة تسمى راقودة ، قبل أن يحولها الاسكندر إلى مدينة الاسكندرية .

ويروى بلوتارخوس وتاكيتوس المؤرخان ، أن بطليموس رأى طيفاً فى منامه يأمره باحضار تمثال من مدينة سينوبى Sinope على البحر الأسود ، ونصح الفيلسوف تيموثيوس Timotheus الملك باحضار تمثال هاديس رب العالم الأسفل من معبده هناك إلى الاسكندرية ، وبعد مفاوضات طويلة مع أهل هذه المدينة ، أمكن احضار هذا التمثال . وقد أشاع الأغريق أن الاله سار بنفسه من المعبد الى القارب الذى حمله الى الاسكندرية . غير أن هذه القصة تبدو مختلقة ، فقد كانت تلال صحراء سقارة تسمى سينوبيون Sinopion وبالتالى أرادوا تأصيل هذا الاسم عن طريق ابتكار رواية لايجاد وتشابه بين هذه التلال ومدينة سينوبى الأغريقية ، كما أن هاديس الأغريقى كان هو المناظر لسوكر رب الموتى فى سقارة — جبانة منف — والتى أخذت أسمها الحالى من إسمه .

من الواضح أن سيرابيس اسم مركب من أوزوريس وآبيس Osiris-Apis ، وآبيس هو العجل المقدس الذى بموته يتحد مع الآله أوزوريس . وتجسيد حابى رب النيل ، فقد كان العجل يسمى فى حياته حابى — أوزير ، وبعد موته يصبح أوزير — حابى Osirapi الذى كان يعبد فى سقارة قبل فتح الاسكندر وكانت منف (ميت رهينة) هى مركز عبادته ؛ خاصة أن العالم الفرنسى ماربيت كشف فى سقارة (جبانة ممفيس) عن مقبرة كبرى العجول المقدسة أطلق عليها اسم السيرابيوم Serapeum . كما أنه عثر على بقايا السيرابيوم الكبير فى منطقة كوم الشقافة بالاسكندرية (راكوتيس القديمة وهى كوم الشقافه

الحالية) — الذى يتشابه فى دهاليزه المظلمة مع سيرابيوم سقارة ؛ وفوق هذا التل أيضاً بنيت مجموعة من المحاريب والمعابد لسيرابيس والثالوث السكندرى ؛ يحيط بها الأعمدة الرخامية الجميلة فى شكل مربع ، ويصعد المتعبد الى قمة التل المقدس عن طريق درجات من السلالم ، التى يقارب عددها المائة ، وفى هذه السيرابيوم كان يوجد تمثال كبير لهذا الاله ، وقد دمرت معظم هذه التماثيل على أيدى المسيحيين عام ٣٩١ ميلادية انتقاما من الوثنيين ، بعد أن فرض الامبراطور ثيودوسيوس الكبير المسيحية كديانة رسمية ولم يتبق فوق التل سوى بقايا قليلة من القرابين والتماثيل ، التى نقلها البطالمة من المعابد المصرية ، ليزينوا بها هذا المعبد الذى أصبح المعبد المركزى الذى تتبعه سلسلة من المعابد الصغيرة التى انتشرت على طول الوادى .

غير أن الصورة الفنية لهذا الاله الجديد ، كانت أغريقية وليست على طريقة الرسم المصرى . فملامحه ولحيته الكثة تذكرنا بصورة زيوس الأغريقى وكان يعلو رأسه القدح Modius أو السلة المقدسة Calathos ، وتمسك يده بالصولجان رمز القوة ، وحينا قرن الأخصاب Cornucopia ، وعند قدميه يجلس الكلب الأسطورى كربيروس Cerberos ذو الثلاثة رؤوس كرمز لسيادة سيرابيس ونفوذه على العالم الأسفلى تماماً مثل أوزوريس المصرى أما ايزيس الهللينستية زوجته فقد صورت جالسة على العرش ، ترضع وليدها هاربوكراتيس وبذلك تكون الثالوث السكندرى Triad الذى غزت عبادته أقطار البحر المتوسط خاصة بلاد اليونان وايطاليا ؛ ووصلت إلى بريطانيا فى العصر الرومانى .

تحويل الاسكندرية إلى عاصمة عالمية للحضارة الهللينستية :

كذلك حرص بطليموس على احداث نهضة فكرية وفنية وعلمية فى مدينة الاسكندرية ، لتجمع بين عرش التجارة والثقافة فى عالم البحر المتوسط ؛ وكعادة الملوك المقدونيين القدماء ، فتح أبواب القصر الملكى أمام الأدباء والفلاسفة ، خاصة أن مجد أثينا الثقافى كان قد بدأ يذبل ويتوارى خلال فترة الصراع بين الورثة ، وبسط بطليموس الذهب أمام هؤلاء العلماء .

والمفكرين ، واعدا أيامهم بحياة كلها رغد . لقد بدأت الادارة الذكية لمصر توتى ثمارها فى أواخر عهد بطليموس الأول ، فقد زاد دخل الدولة وتراكمت الأموال فى الخزانة فى القصر الملكى ، فتدفق على الاسكندرية العلماء فى كل فرع من فروع المعرفة أمام المغريات المادية ؛ فهاجر الى الاسكندرية كبار الرسامين من أمثال انتيفيلوس وأبيللس ، وهاجر إليها عالم الرياضيات يوقليد Euclid الذى عرف عند العرب باسم إقليديس ، وكذلك ايراتوستين ، وهيروفيلوس Herophilos الطبيب المشهور ، وتيود وروس الفيلسوف ، وزينودوتوس عالم اللغة ، وهيبارخوس أعظم علماء الفلك ، وأرشيميديس عالم الطبيعة وواضع نظرية الكتلة والكثافة ، وغيرهم الكثير ؛ وشجع بطليموس قيام التشاحن والمناظرات بين العلماء . فقد كان يوقليد من أعظم علماء الرياضيات ، الذين خلدوا مبادىء علم الرياضيات ، كما كان هيروفيلوس أول جراح دعا إلى وضع علم التشريح وتبيان وظائف المخ والجهاز العصبى من أجل التشخيص السليم للأمراض ؛ وبالتالى وضع العلاج السليم بدلا من طريقة الأدعاء التى كان يتبعها الأطباء الأغريق ، وقد أغرى بطليموس هؤلاء العلماء بتسهيل اتصالهم بنظرائهم المصريين ، وتطوير ما وصلوا إليه فى الفلك ، والرياضة ، والطب بصورة أغريقية ، والعلماء عادة يبحثون عن الثراء ومصادر المعرفة . وبطلميوس كان يملك الاثنين معا فى مصر ؛ ولكى يفاخر بعراقة مصر ، شجع أحد الكهنة المصريين لوضع تاريخ للأسرات التى حكمت مصر حتى عهد الاسكندر ، ونجح مانيتون Manethon السمنودى فى كتابة تاريخ مصر باللغة الاغريقية ، سماه « التاريخ المصرى » Aigyptiaca الذى فقد ، لكن تبقت بعض أجزائه تناقلها الكتاب الاغريق : وهذا التقسيم لازلنا نستعين به فى تاريخ مصر القديمة ونسير على منواله حتى الآن ، إذ قسم الأسرات الى ثلاثين أسرة حكمت مصر منذ مينا حتى نختانبو الثانى .

وبتزايد عدد العلماء والفنانين ، والفلاسفة فى الاسكندرية قرر بطليموس بناء أكاديمية لهم ؛ فعهد بذلك المشروع الى ديمتريوس الفاليروسى حاكم أثينا ، الذى كان قد هاجر الى مصر بعد طرده من منصبه ، وكان ديمتريوس

فيلسوفا إداريا وأديبا وخطيبا . وبالفعل نفذ الفاليروسى مشروع بنا أكاديمية أو جامعة أطلق عليها اسم الموسيون Mouseion ، أى بيت ربات الفنون والآداب التسع ، وجعله كالجنة محاطا بالحدائق ، وله أبنية فخمة ، ذات حجرات وأبهية لراحة العلماء الوافدين ، وكانت المعيشة فى الموسيون جماعية ومجانية للأساتذة والطلاب ، حيث يتباحثون ويتناظرون ويتأملون ويكتبون فى هدوء تام . وكان للموسيون رئيس فخرى سمى « بكاهن بيت ربات الفنون » . وقد حدد برتشيا Breccia مكانه فى المنطقة الواقعة بين شارع شريف وسيزوستريس والنبى دانيال بالاسكندرية الحالية .

وتلى ذلك التفكير فى بناء مكتبة كانت تقع بين الحى الملكى والموسيون ، جلب لها الكتب والمخطوطات النادرة من كل مكان ، خاصة من أثينا وغيرها من مدن بلاد اليونان ، وقد حرص خلفاء بطليموس على مضاعفة أعداد الكتب والمخطوطات ، سواء بالشراء أو بالنسخ ، بل أصدر البطالمة قرراً بأن يحفظ كل قادم الى الاسكندرية الكتاب الذى يحمله ، مقابل الحصول على صورة منسوخة منه . وفى عصر فيلادلفوس ، أشرف الشاعر الشهير كاليماخوس على إدارة وتنظيم المكتبة . وفيما بعد أنشئت مكتبة صغرى مكملة للمكتبة الكبرى ، وكان سبب شهرة مكتبة الأسكندرية أنها كانت أول مكتبة عامة تمتلكها الدولة بخلاف المكتبات الأخرى التى كانت خاصة بالأفراد فى العالم القديم ؛ وكان بها ١٢٨ ألف مجلد ؛ ويقول Beck أن بطليموس جعل نواتها الكتب الموجودة فى المعابد المصرية ؛ كما قاموا بترجمة الكتب الخمسة الأولى للتوراة التى عرفت بالترجمة السبعينية Septuagint هكذا بذل بطليموس الاموال ببذخ وسخاء من أجل جعل عاصمته المركز الأول للاشعاع الحضارى فى الشرق الهللينستى ، لدرجة أن البعض يسمى هذه الفترة بالعصر السكندرى ، كماسبق أن ذكرنا ، وبذلك نجح بطليموس الأول فى جمع السيادة الاقتصادية بالنفوذ السياسى والتفوق الأدبى والثقافى .

٢ — بطليموس الثانى (فيلادلفوس) ٢٨٥ — ٢٤٦ ق . م :

سياسته الداخلية :

عندما جلس على عرش مصر ، كان بطليموس الثانى فى الخامسة والعشرين

من عمره ، ووجد أباه قد قام بالشطر الأكبر من الكفاح من أجل وضع أساس الامبراطورية ، ولذلك كان أكثر حظا من أبيه ؛ بالاضافة الى ذلك فقد نال قسطا وافرا من التعليم والتثقيف الراقى ، جعلته يفضل استخدام الدبلوماسية وسلاح الاقتصاد على الحروب ، كما أنه نشأ محبا الترف والنعيم وحياة القصور الرغدة ولقد تزوج بطليموس الثانى فى عام ٢٨٩–٢٨٨ق.م من أرسينوى Arsinoe الأولى ابنةأنتيباتر ؛ وأنجب منهاولدين وبنتا ، أكبرهم هو بطليموس الثالث (فيما بعد) ؛ أما الابنة فكانت تدعى بيرينيكى سورا Berenike Syra غير أن هذا الزواج لم يستمر طويلا ؛ فقد وصلت الى الاسكندرية شقيقته الكبرى ارسينوى (الثانية) هاربة ولاجئة ؛ فقد كانت متزوجة من لوسيما خوس ، الذى أنجب منها ابنا ، ووهبها بضع ممتلكات فى بحر ايجة ؛ وبعدمقتله تزوجت من أخيها من أبيها بطليموس الصاعقة ؛ الذى أساء معاملتها ، وقتل أولادها ، فهربت الى مصر واستقبلها أخوها ؛ وأنزلها فى القصر الملكى ؛ ولكنها ظلت تدبر المكائد ضد زوجته أرسينوى الأولى ؛ حتى اتهمها بطليموس بأنها تدبر مؤامرة ضده ؛ فنفاها الى قفط بالصعيد عام ٢٧٩ ق.م ، وبعد سنوات قليلة أعلن زواجه من أخته أرسينوى الثانية على طريقةالفراعنة؛وقد مارست عليه نفوذا كبيرا ، حتى أنه لقب باسم فيلادلفوس أى المحب لأخته . وبزواجه من أخته ضم الى الامبراطورية ممتلكاتها فى بحر ايجة التى كان زوجها الأول لوسيما خوس قد وهبها لها .

ولقد بدأ بطليموس الثانى فيلادلفوس عهده بتنشيط الحياة الاجتماعية والثقافية فى مدينة الاسكندرية . فاحتفل بعيد جلوسه على العرش (عيد الباسيليا) فى مهرجان كبير ، دعا إليه وفوداًمن كافة أنحاء العالم الهللينستى . مما جعل الاسكندرية حديث العالم ؛ وقد وصف الأديب آثيناوس Athenaeus هذا المهرجان الذى أقيم فى الاسكندرية عام ٢٧٨ واستعرض فيه خيرات الامبراطورية.

ويعتبر عصر فيلادلفوس أغنى عصور البطالمة ؛ فعلى يديه بلغت الاسكندرية أوج عظمتها ورونقها فقد أشرف على بناء فنار الاسكندرية المهندس ستراتوس بن ديكسيباس الذى أقامه على جزيره تتاخم جزيره فاروس من الجانب الشرقى بجوار قلعة قايتباى ؛ كما حرص على دعم مكتبة

الاسكندرية بالمخطوطات النادرة . فقد كان هو نفسه ولوعا بدراسة الجغرافيا والتاريخ الطبيعى ، ومن أجل ذلك أنشأ حديقة حيوانات كبرى ، جمع فيها غرائب الطيور والحيوانات والنباتات من كافة أنحاء الامبراطورية ، كما ازدهرت دار الفنون بمشاهير الشعراء والعلماء الذين جلبهم للعيش فى الاسكندرية ، وكانوا يقومون بتعليم الأمراء ، ويعقدون الندوات ؛ ويقال أن عددهم بلغ مائة مفكر وعالم وفيلسوف ، أولهم زينودوتوس أول من نشر الألياذه والأودسا ، ثم أبوللونيوس شاعر الملاحم ، وآخرهم هو أريستارخوس من جزيرة ساموس الذى قام بنشر وتحقيق كل الأشعار الأغريقية من هوميروس حتى بندار .

ولقد سار فيلادلفوس على سياسة والده فى تنظيم وبناء جهاز الدولة الادارى والاقتصادى والمالى ؛ ووضع القوانين واللوائح الخاصة بالضرائب . كما اهتم بتوسيع نطاق التجارة واحتكار تجارة العاج ؛ واستخدام الاقتصاد كسلاح من أسلحة الحرب ضد منافسيه ؛ ولذلك ثبت قواعد النقد ، وطبق قواعد احتكار الدولة للمصادر الطبيعية ؛ بل أنه كان أول من حاول اقامة علاقات تجارية مع الرومان . ومن أجل ذلك عمل على تنشيط الزراعة وأكمل مشروع تعمير الفيوم مما زاد من الانتاج الزراعى القابل للتصدير خاصة القمح وورق البردى ، والتوابل والعطور والأقمشة الكتانية والثوم والبصل والنبيذ وكان الاقتصاد يشرف عليه أمين الخزانة Dioiketes الشهير أبو الونيوس ، صاحب الضيعة الكبرى فى الفيوم ؛ والتى كان يديرها نيابة عنه وكيل أعماله زينون Zénon . ومن أجل تنشيط التجارة الداخلية ، أمن الطرق البرية والنيلية بانشاء قوة الخراسة ؛ ولم يتردد فى انزال العقاب بالمخالفين القانون ؛ فصادر ممتلكاتهم ، وضمها تحت إشراف مسئول خاص عرف باسم كاتب الحسابات الخاصة Idios Logos .

سياسة بطليموس الثانى فى الشرق الأدنى :

١ — الحرب السورية الأولى : ٢٧٦ — ٢٧٢ ق. م :

من الواضح أن شقيقته ، وزوجته أرسينوى الثانية لعبت دوراً كبيراً فى توجيه سياسته الخارجية ؛ فكثيراً ما كانت الوفود الأجنبية تتصل بها وتتشاور معها ، وكانت سياسته الخارجية هى نفس سياسة أبيه ؛ وهو التمسك

بجنوب الشام ، وفينيقيا وفلسطين شرقاً ، وقبرص وبعض مدن آسيا الصغرى وجزر بحر ايجة شمالا ، وبرقة غربا . ومن أجل الاحتفاظ بجنوب الشام وفينيقيا ، دخل فى حربين مع الملوك السليوقيين أولها وهى التى تعرف بالحرب السورية الأولى ضد الملك السليوقى أنطيوخوس الأول ، وقد اندلعت هذه الحرب فى ربيع عام ٢٧٦ ق.م عندما اجتاح بطليموس الثانى الشام ، ونعلم ذلك من نقش مسمارى بابلى ، ولا نعرف تفاصيل هذه الحرب إلا من خلال معلومات متفرقة ، فالمؤرخ الأغريقى باوسانياس يرى أن هجوم بطليموس على مواقع السليوقيين فى الشام كان من أجل الدفاع عن مصر ذاتها ، لأن أنطيوخوس الأول كان ينوى الهجوم عليها ، وتؤكد لوحة بيثوم Pithom زيارة بطليموس الثانى الى مدينة هيروونوبوليس Heroonopolis (تل المسخوطة على خليج السويس) فى مطلع عام ٢٧٣ ق.م. لتفقد الاستحكامات الدفاعية ، وهناك نقش بالهيروغليفية موجود فى متحف اللوفر به ألقاب مشابهة للألقاب التى كانت تمنح للفراعنة أيام كانوا يقومون بغزواتهم السنوية للشام أقامه كهنة سايس ؛ وهناك أيضاً قصيدة صاغها الشاعر الرعوى ثيوكريتوس Theocritus يكيل فيها المديح لبطليموس الثانى. وتوضح لوحة سايس أن بطليموس فرض الجزية على مدن آسيا ، وطارد بدوها وفتك بهم ؛ وأن أعداءه عبثا نظموا لمواجهته ما لا يعد ولا يحصى من السفن الحربية والخيول والعربات « أكثرها فى حوزة أمراء بلاد العرب وفينيقيا » . وأنه احتفى بنصره ، وأن تاج مصر تثبت فوق رأسه » ، وماقاله كهنة سايس لا يختلف عما نظمه الشاعر ثيوكريتوس فى الاشادة بعظمة مملكة بطليموس فيلادلفوس فى مصر ومنها قوله : « لقد اقتطع لنفسه أجزاء من فينيقيا وبلاد العرب وليبيا ، ومن بلاد الأثيوبيين السود(١) بينما يعلن النقش المسمارى أن الجيش البابلى دحر الجيش البطلمى فى الشام ؛ وربما فى ذلك اشارة لاستعادة انطيوخوس لمدينة دمشق من القائد البطلمى ديون ، لكن الذى لاشك فيه ، أن قبضة بطليموس على ساحل فينيقيا كانت قد استحكمت ، وسنجده يعين واحدا من أتباعه من الفينيقيين يدعى فيلوكليس Philocles ملكا على صيدا ، فقد كانت صيدا قد أصبحت المدينة الكبرى فى ساحل فينيقيا

(1) Theocritus, Idyl. xvii, 86-92.

بعد انكماش صور ، ومن ثم فقد خضعت لصيدا التى تظهر كمدينة مستقلة فى عام ٢٧٤–٢٧٣ ق.م. وهذا يعنى وجود تغيير فى سياسة البطالمة نحو فينيقيا خلال الحرب السورية الأولى ، بينما تظهر طرابلس الشرق كمدينة بطلمية فى أعوام ٢٥٨ — ٢٥٧ ق.م . وبالاضافة الى ذلك نفهم من قصيدة ثيوكريتوس أن الأسطول المصرى قد نجح فى اخضاع بعض سواحل الأناضول فى كيليكيا ، وبامفيليا ، وليكيا ، وكاريا ؛ فى الوقت الذى كانت فيه جيوش انطيوخوس الأول تهبط من أعالى الشام ؛ كما تظهر السيادة البطلمية على جزر الأرخبيل ، والتى كانت من ممتلكات زوجته ، التى ورثتها عن زوجها لوسيماخوس ، بالأضافة إلى ذلك ضم إليها جزيرة ساموس. كما كانت مدينة ميليتوس خاضعة له قبل اندلاع الحرب السورية الأولى ، وأيضاً كانت كريت تحت نفوذ بطليموس المطلق ، بينما نجح انطيوخوس الأول فى تحريض حاكم برقة ماجاس على الثورة والانفصال بها ، وتعيين نفسه ملكا مستقلا ؛ بل صاهر ماجاس الثائر انطيوخوس الأول عندما تزوج من ابنته أباما من زوجته الفارسية ، التى كانت تحمل نفس الاسم . وأخيرا نجد انطيوخوس و بطليموس يعقدان هدنة عام ٢٧٢ــ ٢٧١ ق.م ، كانت لصالح بطليموس ، وربما أضطر أنطيوخوس إلى ذلك بسبب انتشار وباء الطاعون فى بابل فى ذلك الوقت ؛ ويظهر تأثير ارسينوى فى هذه السياسة من خلال النقوش التكريمية ، التى أقيمت لها فى عدة جزر ومناطق من بحر ايجة وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، ومن خلال ألقاب التشريف التى أنهالت عليها وعلى زوجها . وفى مصر كتب اسمها فى خرطوش مثل حتشبسوت ، وظهرت صورتها على النقود مع زوجها حيث عبدت معه كربين أخرين Theoi adelphoi ، وبعد وفاتها عام ٢٦٩ رفعت الى درجة « الربة » التى رحلت الى السماء حيث عالم الآلهة .

حرب خريمونيديس :

ويقول أحد النقوش أن بطليموس فيلادلفوس سار على طريق سياسة أخته عندما دخل فى تحالف مع بعض مدن اليونان العريقة بزعامة آثينا واسبرطة ضد الوجود المقدونى فى بلاد اليونان ؛ وكان أنتيجونوس جوناتاس بن ديمتريوس محاصر المدن قد أسس أسرة آل انتيجونوس فى مقدونيا وبلاد اليونان ؛ وبدأت حركة التمرد ضد مقدونيا فى نهاية عام ٢٦٦ ق.م ، وقد بنى الأغريق آمالا كبيرة على معونة الأسطول المصرى الذى كان يسيطر فى ذلك

الوقت على حوض بحر ايجة؛ وقاد الثورة على مقدونيا أثيني يدعى خريمونيديس Chremonides ، غير أن الأسطول المصرى لم يستطع أن يفعل شيئاً مؤثراً فى الحرب ؛ ونجح انتيجونوس فى استعادة مقدونيا من الاسكندر ملك ابيروس ، الذى كان قد هاجمها ؛ ثم سحق ابيروس ذاتها وتقدم نحو أثينا فاستسلمت عام ٢٦١ ق.م ، وسقط ملك اسبرطة قتيلا وهو يحاول نجدة أثينا ؛ أما خريمونيديس . فقد فر لاجئا الى مصر . وهكذا ظهر تأثير غياب ارسينوى على المعركة حيث ظهر عجز وعدم كفاءة قادة بطليموس فيلادلفوس.

وقد شهد العام الذى تلى حرب خريمونيديس صراعاً بين مصر ومقدونيا حول السيادة على بحر ايجة ، ويبدو أن مقدونيا حققت نصراً ، غير أن الاسطول البطلمى نجح فى استعادة ممتلكاته فى جزر الأرخبيل اليونانى قبل موت بطليموس الثانى .

إندلاع الحرب السورية الثانية :

منذ انتهاء الحرب السورية الأولى ، عصفت الأحداث الداخلية بالأسرة السليوقية مما عطلها عن اتخاذ أى خطوة فى البحر المتوسط ؛ كما أن انطيوخوس الأول سقط قتيلا فى معاركه مع يومينيس ملك برجامون وخلفه على العرش إبنه انطيوخوس الثانى الملقب بالرب Theos . ولقد شعر أنطيوخوس الثانى أنه يستطيع أن ينتقم من بطليموس الثانى ، ويسترد ما فقده فى الشام خلال الحرب السورية الأولى ، وبالفعل اندلعت الحرب السورية الثانية التى لانعرف تاريخ بدايتها ولا نعرف الكثير عن تطور معاركها . ويقول جيروم Jerome أن أنطيوخوس حارب بكافة قواته فى بابل والشرق . ومن الواضح أنه رغم ذلك لم ينجح فى انتزاع جوف سوريا من مصر ؛ بل ربما لم يضع قدمه فى هذه المنطقة المتنازع عليها ، واتسع نطاق المعارك بين الجانبين ليشمل مدن وجزر بحر ايجة ، وفقدت مصر أفيسوس Ephèsos والتى أصبحت المقر الصيفى لملوك أسرة سليوقوس منذ عهد الملك أنطيوخوس الثانى ، ولقد شهدت هذه الحرب تحالفا بين أنتيجونوس ملك مقدونيا

وأنطيوخوس ، وقد دعم ذلك التحالف بالمصاهرة بينهما ، ويبدو أن ما كسبه بطليموس الثانى فى الحرب السورية الأولى خسرة فى الحرب السورية الثانية .

وفى النهاية عقد بطليموس الثانى وأنطيوخوس الثانى هدنة،وذلك فى نهاية عام ٢٥٢ ق . م ، والتى اعتبرت فى الاسكندرية نصراً للنشاط الدبلوماسى البطليموسى ، ولتوثيق ذلك الاتفاق تزوج أنطيوخوس من ابنة بطليموس من زوجته الأولى وشقيقة ولى عهده ؛ وكان اسمها برنيكى . وكان أنطيوخوس الثانى متزوجاً من قبل من لاوُديكى Laodike والتى أنجبت له ولدين ، وقرر أنطيوخوس أن يرسل زوجته الأولى إلى إحدى مدن آسيا الصغرى الرئيسية وهى مدينة ايفيسوس ؛ بينما تبقى زوجته الجديدة ابنة بطليموس فى القصر الملكى بالعاصمة انطاكية . ولقد اصطحب بطليموس ابنته حتى بيلوزيوم على حدود مصر ؛ وبالتالى فقد فسر ذلك على أن ممتلكات مصر فى جنوب الشام وفينيقيا ذهبت كمهر (دوطة) للعروس تدفعه إلى عريسها ، جرياً على عادة الزواج عند الإغريق . وبالتالى فقد اصبحت بيلوزوم (تل الفرما) هى الحد الرسمى بين مصر والشام ، ولكن ثبت ان ذلك الراى غير صحيح ؛ فقد عثر فى ارشيف زينون على خطاب كتبه المشرف على بيت ابوالونيوس — وزير مالية بطليموس — من فينيقيا فى ربيع عام ٢٥١ ق . م ، لذكر فيه ان ابوللونيوس على وشك من الوصول إلى صيدا ومعه الموكب « لاصطحاب الملكة إلى الحدود » ، والتى كانت لا تزال عند شمال سوريا الحالية او جوف سوريا Koile Syria ، ويروى ان بطليموس أرسل إلى ابنته تموينا مستمراً من مياه النيل من أجل تطوير الزراعة ، وعندما حملت برينيكى ولداً من زوجها أنطيوخوس الثانى ، اعتبر بطليموس أن تولى هذا الوليد العرش يوماً ما كملك على الشرق الأدنى سيزيد من نفوذ مصر فيه ؛ لكنه لم يعش ليرى ماذا حل بهذا الوليد على يدى زوجة أبيه .

سياسة بطليموس الثانى فى فلسطين وشرق الأردن :

كانت فلسطين بسكانها العرب المتأغرقين واليهود المتطرفين جزءاً من

إمبراطورية البطالمة فى الشرق الأدنى ، وكان لها أهمية اقتصادية هامة ، فقد كشفت أوراق زينون مدى حجم التعامل التجارى بين البلدين فى ذلك الوقت ؛ فقد كانت فلسطين تمد مصر بزيت الزيتون ، والخيول العربية ، والأغنام والرقيق والفضة . كما أن أسماء المدن فى فلسطين اتخذت أسماء بطلمية جديدة ، فنسمع عن مدينة فيلوتيرا عند الطرف الجنوبى لبحيرة طبرية ؛ كذلك نسمع عن مدينة أخرى تسمى أرسينوى على حدود فلسطين مع لبنان ، ويذكر اسطفان البيزنطى أن مدينة ثالثة كانت تحمل نفس الاسم ، وأخرى تحمل اسم برنيكى فى الشام ؛ لكن المركز الرئيسى للنفوذ البطلمى فى فلسطين كان فى مدينة عكا ، التى كانت تسمى فى العصر البطلمى بطلمية Ptolemais ، وظلت تحتفظ بذلك الاسم حتى العصر الرومانى ؛ وكانت الدولة اليهودية تشمل أورشليم وما حولها ، وكانت شديدة الارتباط بالبطالمة ، فقد كانت تدفع الجزية لمصر . كما ألقت برديات زينون بعض الأضواء على أسلوب الحكم البطلمى فى شرق الأردن ، والذى كان يسمى فى ذلك الوقت أرض عمون Ammon وبالإغريقية Ammonitis ، ونعرف أن عاصمة الأردن كانت تسمى فى العهد القديم « رباط عمون » Rabbath Ammon ، لكن فى العصر البطلمى أعيد تسميتها تخليداً للملكة أرسينوى فأصبحت تسمى فيلادلفيا Philadelphia ، ويتردد فى أوراق البردى من العصر البطلمى اسم أحد الشيوخ المحليين ويدعى طوبياس Tubias (بالعربية طوبيا) وكان يعمل كرئيس لفرقة فرسان فى خدمة البطالمة . ويبدو أن مثل هؤلاء الفرسان قد منحوا إقطاعيات زراعية Kleroi فى أرض عمون على نفس النظام الذى طبقه البطالمة فى مصر ، وأيضاً فى إحدى أوراق البردى الخاصة بعقد عمل ، تظهر أسماء بعض المستوطنين العسكريين فى الأردن ، فنجد اثنين منهم يصفان نفسيهما بأنهما فرس السلالة ، وآخر يصف نفسه بأنه مقدونى . ومن الجدير بالذكر أن المكان الذى حرر فيه ذلك العقد هو برته عمان ، Birtu Ammonitis وكلمة « برتة » تعنى بالآرامية « القلعة » . ومن لهجة خطاب موجه من الشيخ

طوبيا إلى الملك بطليموس الثانى ، نجد الكلام مباشراً ، وخالياً من عبارات التزلف والنفاق مما يدل على منزلة طوبيا الرفيعة عند بطليموس. فى هذه الرسالة يخطر طوبيا صديقه الملك بأنه قد أهداه بعض الخيول ، والبغال ، والحمير ، والجمال ، والكلاب ؛ ربما لتعرض فى حديقة الحيوان بالاسكندرية . هكذا يتضح أن بطليموس قد عهد لكبير أسرة محلية تقيم فى أرض عمون بشرق الأردن أن تتولى حكم الإقليم نيابة عنه ؛ وظلت هذه الأسرة قائمة حتى القرن الثانى قبل الميلاد فى عهد أنطيوخوس ابيفانيس حيث لعبت دوراً مؤثراً فى الأحداث المحلية . وبما أن اسم طوبيا يتردد فى التوراة ، فهذا يعنى أن هذه الأسرة الآرامية قد تزاوجت مع اليهود، وأصبحت نصف يهودية بحكم المصاهرة . ولقد كان الشيخ طوبيا يتاجر فى الرقيق ؛ فقد كانت سوريا وفلسطين تمد البيوت الكبرى الإغريقية فى مصر بالجوارى . فى إحدى الوثائق البردية نجده يبيع لزينون فتاة من الرقيق تدعى صفراجيتيس Saphragitis ؛ وفى رسالة أخرى يرسل طوبيا إلى أبوللونيوس وزير مالية بطليموس الثانى أحد الخصيان وأربعة فتيان من الرقيق « ذوى عيون سوداء » .

بطليموس الثانى وشبه الجزيرة العربية :

كشفت النقوش اللحيانية والثمودية عن اهتمام بطليموس بالجزيرة العربية ، خاصة سواحلها الغربية ؛ ولقد كانت صحراء مصر الشرقية امتداداً من ناحية المناخ والظروف الحيوانية والطبيعية والسكانية لصحراء الجزيرة العربية ، حتى أن هيرودوت فى القرن الخامس أطلق على صحراء مصر الشرقية اسم بلاد العرب . ولقد أدرك بطليموس الثانى بحسه الاقتصادى مدى أهمية الجزيرة العربية ؛ أو ربما ورث هذا الإحساس عن الاسكندر الأكبر ؛ ومن ثم أراد أن يكمل ما كان ينوى الاسكندر القيام به قبل موته ، إذ كان بطليموس الأول مشغولا بمعاركه مع الورثة فى تأمين الشام الجنوبية وفينيقيا ؛ كما أن ميله لنشر نفوذه فى آسيا الصغرى، وجزر بحر إيجة

شغله عن الاهتمام بالجزيرة العربية. ومن ثم، نجد بطليموس فيلادلفوس فى العام السادس من حكمه يقوم بتطهير القناة القديمة التى كانت تربط فرع النيل الشرقى وخليج السويس .

وكما سبق أن ذكرنا ، كانت الجزيرة العربية قبل العصر الهللينستى ، وقبل ظهور وجمع النقوش اللحيانية والثمودية وترجمتها مجالا التخمين من جانب المؤرخين ، ولكن الآن بفضل مقارنة الكتابات العلمية الإغريقية من العصر الهللينستى بما جاء فى النقوش العربية القديمة يمكن استخراج معلومات مفيدة تلقى الأضواء على تاريخ جزيرة العرب فى العصور القديمة. ولقد كان لجزيرة العرب أهمية اقتصادية كوسيط لنقل تجارة الشرق الأقصى وشرق أفريقيا ، وما تصدرة جنوب الجزيرة من بخور وطيوب إلى عالم البحر المتوسط ، وذلك بفضل طريق البخور الشهير الذى يسير محازياً لجبال السراة ، بادئاً من ميناء عدن عبر سبأ ، ومعين ، ومتجهاً شمالا مخترقاً مكة والطائف ، ثم يتجه شمالا إلى يثرب ومنها إلى ديدان (العلا) والحجر (مداين صالح) Hegra ؛ ويستمر الطريق شمالا حتى يصل إلى مدينة البتراء فى بلاد الأنباط ؛ كما تخرج منه تفريعة إلى تيماء ، ثم يستمر الطريق الرئيسى حتى دمشق وصور . ولقد كان هذا الطريق سبباً فى تصارع القوى الكبرى فى الشرق الأدنى للسيطرة عليه ، إذ لم يكن أقل أهمية عن الشام من ناحية الأهمية التجارية ؛ فمن النقوش نعرف أن تجلات بيلاسر الثالث فرض الجزية على واحة تيماء فى الحجاز ؛ ونعرف أن سرجون تسلم من قبيلة ثمود الكبرى فى الحجاز الجزية ؛ ونعرف أن نابونيدس آخر ملوك بابل استولى على تيماء وأقام بها ؛ وقام بتعميرها بالمبانى ، كما أنشأ فيها معبداً لرب القمر « سن » . وبالمثل نجد قورش الأكبر قبل أن يفتح بابل يرسل حملة للاستيلاء على تيماء وطرد البابليين منها . ويقول دارا فى نقش بهستون أنه كان يتسلم ما قيمته ألف تالنت من البخور من العرب (ويقصد عرب شمال غرب الجزيرة) ؛ ومن ثم، كان القصد من إرسال دارا للحملة للاستيلاء على تيماء ، هو الاستيلاء والسيطرة على طريق البخور ؛ ولما كان التحكم فى شمال طريق البخور

يعنى التحكم فى جنوبه ؛ فقد كان الغزاة الذين يحتلون تيماء وشمال غرب الجزيرة يتسلمون الجزية من سبأ فى الجنوب دون إرسال قوات لفتحها ؛ إذ يكفى الاستيلاء على طريق تجارتها الشمالى ، وقد فعل ذلك سرجون وسنخريب . وبالتالى ، فإن دارا بسط نفوذه على سبأ الجنوبية دون أن يغزوها . وخلاصة القول ، لم يجرؤ أحد على إرسال حملة لاختراق الجزيرة العربية من أجل الاستيلاء على سبأ فى الجنوب قبل حملة الرومان الفاشلة ؛ فليس لدينا أى دليل على قيام أحد بمثل هذه المغامرة مهما كانت قوته لا سنخريب ولا سرجون ، ولا قورش ولا دارا . وعندما غزا الاسكندر الشرق الأدنى مر بشمال الجزيرة ؛ فلم تخرج مدنها لتحية الاسكندر ، وتقديم الهدايا ؛ وربما لأن النفوذ الفارسى كان قوياً فيها ؛ ولم يكن لدى الاسكندر الوقت الكاف لفتح شمال غرب الجزيرة ؛ لأنه كان يعلم أن إسقاط الامبراطورية الفارسية يعنى سقوط هذه المناطق فى حوزته ؛ ولهذا اعتزم استكشاف شبه الجزيرة لمعاقبة السبئيين فى الشمال والجنوب . ولما لم يتمكن أحد من الذين خلفوه من فتح شمال الجزيرة فقد بقى التأثير الفارسى قوياً فيها .

وإذا كانت مصر هى القوة الكبرى التى نافست بابل وآشور فى السيطرة على الشرق الأدنى ، فلا بد انها هى الأخرى حاولت بسط نفوذها على شمال غرب الجزيرة والسواحل العربية المواجهة للسواحل المصرية ؛ فقد كان المصريون فى حاجة ماسة إلى البخور لإقامة الشعائر فى المعابد ؛ وكذلك إلى الأعشاب الطبية التى يتطلبها التحنيط ، وصناعة العقاقير ؛ وهناك إشارة إلى العثور على نقش يحمل اسم « بت اوزير » على احد أحجار تيماء ؛ ومن ثم ، فإن مغامرات الفراعنة فى الدولة الحديثة لا بد وانها حاولت السيطرة على المناطق الشمالية لطريق البخور ؛ ولما كانت سياسة البطالمة هى إحياء نفوذ الفراعنة فى الشرق الأدنى كقوة ، ومن اجل السيطرة على البخور والعطور والتوابل ، التى كانت تجارتها رائجة ، فربما فكر بطليموس الثانى فى تنفيذ مشروع الأسكندر للاستيلاء على الجزء الشمالى من طريق البخور .

ولقد عثر فى مدينة هيرونوبوليس Hercconopolis . (بيثوم) عند خليج

السويس ، والتى منها كان يبدأ طريق حورس الحربى الشهير ؛ على لوحة بها نقش بالهيروغليفية يذكر ان بطليموس الثانى فى العام السادس من حكمه « بعد ان طهر القناة التى كانت تربط بين النيل والبحر الأحمر ، وسار إلى مكان يدعى تشيت او طيشى Tshyt ، وإلى مكان فى الجنوب بعيد إسمه بارستت Parstet (بلاد الفرس) ، وجد هناك تماثيل آلهة مصرية فأعادها لمصر . ولقد دار جدل بين العلماء لتحديد هذين المكانين المذكورين ، فاقترح بعضهم أنه يقصد مكاناً ما كان يقع عند الخليج العربى ، ولكن لم يثبت ذلك على الإطلاق لأن منطقة الخليج العربى كانت قلب الاهتمام السليوقى ومركز نشاطه . وبما أن النقش يذكر ، أنه سار جنوباً فلا بد وأن هدفه كان مكاناً ما فى الجزيرة العربية . أما تفسير كلمة الفرس ، فربما أنه قصد جيباً صغيراً كان لا يزال فى حوزة الفرس فى الحجاز ، وبالتالى جعل ذلك كاتب النقش يصف الحملة بأنها ضد الفرس ؛ فقد كان الفرس قديماً قد استولوا على تيماء ، وعلى الطرف الشمالى لطريق البخور ، « تشيت » أو « تيشى » ، ولذلك يقترح تارن أن المقصود باسم تشيت أو تيشى هو مدينة « معان مصران » — المستوطنة التى أقامها المعينيون على طريق البخور فى الشمال ؛ وهى التى أصبحت تعرف فيما بعد باسم ديدان أو دادان ؛ خاصة أن النقش يقول أن بطليموس قد توغل مسافة كبيرة جنوب هيرونوبوليس ، ومن ثم يرى تارن أن حملة بطليموس على الحجاز تمت فى عام ٢٧٧ ق . م ؛ لأن الحرب السورية الثانية لم تبدأ إلا فى عام ٢٧٦ ق . م ، ويؤكد تارن أن أنطيوخوس كان فى موقف صعب سياسياً واقتصادياً قبل هذه الحملة ؛ ولذلك كان من الأفضل لبطليموس أن يأخذ المبادرة فى وقت كان عدوه أنطيوخوس غارقاً فى المشاكل ؛ غير أن بطليموس نفسه كان مشغولا هو الآخر بحملته على بلاد العرب ؛ التى ربما فضل غزوها على مهاجمة عدوه أنطيوخوس فى الشام ؛ أو ربما فرضت عليه هذه الحملة فرضاً .

. . . .

لقد كان بطليموس الثانى مهتما بالمنطقة الشمالية الغربية لشبه الجزيرة العربية ، فمن المعروف أنه اهتم بإرسال المستكشفين إليها لاستكشاف سواحل البحر الأحمر

من على الجانبين : الجانب الأفريقى ، والجانب العربى . فقبل عام ٢٧٦ ق . م ، أرسل مستكشفاً اسمه ساتيروس Satyros لاستكشاف الساحل الأفريقى ؛ وقبل أن يقوم بحملته على الحجاز أرسل مستكشفاً آخر اسمه أرسطون Ariston لاستكشاف سواحل الجزيرة العربية الغربية حتى المحيط الهندى ؛ وبالفعل وصل هذا الكشاف حتى باب المندب ؛ واستفاد العالم أراتوستين Eratosthenes من قياساته لطول ذلك الساحل ، والتى صحح بها القياسات التى تمت فى عهد الإسكندر على يد الكشاف أناكسيكراتيس Anaxicrates والتى كان ثيوفراستوس Theophrastus قد أوردها فى كتاباته .

بطليموس الثانى والأنباط :

بدأ أرسطون باستكشاف سواحل سيناء بادئاً بميناء إيلانا النبطى Aelana (ميناء إيلات حالياً) على خليج العقبة ، ولم تكن دولة الأنباط فى ذلك الوقت قد توسعت أبعد من الطرف الجنوبى لخليج العقبة ؛ لأننا نجد أن جنوب خليج العقبة كانت تسكنه قبيلة ثمود العربية ؛ فقدأورد فى تقريره أن هذه القبيلة العربية كانت تستوطن شطراً كبيراً من ساحل البحر الأحمر الشمالى (فيما يعرف الآن بالحجاز) ؛ ثم ذكر أسماء بعض القبائل العربية القاطنة إلى الجنوب ، وتحدث عن وفرة الذهب عندها ؛ حتى يصل إلى ذكر مملكة معين والتى كانت عاصمتها قرناو ؛ ويذكر الممالك العربية الأربعة التى نقلها أراتوستين عنه ، وهى قتبان ، وسبأ ، وحضرموت ومهرة . لكنه لم يذكر شيئاً أبعد من حضرموت شرقاً لأن رحلته إنتهت رسمياً عند باب المندب . ولا شك أن معلومات الكشافة ، دعمت بالمعلومات التى جمعت من التجار ، الذين كانوا يغامرون بالإبحار فى المحيط الهندى بحثاً عن الذهب ، ولشراء البخور ، والتوابل . وتؤكد الظواهر الأثرية ، أن بعض البحارة والتجار الإغريق كان لهم اتصال بسواحل البحر الأحمر والخليج ، حتى قبل الفتح المقدونى ، ولكن فى شكل مغامرات فردية ودون سياسة مرسومة .

ومن ناحية ثانية ، كان الأنباط سبباً فى حملة بطليموس على شمال

غرب الجزيرة ؛ والأنباط قبائل بدوية عربية هاجرت على ما يبدو فى القرن السادس ق.م من بابل ، وسكنت فى منطقة شرق الأردن ؛ واستولت على أرض الأدوميين وانتزعت منهم عاصمتهم سلع (البتراء فيما بعد) . وأول ما بلغناعن الأنباط هو ما وردفى كتاب ديودوروس الصقلى، الذى ذكرفيه أن الأنباط كانوا قوة موثرة مكنتهم من صد حملتين أولاهما فى عام ٣١٢ ق.م وهى التى قام بهما أنتيجونوس عندما كان يحتل سوريا وحارب فيها بطليموس الأول ؛ والثانية قام بها إبنه ديمتريوس ؛ وانتهت الحملتان بالفشل ؛ وكان الأنباط يتحدثون الآرامية ومتأثرين بالثقافة البابلية ، فقد كانوا يستخدمون الشهور البابلية فى حساباتهم ؛ وكانوا يشتهرون بالقرصنة وقطع الطريق على القوافل التجارية القادمة من الخليج إلى ساحل الشام ، ومنذ أواخر القرن الرابع مدوا نفوذهم على طول الساحل الشرقى للبحر الميت ؛ ولكن البطالمة انتزعوا تلك المنطقة منهم ؛ وبالتالى كان الأنباط يشعرون بالكراهية إزاء توسع البطالمة ، خاصة أن حملات الاستكشاف البحرى نشطت التجارة المصرية بين هيرونوبوليس (السويس) ، وميناء إيلانا (العقبة) ؛ ولذلك شعر الأنباط بالخطر خوفاً من فقد سيطرتهم على التجارة ، فأخذوا يتعرضون بسفنهم لقطع الطريق على السفن المصرية ونهبها ؛ مما جعل بطليموس الثانى لا يتورع عن القيام بحملة بحرية لمعاقبة الأنباط ، ولحماية التجارة الشرقية ، ولهذا قام بحملته البحرية ضدهم ؛ وطاردهم وربما أبعدهم عن سواحل البحر الميت ، وربما تمت هذه الحملة فى عام ٢٧٨ ق . م وتلتها حملته ثانية على الحجاز عام ٢٧٧ ق . م .

ولقد ظل الأنباط وحلفاؤهم من قبائل البدو العربية مصدر خطر على البطالمة ، وكانوا دائماً يتحالفون مع السلوقيين ضدهم . ولهذا السبب نجد بطليموس الثانى يقوم فى عام ٢٧٣ ق.م بتقوية حصون مدينة هيرونوبوليس على خليج السويس ، وبناء سور حولها ؛ استغرق بناؤه أربعة أعوام ؛ ولقد استمر الأنباط يتحالفون ضد البطالمة ويتحالفون مع كل من يحاربهم ، حتى سقوط الدولة البطلمية كما سنرى .

سياسة بطليموس إزاء عرب الحجاز :

وعموما ، كانت أهداف وطموحات بطليموس الثانى يغلب عليها الجانب الاقتصادى ؛ وربما كان دافعه فى حملته على الحجاز أن يسيطر على الطرف الشمالى لطريق البخور ؛ كما فعلت القوى التى توالت على الشرق الأدنى ؛ ولهذا فكر فى التعمق قليلا على طول ساحل الحجاز إلى الجنوب من بلاد الأنباط من أجل تحويل طريق البخور بحيث يتجه الى الأراضى المصرية ، وبذلك يحرم الأنباط من الاستفادة من التجارة مع السبئيين ، ويلقنهم درسا اقتصاديا مريراً ؛ وكما يعتقد « تارن » فان من نتيجة هذه الحملة ارساء قواعد الصداقة الوطيدة مع مستوطنة معان مصران (مدينة العلا على ساحل الحجاز) . ولقد كانت معان مصران فى الأصل مستوطنة أقامها المعينيون قديماً على الطريق التجارى للبخور ، وهى ماتعرف الآن بموقع العلا بالقرب من المدينة المنورة . ولقد ثبت من النقوش العربية القديمة أن منطقة شمال غرب الحجاز قد امتلأت بالمستوطنات المعينية التى تركزت حول معان مصران . وكانت هذه المستوطنات تابعة لمملكة معين الأم فى جوف اليمن ؛ والتى سيطرت على معظم الأراضى الجنوبية فى الجزيرة ؛ والتى كانت عاصمتها قرناو ؛ وقد استغلت معين موقعها الجغرافى على منفذ البحر الأحمر فى زيادة ثروتها بنقل التجارة الى البتراء عاصمة الأنباط ، ولذلك فقد أطلق على المعينيين الجنوبيين اسم « فينيقى الجنوب » لنشاطهم البحرى ؛ وكان الملك المعين الملقب بالمزود وهو لقب دينى — يفرض نفوذه على هذه المستوطنات الشمالية . وتخضع لحكمه ، ومن المعروف أن مملكة معين لم تزدهر كقوة اقتصادية الا بعد سقوط القوى الكبرى فى الشرق الأدنى مثل الامبراطورية المصرية الفرعونية ؛ وفى وقت ضعفت فيه بابل وآشور بسبب الحروب بينهما ؛ فمدت نفوذها التجارى من حضرموت الى الحجاز ، وأنشأت لها حضارة وثقافة ؛ وبفضل مستوطناتها فى شمال الحجاز اصبحت على اتصال بالشام ؛ لدرجة أن الوثائق السريانية والنصوص التوراتية اعتقدت أن جنوب شرق البحر الميت هو موطن المعينيين ؛ ورغم سقوط دولة المعينيين على أيدى

ملوك سبأ الذين خلفوهم حوالى عام ٦٥٠ ق.م ؛ ألا أنهم ظلوا يحتفظون بتجارتهم وقوتهم الاقتصادية حتى وقت متأخر ؛ ولقد ورثت سبأ كل تراث معين ؛ لكن علاقة المعينيين بالمصريين كانت قوية ؛ فقد كان هناك تجار معينيون هاجروا الى مصر ، وكونوا جاليات تجارية احتكرت تجارة البخور واللبان ، وبعد حملة بطليموس الثانى توثقت الصداقة المعينية فى الحجاز مع البطالمة ، وازدهرت تجارتهم بفضل تعاظم النفوذ البطلمى فى البحر المتوسط وإذا كانت سبأ قد سيطرت على جنوب الجزيرة؛ فان معين ظلت قائمة فى مستوطناتها فى الحجاز . وأصبحت معان مصران « عاصمتها الكبرى » ففى الوقت الذى قام فيه بطليموس الثانى بحملته على الحجاز ، كانت معين الشمالية تتوسع فى التجارة براً وبحراً ؛ ولذلك فربما أقاموا لهم ميناء على ساحل الحجاز هو ميناء « الحجر » Hegra (مدائن صالح) ، عند وادى حمد ، الذى كان مدخلا يؤدى الى طريق البخور الرئيسى القادم من جنوب الجزيرة العربية إلى الشام .

ويعتقد « تارن » أن بطليموس الثانى كانت لديه معرفة عن « معان مصران » قبل القيام بحملته ذات الهدف الاقتصادى ، وذلك من خلال تقارير المستكشفين الذين أرسلهم لاستكشاف سواحل الجزيرة العربية الغربية لأختيار الأماكن المناسبة لانشاء موانىء بطلمية تكون مركزاً تتجمع فيه تجارة العرب لتنقل الى مصر ، وبالفعل أقام بطليموس على ساحل الحجاز ميناء امبيلونى Ampelone . وبعد ضعف الدولة السبئية الأم فى الجنوب ، سيطرت قبيلة اللحيانيين على الشمال ، وخضعت معان مصران لحكمهم . وكان اللحيانيون فرعا من قبيلة ثمود ؛ وبالتالى ورثوا كل حضارة المعينيين فى الشمال ؛ وبالرغم من ذلك لم يتوقف دور المعينيين فى معان مصران عندما سيطر اللحيانيون عليها . ولقد رصد العلماء تأثر اللحيانيين بالحضارة المصرية البطلمية فى الفنون والألقاب ؛ إذ ظهر تطور مفاجىء فى الفن اللحيانى فى العصر البطلمى خلال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد ؛ كما أن هناك احتمالا أن يكون بطليموس الثالث قد أقام هناك معبداً لهرقل الجد الأسطورى للبطالمة والذى كان يعادل « بعل شامين » الرب السورى الذى تسللت عبادته

إلى اللحيانيين ، والذى إليه نسبت الأساطير اللحيانية أنه هو الذى أسس مدينة معان مصران (دادان)، وهو أيضا يناظر عند آلهة الفينيقين الرب ملقارت .

وبفضل النقوش اللحيانية ، أمكن التعرف على بعض أسماء ملوك لحيان الذين حكموا مدينة العلا ؛ فقد ثبت أن اثنين منهم أو ثلاثة حملوا « لقب طولمـــاى » أو طالماى ، وهو التحريف العربى لاسم بطليموس ، بل إن هناك احتمالا أن بعضهم قلد البطالمة فى حمل ألقاب مؤلهة أثناء حياته ؛ وهو أمر لم يحدث من قبل عند اللحيانيين القدماء . ومن ناحية أخرى نجد شخصية من معين تدعى « زيدايل » يشغل وظيفة كاهن فى سيرابيوم فى منف ، حيث كان يزود المعبد بالمر والبخور من خلال سفينته ، التى كانت تحمل هذه المواد الى مصر ؛ ولقد عثر على تابوت له فى الفيوم مؤرخ فى العام الثانى والعشرين من حكم أحد البطالمة ؛ وقد أتفق أغلب الناشرين لهذا النقش على أن البطليموس المقصود هو بطليموس الثانى ؛ أى أن هذا التابوت يعود الى عام ٢٦٣ ق.م ، ومن ثم فهو يلى تاريخ حملة بطليموس على الحجاز وذلك دليل قوى على قيام علاقات قوية بين مصر ومدينة العلا ؛ ونلاحظ فى أوراق البردى المصرية من العصور البطلمية كثرة ترديد كلمة « اللبان العربى » ، وبالذات من عصر بطليموس الثانى ، وهذا دليل على افتتاح خط ملاحى تجارى بين ميناء العلا ، وميناء ميوس هورموس المصرى على البحر الأحمر . ولقد ازدهرت التجارة اللحيانية فى العصر البطلمى ، فقد عثر فى جزيرة ديلوس الجزيرة الرئيسية فى جزر الأرخبيل اليونانى — والتى كافح بطليموس الأول والثانى لكى يفرضا النفوذ المصرى فيها — على نقش معينى يرجع الى النصف الثانى من القرن الثانى ق.م ، أقامة تاجر معينى اسمه أيضاً زيدايل قد جاءأيضامن العلا أو من معان — ولانعرف على وجه اليقين عما إذا كان زيد ايل الأخير من نفس أسرة زيد ايل الكاهن ،أم أن ذلك كان مجرد تشابه فى الأسماء ، لكن الذى لاشك فيه أنه كان من أصدقاء مصر .

ومما يؤكد قيام الصداقة بين ملوك لحيان ، وملوك البطالمة كنتيجة لحملة بطليموس الثانى على الحجاز ، ظهور نقود معينية تقلد العملة السكندرية من

فئة التّر ادراخا بعضها موجودة الآن فى متحف جامعة ابردين باسكوتلندا ؛ ولقد كان اللحيانيون يصدرون لمصر الخيول الأصيلة والجمال . وتدل احدى وثائق البردى على أن بطليموس الثانى قد كون فرقة من الأعراب لحراسة الصحراء الغربية ، خاصة أن هذه البردية جاءت من الفيوم أيضاً . ومن ثم ، فان الجالية العربية فى عصر البطالمة كانت تفضل الاقامة فى واحة الفيوم ، التى تشابه من حيث الطبيعة واحات الجزيرة العربية(١) .

كان من أهم ملامح الشرق الأدنى فى العصر الهللينستى ، تشجيع المدن والجزر الأغريقية التى كان لها خبرة عريقة فى اقامة المستوطنات على إنشاء مستوطنات فى بعض مناطقه النائية من أجل نشر الحضارة الأغريقية فيها ، نظراً لاتساعه وتعدد حضاراته وقومياته ؛ فقد فعل ذلك السليوقيون ؛ لأنهم كانوا فى حاجة ماسة لاقامة هذه المستوطنات ؛ ولقد فعل البطالمة ذلك خاصة حول سواحل البحر الأحمر والسواحل الافريقية ؛ وهناك حالة واضحة وهى دعوة بطليموس الثانى لأغريق مدينة ميليتوس Miletus على ساحل الأناضول لاقامة مستوطنة على ساحل الجزيرة العربية ؛ فأسسوا له مستوطنة أمبيلونى Ampelone (أى مدينة الكروم) ، وكانت ميليتوس تحت السيادة البطلمية عام ٢٧٩ ق . م ؛ ثم استولى عليها انطيوخوس الثانى ، غير أن بطليموس الثالث إستردها بين ٢٤٥ و ٢٤١ ق.م وبقيت تابعة للبطالمة حتى عام ١٩٧ ق.م ؛ ويرجح تارن أن امبيلونى أسست بعد حملته على الحجاز عام ٢٧٧ ق.م ، وقبل عام ٢٦٠ ق.م ؛ وهو عام اندلاع الحرب السورية الثانية . ولقد حدد الرحالة جلاسر موقع أمبيلونى لأسباب جغرافية بأنه إلى الشمال من ميناء جدة الحالى ؛ بينما يقترح تارن والسيركيروان أن موقعها عند نهاية وادى حمد ؛ حيث يكون ذلك طريقاً سهلا الى العلا ؛ ولأنها ستكون فى مواجهة ميناء ميوس هورموس المصرى ؛ حيث ربط بين المينائين خط ملاحى ولعل السبب فى إنشاء ذلك الميناء الجديد هو أن محل ميناء الحجر Hegra الذى كان المعينيون قديماً قد أسسوه ، والذى تدهورت حالته حتى تحول إلى قرية ليس لها أهمية تذكر فى عصر الامبراطور أغسطس . وربما قام

---

(١) انظر البحث الجيد :

Mohamed E. Abd-El-Ghany : "The Arabs in Ptolemaic and Roman Egypt Through Papyri and Inscriptions", Atti Del Colloquio Internazionale : Egitto e Storia Antica Dall' Ellenismo al eta Araba", Bologna 1989.

بطليموس بتهجير بعض القبائل العربية الموالية له لتسكن حول هذا الميناء لتؤمن الطريق بين امبيلونى وبين العلا ؛ لقد كانت العلا تلعب دوراً هاماً فى اقتصاد البطالمة ، وفى مد مصر بالعطارة والأعشاب والبخور العربية ، مثلما كانت مدينة « جرها » (الجرعاء) بالنسبة للسلوقيين . فقد كانت الجرعاء على ساحل الجزيرة العربية الشرقى (بالقرب من الهفوف حاليا) هى الند المناظر فى النشاط الاقتصادى لمدينة ديدان (العلا) ؛ ومن ثم ، فاذا كانت الجرعاء قد تحالفت مع السلوقيين ، فانه من المرجح أيضاً أن تكون ديدان قد تحالفت مع البطالمة ، خاصة أن علاقتها بمصر كانت وثيقة كما أوضحنا من قبل ؛ وربما نجح البطالمة من خلال صداقتهم مع ديدان من توجيه ضربة اقتصادية للبتراء ، بتحويل طريق البخور عنها ليتجه الى ميناء امبيلونى ، ثم تبحر السفن عبر البحر الأحمر الى ميناء ميوس هورموس المصرى ، ومن ثم ، حرمت البتراء خلال تصاعد نفوذ البطالمة فى القرن الثالث ق.م من أن تكون سوقا لتصدير التوابل والبخور ومنتجات الشرق الأقصى ؛ حتى انها أصبحت تستورد متطلباتها من البخور من الجرعاء عن طريق رحلة طويلة عبر طرق وسط الجزيرة العربية .

بطليموس الثانى والسبئيون :

ولم يكن الأنباط وحدهم هم الذين أضيروا من نشاط بطليموس الثانى فى البحر الأحمر ؛ فقد أضير من ذلك أيضاً السبئيون ؛ بعد أن فقدوا السيطرة على طريق البخور ، كما فقدوا السيطرة على مستوطناتهم الشمالية التى دخلت فى حما البطالمة ، وخزت حزوهم ديدان معان ؛ وبالتالى فقد انتقلت التجارة الشرقية الى أيدى البطالمة وتجار الاسكندرية ، خاصة بعد افتتاح الخط الملاحى بين خليج السويس والهند وان كان ضعيفا ؛ وكانت مدينة الاسكندرية مبعث هذا النشاط البحرى والتجارى بحكم موقعها الهام على البحر المتوسط ، واتصالها بالبحر الأحمر عن طريق قناة نيلية ؛ كما بذل البطالمة مجهودا كبيراً لاعادة الحياة الى الطرق البرية بين موانى مصر القديمة على البحر الأحمر وبين موانىء النيل . وزودت هذه الطرق بالحراسة ، وحفرت فيها آبار المياه ؛ ومن ثم ،

كان من الطبيعى أن ينحاز السبئيون الى جانب الأنباط والسليوقيين فى عدائهم للبطالمة ، بل ان هذا النشاط أدى إلى انفصال سبأ الشمالية فى الحجاز (المستوطنات المعينية القديمة) عن سبأ الجنوبية ؛ فقد انضمت سبأ الشمالية الى جانب البطالمة،وبالتالى فى وقت من الأوقات أصبح الشمال يحارب الجنوب فى جزيرة العرب كما ذكر النقش اللحيانى .

بطليموس الثانى ومملكة برجامون (٢٦٣ — ٢٦١) :

كانت برجامون فى الأصل قلعة حربية فى اقليم ميسيا Mysia فى آسيا الصغرى ، تتوسط سهلا زراعيا غنيا ، ولا تبعد عن البحر أكثر من أربع وعشرين كيلومترا . وكان انتيجونوس الأعور قبل هزيمته فى ابسوس عام ٣٠١ ق.م قد عين أحد خصيانه قائدا على هذه القلعة واسمه فيليتايروس Philitaeros ابن أتاللوس ؛ وعندما إستولى لوسيماخوس على غرب آسيا الصغرى بعد هزيمة انتيجونوس ، حول فيليتايروس ولاءه إليه ، وأصبح تابعا له ؛ حيث جمع فى هذه القلعة ثروة كبيرة من الأسلاب والغنائم ، وعندما إستولى سليوقوس على غرب آسيا الصغرى ، تظاهر فيليتايروس بالولاء نحوه؛ ولكنه كان ينوى الاستقلال واقامة مملكة هللينستية على غرار الممالك الأخرى . ولقد ظهرت شجاعة فيليتايروس عندما نجح فى صد قبائل الغال التى هاجمت آسيا الصغرى فى عام ٢٧٦ — ٢٧٨ ق.م ، وأنقذ مملكته ؛ وراح يوسعها وينفق على تعميرها ، حتى أصبحت من أجمل الممالك الهللينستية ، ووضع لها قوانين مثل التى كانت لدى المدن الأغريقية ،ورغم أن أغلب سكانها كانوا من الآسيويين ،لكنهم عن طريق الاستيطان العسكرى للأغريق سيطروا على السكان ، واستغل فيليتايروس المصادر الطبيعية الغنية لهذه المنطقة مثل مناجم الفضة ، واستمر فى وضع أسس مملكة هللينستية مستقلة تحكمها أسرته من آل اتاللوس ، وفى حوالى عام ٢٦٣ مات فيليتايروس وكان قبل موته قد تبنى ابن أخيه يومينيس ليخلفه على العرش ، وقام يومينيس بتكوين جيش من المرتزقة ؛ وأعلن عام ٢٦٢ ق.م استقلاله عن الدولة

السليوقية وذلك بالاتفاق والتفاهم مع بطليموس ، الذى كان فى حاجة الى أخشاب برجامون وجلودها . فضلا عن ادراكه لموقعها الممتاز فى شمال غرب آسيا الصغرى ، وإستخدامها كخنجر فى ظهر الدولة السليوقية ، وأمحر الأسطول البطلمى لحماية استقلال برجامون عام ٢٦٢ ق.م ، وليبسط منها نفوذ بطليموس على أهم مدن آسيا الصغرى مثل أفيسوس وميليتوس ؛ كما كان بطليموس يهدف من تدخله فى ذلك الوقت فتح جبهة عسكرية ، تشغل أنطيوخوس الأول عن مساعدة حليفه انتيجونوس جوناتاس ملك مقدونيا فى قمع ثورة المدن فى بلاد الأغريق بزعامة أثينا واسبرطة ضد السيطرة المقدونية ؛ والتى عرفت باسم حرب خريمونيديس . ولقد ظل انطيوخوس الثانى يحاول استعادة برجامون عبثا حتى موته عام ٢٦١ ق.م ، ولم يجد ابنه انطيوخوس الثانى مناصا من أن يعترف بالأمر الواقع ويقر باستقلال برجامون. ولقد شعر أنطيوخوس الثانى بالمرارة ازاء هذه الضربة الموجهة التى دبرها له بطليموس الثانى . وردا على ذلك زاد من تحالفه مع انتيجونوس جوناتاس ملك مقدونيا ، وأخذا يدبران عملا للانتقام من بطليموس فيلادلفوس ، ودعما تحالفهما بالمصاهرة .

موقف بطليموس الثانى من الحرب البونيقية الأولى :

وعندما كانت روما تخوض حربا ضد بيرهوس ملك ابيروس الذى حاول غزو أراضيها عام ٢٧٣ ق.م وذلك أثناء حياة أرسينوى فيلادلفوس ، سافر وفد من الاسكندرية الى إيطاليا ليعرض على الرومان صداقة الأسرة البطلمية ؛ وهى أول مرة نسمع فيها عن اسم الرومان يتردد فى سياسة البطالمة ؛ فقد كانت التجارة المصرية فى ذلك العصر قد توسعت فى غرب البحر المتوسط وكانت تهدف الى اقامة علاقات تجارية مع جميع بلدان البحر المتوسط . وفى عام ٢٦٤ ق.م وقعت الحرب البونيقية الأولى بين الرومان وقرطاجة ؛ وطلبت قرطاجة من مصر اقراضها بعض الأموال لدفع تكاليف هذه الحرب غير أن بطليموس آثر الحياد واعتذر عن تلبية طلب القرطاجيين متعللا بأن الطرفين المتحاربين أصدقاءه ، وأنه يفضل أن يكون وسيطا للصلح

بينهما . وتظهر أحدى أوراق البردى المؤرخة عام ٢٥٢ ق.م تواجد بعض الجنود المرتزقة الرومان الذين عملوا فى خدمة الجيش البطلمى ، ولا ندرى أن كانت هذه حالة فردية من بعض المغامرين أم تصرف سياسى مقصود من بطليموس فيلادلفوس.

إستعادة قورينى وتوابعها :

ولربما كان من الأسباب التى جعلت بطليموس الثانى يحرض مملكة برجامون على التمرد ضد انطيوخوس الأول هو الانتقام من هذا الملك السليوقى لتحريض امارة برقة (قورينى) وتشجيع حاكمها ماجاس على التمرد واعلان استقلالها عن مصر ، لكن شاءت الظروف أن تعود برقه الى جانب بطليموس فيلادلفوس ، فقد مات ماجاس المتمرد تاركا أرملته السليوقية أباما ، التى كانت شديدة الكراهية للبطالمة والتعصب لأسرتها السليوقية ؛ كما ترك ماجاس ابنه هى بيرينيكى ؛ وكان ماجاس ابنا لبطليموس الأول من احدى عشيقاته ؛ أى أنه أخ غير شقيق لفيلادلفوس ؛ وربما أدرك ماجاس فى أواخر أيامه أنه لا مستقبل لأمارته بدون مصر ، فرتب اتفاقا مع بطليموس فيلادلفوس وهو أن يتزوج ابنه وولى عهده بطليموس الثالث ابنته بيرينيكى ؛ وبذلك يعود اتحاد مصر مع قورينى . غير ان أباما السليوقية الغاضبة نقضت هذا الاتفاق ، واتصلت بأسرتها فى أنطاكية تطلب زوجا لابنتها ليتولى العرش ؛ ورشح السليوقيون مقدونيا هو ديمتريوس الأشقر شقيق انتيجونوس جوناتاس من أبيه ؛ وهو فى نفس الوقت إبن شقيقة بطليموس فيلادلفوس من أبيه ، والتى كان اسمها بطوليمائيس . وبالفعل وصل ديمتريوس الجميل الى برقة ليتزوج بيرينيكى ؛ غير أن الملكة الأم هامت به حبا ، واتخذته عشيقا لها ، فردت الابنة بيرينيكى بتدبير مصرع ديمتريوس وهو فى فراش أمها ، وأرسلت الى فيلادلفوس تطالبه بتنفيذ الاتفاق القديم المعقود بينه وبين أبيها ؛ ويبدو أن فيلادلفوس لم يضيع الفرصة فأرسل حملة اعادت اخضاع قورينى لمصر ، وقطعت علاقتها بالمملكة

السليوقية ؛ ولم يتم زفاف بطليموس الثالث ولى العهد على برينيكى إلا قبيل توليه العرش بقليل ، أى فى اواخر ايام ابيه ، لأنه كان متزوجا بها قبل خروجه إلى الحرب السورية الثالثة عام ٢٤٥ ق.م . ولقد قامت الحملة التى قادها ولى العهد بطليموس الثالث الى قورينى ، بتأمين مدنها والقضاء على نفوذ السليوقيين فيها ؛ كما قام بتغيير أسماء المدن لتأخذ أسماء الأسرة البطلمية ، فمثلا مدينة يوهسبريدس Euhesperides أصبحت تعرف باسم بيرينيكى ، وتوخيرا Tychira أصبحت تسمى ارسينوى ، أما برقة فقد تغير اسمها الى بطولمايئيس .

سياسة بطليموس الثانى نحو النوبة :

سبق أن ذكرنا أنه من الأسس التى أقام عليها بطليموس الأول دعائم امبراطوريته هو عدم التوسع فى أغوار أفريقيا جنوبا ، لأنه آثر التوسع شمالا فى حوض البحر المتوسط ، وفى بلدان الشرق الأدنى شرقاً . واكتفى بالحدود التى وصل اليها الفراعنة من قبله وهى عند الشلال الثانى ، غيرأن ديودوروس الصقلى يروى لنا أن بطليموس الثانى اصطحب قوة من الجنود المرتزقة فى حملة مفاجئة على النوبة (أثيوبيا القديمة) على غرار حملات الفراعنة ؛ وعلى غرار الحملة التى قادها بسماتيك الثانى فى العصر الصاوى ، واصطحب فيها جنودا من المرتزقة الأغريق ؛ غير أنه لم يوضح لنا السبب الذى دفعه القيام بمثل هذه الحملة ؛ فربما كانت أشبه ببعثة لاستكشاف هذه الأغوار الأفريقية بحيواناتها ، ونباتاتها ، وطيورها ؛ بل وربما لمحاولة تتبع نهر النيل الذى كان منبعه مشكلة حيرت العلماء والبحاثة ؛ فلقد كان بطليموس فيلادلفوس شغوفا بدراسة الجغرافيا وعلم النبات والحيوان ، وربما كان هذا هوالدافع الحقيقى وراءهذه الحملة لأنه لم يحاول ضم النوبة ما بعدالشلال الى ممتلكاته أبدا . وكانت النوبة فى ذلك الوقت قد انقسمت الى مملكتين احداهما مملكة مروى Meroe (البجراوية الآن) الى الجنوب من المملكة القديمة نباتا (بالقرب من جبل البرقل) ، بل تفوقت هذه المملكة الجنوبية

المروية على نباتا ، وكانت المملكة المروية الجديدة أكثر انفتاحا على الحضارة الهلليسنتية من المملكة القديمة نباتا التى ظلت شديدة التعصب فى الحفاظ على التراث المصرى الفرعونى فى النوبة ؛ فقد سمحت مروى لباحث أغريقى اسمه داليون لكى يتسلل جنوبا إلى قلب السودان متتبعا منابع النيل ويسجل اكتشافاته فى مؤلف سماه أثيوبيا Ethiopia . ولقد كانت هذه الحملة فاتحة دخول الحضارة الهللينستية من شمال الوادى الى قلب أفريقيا السوداء فى نفس الوقت الذى تدفقت منه هذه الحضارة من المستوطنات العسكرية التى أقامها مبعوثو فيلادلفوس على ساحل البحر الاحمر الأفريقى وفى شرق أفريقيا حيث التقت حضارات عرب جنوب الجزيرة مع الحضارة البطلمية على التراب الأفريقى ، مما كان سببا فى زرع بذور النهضة والثقافة فيها .

نهاية بطليموس فيلادلفوس : ٢٤٦ ق. م :

وبعد هذا النشاط الكبير الذى دعم فيه بطليموس الامبراطورية المقدونية فى مصر والشرق الأدنى ، وتحويله طرق التجارة الشرقية الى مصر ؛ واحباط التحالف السليوقى — المقدونى ضده ؛ ووضع بذور الصداقة مع الرومان ، تدفقت خيرات الامبراطورية الشاسعة على الاسكندرية ؛ التى حولها الى منارة وجوهرة البحر المتوسط ، وحقق ثراء وبذخا ضرب به المثل ؛ فقد فاق بذكائه ومهارته أقرانه من الملوك الهلليسنتيين ؛ فعاش فى قصره المنيف فى الاسكندرية يغرق فى حياة اللهو والترف ، حتى شبهه اليهود بسليمان الحكيم . ولقد هاجمه فى آخر أيامه مرض النقرس فألزمه الجلوس فى القصر ، ولقد روى أحد الكتاب الأخلاقيين حكاية تقول انه وهو مريض حبيس ، يتألم من داء النقرس ، شاهد من نافذة فى القصر مجموعة من المصريين الأصحاء ، تستلقى فى الشمس بالقرب من البحر تأكل ما تصطاده من الأسماك والقواقع بنهم وسعادة ، فصاح متحسرا لماذا لم يولد مثلهم ، وأغلب الظن أن هذه الرواية من وضع أحد الكتاب الأخلاقيين المتأثرين بالتوراة وأنبيائها ليبين أن بطليموس فيلادلفوس كان كسليمان محبا للترف ، غير أنه اكتشف فى النهاية أن متاع الدنيا وهم وخيال !

واخيرا فى شتاء عام ٢٤٦ ق.م ، مات بطليموس الثانى ؛ بعد حياة حافلة بالفتوحات والمقامرات والمؤامرات والمغامرات . وبعد أربعين عاماً من الحكم الذى وطد فيه دعائم حكم أسرة بطليموس ، وخلفه إبنه من زوجته أرسينوى لأولى ، لأن أخته وحبيبته وزوجته ارسينوى الثانية (أرملة لوسياخوس) لم تنجب أبناء منه ؛ انما رضيت بتبنى أبنائه من زوجته الأولى . وهكذا تولى بطليموس الثالث عرش الامبراطورية .

٣ — الظروف التى تولى فيها بطليموس الثالث (يورجيتيس الأول) :

وما أن جلس بطليموس الثالث على العرش حتى اتخذ لنفسه لقبا يميزه عن جده وأبيه ؛ فاختار أو اختير له لقب الرحيم Euergetes ، وفى عهده حدثت تطورات كبرى بين المتصارعين على سيادة العالم الهللينستى ؛ فبعد توليه العرش بشهور قليلة ؛ اغتيل أنطيوخوس الثانى فى مدينة افيسوس باسيا الصغرى ؛ وربما كان اغتياله من تدبير زوجته الأولى التى كانت تسمى لاءوديكى والتى على اسمها أسس مدينة لاءوديكيا (اللاذقية الآن) ، وكانت لاءوديكى من الأسرة السليوقية ، وكانت قد أنجبت له ولدين وبنتين ، كان من المفروض أن يختار أنطيوخوس الثانى أكبرهما وليا للعهد ، غير أن الاتفاق الذى تم بين بطليموس فيلادلفوس وبينه كان ينص على أن يتزوج من إبنة بطليموس فيلادلفوس (وشقيقة بطليموس الثالث) ، وكان اسمها بيرنيكى ، والتى بدورها أنجبت له ولدا ، عزم على جعله ولى عهده ؛ مما أثار حفيظة لاوديكى ، فدبرت مقتل زوجها قبل أن يعلن ذلك رسميا ؛ وحتى تؤمن العرش لأبنها سليوقوس الثانى ، وسافرت الى الأناضول مع ابنها سليوقوس ، للتصدى لأى محاولة من جانب بطليموس الثالث .

وفى ذلك الوقت أيضاً ، كان انتيجونوس جوناتاس ملك مقدونيا وحليف وصهر السليوقيين يطارد النفوذ البطلمى فى بحر ايجة ؛ وتمكن فى عام ٢٤٥ ق. م بالتعاون مع اسطول جزيرة رودس من تدمير الأسطول المصرى عند جزيرة اندروس فى بحر ايجة ؛ وبذلك تمكن من انهاء الوجود

البطلمى فى جزر الارخبيل (الكيكلاديس) ، وبذلك لم تعد مصر قادرة على القيام بدور رئيسى فى بلاد اليونان ؛ بالرغم من قوة اقتصادها وقوة جيوشها ؛ وخلوها من الثورات وحركات الانفصال ، التى غرقت فيها المملكة السليوقية الشاسعة ، والمتعددة القوميات واللغات والأديان ، فقد كان الشعب المصرى إلى حدما مسالما للحكم البطلمى بسبب تدفق خيرات الامبراطورية على مصر ؛ إلا من بعض حركات المقاومة الوطنية التى كانت تندلع من آن لآخر فى أعماق الصعيد ، وكانت قوات البطالمة من المرتزقة تقوم بسحقها ، كما أثر فقدان ديلوس على تجارة بحر ايجة ، وحرم البطليموس الجديد من فرص سيادة مصر على بحر ايجة وجزر بلاد اليونان ، بالاضافة الى ذلك ، فقد بدأت مدن بلاد اليونان تتبع سياسة مستقلة عن قوى الصراع فى البحر المتوسط ، وأخذت فى تكوين الأحلاف الدفاعية فيما بينهما : مثل الحلف الآخى ، والأيتولى لحماية استقلالها من السيطرة المقدونية ؛ ومن ثم انشغلت مقدونيا فى صراع مع رعاياها الأغريق ؛ كما أن بطليموس الثالث تفرغ لدعم مملكته فى مصر وفى الشرق الأدنى خاصة فى جنوب الشام .

ولقد واجهت الدولة السليوقية عدة ثورات قام بها رعاياها فى أقاصى الأطراف الشرقية ، فقد كان من الصعب على هذه الدولة أن تحتفظ بقارة كبرى بشعوبها وقومياتها المختلفة ، خاصة أن انطيوخوس الثانى كان قد أهمل الأصقاع الشرقية من مملكته ، مركزاً همه على الجانب الغربى من آسيا الصغرى والشام لمحاربة البطالمة . ففى عام ٢٥٠ ق.م انفصل اقليما سوجديانا وباكتريا فى الشمال الشرقى عن مملكته ، وأعلنا قيام مملكة مستقلة بزعامة الستراب الفارسى ديودتوس الذى سلك عملة لنفسه . كما أسس البارثيون دولة لهم بزعامة تيريداتيس جنوب بحر قزوين منذ عام ٢٤٧ ق.م مقتطعين جزءا من ممتلكات الامبراطورية السليوقية فى فارس القديمة ليؤسسوا عليها دولتهم القوية التى طالبت بأرث الأمبراطورية الفارسية .

هكذا فى ظل هذه الظروف والمتغيرات تولى بطليموس الثالث .

الحرب السورية الثالثة : (٢٤٦ — ٢٤١ ق. م) :

كان الصراع على العرش السليوقى هو السبب المباشر فى إندلاع هذه الحرب ، فعلى أثر مصرع انطيوخوس الثانى ، قامت الملكة لاءوديكى بتدبير مقتل ابن زوجها من الملكة المصرية بيرينيكى ، واعلان ابنها ملكا باسم سليوقوس الثانى Seleucus تيمنا باسم جده سليوقوس الأول مؤسس الأسرة السليوقية . ولم تجد الأميرة المصرية أمامها سوى طلب النجدة من أخيها بطليموس الثالث Euergetes الذى وجد فى ذلك فرصة لاستعادة نفوذه فى الشام ، لأنها المجال الحيوى الوحيد المضمون لمصر ، فتقدم بقواته على الفور عبر طريق حورس الحربى الذى كان يبدأ من بيثوم (تل المسخوطة عند خليج السويس) عبر سيناء فى طريقه الى الشام ؛ وفى نفس الوقت أصدر أوامره الى شقيقه الذى كان يحكم قبرص أن يتحرك بالاسطول لاحتلال عاصمة السليوقيين فى أنطاكية ، وكذلك مدينة سلوقيا الواقعة على نهر دجلة انتقاماً لأخته التى لقيت حتفها على يد الملكة السورية ، ولضم الشام وبلاد الرافدين إلى مصر ؛ معلنا أن هذا الجيش الذى يقوده هو جيش بيرينيكى وابنها ، جاء للانتقام لمقتلهما ، واستخلاص العرش من مغتصبيه ؛ ونجح فى اختراق سوريا حتى عبر جبال طوروس شمالا ، واستولى على مقاطعة كيليكا المجاورة لحدود سوريا شمالا ؛ ثم اندفع شرقاً ليعبر الفرات ، وليصل الى مدينة سلوقية على نهر دجلة ؛ وكان هدفه الوصول الى منطقة الخليج العربى شريان الاقتصاد فى الدولة السليوقية ؛ وفجأة لأسباب لا نعرفها استدار عائدا إلى مصر فى نهاية عام ٢٤٥ ق.م ؛ بالرغم أنه كان فى استطاعته أن يقضى على الدولة السليوقية ويوحد الشرق الأدنى من الخليج العربى الى خليج السويس فى أمبراطوريته ، وربما كانت الأسباب التى دعته أن يضحى بنصر مثل هذا كان قاب قوسين أو أدنى هو وصول أنباء من مصر بأن النيل لم يفض الفيضان اللازم للزراعة فى ذلك العام ، مما سبب قحطا ومجاعة كادت تؤدى الى حدوث ثورة ، ولقد أتاح هذا الانسحاب فرصة ذهبية لغريمه سليوقوس الثانى ليجمع شتات جيوشه ، ويستعيد ما سلب منه ، وبدأ سليوقوس

الثانى يستعيد مركزه فى أسيا الصغرى ، رغم إنفصال افيسوس عن ممتلكاته وانضمامهاالى بطليموس الثالث ، ومن المدن التى انحازت لسليوقوس الثانى مدينة سمرنة Smyrna (أزمير الحالية) وتوابعها ، واضطر سليوقوس الثانى الى التحالف مع ملك بنطوس مثريداتيس Mithridates ، بل وزوجه من اخته لاءوديكى ؛ وكان هذا يعنى اعترافا واقعيا بقيام مملكة بنطوس جنوب البحر الأسود على حساب الدولة السليوقية ؛ وبذلك أصبحت ممتلكات الدولة السليوقية تضم بلاد الرافدين والشام وجزءاً من أسيا الصغرى . وفى عام ٢٤٤ ق.م أعد أسطولا استطاع أن يستعيد به السواحل السورية ، ثم اجتاح الشام معلنا أنه الوريث الشرعى لانطيوخوس الثانى ؛ وفى خلال شهور قليلة تقلص النفوذ المصرى فى الشام ؛ ولم يتبق لمصر من الشام الكبرى سوى ساحل فينيقيا وسهل البقاع (جوف سوريا) وفلسطين ؛ ولقد ساعدسليوقوس الثانى على هذا الاجتياح السريع أن عملياته العسكرية قد تمت فى نفس الوقت الذى تمكن فيه أنتيجونوس جوناتاس من تدمير الأسطول المصرى فى بحر إيجه عند جزيرة اندروس .

لكن بالرغم من ذلك ، بقى البطالمة نفوذ لا بأس به فى الشرق الأدنى فقد انتهت الحرب السورية الثالثة بعقد صلح بين بطليموس الثالث وسيليوقوس الثانى عام ٢٤١ ق . م أقر فيه سليوقوس الثانى بحق البطالمة الشرعى فى بعض مناطق جنوب آسيا الصغرى ، وبحر إيجة ، وسواحل الأناضول ، وبعض الجزر المتاخمة لهذا الساحل : مثل جزيرة ساموس ، ومدينتى أفيسوس وميليتوس ، بل وفى منطقة شبه جزيرة القرم Chersonese فى إقليم تراقيا .

ويقول يوتروبيوس Eutropius أن الرومان بعد أن فرغوا من الحرب البونيقية الأولى عام ٢٤١ ق . م والتى هزموا فيها قرطاجة ، بعثوا بسفراء إلى بطليموس الثالث ملك مصر لتأكيد وعودهم السابقة بمساندته فى حروبه ضد أنطيوخوس ملك سوريا (١) .

(1) Eutropius, III, 1.

سياسة بطليموس الثالث الداخلية :

بعد هذه الانتصارات التى حققها بطليموس الثالث على غريمه سليوقوس الثانى ، تفرغ لتوطيد دعائم حكمه فى مصر ، فالنصف الأول من حكمه كان حروباً للحفاظ على أمن ووحدة إمبراطوريته ؛ أما الشطر الثانى من حكمه فقد آثر فيه استخدام سلاح الحرب الدبلوماسية ضد أعدائه ، كما فعل عندما زاد لهيب الصراع بين هيراكس وسليوقوس الثانى ليبقى العرش السليوقى ممزقاً وضعيفاً ، كما ساعد إمارة برجامون لكى تنفصل عن الدولة السليوقية ، كما حرض الإغريق فى بلاد اليونان ضد السيطرة المقدونية فقد تزعم هذه الثورة ضد مقدونيا الحلف الآخى بزعامة قائده آراتوس Aratos ، كما ساعد ملك اسبرطة كليومينيس فى القيام بثورته الاجتماعية والمطالبة بالاستقلال عن مقدونيا ، غير أن ملك مقدونيا انتيجونوس دوسون سحق هذه الثورة ، وفر كليومينيس الاسبرطى الثائر الاجتماعى هارباً إلى الاسكندرية لاجئاً فى بلاط بطليموس الثالث ، وبذلك نجح بطليموس يورجيتيس عن طريق سلاح الذكاء والدبلوماسية فى أن يحافظ على توازن قوى الصراع ، وهو جالس فى قصره بالاسكندرية فى نفس الوقت إستمر فى سياسة التودد للمصريين خاصة الكهنة .

ويعتبر بطليموس الثالث من أعظم البطالمة إعتدالا وإتزاناً ، فقد كان ذكياً مثقفاً ، محباً لفعل الخير ، بذل قصارى جهده فى دعم مركز الاسكندرية الأدبى والعلمى لتصبح كعبة النور والثقافة ؛ كما كان محباً للحضارة المصرية مؤمناً بأصالتها كينبوع الحضارة الهلينستية ، ومن ثم فقد أقام علاقة طيبة مع الكهنة المصريين الذين بادلوه نفس الشعور . ولقد نال إعجاب المصريين عندما تصرف بسرعة فى مواجهة المجاعة التى حدثت فى البلاد بسبب انخفاض منسوب مياه الفيضان ؛ إذ أعلن تنازله عن كافة الضرائب والمتأخرات ؛ سواء كانت عيناً أو نقداً ؛ وجلب إلى البلاد كميات كبيرة من القمح ، وبذلك أنقذ البلاد من القحط والمجاعة بسرعة التصرف ؛ ولذلك عبر الكهنة المصريون عن هذا التصرف بإصدار قرار فى ربيع

عام ٢٣٧ ق. م عقب اجتماع لهم تم فى كانوب ، وعرف هذا القرار باسم قرار كانوب ؛ وقد أطال الكهنة فى شكرهم الملك العطوف لكفاءته فى الإدارة ؛ ورعايته للمعابد المصرية ، وإنقاذه البلاد من المجاعة ، ومنحوه لقباً مصرياً كان من صفات أوزوريس وهو لقب « فاعل الخير » الذى ترجم لليونانية بلفظ « يورجيتيس » . .

ومنذ ذلك التاريخ أصبح تقليداً أن يسعى كل بطليموس للحصول على مبايعة كهنة مصر قبل توليه العرش ، وكان ذلك نقطة تحول فى مصير الحضارة الأغريقية فى مصر .

كان بطليموس الثالث شديد الاحترام للمعبد المصرى ؛ وقد شهد عهده إنشاء العديد من المعابد الجميلة على الطرز المصرية الخالصة ؛ فقد بنى صرحاً Pylon فى الكرنك ، عرف باسمه تقليداً لما كان يفعله فراعنة مصر القدماء ، كما شرع فى بناء معبد كبير على غرار معبد الكرنك . وذلك فى مدينة إدفو (Apollonopolis) ، وهى مدينة مقدسة تقع إلى الجنوب من طيبة ، وخصصه الرب المصرى حورس الإدفاوى ، الذى يعتبر قطعة فنية رائعة ؛ وقد بلغ من ضخامة المعبد أن استمر العمل فيه بانتظام مائة وثمانين عاماً ، على نحو ما ذكرنا ببناء معبد الكرنك ؛ إذ أصبح تقليداً أن يخلد كل بطليموس نفسه بإكمال جزء منه ، فهو « كرنك البطالمة » ؛ ولم يكتمل العمل فيه إلا فى عهد بطليموس الزمار والد آخر ملكة بطلمية على مصر ؛ وهى كليوباترا السابعة ؛ وتظهر الوثائق أنه أوقف على هذا المعبد أراضى كثيرة ، موزعة على أربعة مقاطعات ، وقلده فى ذلك من خلفوه على العرش ، ومن ثم ، فقد كان هناك هدف سياسى من بناء هذا الصرح الدينى الذى يفوق ما بناه الفراعنة ضخامة وفخامة ، ألا وهو تحويل الأنظار عن معبد آمون فى طيبة ، وسحب البساط من تحت أقدام كهنته الذين كانوا يوغرون صدور الناس بالثورة فى الجنوب ضد البطالمة .

كما كان بطليموس الثالث محباً لتاريخ مصر القديم ، خاصة تاريخ

الفراعنة ، كما كان مهتماً بوضع تاريخ رسمى لقيام حكم الأسرة البطلمية ، فاختار لذلك عام ٣١١ ق. م ، وهو العام الذى قتل فيه الاسكندر بن الاسكندر ؛ كما تم فى عهده تطوير وضبط السنة المصرية الزراعية ، والتى كانت تقوم على التقويم الشمسى ؛ وذلك بإضافة يوم كل أربع سنوات إلى أيام النسىء الخمس التى كانت تضاف إليها عند نهايتها ، فأصبحت السنة بذلك ٣٦٥ يوم فى السنة العادية و ٣٦٦ كل سنة كبيسة ؛ ولا شك أن علماء الفلك فى الاسكندرية ساهموا فى وضع هذا التقويم الجديد الذى أصبح يعرف بالتقويم السكندرى ، والذى نقله الرومان على عهد يوليوس قيصر ، وبالتالى أصبح أساس التقويم الإفرنجى ، كما حرص فى الوثائق على استخدام الشهور المصرية بدلا من الشهور المقدونية .

لقد كان بطليموس الثالث محبوباً من الإغريق والمصريين على السواء ، فقد حقق السلام فى الداخل ، وثبت ممتلكات الامبراطورية فى الخارج ؛ كما لم يعرف عنه العبث او المجون الذى عرفه ابوه وجده ؛ ولذلك احترمه المصريون ، وراوا انه جدير بلقب ومكانة الفرعون ؛ وبسبب كفاءته وعدله ازدهرت الزراعة والتجارة ، وابحرت سفن مصر فى البحر الأحمر والبحر المتوسط ، تنقل التجارة ، وأصبحت الاسكندرية سوقاً دولية لتصدير السلع الشرقية ، ولقد تمسك بزوجته برينيكى ابنة ماجاس من الملكة السورية أياما ، وكرمها فى حياتها فظهرت معه مصورة تحت اسم « الربان الرحيمان » .

لكن العيب الوحيد الذى أخذه المؤرخون على بطليموس الثالث يورجيتس الأول ، أنه آثر السلام فى الشطر الأخير من حياته ، معتمداً على سلاح الدبلوماسية والوقيعة بين أعدائه ، مما جعله يهمل فى إعداد وتدريب الجيش القوى ، المستعد لمواجهة الأحداث المتقلبة ، مكتفياً بأن أعداءه وهما ملكا سوريا ومقدونيا ، قد غرقا فى مشاكلهم الداخلية ، التى لن يفيقا منها ؛ ولم يكن يدرى أنهما سوف يخرجان من هذه المشاكل أصلب عوداً ، وأكبر عداء لمصر ، فإهمال الجيش كان بداية تآكل

الامبراطورية البطلمية . هكذا كان الحال عندما مات يورجيتيس فى ربيع عام ٢٢١ ق. م ، وانتقل العرش إلى ابنه بطليموس الرابع .

٤ ـ بطليموس الرابع فيلوباتور الأول :

يعتبر عصر فيلوباتور نقطة تحول فى تاريخ أسرة البطالمة ، أو بمعنى آخر بداية العهد التنازلى لها ؛ فقد تسلم الحكم من أبيه دون أن يجد جيشاً قوياً ، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت شخصية الملك الجديد ضعيفة ومتخاذلة ، مما جعله ألعوبة فى أيدى رجال القصر من أمثال أجاثوكليس وسوسيبيوس Sosibios الذى خطط للوقيعة بين الملك وأسرته ، فحرضه على قتل أمه برينيكى ، ثم عمه ، وأخويه ، وعدداً من أصدقائه ، حتى الملك الأسبرطى اللاجىء كليومينيس لم ينج من الفتك به ، كما استخدم سوسيبيوس هذا الملك الطائش للتخلص كل منافسيه ليخلو له الجو ، ويتصرف كما يشاء فى البلاد فى ذلك الوقت الذى حكم فيه مصر ملك ضعيف جلس على العرش فى إنطاكية أقوى ملوك الأسرة السليوقية ، وهو أنطيوخوس الثالث ؛ كما جلس على عرش مقدونيا الملك فيليب الخامس ، وكان ملكاً طموحاً يتوقد غيرة ونشاطاً لإحياء الامبراطورية المقدونية ، وقد تحالف الملكان السورى والمقدونى للانتقام من أسرة البطالمة لما فعلته بهما ، فقد كانا طامعين فى تقسيم الامبراطورية البطلمية بينهما ؛ بل كان أنطيوخوس الثالث يحلم بغزو مصر وضمها إلى إمبراطوريته حتى تصبح إمبراطورية واحدة فى مصر والشرق الأدنى وآسيا الصغرى ؛ وفى ذلك الوقت نفسه ، كانت روما تخوض حروباً مريرة مع قرطاجة ؛ بقيادة عدو الرومان هانيبال ، والتى إنحاز إليها الملك السورى والمقدونى إلى جانب قرطاجة خوفاً من تزايد الخطر الرومانى على الممالك الهللينستية ؛ بينما وقفت مصر وبرجامون ورودس إلى جانب الرومان ؛ وكان هذا بداية تطلع روما لوضع قدم لها فى شرق البحر المتوسط ، ولحسن الحظ خلد لنا بوليبيوس سجلا عن سياسة روما الصاعدة إزاء الممالك الهللينستية المتصارعة فى ذلك الوقت .

إندلاع الحرب السورية الرابعة فى الشرق الأدنى :

وبعد أن فرغ الملك السليوقى أنطيوخوس الثالث من إخضاع الثورات فى مملكته الأسيوية ، وقضى على بعض الحركات المناوئة فى إقليم بابل عام ٢٢٢ ق. م ووحد شمل مملكته ، رأى أن عليه أن يتوج عمله باستعادة جنوب الشام وساحل فينيقيا وفلسطين من أيادى بطليموس الرابع ؛ وتصفية الحساب القديم مع مصر . وبالفعل سار بجيش كبير صوب ساحل فينيقيا ، فاستولى على معاقل البطالمة ، وساعده فى ذلك قائد الجيش البطلمى ثيودوتوس الذى كان قد فر إلى الشام واحتمى بالسليوقيين ، فقد ساعد هذا القائد الهارب أنطيوخوس الثالث فى الاستيلاء على جوف سوريا وفلسطين دون مقاومة تذكر ، حتى وصل جيش أنطيوخوس الثالث إلى غزة ، وأصبح يدق أبواب مصر ، عازماً على احتلالها ، مستغلا ضعف فيلوباتور وفوضى الإدارة بسبب تحكم الوصى سوسيبيوس . غير أن هذا الأخير أثبت فى مواجهة هذه الأزمة كفاءة ودهاء لا يمكن إنكارهما . إذ بدأ فى تعطيل الملك السورى عن الزحف إلى مصر بحجة التفاوض للوصول إلى حل مرض ، كما جعل الملك السورى يتوهم أن قوات كبيرة من الجيش المصرى متحصنة عند بيلوزيوم (تل الفرما) ، واستمرت المفاوضات عامين ، تمكن خلالها من إعداد جيش من المتطوعين الإغريق وبقايا المستوطنين العسكريين والمرتزقة ، بل اتخذ قراراً شجاعاً عندما قرر تجنيد الفلاحين المصريين وتدريبهم على طرق القتال الحديثة ، وبالفعل تم تكوين فرقة مصرية وطنية فى الجيش البطلمى تعدادها خمسون ألف مقاتل ، يقودها ضباط مقدونيون وإغريق ، وجعلها تحت إشرافه وقيادته الخاصة ، تاركاً الملك بطليموس الرابع قيادة القوة الإغريقية ؛ وبذلك عادت الأحوال إلى أيام الدولة الصاوية الوطنية عندما كان الجيش المصرى يتكون من فرقتين ، واحدة مصرية ، وأخرى من المرتزقة والإغريق مع تغير الأدوار.

المعركة الكبرى على الشرق الأدنى : معركة رفح ٢١٧ ق. م :

المعارك فى التاريخ كثيرة ، ولكن قليل منها هو الذى يغير مجرى التاريخ بصرف النظر عن حجم تلك المعارك ؛ ومعركة رفح التى وقعت بين جيوش

أنطيوخوس الثالث ، وبين جيش بطليموس الرابع بشطريه الاغريقى والمصرى ، كانت واحدة من هذه المعارك التى حولت مجرى الأحداث فى تاريخ مصر . فبالنسبة للمصريين الوطنيين كانت المرة الأولى – منذ وقوعهم تحت الاحتلال – التى استدعوا فيها لحمل السلاح دفاعا عن الوطن ؛ فقد أبعد المحتلون المصريين عن سلك الجيش والمعارك خوفا من ثوراتهم ؛ وفرغوهم للزراعة والفلاحة والخدمات الألزامية التى تطلبها الدولة ، حتى وان كان بعضها لخدمة الجيش وحراسة مواقعه ، وبمرور الزمن نسى المصريون حمل السلاح ؛ وحرموا من خبرة الجيش التى تطورت فى العصر الهلينستى تدريبا وسلاحا ، فاذا هم يدعون فجأة لحمل السلاح ، والتدريب والتمرين تحت قيادة ضباط مقدونيين وإغريق ؛ وتكونت فى الجيش فرقة وطنية ، حنت إلى أيام الماضى التليد ، أيام خروجهم فى غزوات المد وراء فراعنتهم العظام وفى تاريخ مصر القديم ، نجد أن تاريخ الجيش المصرى هو تاريخ قوة مصر ، وتدهورها . ولهذا حرصت هذه الفرقة المصرية منذ البداية على أن تبدى شجاعة منقطعة النظير ، ليس دفاعاً عن العرش البطلمى فحسب ،ولكن دفاعا عن مصر وتراثها وتاريخها القديم .

فعندما أيقن سوسيبيوس أن الاعداد للجيش قد اكتمل ، جعل مبادرة الهجوم فى جانبه ، وليس فى جانب العدو ؛ وتقدم هذا الوزير يقود فيلقه المصرى ، بينما تقدم الملك بطليموس الرابع فى هيلدانه ، يقود القوات الأغريقية والمرتزقة التى بلغ تعدادها سبعين ألف جندى مابين فارس وراجل ؛ ولحسن الحظ خلد لنا المؤرخ بوليبيوس Polybios وصفا دقيقاً لأحداث المعركة التى دارت فى لظى القيظ على رمال رفح ، فى الثانى والعشرين من شهر يونيو(حزيران)عام ٢١٧ ق.م . ولقد ثبت من دراسة أحد النقوش العربية القديمة ن المعركة لم تكن بين البطالمة والسلوقيين ، بل شملت أيضاً الحرب بين المستوطنات المعينية فى شمال الحجاز بزعامة ديدان العلا ، والتى انحازت بالطبع الى جانب مصر ؛ وبين سبأ اليمن التى كانت من الواضح متحالفة مع الأنباط والسليوقيين ، وربما حاولت سبأ اليمن انتهاز الفرصة لاستعادة

سيطرتها على مستوطناتها فى شمال غرب الحجاز ، وتحرير طريق البخور من السيطرة البطلمية . والأغرب من ذلك أن هذه المعركة حدثت فى نفس الوقت الذى كان فيه هانيبال القرطاجى يلحق الهزيمة بالرومان فى ايطاليا عند بحيرة تراسيمينوس . أى أن هذه الحرب تخرج عن نطاق الحروب المحلية ، إذ اشتعل الشرق الأدنى كله مما أدى الى تعرض قوافل التجارة الخطر .

ونفهم من وصف بوليبيوس لوقائع المعركة الرئيسية ، بأن قام الملك السورى أنطيوخوس الثالث وحلفاؤه باجتياح الفيلق الأغريقى ، الذى كان يقوده بطليموس فيلوباتور ، مستخدما الأفيال الهندية المدربة ، غير أن سوسيبيوس وفيلقه المصرى أحاط بالقوات السليوقية من خلف وألحق بها هزيمة ساحقة لم تخطر على بال أنطيوخوس الثالث ، فتقهقر راجعا من حيث أتى بعد أن عقد هدنة مع الملك بطليموس الرابع أقر بمقتضاها حق مصر فى جوف سوريا وفلسطين وسواحل فينيقيا ؛ وضاعت أحلامه فى الاستيلاء على مصر ؛ ولقد شهد بوليبيوس أن النصر يرجع الى شجاعة وبلاء الفيلق المصرى ؛ فى نفس الوقت نفهم من النقوش اللحيانية أن الشمال أيضاً قد انتصر على الجنوب ، حيث قدم تجار الحجاز القرابين للآلهة اعترافا بهذا النصر ولنجاة قوافلهم من الخطر .

ولهذا فان المؤرخين يعتقدون أن معركة رفح عام ٢١٧ ق.م كانت نقطة تحول فى تاريخ دولة البطالمة فى مصر ؛ فقد تلى نجاح المصريين فى تحقيق النصر ارتفاع روحهم المعنوية ؛ وعودة الثقة الى أنفسهم لأول مرة منذ قرون مضت ؛ وراحوا يحنون لأيام الكفاح والسلاح فى عهود ملوكهم الفراعنة العظام ؛ وتلى ذلك أيضاً انتشار روح التحدى للوجود الأجنبى على أرض مصر ؛ وذلك بعد أن عاد الجنود المصريون المسرحون الى قراهم ؛ فكثرت حركات المقاومة الوطنيه خاصة فى أعماق الصعيد معقل القومية المصرية ، بل وبدأت النبوءات الدينية المصرية تكثر وتبشر المصريين بقرب ظهور البطل المصرى الذى سوف يعيد لطيبة مجدها من سيطرة الأسكندرية ؛ وبذل الملوك البطالمة جهدا كبيرا فى القضاء على هذه الثورات ، التى كلفت

الاقتصاد البطلمى الكثير ؛ فقدت ادت إلى تدهور الزراعة ، إنعدام الأمن فى الصعيد ؛ ولم يجد ملوك البطالمة بعد ذلك التاريخ بدا من تملق المصريين ، والظهور بالمظهر الوطنى الفرعونى ، وانحسار المد الأغريقى ؛ والتودد الى الكهنة ، والى المعابد لكسب رضاهم ، والاغداق عليهم بالامتيازات ؛ وعلى المعابد بالأراضى ؛ حتى أصبحت المعابد المصرية دويلات داخل الدولة ؛ ولم تشهد المعابد المصرية أزدهارا فى تاريخها بمثل هذه الدرجة ، حتى أصبح تقليدا أن يسعى البطليموس عندما يتوجه الى شراء مبايعة الكهنة ؛ ومن النتائج التى واكبت هذا النصر ازدهار الحضارة المصرية وبعثها من جديد ، وبدات تطغى على الطابع الأغريقى ؛ بل وأخذ كثير من الأغريق الذين كانوا يعيشون فى المناطق البعيدة فى خلع الرداء الأغريقى والظهور بمظهر الفلاحين المصريين ولم يجدوا عيبا فى أن يتغنوا بالملاحم الشعبية المصرية الديموطيقية التى نسجت على نسق الألياذة لتتحدث عن بطولات ملوك مصر العظام .

وإذا كان عام ٢١٧ ق.م، هو نقطةالتحول بالنسبة للمصريين،فانه كان أيضاً نقطة تحول لشعوب الشرق الأدنى وغرب آسيا الصغرى ، فقد واجهت الدولة السليوقية هى الأخرى ثورات قومية ، وانفصلت عنها العديد من المقاطعات الشرقية التى أعلنت استقلالها،وبدأ تأثير الحضارات الشرقية يشهد نشاطا فى مواجهة حركة الأغرقة السليوقية ، وفى التخوم الشرقية زاد نفوذ العناصر الفارسية على حساب العناصر الأغريقية . وكان على أنطيوخوس الثالث أن ينتظر سنين أخرى ليعود لمصر بجيش أقوى ؛ إذ أن فقدان التخوم الشرقية والشمالية قلص حيز الدولة السليوقية ، وجعل حيزها الرئيسى هو بلاد الرافدين والشام ، وبالتالى زاد اصرارهم على طرد البطالمة من جوف سوريا. غير أن انتصار روما فى النهاية على هانيبال،واستدارتها لمعاقبة أعدائها خاصة أنطيوخوس الثالث،وحليفه فيليب الخامس ، قضى على أحلامه فى إعادة احياء الامبراطورية السليوقية الكبرى التى تضم الشرق الأدنى كله بما فى ذلك مصر .

سياسة بطليموس فيلوباتور بعد معركة رفح :

كانت شخصية الملك الضعيفة ، وسيطرة رجال القصر عليه ، احدى الأسباب التى أدت الى تدهور الأحوال فى البلاد ؛ فقد انتشر الفسادوالرشوة واستفحلت البيروقراطية ؛ وزاد جشع جامعى الضرائب إزاء الفلاحين ؛ مما أدى الى تدهور الانتاج فى المحاصيل الزراعية ، خاصة أن تجنيد الفلاحين فى الجيش أدى الى وجود نقص فى الأيدى العاملة بالزراعة ، وهروب الكثير من فلاحة الأرض تجنبا لظلم جباة الضرائب ؛ كما أن تكاليف الحروب الخارجية، وقمع الثورات الداخلية أفلس الخزانة العامة . وفى وسط هذه الظروف الصعبة كان على الملك بطليموس فيلوباتور أن يواجه تحالفا خارجيا معاديا لمصر ، وطامعا فى الاستيلاء على ممتلكاتها ، وهو تحالف فيليب الخامس ملك مقدونيا ، وأنطيوخوس الثالث ملك سوريا وآسيا الصغرى ؛ كما أن الرومان من خلال مساعدات البطالمة لهم بالقمح المصرى ، أثناء تدمير هانيبال لحقول القمح فى ايطاليا ، بدأوا يدركون أهمية مصر كمزرعة للغلال ، التى كانوا فى حاجة إليها ، فبدأوا بدورهم يتطلعون لزيادة نفوذهم فيها،وعلى الجانب الآخر، دفع ضعف البطالمة المتأخرين الى زيادة الاعتماد على هذه القوة الجديدة لتحميهم من طمع ملوك مقدونيا وحلفائهم السليوقيين . وبضعف الحكومة البطلمية،بدأ نفوذها يضعف فى الشام وآسيا الصغرى وبحر ايجة مؤذنا بقرب مغيب شمس الامبراطورية البطلمية .

ورغم ذلك ، فقد حاول القائمون على تسيير سياسة مصر الخارجية من رجال البلاط فى الاسكندرية ، تدعيم وتوثيق علاقة مصر مع القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط خاصة مع رودس وبرجامون ، اللتين جمعهما الخوف من نشاط الملك المقدونى وحليفه أنطيوخوس الثالث فى خندق واحد؛ فقد قضى بطليموس الرابع كما يقول بوليبوس ثلاثة أشهر فى سوريا وفينيقيا بعد معركة رفح ، لتدعيم الممتلكات المصرية فى الشام ؛ ويذكر سفر المكابيين اليهود ، أنه زار أورشليم وحاول دخول قدس الأقداس فى معبد سليمان ، غير أناليهود منعوه من ذلك ، مما جعله يكن لهم الكراهية، وهو الذى يعتبر

نفسا مؤلها فى مصر ؛ وان كانت هذه الواقعة غير ثابتة ، بل ربما كانت من خيال المكابيين اليهود ، كذلك حاول بطليموس الرابع تدعيم علاقته مع الملك المروى أركامانى فى النوبة .

عاد بطليموس الرابع الى الأسكندرية من رفح فى خريف عام ٢١٧ ق.م ودخلها دخول المنتصرين ؛ وبعد ذلك بقليل تزوج من أخته أرسينوى الثالثة على طريقة الفراعنة ، ومحاكيا ما فعله جده فيلادلفوس . واتخذ لنفسه لقبا هو فيلوباتور أى المحب لأبيه ، لأنه كان يعلم أن أباه كان محبوبا من عامة الأغريق والمصريين ، وظهرت صورته مع زوجته مع عبارة الربان المحبان لأبيهما " Philopatores " وأخذ يبالغ فى انتصاره على انطيوخوس الثالث كمانفهم من النقوش المصرية ، وبدأت الصيغ والألقاب الدينية المصرية الفرعونية تظهر مترجمة إلى اليونانية توكيدا لشخصيته كفرعون ؛ وفى خريف عام ٢٠٩ ق.م أنجبت له أخته ابنا ذكرا أعلن رسمياً أنه شريك مع أبيه فى الحكم بعد مرور بضع أسابيع فقط على مولده .

ومن النقوش التى ظهرت فى النوبة ، يتضح أن بطليموس الرابع استمر فى إرسال البعثات لأصطياد الأفيال الأفريقية وتدريبها لتواجه أفيال السليوقيين الهندية ؛ رغم أنه لم يتدخل فى الصراع الذى نشب بين أنطيوخوس الثالث وابن عمه آخايوس بعد معركة رفح ، وإنما آثر البقاء على الحياد . ومن مظاهر عهد فيلوباتور كثرة ظهور السفراء الرومان فى الاسكندرية ما بين أعوام ٢١٥ و ٢١٠ ق.م لضمان وصول القمح المصرى الى ايطاليا للقضاء على المجاعة الناجمة عن حروب روما مع هانبيال .

ولقد اختلف المؤرخون حول شخصية بطليموس الرابع ؛ فقد ظهرت صورته غامضة ومهزوزة ، كما أنه كان نادر الظهور فى المناسبات العامة مع زوجته التى يقال انها بقيت حبيسة فى القصر حتى موتها فى حريق غامض بعد موته بقليل . ويعتبر البعض ان الصورة التى رسمها بوليبيوس عن ذلك البطليموس وتقاعسه ، صورة ظالمة ، يكذبها عشرات النقوش التى أقامتها المدن الأغريقية خارج مصر تكريما له ، كما يؤكدها بصماته الواضحة على

معبد إدفو ؛ ويؤكدها أن أنطيوخوس الثالث وحليفه فيليب الخامس عزفا عن مهاجمة مصر فى حياته لعلمهما بقوة مصر تحت إدارته ، أو على الأقل تحت إدارة وزيره سوسيبيوس ؛ غير أن المصادر الأدبية تذكر أنه فى أيامه الأخيرة أغرق نفسه فى المجون والبوهيمية ، وعبادة ديونيسوس الماجنة ؛ وغير ذلك من السلوك الهروبى ، مثل محاولة تأليف المسرحيات الماجنة ، تاركا شئون الحكم للوزير سوسيبيوس الذى كان الحاكم الفعلى للبلاد . وظل على هذا الحال حتى قضى نحبه بالأسكندرية فى خريف عام ٢٠٣ ق.م ؛ وأخذت سلطات القصر اعلان موته بضعة شهور . وهكذا انتهى هذا البطليموس المفترى عليه ، والذى لم يحظ بما حظى به البطالمة الثلاثة السابقون رغم تفانيه فى خدمة العرش البطلمى .

٥ — بطليموس الخامس المتجلى (ابيفانيس) :

ترك فيلوباتور من بعده طفلا لم يتجاوز السابعة من عمره ، وكان أبوه قد أشركه معه فى الحكم منذ عام ٢٠٩ ق.م ؛ وكان من المفروض أن تعين أمه أرسينوى الثالثة وصية على أبنها الطفل طبقاً للتقاليد البطلمية المتبعة ، غير أن الوزير سوسيبيوس ومساعده أجاثوكليس أخفيا نبأ موت الملك عن زوجته خوفا من أن تقوم الملكة الأم بالوصاية على ابنها ، ثم تعلن طردهما لعدم ثقتها فيهما ، ثم دبرا مؤامرة قتلافيها الملكة فى حريق غامض ، ثم أعلنا موت بطليموس الرابع وموت زوجته أرسينوى الثالثة معا ، وتعيين نفسيهما وصيين على الملك الطفل بمقتضى وصية مزيفة نسباها للملك الراحل ، ولما شعر المتآمران بالسخط العام حاولا كسب رضاء الجنود بتوزيع المكافآت عليهم وعينا الموالين لهما فى المناصب الهامة .

لكن ذلك لم يمنع من اندلاع حركات التمرد فى الجيش البطلمى ؛ وبدأت فى بيلوزيوم ، ثم امتدت إلى الاسكندرية ؛ وخرجت جماهير الناس لتلقى القبض على أجاثوكليس ، وتفتك به وبأسرته ؛ أما سوسيبيوس فقد كان قد توفى قبل هذه الثورة بأيام قليلة . وبالطبع فقد تزايد خطر ثورات المصريين فى الجنوب ، خاصة فى طيبة التى كادت أن تنفصل عن مصر ،

حتى ملوك أثيوبيا حماة الحضارة المصرية القديمة وديانة آمون بدأوا يفكرون جديا فى التدخل لاسقاط حكم البطالمة ، وإعادة مصر الى عهدها الفرعونى ، فى هذه الأثناء أيضاً تم الاتفاق بين أنطيوخوس الثالث وفيليب الخامس على اقتسام ممتلكات مصر فى الخارج ، وتقدم الملك السليوقى لتنفيذ ذلك فيما يعرف بالحرب السورية الخامسة .

الحرب السورية الخامسة وفقدان مصر لممتلكاتها فى الشام :

تقدم انطيوخوس الثالث فى ظل ظروف مواتية . ؛ واستولى أولا على جوف سوريا وفينيقيا ، ثم تقدم للاستيلاء على غزة فى عام ٢٠١ ق.م ؛ وحاول الوصى الجديد على الملك وكان اسمه ارسطومينيس أن يتصدى لهذا الغزو ؛ فبعث بجيش يقوده قائد أيتولى اسمه سكوباس ، نجح فى إستعادة غزة ، غير أن انطيوخوس نجح فى الحاق هزيمة ساحقة بالجيش البطلمى عند بانيون Paneion بالقرب من نهر الأردن وذلك فى عام ٢٠٠ ق.م ، وفقدت مصر بذلك الى الأبد فينيقيا وجوف سوريا ، وكانت مصر من قبل قد فقدت ما تبقى لها من ممتلكات فى آسيا الصغرى ، كما استولى فيليب الخامس على جزر الكوكلاديس وما تبقى للبطالمة من ممتلكات عند مضيق البسفور وفى اقليم تراقيا . على أى حال يعتبر عام ٢٠٠ ق.م هو نهاية أمبراطورية البطالمة فى الشرق الأدنى والتى لم يتبق لها سوى برقة وقبرص .

تزايد النفوذ الرومانى فى مصر :

ولما بلغ الملك بطليموس الخامس سن الرشد عام ١٩٧ ق.م حاول تحسين علاقاته مع السلوقيين ، إذ تزوج من أميرة سورية هى كليوباترا الأولى ، وذلك فى عام ١٩٣ ق.م ، أملا أن يكون مهر العروس عودة جنوب الشام إلى مصر . وفى نفس الوقت حاول زيادة الصداقة مع روما على نفس النحو الذى فعلته كل من أثينا ومملكة برجامون ورودس ؛ بهدف الحصول على حماية روما من اطماع فيليب الخامس وانطيوخوس الثالث ، وعلى أمل ان يرغم الرومان هذا

الملك السورى ليعيد جنوب الشام إلى مصر، وذلك واضح من وصول سفارة رومانية عام ٢٠٠ ق . م لتبشر بطليموس بهزيمة قرطاجة وهانيبال ، وتشكره على وفائه لها فى وقت حرج ؛ كاد فيه هانيبال أن يقضى على اقتصادها لولا القمح المصرى الذى بعث به أبوه فى الوقت المناسب ؛ كما أن السفارة الرومانية رجته أن يبقى على وفائه لروما فى حالة دخولها الحرب ضد فيليب ملك مقدونيا وأنطيوخوس الثالث ، حليفى هانيبال(١) ولم يمض وقت طويل حتى رد بطليموس الخامس بأرسال سفارة الى مجلس الشيوخ الرومانى ليخطرهم أنه قد تلقى دعوة من الأثينيين والأغريق للتدخل الى جانبهم عسكريا ضد فيليب الخامس المقدونى ؛ وأنه آثر أن يستأذن السناتو الرومانى قبل قبول الدعوة بالرغم من وجود تحالف مشترك بينه وبين الأثينيين ، ثم يخير السناتو الرومانى اماأن يتدخل الرومان لحماية الأثينيين ، وينفض هو يده من الأمر ؛ أو يعلن السناتو أنه ليس على استعداد للتدخل وفى هذه الحالة يتدخل هو بأرسال قوات لحماية أثينا من عدوان فيليب المقدونى على الأثينيين ؛ لكن الرومان تركوا الأمر معلقاً حتى لا يعطوا بطليموس فرصة للتدخل خارج مصر ، فأخبروه أنهم ينوون مساعدة حلفائهم فى الوقت المناسب ، وأنهم إذا احتاجوا لمعونة مصر فى تلك الحرب ، فلن يترددوا فى طلبها لثقتهم الكبيرة فى الاعتماد على موارد مصر (من القمح) لسد حاجات الجمهورية كما فعلت من قبل(٢) . وبالتالى فان ذلك يكشف أن روما كانت تريد تجميد الدولة البطلمية عند الحد الذى هى عليه (Status quo) ولا تسمح لها بمد نفوذها خارج هذا الحد ؛ حتى لاتصبح قوة كبيرة فى شرق البحر المتوسط . وهذا يثير الشك حول مهمة الوفد الرومانى الذى جاء الى مصر عام ٢٠٠ ق.م وعما إذا كان قد فرض على الملك قيودا سياسية مقابل حماية ممتلكات مصر . ومن ناحية أخرى كان حضور السفارة الرومانية إلى مصر بقيادة لبيدوس بمثابة توجيه الانذار الى كل من فيليب

---

(1) Titus Livius, XXXI, 2, 3—4.
(2) Titus Livius, XXX, 7, 1—5.

الخامس وانطيوخوس الثالث بعدم التدخل فى شئون مصر ؛ لكن تحت تأثير الحزب المعادى للرومان داخل البلاط سعى بطليموس الخامس الى شراء السلام مع الملك انطيوخوس الثالث ، غير أن الملك السورى كان يطمع فى الاستيلاء على مصر نفسها ، وكان يأمل أن تنجب ابنته من بطلموس الخامس ابنا يرث عرش مصر ؛ وبالفعل عندما انتشرت شائعة بأن الملك بطليموس قد مات اتجه انطيوخوس إليها ؛ لكنه انسحب عندما علم بكذب الشائعة .
وازاء التهديد الرومانى له بعدم التدخل فى شئون الأغريق وما تلى ذلك من تحديه للرومان سعى انطيوخوس إلى قبول السلام المصرى ليؤمن مؤخرته إذا ما دخل فى حرب مع روما خاصة وأنه كان قد إنتزع جنوب الشام من مصر بعد معركة بانيون عام ٢٠٠ ق.م . والتى على أثرها تم الاتفاق الذى دعم بزواج بطليموس الخامس من كليوباترا الأولى ابنة أنطيوخوس الثالث ، وكان مهر العروس أن تجنى مصر دخل اقليم جوف سوريا وفلسطين على أن يظل هذا الاقليم تابعاً سياسيا لأنطيوخوس ، وازاء ذلك فقد تقاعس بطليموس الخامس عن مساعدة روما فى حربها مع انطيوخوس الثالث ، التى انتهت بهزيمته ، ولأن مصر لم تساعد روما ، وآثرت الحياد فى هذه الحرب ؛ فقد ردت روما رداً عمليا وذلك فى صلح أباميا عام ١٨٨ ق.م والذى جردت فيه أنطيوخوس من كل ممتلكاته فى آسيا الصغرى ، وضمتها الى مملكة برجامون ، لأن ملكها يومينيس اشترك بأسطول ضد أنطيوخوس ، الى جانب روما ؛ كما كافأت روما رودس ولم تعط مصر شيئاً ، بل لم تعد إليها حتى ممتلكاتها التى كان الملك السورى قد اغتصبها منها ، بالرغم من أن بطليموس الخامس كان قد نقض معاهدة السلام مع صهره أنطيوخوس الثالث عندما ادرك أن الدائرة قد دارت عليه ، وأرسل يعرض على روما المساعدة المالية لصد غزو أنطيوخوس على بلاد اليونان عام ١٩٢ ق.م . ولكن روما رفضت ذلك تعبيرا عن غضبها من تصرف بطليموس السابق ، ومرة ثانية عرض بطليموس عام ١٩١ ق.م عن طريق وفد بعث به الى السناتو بأن تضع مصر مصادرها تحت تصرف روما لمحاربة صهره أنطيوخوس الثالث ؛ ولكن روما رفضت للمرة الثانية تعبيرا عن

استنكارها لموقف بطليموس المائع ؛ وفى النهاية لم تعد إليه أى جزء من ممتلكاته السليبية فى الشام بعد صلح أباميا ؛ ولم يفد ندم بطليموس الخامس وتوبته وانقلابه على صهره السورى لأنه لم يكن من مصلحة الرومان إعادة جنوب الشام الى مصر لأنها هى الأخرى كانت تريد أن تضع اقدامها فى الشرق الأدنى .

وهكذا فقدت مصر ممتلكاتها الخارجية باستثناء قبرص وبرقة ؛ وازاء ذلك اضطربت تجارتها الخارجية فى البحر الأحمر نتيجة لفقدان جنوب الشام ، ووقوع طريق القوافل الأفقى بين الخليج العربى والبحر المتوسط فى أيدى السليوقيين ؛ وصاحب ذلك تزايد الثورات الوطنية من جانب المصريين ، وتدهور الزراعة وضعف السلطة المركزية؛ وفشلها فى السيطرة على البلاد ، وبداية شراء ود الكهنة المصريين وذممهم ؛ ومن قبل عندما توج بطليموس الخامس نفسه ملكا عام ١٩٧ ق.م ، اختار منف العاصمة المصرية القديمة وليس الاسكندرية مكانا لحفل التتويج ، كما عين بعض المصريين فى المناصب العليا سواء فى الجيش أو فى الإدارة .

حجر رشيد :

ومن أهم الوثائق التى تعبر عن امتنان الكهنة المصريين لسياسة التحبب والتودد إليهم من جانب بطليموس الخامس ، صدور قرار المجمع الكهنوتى المصرى الذى عقد فى منف عام ١٩٦ ق.م لشكر الملك وتأييده والتعبير عن مجهوداته فى القضاء على الثوار ، وقد كتب القرار باللغة المصرية بخطيها الهيروغليفى والديموطيقى ، يليها اللغة اليونانية فى الاسفل ، وقد عثر أحد جنود الحملة الفرنسية على مصر على هذا الحجر المنقوش قرب رشيد ، ولهذا عرف باسم حجر رشيد ؛ وهو الحجر الذى تمكن العالم الفرنسى شامبليون عن طريقه من حل رموز الكتابة الهيروغليفية ، وكان بداية فعلية لعلم الدراسات المصرية Egyptology ؛ وبعد هزيمة الحملة الفرنسية على

يد المصريين اشترط الانجليز تسليم هذا الحجر إليهم ، ولا يزال موجودا حتى الآن فى المتحف البريطانى بلندن .

على أى حال ، نلحظ من تحليل قرار كهنة منف عام ١٩٦ ، مدى ارتفاع روحهم المعنوية ، وازدياد الثقة فى أنفسهم ، عن قرار كانوب الذى كان قد صدر فى عهد بطليموس الثالث يورجيتيس قبل ذلك بأربعين سنة ، وهذا يبين أن مقياس القومية المصرية كان فى أرتفاع مستمر .

ثورة طيبة القومية ضد الحكم البطلمى :

كانت واست أو طيبة كما سماها الأغريق ، قلعة المقاومة المصرية ، لأنها كانت المركز الدينى لآمون ؛ وعاصمة الفراعنة الأولين ، والتى منها خرج الأبطال المحررون ، فمنها خرجت حركة المقاومة ضد ملوك الهكسوس بل أنها رفعت لواء المقاومة ضد الأشوريين حتى دخلتها جيوش أشور بانيبال عام ٦٦٣ ق.م وأنزلت بها الخراب بدرجة هزت أرجاء العالم القديم ، ولكنها رغم ذلك عادت الى الحياة من جديد ؛ لأنها كانت مقر معابد آمون التى إليها أبدى الفراعنة المقدونيون احترامهم ، مثل الاسكندر الأكبر ، وفيليب أرهيدايوس ، والاسكندر بن الاسكندر ؛ وبطليموس الأول ، والثانى ، والثالث ، عندما أقاموا نصباً هناك على غرار الفراعنة القدامى تعبيرا عن تقديرهم لعقيدة الشعب الذى يحكمونه ؛ كما أنه منذ دخول الاسكندر كانت حركة تعمير طيبة وإعادة ترميم معابدها قائمة ومستمرة .

تأزم العلاقات بين مصر ودولة مروى بعد فقدان جنوب الشام :

كانت علاقة البطالمة الثلاثة الأول وثيقة مع دولة مروى فى النوبة ، حيث كانوا يحصلون منها على الأفيال المستأنسة ؛ كما ساهم بطليموس الرابع فى بناء معبدى فيلة ودكة حيث كان مهتما بمنطقة البحر الأحمر وباب المندب ؛ لكن ابتداء من عهد بطليموس الخامس ابيفانيس فترت العلاقات المصرية المروية ، بل انقلبت الى عداء حيث قام الملك البطلمى بتشويه اسم الملك المروى أركامانى من على المعابد الواقعة على الحدود .

ومما زاد على ذلك، أن هزيمة بطليموس الخامس فى الحرب السورية الخامسة أدت إلى فقدان البطالمة لطرق القوافل البرية عبر الشام، فلجأوا إلى الاعتماد على طريق التجارة فى البحر الأحمر ، وحولوا مراكز صيد الأفيال القديمة الى قلاع عسكرية دائمة ؛ ورداً على ذلك تحولت سياسة ملوك النوبة من الصداقة مع البطالمة الى تحريض العناصر المصرية فى الجنوب للثورة عليهم ، بل وتدخلوا عسكريا لمناصرة الثوار فى طيبة ؛ وقدموا لهم كل عون ممكن ؛ خاصة أن الثورة اندلعت من معاقل آمون وبزعامة كهنته ، والذين كان ملوك النوبة ينظرون إليهم نظرة الوقار ، كنظرة القادة الكاثوليك الى بابا روما فى العصر الحاضر ؛ كما أن نجاح هذه الثورة كان يحقق أهداف ملوك النوبة السياسية فى التوسع شمالا ، وطرد البطالمة من مصر ، أو على الأقل تحويل انتباههم عن التوسع جنوبا ؛ وقد أدى سوء الأحوال فى آخر عهد بطليموس الرابع فيلوباتور الى اندلاع الثورة فى طيبة ، التى كادت أن تحقق الاستقلال عن سلطة الملك فى الاسكندرية ، واستمرت هذه الثورة من ٢٠٦ حتى ١٨٦ ق.م ، كما أن زعيميها كانا حورماخيس Hormachis وعنخماخيس Anchmachis وهما اسمان مصريان ، بل ليس من المستبعد أن يكون هذان الثائران نوبيين متمصرين .

وعندما تولى بطليموس الخامس ، وأبدى توددا كبيرا للمصريين ؛ هدأت الثورة عام ١٩٧ ق.م خاصة أن الفيضان فى ذلك العام كان عاليا فأضعف مركز الثوار مما دفعهم الى الاستسلام ، عندئذ أرسل بطليموس قوة قوامها ٥٠٠ مقاتل ، جند فيها بعض النوبيين الموالين له بقيادة هيبالوس . وقد أساء قائد الحملة التصرف فى الثوار المستسلمين ، حيث أعدمهم بطريقة وحشية ، فعادت الثورة من جديد ؛ وبلغ من عنفها فى الجنوب أن أعلنت طيبة الاستقلال عن سلطة الملك فى الاسكندرية عام ١٨٧ ق.م ، ولم يستطع هيبالوس القائد العسكرى فى أقليم طيبة من القضاء عليها الا بشق الأنفس ؛ وذلك فى عام ١٨٥ ق.م بعد أن استولى على المنطقة الواقعة جنوب الشلال وجعلها حزاماً حاجزاً يفصل بين بلاد كوش ومصر ؛ لمنع تحريض ملوك النوبة من الثورة مستقبلا ؛ وسار على هذه السياسة بطليموس السادس.

وما أن قضى على الثورة فى الجنوب حتى هبت ثورة فى الشمال أى فى الدلتا ضد الحكم البطلمى قضى عليها فى عام ١٨٤ /١٨٣ ق.م .

ولم يكن القضاء على ثورات المصريين بالأمر السهل ، إذ اضطر القصر الملكى الى الغاء الضرائب المتأخرة ، وتخفيض الضرائب القائمة ، بل وصدر عفو شامل عن الجنود المصريين الذين انضموا الى الثورة ، ومنح كهنة آمون امتيازات جديدة ، وأعطى بعض زعماء المصريين مناصب عليا فى الجيش والادارة وخلاصة القول أن القومية المصرية بدأت تكتسح وتتحدى لأول مرة الوجود الهلينى والذى بدأ يذوب فى بحر الحضارة المصرية .

ومنعا من إندلاع الثورة فى طيبة مستقبلا ، وتوكيدا لسلطة الملك البطلمى على الجنوب ، عين على اقليم طيبة حاكم عسكرى بدرجة ابيستراتيجوس Epistrategos ، كان له مطلق التصرف اداريا وعسكريا بمثابة نائب الملك ؛ حتى يتفرغ لقمع الحركات المعادية فى الجنوب ؛ وهذا أعطاه وضعا مميزا عن غيره من حكام الاقاليم الذين كانوا يحكمون بدرجة ستراتيجوس فقط . وربما كان هذا المنصب احياء للمنصب الفرعونى نائب الملك فى النوبة الذى ظهر بعد قيام الدولة الحديثة بعد ثورة النوبة على الفراعنة خلال عصر الدولة الوسطى وتعاونهم مع الهكسوس .

وهكذا بدأت دولة البطالمة تحصر بين شقى الرحى ؛ فمن الشمال بدأ تدخل الرومان يزداد تدريجيا تحت شعار حماية مصر من أطماع فيليب وأنطيوخوس ، وفى الجنوب بدأ تيار القومية المصرية فى الازدياد ، وبدأ يطغى على تيار الحضارة الأغريقية ، ويصبح قوة مؤثرة يتودد الملوك إليها بالتنازل عن الملامح الأغريقية الخالصة ؛ والأخذ بمظاهر الحضارة المصرية القديمة ؛ وتدل شواهد الآثار عن مدى تمصر الأغريق فى أنحاء البلاد ، وظهور طبقة من أبناء الزواج المختلط ، بالاضافة الى تعبد الأغريق وملوكهم للآلهة المصرية بعد أن هجروا آلهتهم الأغريقية .

وفى ظل هذه الظروف مات بطليموس الخامس ابيفانيس عام ١٨٠ق.م

فجأة ، وقد قيل انه مات مسموما ، تاركا ثلاثة أبناء من زوجته كليوباترا الأولى السورية أكبرهم كان فى السابعة من عمره .

٦ — بطليموس السادس فيلوميتور ١٨٠—١٤٥ ق . م :

هكذا تولى أكبر أبناء بطليموس الخامس تحت وصاية أمه ؛ وعرف باسم فيلوميتور أى المحب لأمه كليوباترا الأولى أبنة أنطيوخوس الثالث . ولم تكن كليوباترا الأم من دماء مقدونية خالصة ؛ بل نصف شرقية ، فأمها كانت ابنة الملك مثريداتيس ملك مملكة بنطوس الواقعة جنوب البحر الأسود ، اما جدتها فكانت الملكة أباما الفارسية ؛ وبذلك أدخل على العنصر الملكى البطلمى دماء شرقية فارسية . لكن الملكة الأم ماتت عام ١٧٦ ق.م ، فأنفرد بطليموس السادس بالحكم ؛ وتولى أمر السياسة اثنان من العتقاء هما يولايوس Eulacus وليناايوس Linaeus ؛ ثم تزوج بطليموس من اخته كليوباترا الثانية عام ١٧٥ ق.م ؛ و توج نفسه ملكا عام ١٧٢ ق.م فى منف ، وبتوليه العرش تغيرت سياسة مصر الخارجية ؛ فقد كانت الملكة الأم تدعو لحياد مصر ازاء ما يجرى فى العالم الهللينستى من صراع مع الرومان ، ومهادنة بنى قومها السليوقيين ، لكن بعد موتها اتجه الملك الى سياسة محاباة الرومان ؛ ومعاداة اخواله السليوقيين من أجل استعادة جوف سوريا وفلسطين . وأخذ الوزيران يولايوس وليناايوس يدبران المؤمرات من أجل استعادة هذه المنطقة ، مستغلين انشغال انطوخوس الرابع فى القضاء على الفتن فى مملكة يهوذا ، بسبب اجباره اليهود على التأغرق ومسايرة التيار العام الحضارة ؛ مما أدى الى ظهور دولة المكابيين اليهود فى فلسطين كوريث لدولة اليهود التى أسقطها البابليون والأشوريون ، والتى يسميها اليهود المعاصرون اسرائيل الثانية .

الحرب السورية السادسة :

ولما أحس انطيوخوس الرابع بذلك التغير فى سياسة مصر ، سارع الى المبادرة بغزوها عام ١٧٠ ق.م ، مستغلا سوء الأحوال الداخلية فيها ، وتقدم إليها

دون مقاومة واستولى على قلعة بيلوزيوم (تل الفرما) ؛ ثم تقدم صوب منف حيث توج بها فرعونا على طريقة الاسكندر الأكبر ، وهناك عقد الصلح مع بطليموس السادس فيلوميتور ، ووضعه تحت حمايته . ولما علم شعب الاسكندرية بذلك ، ثار على الوزيرين يولايوس ولينايوس لفشلهما ؛ وهتفوا بالشقيق الأصغر لفيلوميتور ملكا على مصر (وهو الذى سوف يصبح بطليموس الثامن فيما بعد لأن السابع لم يكن قد ولد بعد) ؛ ثم أخذت الاسكندرية فى الاستعداد لملاقاة العدو السورى ، الذى تقدم إليها بحجة اعادة فيلوميتور إلى عرشه ؛ لكنه قبل أن يصل إلى الاسكندرية اضطر الى الانسحاب لقيام ثورة ياسون المكابى كبير الكهنة اليهود فى فلسطين ؛ وبذلك أصبح لمصر ملكان شقيقان فى وقت واحد ؛ الأول يحكم من منف وهو بطليموس السادس فيلوميتور ؛ والثانى يحكم من الأسكندرية وهو بطليموس الثامن الذى إتخذ لنفسه لقبا هو يورجيتيس الثانى .

وتحت ضغط الرأى العام من شعب الاسكندرية ازاء الخطر السورى ، إتفق الأخوان على التصالح على أن يحكما معا ، بالاشتراك مع شقيقتهما كليوباترا الثانية زوجة فيلوميتور الشقيق الأكبر ، حتى لايعطو للملك السورى حجة لغزو مصر .

حادثة عصا السفير الرومانى لايناس :

وما أن فرغ أنطيوخوس الرابع من قمع ثورة اليهود ، حتى عاد الى غزو مصر ، بحجة مناصرة فيلوميتور ؛ وذلك فى ربيع عام ١٦٨ ق.م ، بعد أن استولى على قبرص وهو فى طريقه إليها ؛ ولما أخبره الأخوان أنهما قد تصافيا ، طالب بعقد معاهدة يتنازلان فيها عن قبرص ، وبيلوزيوم ، والمنطقة المجاورة لها القريبة من الفرع البيلوزى للنيل ، حتى يؤمن جنوب سوريا من أى محاولة للاستيلاء عليها من جانب البطالمة ، وقابل رجال البلاط والملكان ذلك المطلب بالرفض الكامل ؛ عندئذ تقدم انطيوخوس الرابع صوب منف ، فدخلها للمرة الثانية ؛ ومنها تقدم لأحتلال الاسكندرية

وسط مقاومة شديدة ؛ وكانت روما ترقب الموقف باهتمام شديد ، ولم تكن تسمح أبدا للملك السورى باحتلال مصر ، فأرسلت أحد سفرائها الصارمين ، يحمل قرارا من السناتو ، يطالب الملك السورى أن ينسحب على الفور من مصر ، إذا أراد أن يكون صديقا للرومان ؛ وإذا رفض ذلك فانه سيصبح فى نظر السناتو عدوا يجب محاربته ، وعند ضواحى الاسكندرية تقابل الملك السورى مع السفير الرومانى ، وسلمه قرار السناتور ، طالبا منه أن يقبل أو يرفض ؛ ولما حاول انطيوخوس الرابع أن يسوف الأمر ، رسم السفير الرومانى — وكان اسمه بوبيليوس لايناس — Popilius Laenas بعصاه الرسمية دائرة حول الملك ، طالبا منه أن يقدم له ردا يحمله للسناتو قبل أن يخطو خطوة خارج تلك الدائرة ؛ عندئذ مد الملك السورى يده مصافحا السفير ؛ مفضلا أن يكون صديقا للرومان ، وأعلن انسحابه على الفور من مصر وقبرص ؛ وهلل الرومان للدائرة التى رسمها لايناس ، والتى أنقذت مصر من الاحتلال ؛ وكانت هذه الحادثة بمثابة بداية لفرض الحماية على مصر(١) من جانب الرومان .

تدخل الرومان فى النزاع بين بطليموس السادس وأخيه بطليموس الثامن :

أثار التدخل الرومانى فى شئون مصر شعب الاسكندرية ، فقامت ثورة بزعامة أحد الأغريق المتمصرين من رجال القصر يدعى بيتوسيرابيس ؛ مطالباً بطرد فيلومیتور ، وتعيين شقيقه الأصغر يورجيتيس الثانى ملكا على مصر ؛ وحاول الأخوان التصالح حتى لا يعطيا الفرصة للثورة الوطنية ، بل تعاونا معاً فى القضاء على شطر من هذه الثورة فى الاسكندرية ؛ غير أنها امتدت الى الصعيد ؛ عندئذ سافر بطليموس فيلومیتور على رأس قواته لقمعها ، ولما عاد عام ١٦٤ ق.م إلى الاسكندرية وجد أن أخاه قد دبر انقلابا ضده ، استولى به على العرش ؛ فهرب الى روما ؛ حيث راح يتذلل مريقا ماء وجهه للرومان ، لكى يعيدوه الى العرش ، فأرسل السناتو وفدا لفض

---

(1) Titus Livius, XLV, 11, 10.

النزاع بين الأخوين ، واقترح الوفد أن يتنازل فيلوميتور عن حكم إمارة برقة لأخيه يورجيتيس الثانى ، ويكتفى بحكم مصر وقبرص ، غير أن يورجيتيس الثانى لم يكتف ببرقة ، بل ظل يطالب بقبرص أيضاً ؛ ولكى يقنع الرومان بذلك ، راح يتذلل لهم ويتملقهم ، لدرجة أنه كتب وصية أن يؤول حكم برقة الى الشعب الرومانى إذا مات دون وريث ، وقد عثر فى برقة على نص لهذه الوصية التى حررت عام ١٥٥ ق.م .

أما بطليموس السادس ، فقد انفرد بحكم مصر وقبرص ؛ ودعم علاقته بالرومان فقد كان يشعر بأنه مدين لهم بمساعدته فى الجلوس على العرش ؛ وهكذا إستفادت روما من خلق أخوين متعاديين كل منهما يتنافس فى إظهار حبه وتودده لها . وهكذا مرت علاقة الرومان بالبطالمة من مرحلة الصداقة ، الى مرحلة الحماية ، الى مرحلة اختيار البطليموس ، الذى يجلس على عرش مصر ؛ كما عمد الرومان الى ترك الخلاف بين الاخوين على العرش مستمراً حتى يحقق لهم ذلك فرصة التدخل عملا بمقولتهم « فرق تسد » .

المحاولة الأخيرة لبطليموس السادس لاستعادة جنوب الشام :

حاول فيلوميتور أن يستغل المصاعب التى كانت تواجهها الدولة السليوقية ؛ فقد تحرك انطيوخوس الرابع شرقا من أجل استرداد الأقاليم الشرقية ليواجه الرومان وهو فى مركز أقوى ؛ ولكنه لقى حتفه فى أصفهان عام ١٦٣ ق.م ؛ وتولى من بعده إبنه الطفل انطيوخوس الخامس الملقب باسم يوباتور Eupator (أى الأب الطيب) ، وتولى لوسياس الوصى شئون الحكم نيابة عنه ، ولم يحكم هذا الملك الطفل سوى عامين ؛ إذ قام ديمتريوس بن سليوقوس الرابع والذى كان يقيم فى روما كرهينة ، بانتزاع العرش وقتل الملك الطفل . ولكن سرعان ما ظهر منافس للملك السورى الجديد ، وهو الأسكندر بالاس Alexander Pallas ، الذى أيده بطليموس السادس وملك برجامون ، وكذلك السناتو الرومانى خوفا من تزايد نفوذ ديمتريوس ، الذى كان يطمع فى احياء الامبراطورية السليوقية

كما كانت قديما ، وبالفعل نجح بطليموس السادس وحلفاؤه فى هزيمة ديمتريوس والقضاء عليه ؛ وتتويج منافسه بالاس ملكا فى أنطاكية عام ١٤٥ ق.م ؛ وكان بطليموس السادس يتوقع الحصول على مكافأة من الاسكندر بالاس بعد جلوسه على العرش ، وهى اعادة جوف سوريا الى مصر ؛ ولكن أثناء القتال ، تلقى بطليموس السادس جرحا أدى الى وفاته فى صيف عام ١٤٥ ق.م ؛ وهكذا مات قبل أن يحصل على مكافأته من الملك السورى الجديد .

أما فى مجال السياسة الداخلية ، فقد تابع سياسة التودد الى المصريين ومنح الكهنة امتيازات خاصة واقطاعيات ، حتى يشترى سكوت المصريين ؛ كما أنه منح اليهود الفارين من حروب أنطيوخوس الرابع معهم ، منطقة ليقيموا عليها معبدا ؛ وهى منطقة ليونتوبوليس وذلك لكى يكسب اليهود الى جانبه ليكونوا عونا له فى صراعه مع السليوقيين . وعموما كان بطليموس السادس آخر البطالمة الذين سعوا لأستعادة مصر ممتلكاتها المفقودة فى الشام .

بطليموس السابع وعمه بطليموس الثامن :

ترك بطليموس السادس ابناً تحت وصاية أمة كليوباترا الثانية ؛ تولى العرش بعد موت أبيه ؛ وعرف باسم نيوس فيلوباتور Neos Philopator وكان أبوه قد أشركه معه فى الحكم قبل وفاته كنوع من أعلان التوريث كعادة البطالمة . وقد أيد حق هذا الطفل فى أن يحكم تحت وصاية أمه اليهود المقيمون فى مدينة الأسكندرية ، فقد كان بطليموس السادس وزوجته كليوباترا الثانية على علاقة طيبة باليهود كما سبق أن ذكرنا ؛ وقد غضب الشعب السكندرى لتدخل اليهود فى الصراعات الملكية ، واعتماد الملكة الأم على تأييدهم ، ورداً على ذلك أعلن السكندريون أنهم يؤيدون بطليموس الشقيق الأصغر للملك الراحل ومنافسه على العرش سابقاً ؛ والذى كان يحكم برقة وعلى علاقة قوية بالرومان ؛ وكادت أن تحدث حرباً أهلية حول العرش لولا تدخل الرومان ؛ الذين أقروا عودة صديقهم يورجيتيس الثانى من

برقة وتوليه العرش ؛ بشرط أن يتزوج أرملة أخيه كليوباترا الثانية ، وبسرعة نفذ بطليموس ملك برقة هذا المخطط ، وتولى العرش وتزوج من أرملة أخيه ، ولم تمض شهور حتى تخلص من ابن أخيه الطفل بطليموس السابع ليعلن نفسه ملكا بأسم بطليموس الثامن يورجيتيس الثانى ؛ وذلك فى عام ١٤٤ ق.م ؛ ولكن هذا الملك المستهتر لم يكن على وفاق مع أرملة أخيه ، حتى أنه تزوج عليها من ابنتها الصغيرة كليوباترا الثالثة عام ١٤٢ ق.م ؛ ومن ثم ، قادت الملكة ضده ثورة شاركها فيها الساخطون على ذلك السلوك الشائن ، امتدت الثورة من الاسكندرية الى سائر انحاء مصر ، وذلك فى عام ١٣٢ ق.م ، ولم يستطع الملك قمعها فهرب ، ولم يتمكن من العودة الى الاسكندرية إلا فى عام ١٢٧ ق.م ؛ وذلك بتأييد الرومان ؛ لأن التجار الإيطاليين عبروا عن تلك المناسبة السعيدة بأقامة نقش تذكارى فى جزيرة ديلوس ؛ ولقد كانت هذه الثورة عنيفة إذ إجتاحت مصر كلها ، وتسببت فى شل الإدارة والنظام ؛ ولهذا عرفت باسم Amixia اى « الهوجة » ، غير انها سرعان ما عادت من جديد فى طيبة ؛ لكن بفضل دعم الرومان ، وبعد عامين من القتال ، نجح بطليموس الثامن فى استعادة سيطرته على البلاد ، وفرت أرملة أخيه وزوجته الأولى كليوباترا الثانية لتعيش فى انطاكية عاصمة الدولة السليوقية ؛ املا فى ان يقوم احد الملوك السلوقيين باعادتها الى عرش مصر وإسقاط زوجها السابق وزوج ابنتها فى نفس الوقت من العرش .

وثيقة العفو العام :

بعد ذلك بدأ يورجيتيس الثانى باعادة تنظيم البلاد ؛ فعين أبنه من احدى محظياته واسمه بطليموس أبيون Apion حاكما على برقة ؛ ثم أعلن عفوا شاملا الناس عرف باسم وثيقة العفو العام Philanthropa ، التى حاول فيها إعادة الأمن والنظام ؛ وفرض عقوبات صارمة على المخالفين القانون والمنحرفين واللصوص ؛ وأعلن عفوه التام عن جميع الجرائم التى ارتكبت من قبل ، وإستثنى من ذلك العفو لصوص المعابد ، والمتهمين بقتل النفس ؛ ولكى يهدأ الفلاحين ، ويعوضهم عن الكوارث التى لحقت بهم ، أعلن تنازل الدولة عن معظم الضرائب والمتأخرات ؛ وحظر على عاملى الضرائب استخدام

العنف ضد الفلاحين ؛ أو استغلالهم بغير حق . كما أعلن تشجيعه لاستزراع الأراضى البور ؛ ومنح امتيازات لذلك ، كما شملت هذه الوثيقة محاولات لارضاء الثوار المصريين مثل اعفائهم من بعض الخدمات الاجبارية ، وثبت ملكيتهم الحيازات العسكرية ، التى منحت الجنود المسرحين منهم على غرار ما كان يمنح قديماً المستوطنين العسكريين من المرتزقة الأغريق فى مطلع العصر البطلمى كما أكمل شطراً كبيراً من معبد إدفو .

ولم يكن أمام بطليموس الثامن ومستشاريه إلا أن يفعلوا ذلك ، لأن الاحوال فى مصر كانت قد ساءت لدرجة التدهور ، كما أن الاقتصاد أصيب بالدمار الشديد ، والانتاج الزراعي هبط هبوطا حادا ، وبالتالى تأثرت تجارة مصر الخارجية التى كانت تعتمد على القمح ، فقلت الصادرات وانعدم الأمن ، وبدأ شبح الأزمة الاقتصادية . غير أن هذه الاصلاحات جاءت متأخرة ، كما أنها لم تكن جذرية ومن ثم ، لم توقف التدهور والانهيار ، الذى قابله ازدياد الاهتمام الرومانى بمصر ، وزيادة نفوذهم تدريجيا تمهيدا لأحتلالها .

وفى عام ١١٦ ق.م ، توفى بطليموس الثامن (يورجيتيس الثانى) ، وهو فى الستين من عمره ، تاركا وصية ، يمنح فيها السلطة وحق التصرف لزوجته (وابنة أخيه) كليوباترا الثالثة ، لتختار من تشاء من أبنائه الثلاثة منها .

حكم بطليموس التاسع سوتر الثانى والعاشر الإسكندر الأول :

تولى أكبر أبناء بطليموس الثامن من زوجته الثانية كليوباترا الثالثة وهو بطليموس التاسع ؛ وكان يشغل من قبل وظيفة كاهن الاسكندر ؛ وفى أثناء حياة أبيه عينه حاكما على قبرص ، وزوجه من أخته كليوباترا الرابعة ؛ وفى عام ١١٦ ق.م تولى العرش بالاشتراك مع أمه كليوباترا الثالثة ، غير أن أمه لم تكن على وفاق معه ، ولقب نفسه باسم سوتر الثانى لاثوروس غير أنه سرعان ما طلق زوجته كليوباترا الرابعة ؛ وتزوج من أخت له أخرى كانت تعرف باسم كليوباترا القمر Cleopatra Selene هى كليوباترا الخامسة ؛ وغادرت كليوباترا الرابعة مصر الى سوريا لتجمع لها جيشا. لكنها توفيت هناك .

وفى عهد سوتير الثانى لم تتوقف الوفود الرومانية الرسمية وغير الرسمية عن زيارة مصر ، بهدف رصد الأحوال فيها . ورفع التقارير عن اوضاعها الى مجلس السناتو ، فقد اوردت إحدى الوثائق البردية التى عثر عليها فى كوم أم البريجات (تبتونس Tebtunis القديمة) فى جنوب الفيوم . خبر وصول أحد أعضاء مجلس الشيوخ البارزين إلى مصر وزيارته الفيوم فى مارس عام ١١٢ ق.م.وتضمنت الأوامر التى صدرت الى حاكم الأقليم المذكور بخصوص مايجب القيام به نحو اكرام وفادته ، والأغداق عليه بالهدايا (١).

وفى عام ١١٠ ق.م . ضاقت الملكة الأم كليوباترا الثالثة بابنها الأكبر سوتير الثانى لتصرفاته الغريبة ؛ فأثارت عليه شعب الاسكندرية ، واستدعت ابنها الأصغر الأسكندر الأول من قبرص ليتولى عرش البلاد ؛ وفر سوتير الثانى لاتوروس الى قبرص وبقى هناك ، بينما حكمت الملكة مع ابنها اسكندر الأول ، والذى عرف باسم بطليموس العاشر منذ عام ١٠٧ ق.م . غير أنه فى عام ١٠١ ق.م توفيت الملكة الأم ، وانفرد الأسكندر الأول بالعرش وحده ؛ ولكنه كان ضعيفا متخاذلا ، فثار عليه شعب الاسكندرية واضطر الى الهرب الى سوريا ، ومنها الى قبرص ، حيث لقى حتفه هناك ، ثم استدعى بطليموس سوتير الثانى لاتوروس من منفاه فى قبرص لتولى العرش مرة اخرى ،فتولاه فى عام ٨٨ ق.م . وظل يحكم مصر وقبرص معا حتى موته فى عام ٨٠ ق.م . وكان قد تزوج من اخته برينيكى الثالثة على إثر عودته الى مصر ، غير أنه لم ينجب منها أطفالا ، ولهذا بقيت برينيكى ملكة بمفردها على العرش بعد موت زوجها عام ٨٠ ق.م .

بطليموس التاسع وأحلام العودة الى الشام :

أما عن سياسة بطليموس التاسع الخارجية فلا تكاد تذكر ، باستثناء عدائه السافر للدولة اليهودالتى أقامها المكابيون ؛ ففى خلال الفترة التى كان فيها منفيا فى قبرص ؛ استنجدت الملكة الأم باليهود لمنعه من العودة إلى مصر ؛ ولذلك لم ينس الانتقام منهم ؛ فوقف الى جانب السليوقيين ضدهم ؛ وأنزلت قواته هزيمة ساحقة بالقائد اليهودى بانايوس حليف أمه ؛ وكان هدفه من التدخل

(1) P. Tebtunis, 33 ; A. Wilhelm, "Papyrus Tebtunis, 33 (Journal of Roman Studies, Vol. 27 (173), pp. 145—151.

هو الحصول على جوف سوريا من السليوقيين ؛ ومنها يبدأ زحفه على مصر لأستعادة عرشه ؛ وبالفعل نجح فى ضم غزة إليه ؛ ولكنه سرعان ما عاد إلى الى قبرص ، وهجر المشروع كله ، حتى استدعى للعرش مرة اخرى . عندئذ عادت إليه أحلام العودة إلى الشام ، وطالب السليوقيين بأعادتها — كما كانت — لمصر ، ولما رفض السليوقيون إعادة جنوب الشام إليه ، إنقلب عليهم وتحالف مع الرومان للقضاء على البقيه الباقية من دولتهم .

تزايد النفوذ الرومانى :

وفى أثناء الصراع بين بطليموس التاسع وأمه، فقد بطليموس ابيون حاكم برقة ثقته فى العرش البطلمى ؛ فكتب وصية يوصى فيها ان تؤول برقة الى الشعب الرومانى فى حالة وفاته دون وريث مقلداً مافعله بطليموس الثامن عندما كان حاكما على برقة ، ولما مات ابيون دون وريث عام٩٦ق.م اعلن الستاتو قبول الوصية ، وضم برقة عام ٩٦ ق . م ؛ وبذلك فقدت مصر جزءا مما تبقى لها من امبراطورية ؛ ولم يتبق لها سوى قبرص ؛ التى كانت عيون الرومان هى الأخرى مركزة عليها .

أما عن السياسة الداخلية ، فظلت الأحوال فى تدهور شديد فى كافة النواحى ، خاصة ازدياد التيار الوطنى المصرى ؛ فتجددت الثورات فى طيبة منذ عام ٨٨ ق.م ، وظلت مشتعلة حتى عام ٨٦ ق.م ؛ وقد حاول سوتير الثانى كسب ود المصريين . ببناء المعابد وإكمال بناء معبد أدفو ، وتقرب الى الكهنة ، ومنحهم الأمتيازات ، وزار إدفو ومعابد أسوان .

وفى أثناء عهد ذلك البطليموس ، قامت الحرب الأهلية الرومانية بين ماريوس الذى كان يتزعم العامة ، وسوللا الذى كان يتزعم الأشراف الارستقراطيين ؛ وفى أثناء حصاره لمدينة أثينا ، طلب سوللا مساعدة بطليموس التاسع سوتير التانى لاتوروس ، غير أن بطليموس التاسع تردد كثيرا ؛ ولم يقدم للرومان سوى القليل حتى لا يغضب الدكتاتور الرومانى ؛ وفى عام ٨٧ ق.م ، طلب سوللا مرة أخرى عن طريق ارسال وفد الى مصر المعونة الاقتصادية من القمح ، ومن الواضح أن مصر لم يكن أمامها سوى الاذعان لذلك الابتزاز الرومانى (١) .

(1) Plutarchus, Bioi (Lucullus) .

بطليموس الحادى عشر الملقب بالإسكندر الثانى :

مات سوتير الثانى لاتوروس عام ٨٠ غير ماسوف عليه من الشعب السكندرى ؛ وطبقاً لوصية تركها من بعده ؛ إنتقل الحكم الى ابنته بيرينيكى التى تولت العرش دون معارضة من شعب الاسكندرية ، وسرعان ما برزت مشكلة البحث عن زوج لها من سلالة الأسرة البطلمية ؛ وأخيرا عثر على إبن للأسكندر الأول (بطليموس العاشر) كان قد أنجبة من احدى عشيقاته ، وكان هذا الابن يعيش فى جزيرة كوس ليتعلم فيها ، وعندما إستولى مثريداتيس ملك بنطوس على هذه الجزيرة ؛ حمل هذا الأمير معه الى بلده ، غير أنه هرب الى روما ، حيث عاش فى كنف الدكتاتور سوللا ، الذى فكر فى تربيته واعداده ليعينه على عرش مصر ، ويكسب بذلك ملكا عميلا للرومان . وفى الوقت المناسب بعث به سوللا الى مصر ليتولى الحكم ، ويصبح بطليموس الحادى عشر ؛ ولقب بالاسكندر الثانى ؛ وتزوج من ابنة عمه بيرينيكى الثالثة التى كانت تتمتع بمحبة شعب الاسكندرية ؛ ولكن لم يمض على زواجه منها تسعة عشر يوما ؛ حتى قتلها غدرا ، لأنها أرادت أن تستأثر بالحكم ؛ وانتقم السكندريون لمقتلها بأن تجمهروا حول الملك القاتل فى الجمنازيوم ، وركلوه حتى قتلوه فى غد اليوم الذى قتل فيه أخته عام ٨٠ ق.م . ولم يكن قد مضى على حكمه سوى عشرين يوما .

وبذلك قتل آخر وريث شرعى للعرش البطلمى ، ولقد إدعت روما فيما بعد أنه أثناء وجوده بها كان قد أودع وصية لديها يوصى فيها أن تؤول مصر الى روما بعد وفاته ، غير أن هناك شكوكا حول هذه الوصية ، ويقال أنها زورت من قبل العناصر الرومانية الطامعة فى إحتلال مصر من أنصار الحزب الشعبى الرومانى الذى كان يحلم بتوزيع أراضى مصر على فقراء الرومان.

الدولة البطلمية فى النزع الأخير :

هكذا شاء القدر أن تكون مصر آخر مملكة هللينستية فى الشرق الأدنى تستولى عليها روما ، وأن يتلو ذلك الحدث قيام الامبراطورية الرومانية ، وذلك

عام ٢٧ ق. م . ليدخل تاريخ الشرق الأدنى مرحلة جديدة من تاريخ صراع القوى الكبرى السيطرة عليه ، فقد عاد الفرس المطالبة بحقهم ، وهو ما يشكل تاريخ الصراع على الشرق الأدنى فيما بعد .

وعموماً ارتبط تاريخ مصر فى الخمسين سنة الأخيرة قبل إستيلاء الرومان عليها ، بتاريخ الصراع الحزبى فى روما بين الحزب الشعبى ، وبين الحزب الجمهورى الارستقراطى ، فبعد مقتل الاسكندر على يد الغوغاء الثائرة عليه فى الاسكندرية عام ٨٠ ق. م ، وبعد عشرين يوماً فقط من حكمه ، أبرز الحرب الشعبى الرومانى وثيقة تدعى أن الاسكندر الثانى كان قد اوصى بأن تؤول مصر للرومان بعد وفاته ؛ خاصة ان الأبناء الشرعيين لسلالة الأسرة البطلمية اختفوا ، ولم يعد هناك سوى الأبناء غير الشرعيين والمشكوك فى نسبهم .

بطليموس الثانى عشر (الزمار) :

وبعد بحث وتفتيش ، عثر الرومان على ولدين غير شرعيين لبطليموس التاسع سوتير الثانى ؛ عين اصغرهما ملكاً على قبرص ، واكبرهما ملكاً على مصر ؛ وهو الذى حكم منذ عام ٨٠ ق. م متخذاً لقب بطليموس ديونيسوس الجديد Neos Dionysos ؛ ثم اضاف إلى اسمه لقب فيلادلفوس الثانى (١) بعد زواجه من أخته كليوباترا السادسة ؛ ليذكر الناس بعهد سلفه العظيم بطليموس فيلادلفوس الأول ؛ وتم ذلك وسط احتجاج الحزب الشعبى الرومانى بأن ذلك مخالف لوصية بطليموس الحادى عشر الاسكندر الثانى ؛ أما أهل الاسكندرية فقد أطلقوا عليه تهكماً اسم بطليموس الزمار Auletes ؛ لأن ذلك الملك كان متقاعساً محباً للهو والعبث ، وحفلات الرقص والغناء ؛ حيث كان يعشق العزف على مزماره . ولكى يحظى باعتراف روما ، راح الزمار ويتذلل ويريق ماء وجهه للرومان ؛ ويدفع لهم بسخاء الهدايا

---

(١) لقد تأكد لنا ذلك من خلال النقش التذكارى الذى عثرنا عليه فى معبد سوكسيس فى الفيوم ونشرناه عام ١٩٧٥ انظر : —

S. EL-Nassery and WG. Wagner : "Une nouvelle dedicace au grand dieu Soxis", *ZPE*, Band 19 (1975), pp. 139—142, Tafel I.

والرشاوى، ويشترى ذمم قادتهم من أمثال بومبى ، ويوليوس قيصر وغيرهم؛ وكان زعماء الحزب الجمهورى الارستقراطى يفضلون أن يظل الزمار فى هذا الوضع المهين ، ويدفع لهم الأموال ؛ التى لا تقل عن دخل مصر إذا ما ضموها ، كما أنهم رأوا أن ضم مصر لن يفيدهم فى شىء ؛ لأن خيرها سوف يذهب للعامة وجباة الضرائب من الفرسان ؛ ولرجال الطبقة الوسطى ، وهم المعادون للحزب الجمهورى . ولهذا عندما قدم كراسوس نقيب العامة الرومان عام ٦٥ ق . م مشروعاً لاحتلال مصر وفرض ضرائب عليها ، اعترض زعماء السناتو على هذا المشروع بإيحاء من الزعيم الجمهورى بومبى ، ودافع صديقه شيشرون عن الملك الزمار دفاعاً مستميتاً ، ولما قام التحالف الثلاثى الأول بين كل من بومبى ، وقيصر ، وكراسوس ، دفع الزمار رشاوى باهظة لهذا التحالف حتى حظى منه فى عام ٥٩ ق. م على اعتراف رسمى بأنه ملك شرعى على مصر ، وأنه صديق للرومان ، بل وتنازل لروما طواعية عن جزيرة قبرص ، آخر ما تبقى للبطالمة من ممتلكات خارج مصر ؛ وبذلك استولت روما على قبرص عام ٥٨ ق. م ، وحولتها إلى ولاية رومانية ؛ واحتجاجاً على هذا التصرف من جانب الزمار؛ انتحر أخوه ملك قبرص ؛ ولما وصل النبأ إلى الاسكندرية ، قامت ثورة ضد الزمار ؛ فهرب إلى روما ؛ وراح يتزلف زعماءها؛ ويحثهم على إعادته بالقوة إلى العرش مقابل مكافأة باهظة ، وراح يقترض من المرابين الرومان خاصة رابيريوس Rabirius ، وطمعاً فى المكافأة تنافس قادة الحزبين المتنافسين فى روما على إعادة البطليموس المخلوع إلى عرشه ؛ وكان صديقه بومبى الذى نزل فى ضيافته ، يتمنى أن يقوم بتلك المهمة ، وأخيراً بإيعاز منه ، أو عن طريق إغراء من الزمار ، إندفع والى سوريا الرومانى جابينيوس دون إستئذان من السناتو ، وعبر حدود مصر ، حيث فتحت الحامية اليهودية التى كانت تحرس بوابه مصر الشرقيه عند بيلوزيوم الأبواب لجابينيوس وقواته لتمر ؛ فدخل مصر عام ٥٥ ق. م ، وكان فى استطاعة جابينيوس أن يعلن ضم مصر إلى روما ، لكنه لم يشأ ذلك حتى لا يغضب سيده بومبى زعيم الحزب

الجمهورى ؛ وبعد أن ترك حامية لحماية الزمار انسحب عائدا إلى سوريا ؛ وبذلك وضع حدا للأزمة السياسية التى سادت فى روما بين الحزبين بسبب تنافسهما مسألة إعادة الزمار إلى العرش ؛ ونال جابينيوس مكافأة كبيرة. وتراكمت الديون على الزمار فى نهاية عهده ، حتى فشل فى تسديد ديون رابيريوس المرابى الروماني ؛ حتى أنه عرض عليه أن يعينه وزيراً للخزانة حتى يستخلص ما يشاء من ديونه ، وكان ذلك إهانة كبيرة لشعب الاسكندرية فهبوا فى ثورة ؛ وعندئذ ، دبر الزمار هروب رابيريوس سراً إلى روما ؛ ومات الزمار عام ٥١ ق . م . بعد أن ترك وصية أودعها فى روما ، توصى بأن تشرف روما على تنفيذ وصيته ، وهى أن يتولى العرش من بعده أكبر بناته ؛ وهى كليوباترا السابعة على أن تتزوج من أخيها الصبى الصغير بطليموس الثالث عشر .

كليوباترا السابعة آخر ملوك البطالمة ٥١–٣٠ ق . م :

شاء القدر أن تكون آخر سلالة البطالمة فى مصر ملكة فاقت أسلافها ذكاء ودهاء وطموحاً . فبعد تنفيذ الوصية تولت كليوباترا العرش ، وتزوجت من اخيها ، ولكنها احست أن زواجها منه سوف يعوق طموحها ومخططاتها السياسية الكبرى ، خاصة ان رجال البلاط ، كانوا يفرضون وصايتهم عليه ، وبعد ثلاثة اعوام من توليها ، تأزمت العلاقة بينها وبين رجال البلاط الذين اتهموها بمحاولة اغتصاب الحكم لنفسها ؛ واثاروا عليها اخاها ؛ فهربت من الاسكندرية ، ولجأت إلى الصحراء الشرقية لتجند جيشاً من البدو ، على أمل ان تهاجم به الاسكندرية ، وتستولى على العرش ؛ بينما إستعد رجال البلاط وقائد الجيش فى إعداد جيش يساند الملك ؛ وساروا به شرقاً إلى بيلوزيوم لمنع الملكة الهاربة من العودة . فى هذه الأثناء كانت روما تشهد حرباً أهلية بين زعيميها بومبى صديق الزمار ، وزعيم الحزب الجمهورى ؛ وبين يوليوس قيصر زعيم الحزب الشعبى ، ونجح قيصر فى هزيمة بومبى عند فرسالوس .. ففر بومبى إلى مصر بلد صديقه الزمار ، آملا فى ان يحصل على ما تبقى لديه من أموال ورشاوى ؛ وأملا فى أن يجند جيشاً جديداً

يعاود به الهجوم لطرد قيصر من إيطاليا ؛ ولما وصل بومبى ، فوجئ بأن الزمار قد مات ؛ وأن الملك الجديد ، يحارب أخته قرب بيلوزيوم ، فتوجه بومبى إلى معسكر الملك البطلمى ؛ وقبل أن ينزل من القارب إغتاله أحد الجنود المرتزقة الرومان ، ربما بتحريض من رجال القصر حتى لا يعطوا قيصر فرصة لإحتلال مصر .

ووصل قيصر إلى مصر متتبعاً غريمة ، ولما دخل الاسكندرية قدمت له رأس بومبى ، فحزن وأعلن الحداد عليه ، بل وطلب بناء معبد لربة الرحمة فى الاسكندرية تدفن فيها رأسه ، ثم شرع بصفته دكتاتوراً على الشعب الرومانى ، فى التدخل لحل النزاع بين كليوباترا وأخيها ؛ فأصدر أمره أن يمثل الملك والملكة أمامه فى القصر الملكى بالاسكندرية للتحكيم . وقد غضب أنصار الملك لتدخل قيصر فى خلافات القصر الملكى ؛ كما أن تجولة علنا فى شوارع الاسكندرية بزيه الرومانى ، ومن أمامه حملة الشعارات أثار ضيق الأهالى ؛ لكن قائد الجيش اخيلاس اقترح أن يمثل الملك أمام قيصر ؛ بينما يستعد الجيش خارج الاسكندرية ؛ وإذا ما أحس الملك بأن هناك إنحيازاً لكليوباترا من جانب قيصر ، يعطى إشارة من نافذة القصر عندئذ يهجم الجيش بقيادة أخيلاس ، ويتخلص من قيصر ومن كليوباترا معاً .

أما كليوباترا ، فقد تسللت عبر جيوش أخيها ؛ وقيل أنها تخفت فى بساط وثير ، حمله أحد أتباعها داخل المدينة ليقدمه هدية إلى قيصر ؛ ولما دخل الرجل القصر حل البساط ، فبرزت كليوباترا وكأنها أفروديت ربة الجمال تخرج من قوقعة البحر ؛ وسرعان ما سحرت أعين قيصر ، الذى كان ذواقاً للنساء ؛ وقامت بينهما علاقة الرجل بالمرأة . وكانت كليوباترا لا تمانع من ذلك ، ما دامت تهدف إلى السيطرة على روما عن طريق السيطرة على دكتاتورها القوى ؛ على أمل أن تربطه بالزواج منها ، وتنجب ابناً يحكم مصر وروما معاً ، وبذلك تتخلص من الابتزاز الرومانى ، الذى كان يعانى منه أجدادها البطالمة فى الأونة الأخيرة .

وجاء حكم قيصر أن تعود كليوباترا إلى العرش كشريكة فيه طبقاً

لوصية أبيها ، وهنا اعتبر بطليموس الثالث عشر ذلك تدخلا لفرض النفوذ الرومانى على مصر ؛ وأعطى الإشارة إلى قائده أخيلاس ليهجم على القصر ؛ ليقضى على قيصر وقواته القليلة بالنسبة للجيش البطلمى ؛ الذى دعم بالحامية الرومانية الموالية لبومبى ، التى كان جابينيوس قد تركها لحماية الزمار ؛ كما دعم الجيش البطلمى باللصوص والهاربين ، وقطاع الطرق والعبيد من كل أجزاء العالم الهللينستى ، فضلا عن ألفين من الفرسان وبلغ تعدادها جميعاً عشرون ألفاً .

ودارت المعارك بين هذه القوات ، وجنود قيصر ، عرفت بحرب الاسكندرية ، ونظراً لمهارة القادة فى الجيش البطلمى ، واجه قيصر مواقف حرجة ، حتى كاد أن يقتل ، حتى اضطر الى احراق سفنه الراسية فى الميناء الشرقى ، لكى يمنع جنود الملك من احتلال هذا المنفذ ، وحتى لايفقد الاتصال بالبحر . ونجح قيصر فى الاحتفاظ بالميناء ، لكن النيران اشتعلت فى أرصفته ومبانيه ، ويقال ان جانبا من مكتبة الاسكندرية حرق نتيجة لذلك غير أن وصول مساعدات لقيصر من حلفائه الأنباط واليهود ، غيرت من الموقف ، ومكنته من الانتصار على الجيش البطلمى ، ومات البطليموس غريقا ، وأحتل قيصر الاسكندرية عام ٤٨ ق.م ؛ وأعلن عودة كليوباترا ملكة بالاشتراك مع أخيها الأصغر بطليموس الرابع عشر ؛ وكان صبيا ، ثم قضى قيصر الشتاء وهو يتجول فى صعيد مصر ، بصحبة كليوباترا ، ويقال أنها اصطحبته إلى ادفو للاحتفال باكتمال بناء معبد حورس الذى كان بطليموس الثالث قد بدأ بناءه ، تاركاً لخلفائه مهمة إكماله . وبعد أن استجم قيصر عاد الى روما ، تاركا حامية رومانية لحماية الملكة ؛ وفى صيف عام ٤٧ ق.م أنجبت كليوباترا منه أبنا سماه أهل الاسكندرية تهكما قيصرون أى قيصر الصغير أما هى فقدسمته بطليموس الصغير ، وعلى أى حال كان قيصرون رغم أنه غير شرعى ، الابن الذكر الوحيد الذى أنجبه قيصر . فقد كان زواج قيصر بالملكة البطلمية غير شرعى بالنسبة القانون الرومانى ؛ لأن قيصر كان لايزال متزوجا فى روما من كالبورنيا ، أما بالنسبة لقوانين مصر البطلمية ؛ فقد كانت تبيح تعدد الزوجات ؛ ويبدو أن كليوباترا كانت تسعى للاعتراف الرسمى بزواجها ؛ وذلك عندما زارت روما عام

٤٦ ق.م ؛ وأحاطت زيارتها بالدعاية لنفسها ؛ مما أثار حنق زعماء السناتو الذين عابوا سلوكها المتعالى والمتصلف ، واتهموا قيصر بأنه يسعى أن يكون ملكا كعشيقته المصرية ؛ ويحول الجمهورية الرومانية الى مملكة هللينستية ، وكان الرومان منذ ثورتهم قديما على ملوكهم الأتروسكيين يبغضون الملوك ويعتبرون كل من يسعى لأن يكون ملكا بمثابة من يسعى لأن يكون طاغية ؛ ويتوجب قتله بلا محاكمة ؛ وقد أدى ذلك الاتهام الى اغتيال قيصر فى ١٤ مارس عام ٤٤ ق.م وهو يهم بدخول السناتو ، بعدها عادت الحرب الأهلية من جديد بين ورثة يوليوس قيصر وهما أنطونيوس واوكتافيوس ، وبين زعماء السناتو الذين دبروا المؤامرة وعلى رأسهم كاسيوس وبروتوس ؛ وأدركت الملكة المصرية أن الامبراطورية الرومانية سوف تغرق فى بحر من الدماء ، وآثرت أن تعود سرا للاسكندرية ، وتعنى بشئون مملكتها ؛ وتقوم باصلاحات جذرية ؛ فقامت بالتخلص من أخيها شريكها فى الحكم ؛ وعينت ابنها من قيصر شريكا لها ، وذلك حتى تلفت أنظار أتباع قيصر فى روما بأن الوريث الشرعى الوحيد المستحق لأن يكون خليفته هو ابنها قيصرون ، وليس اوكتافيوس الابن الذى تبناه قيصر طبقاً لوصيته .

وبينما كان الصراع يعصف بالامبراطورية ، كانت كليوباترا قد ارست قواعد حكمها قويا ؛ وعنت بالزراعة وبالاقتصاد ، وتقربت الى المصريين ، فراحت تتكلم اللغة المصرية ، وتقلد الربة إيزيس فى مظهرها ، وأعلنت أنها سليلة أنوبيس وسائر الآلهة المصرية ؛ أملا فى توحيد المصريين الوطنيين من ورائها ، وكان من نتيجة ذلك أن دب الاستقرار ، وتحسنت أحوال مصر بشكل ملحوظ ؛ وتدفق الثراء على خزائنها ، وعادت إليها أهميتها الدولية كمصدر غنى لانتاج القمح ، ومركز رئيسى للتجارة .

وبعد أن انتهت الحروب الأهلية بهزيمة قتلة قيصر فى معركة فيليبى Philippi عام ٤٢ ق.م ، إقتسم الوريثان انطونيوس واوكتافيوس الامبراطورية ؛ حيث حصل أوكتافيوس على الجزء الغربى ؛ بينما حصل انطونيوس على الشطر الشرقى . وسافر انطونيوس الى الشرق ؛ ومن هناك أرسل

يستدعى كليوباترا للمثول بين يديه فى مدينة طرسوس ، عندئذ وجدت كليوباترا فرصة ثانية لمحاولة فرض نفوذها على روما عن طريق السيطرة العاطفية على أحد زعمائها ، وسرعان ماسحرت انطونيوس كما سحرت قيصر من قبل ، فأصبح طوع بنانها ، وبدأت علاقة دافئة بينهما ، اذ قضى شتاء عام ٤٠ فى صحبتها مهملا شئون الشطر الشرقى للامبراطورية ، مما أدى الى تأزم علاقته مع اكتافيوس ؛ وبدأت الحرب النفسية بينهما ، لدرجة أن انطونيوس أعلن فى تحد طلاقه من شقيقة اكتافيوس عام ٣٥ ق.م ، وأعلن فى نفس الوقت شرعية زواجه من كليوباترا ، بعد ذلك قسم الأجزاء الشرقية من الامبراطورية عليها وعلى قيصرون ، وعلى ولده وإبنته اللذين أنجبهما من كليوباترا ؛ وحاول القاء الضوء على قيصرون ؛ بصفته الابن المباشر ، والوريث الشرعى ليوليوس قيصر ؛ وليس اكتافيوس الابن المتبنى ؛ بل أنه أهدى كليوباترا جزيرة قبرص حيث ولدت ربة الجمال ، وراح يخطط لجعل الاسكندرية عاصمة للجزء الشرقى للامبراطورية ، لأنه أقام فيها مهرجانات احتفالاته بدلا من روما ، بل قيل أنه حرر وصية طلب بمقتضاها أن يدفن فى الاسكندرية . وبذلك وجدت كليوباترا نفسها ملكة على النصف الشرقى للامبراطورية بدون مجهود وهو أمر لم يستطع أحد من أسلافها أن يحققه .

وازاء ذلك ، بدأ أوكتافيوس فى أثارة الرومان على انطونيوس ، وشهر به ، وهول من نوايا كليوباترا ؛ وحصل لنفسه على سلطة قوية من أجل انقاذ ممتلكات الشعب الرومانى ؛ ثم أعلن الحرب على كليوباترا ؛ وكان الساحل الغربى لبلاد اليونان هو ميدان الصراع البحرى بين الاسطول الرومانى واسطول انطونيوس يساعده اسطول كليوباترا ؛ وذلك فى خريف عام ٣١ ق.م ؛ ولكن عند أول مناوشة انهار انطونيوس ؛ وانسحبت كليوباترا عائدة بأسطولها سليما الى الأسكندرية . ولم يستطع أنطونيوس المقاومة ؛ فترك جيوشه وهرب ليلحق بكليوباترا ؛ ولكنها أشاعت أنها قد ماتت فانتحر انطونيوس ؛ وحاولت كليوباترا أن تبدأ التفاوض مع اكتافيوس الذى زحف بقواته من سوريا عام ٣١ ق.م ؛ وأصر أوكتافيوس على القبض على الملكة المصرية حية ، ليسوقها فى موكب نصره العظيم . لأنه وعد الرومان

بذلك ، وكان يقوم بهذه المفاوضات أحد مساعديه من رجال الفرسان وهو كورنيليوس جاللوس ، والذى أصبح فيما بعد أول وال رومانى على مصر . ولم تفقد كليوباترا الأمل إذ جمعت قواتها البحرية عند خليج السويس ؛ ربما لتهرب الى مملكة الحميريين أوالى النوبة لكى تقود المقاومة ضد الرومان ، غير أن هذا الأمل تحطم عندما قام الانباط بحرق أسطولها وهو فى الميناء انتقاما مما فعله بهم البطالمة . ولما أدركت أن اكتافيوس مصمم على القبض عليها ، انتحرت عن طريق حية الكوبرا (واجت) ؛ رمز الخلود عند المصريين ، ودخل اوكتافيوس مصر بقواته فى الأول من شهر أغسطس عام ٣٠ ق.م . حيث قتل قيصرون على الفور ؛ وأسر باقى أبنائها . ثم أعلن ضم مصر إلى ممتلكات الشعب الرومانى وبذلك سقطت آخر مملكة هللينستية وقامت الامبراطورية الرومانية بعد أن استوعبت الشرق الأدنى وكل امبراطورية الاسكندر ، وبذلك ينتهى العصر الهللينستى ، ويبدأ عصر الامبراطورية الرومانية ، وهو عصر جديد ، تلاه تطورات جديدة ، رغم أن الحضارة الهللينستية استمرت على ما هى عليه فى دول الشرق الأدنى المتأغرق ؛ وان كانت التيارات القومية الشرقية أخذت تبعث من جديد ، لتستوعب الحضارة الاغريقية ، وتغلب عليها ، ومن ثم ، فقد بدأت حضارات الشرق الأدنى ، تبعث من جديد ، ولكن فى ثوب جديد .

* * *

مراجع الفصل الخامس

أولا : المراجع العربية والمعربة :

ابراهيم نصحى : —

١ — تاريخ مصر في عصر البطالمة ، ثلاثة أجزاء ، الطبعة السادسة ١٩٨٨ الناشر مكتبة الأنجلو المصرية .

٢ — تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، الجزء الثانى : العصر البطلمى ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥

بل . ه . ا :

٣ — مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى: دراسة أنتشار الحضارة الهللينيةواضمحلالها ، (نقله إلى العربية وأضاف إلى حواشية د. محمد عواد حسين ، د. عبد اللطيف أحمد على ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٤ .

تارن . و . وجريفث :

٤ — الحضارة الهللينستية (نقله إلى العربية عبد العزيز توفيق جاويد) القاهرة ١٩٦٦ .

دى . بورج :

٥ — تراث العالم القديم ، الجزء الأول (ترجمة زكى سوس ومراجعة يحيى الخشاب ومحمدصقر خفاجه) ، الناشر دار الكرنك ، سلسلة الألف كتاب رقم (٥٥٧) القاهرة ١٩٦٥ .

زكى على :

٦ — « الاسكندرية تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة » ، (مقال) مجلة كلية الآدب جامعة فاروق الأول (الاسكندرية) العدد الثانى ١٩٤٤ .

٧ — « الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان » (مقال) مجلة كلية الآداب جامعة فاروق الأول (الاسكندرية العدد الرابع ١٩٤٨) .

سارتون (جورج) :

٨ — تاريخ العلم : العلم والحضارة الهللينستية فى القرون الثلاثة قبل الميلاد . الجزء الرابع الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٩ .

سليم حسن :

٩ - مصر القديمة : الجزء الرابع عشر : الاسكندر الأكبر وبداية عهد البطالمة فى مصر ، دار الكتاب العربى بمصر (بدون تاريخ) .

سيد أحمد الناصرى :

١٠ - حضارة وتاريخ وآثار مصر تحت حكم الأغريق والرومان من الفتح المقدونى حتى الفتح الاسلامى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٩ .

١١ - « الصراع على البحر الأحمر فى عصر البطالمة » ، (مقال) ، دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية - الكتاب الثانى ، الجزيرة العربية قبل الاسلام ، مطابع جامعة الملك سعود (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م) من ص ٤٠١ - ٤٢٨ .

١٢ - « التأثير الرومانسى للحضارة المصرية على تفكير شعوب البحر المتوسط - من الغزو الفارسى وحتى العصر القبطى » ، (مقال) ، مصر وعالم البحر المتوسط ، اعداد وتقديم رءوف عباس ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١١ - ٣٨ .

الجران (فيليب إميل) :

١٣ - شعر الاسكندرية ، (ترجمة عن الفرنسية محمد صقر خفاجه) القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٥٢ .

عبد اللطيف أحمد على :

١٤ - مصر و الأمبر اطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية بيروت ١٩٧٢ .

لطفى عبد الوهاب يحى :

١٥ - دراسات فى العصر الهللينستى ، بيروت ١٩٧٨ -

١٦ - عصر البطالمة ، الاسكندرية ، ١٩٨١

محمد أحمد حسين :

١٧ - مكتبة الاسكندرية فى العالم القديم ، القاهرة ١٩٤٣ .

محمد حمدى ابراهيم :

١٨ - الآدب السكندرى ، دار الثقافة والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٧٥ .

محمد عواد حسين :

١٩ - « الاقطاعات العسكرية فى مصر البطلمية » ، (مقال) ، المجلة التاريخية المصرية العدد الثانى ، المجلد الثانى (أكتوبر ١٩٤٩) .

٢٩ - « الحرب السورية السادسة وبداية النزاع الأسرى فى مصر البطلمية » ، (مقال) حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس المجلد الأول (١٩٥١) من ص ٧١-١٢٥ .

٢١ – « النزاع الأسرى فى مصر البطلمية من ١١٦ – ٨٠ ق. م » ، (مقال) ، حوليات كلية الآداب – جامعة عين شمس ، المجلد الثانى ، (١٩٥٣) من ص ١١١ – ١٣٨ .

٢٢ – « الوطنيون والأغريق فى مصر البطلمية » ، (مقال) ، حوليات كلية الآداب جامعة عين شمس ، المجلد الثالث ٩٦ ١٩٥٤ .

٢٣ – « حركات المقاومة فى مصر البطلمية » ، (مقال) ، حوليات كلية الآداب – جامعة عين شمس ١٩٦٠ .

٢٤ – الاسكندرية منذ أقدم العصور (بالأشتراك مع لطفى عبد الوهاب ، مصطفى العبادى) ، منشورات محافظة الاسكندرية ١٩٦٣ .

٢٥ – البحرية المصرية فى عصر البطالمة (فصل من كتاب تاريخ البحرية المصرية) الاسكندرية ١٩٧٤

مصطفى عبد الحميد العبادى :

٢٦ – مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربى ، القاهرة ١٩٦٦ .

٢٧ – مكتبة الاسكندرية القديمة ، القاهرة ١٩٧٧ .

مصطفى كمال عبد العليم :

٢٨ – « الأرض والفلاح فى مصر فى عصر البطالمة » ، (مقال) (مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) ، القاهرة ١٩٧٣ .

٢٩ – اليهود فى مصر فى عهد البطالمة والرومان مع مقدمة عن اليهود فى العصر الفرعونى ، مكتبة القاهرة الحديثة عام ١٩٦٨

٣٠ – « تجارة الجزيرة العربية مع مصر فى المواد العطرية فى العصرين اليونانى والرومانى » ، (مقال) ، دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الثانى ، الجزيرة العربية قبل الإسلام ، مطبعة جامعة الملك سعود ، الرياض ١٩٨٤ ص ٢٠١ – ٢١٣

* * *

ثانياً : المراجع الأوروبية :

1.—**Austin**, (M.M.) : The Hellenistic World from Alexander to the Roman Conquest, Cambridge University Press, 1981.

2.—**Bagnall** (R.S.) : The Administration of the Ptolemaic Possessions outside Egypt, Leiden, 1976.

Bell, tHarold Idris) :

3.—"Alexandria", *Journal of Egyptian Archaeology*, Vol. XIII, (1927), p. 127 ff.

4.—"Alexandria Ad Aegyptum", *Journal of Roman Studies*, Vol. XXXVI.

5.—"Hellenic Culture in Egypt", *Journal of Egyptian Archaeology*, Vol. IX, 1922, pp. 139—155.

6.—Cults and Creeds in Greoco-Roman Egypt, Liverpool University Press, 1952.

7.—"Popular Religion in Grocco-Roman Egypt", *J.E.A.*, XXIII, 1937, p. 00.

8.—Ibidem, *J.E.A.*, XXXIV, 1948, p. 82 ff.

9.—**Bevan**, E. : A History of Egypt Under the Ptolemaic Dynasty, London, 1927.

10.—**Bouche-Leclercq**, (A) : Histoire des Lagides, 4 Vols., Paris, 1903—1906.

11.—**Brady**, T.A. : "The Reception of the Egyptian Cults by The Greeks, 330 - 30 B.C University of Missouri Studics,t X, Columbia, 1935.

12.—**Butzer**, K.W. : "Remarks on the Geography of Settlement in the Nile Valley, During Hellenistic Times", Bulletin de la Geographie d'Egypte, Vol. XXXIII, (1960), pp. 5—36.

13.—**Couat**, (A.) : Alexandrian Poetry Under the First Three Ptolemies (Translated by J. Loeb), New York, 1931.

Craw**ford**, D.J. :

14.—Kerkeosiris, An Egyptian Village in the Ptolemaic Period Cambridge, 1971.

15.—"Ptolemy, Ptah and Apis in Hellenistic Memphis'(, (Studia Heeni, 24), Lovani, 1780, pp. 1—42.

16.—**Desvernos**, (J.) : Banques et banquiers dans l'Egypte Ancienne, Bulletin de la Societe Royale d'Archaeologie d'Alexandrie, No. 23, (1928), p. 303 ff.

17.—**Dunand**, (F.) : Le Culte d'Isis dans le Bassin Oriental de la Mediteranee, Leiden, 1973.

18.—**Elgood**, (P.G.): The Ptolemies of Egypt, Arrowsmith, Bristol, England, 1938.

Frazer, .P.M.):

19 —"Alexandria Ad Aegyptum Again" ; *Journal of Roman Studies*, XXXIX, (1949), p. 56 ff.

20.—Ptolemaic Alexandria, Oxford, 1972.

21.—**Galili**, (E.): Raphia 217 B.C. Revisited, Reprint from Classica Israelica, vIII, (1976—1977), 1978.

22.—**Hogarth**, D.H. : "Alexander in Egypt and Some Consequences", *J E.A.*, Vol. 2, (1912), pp. 53—60.

23.—**Hohlwein**, (N.) : "Le Ble d'Egypte", Etudes des Papyrologie, 4, (1938), pp. 33—120.

24.—**Jouguet**, (P.) : "Alexandre a l'oasis d'Amon et le Temoignage de Callisthene", Bulletin de l'Institut d'Egypte, XXVI, (1944), pp. 91—107.

25 —**Koremann** : "Die Satrapenpolitik des ersten Lagiden", Raccolta in Onore di Giacomo Lumbroso, pp. 235—245.

26.—**Lesquier**, (J.) : Les Institution Militaire de l'Egypte Sous Lagides, Paris, 1911.

27.— **Mary** (R). The Nature of Alexander ,Penguin Books, 1975.

28.—**Milne**, (J.G.) : "Egyptian Nationalism Under Greek and Roman Rule, *J.E.A.*, (1928), pp. 226 —234.

29.—"Antony and Cleopatra", *J.E A*, Vol. 1 (1914), pp. 99—106.

30.—**Naphtali Lewis** : Greeks in Ptolemaic Egypt ; Case Studies in the Social History of the Hellenistic World, New York, Clarendon Press of Oxford University Press, 1986.

31.**Noshy** (.I.) : "Alexander and the Oasis of Amon", Annales of the Faculty of Letters, Univ. of Ibrahim, II, (.1953), pp. 75—98.

32.—**Otto** (W.) and **Bengston** (H.) :
Zur Geschichte des Niederganges des Ptolemaerreiches Munchen, 1938.

33.—**Peremans** (W.) : "Les Revolutions Egyptienne sous les Lagides", Das Ptolemaische Aegypten, Internationales Symposium, Mainz am Rheim (1978).

34.—**Plauman** (G.) : Ptolemais in Oberaegypten, Leipzig, 1910.

35.—**Parsons** (E. Alexander) : The Alexandrian Library, London, 1952.

Preaux (C.) :

36.—"Un Probleme de la Politique des Lagides : la Faiblesse des edits [Atti del IV Congresso Internationale di Papirologia (1936)

37.—L'Economie Royale des Lagides, Brussels (1939).

38.—"Les Egyptiens dans la Civilization Hellenistique d'Egypte *Chronique d' Eggpte*, XVII, 35 (1943), pp. 148—160.

39.—Les Grecs en Egypte d'apres les archives de Zenon, Bruxelles (1947).

40.—"La Significaticn de l'epcque d'Evergete II", ['Actes du V Congres Internaticnal de Papyrclcgie].

Rostovtzeff (M.) :

41.—"Ptclcmaic Egypt, in Cambridge Ancient History, Vol. VII pp. — 109 154.

42.—A Large estate in Egypt in the Third Century B.C., A. Study in Econcmic History, Madison, 1922.

43.—**Siebert** (J.) : Ncchmals klecmenes von Naukratis'i Chiron, II, (1972), pp.99—102.

44.—**Seidl** (E.) : Ptolemaeische Rechtsgeschichte, Evlangen(1947.)

45.—**Segre** (A.) : Note Sull' econcmia dell, Egitto ellenistico nell, eta tolemaica *Annual of the British School of Athens*, 29, (1934), pp. 257—305,

46.—**Schnebel**, (M.) : Die Landwirtshaft in Hellenistischen Aegypten, Münchener Beitrage, 7, (1925).

47.—**Stambaugh**, J.E. : Sarapis under the Early Ptolemies, Leiden 1972.

48.—**Swarney**, P.R. :
The Ptolemaic and Roman Idios logos (American Studies in Papyrology, Vol. 8), Toronto, 1970.

49.—**Tarn**, (W.W) :
"Ptolemy II and Arabia", *J.E.A.*, XV, pp. 9—25.

50.—"Alexander, the Great and the Unity of mankind". (Proceedings of the British Academy, XIX, 1933, pp. 123—166.

51.—**Tauberschlag**, (*R.*) :
The Law of Graeco-Roman Egypt in the light of Papyri from 332 B.C. — 640 A.D., 2nd edition, Warsaw, 1955.

52 —**Thomas**, W(J.D) :
The Epistrategos in Ptolemaic and Roman Egypt, I ; The Ptolemaic Epistrategos, Westdeutcher, Verlag, 1975.

53.—**Visser** (Elizabeth) :
Götter und Kulte in Ptolemaischen Alexandrien, Amsterdam, 1938 (Allard Pierson Stichting Universit., Von Amsterdam Archaeologischen und Hist Byaragen), 1938.

54.—**Vogt**, (J.) :
"Kleomenes von Naukratis Herr von Aegypten", Chiron, ,I 1971.

55.—**Vidal-Naquet**, (P.) :
"Le Bordereau d'Ensemencement dans l'Egypte Ptolemaique", (Papyrologia Bruxellensia, V), Bruxelles, 1967.

56 —**Van't Dack**, (E.) :
"Recherches sur les Institutions de Village en Egypte Ptolemaique", (Studia Hellenistica, VII), 1951.

57.—**Westermann** (W.L.) :
"The Ptolemies and the Welfare of their Subjects", [Actes du Veme Congres International de Papyrologie, pp.565—579 [, .Reviewed in the American Historical Review,Vol. XLIII, (1938),pp, 270—287.).

58.—The Library of Ancient Alexandria, Alexandria, 1954.

59.—"Land Reclamation in the Fayoum under Ptolemy Philadelphus and Euergetes", Classical Philology, 12, (1917) pp.i 426—430.

60.—Entertainment in the Villages of Graeco-Roman Egypt", J.E.A. Vol. XVIII, (1932), pp. 16— 27.

* * *

الفصل السادس

امبراطورية السليوقيين فى آسيا الصغرى
والشرق الأدنى فى العصر الهللينستى
٣١٢ ق ٠ م - ٦٤ ق ٠ م

الصراع على الشام بعد موت الاسكندر :

كانت الشام طوال القرنين اللذين حكم فيها الفرس (٥٣٤-٣٣٢) قبل الميلاد ، وكذلك طوال الفترة التى حكم فيها الإسكندر المقدونى ، بل وخلال المرحلة القصيرة التى اعقبت موته - كانت ستر ابيه اى ولايه ذات كيان واحد ويحكمها ستراب (اى والى) Satrap .

وفى مؤتمر بابل الذى عقد بعد موت الإسكندر قسمت ولايات الإمبراطورية بين ورثته ، وكان إقليم جوف سوريا Koile Syria (سهل البقاع وكذلك الساحل الممتد من لبنان حتى غزة) من نصيب ضابط صغير اسمه لاءوميدون ، أما إقليم بابل فقد كان من نصيب قائد معروف اسمه سليوقوس Seleucus ؛ غير أن بطليموس الأول لم يكن راضياً عن فصل جنوب الشام (على الأقل) عن مصر ، فقد كانت أغلب أقاليم الشام تابعة لامبراطورية الفراعنة التى أصبح بطليموس الأول وريثاً لها ؛ كما أدرك بطليموس أهمية الشام الاستراتيجية لحماية مصر ؛ كما كان فى حاجة ماسة إلى أخشاب الأرز التى تنمو فى جبال سوريا ولبنان من أجل بناء الأساطيل ؛ كما كان أيضاً فى حاجة ماسة إلى مناجم سيناء وفلسطين ؛ وفى حاجة ماسة لاستغلال الطريق التجارى الذى شيده الفرس والذى كان يربط بين الخليج وغزة ، حيث تأتى تجارة الشرق الأقصى ؛ كذلك أدرك بطليموس أن استيلاءه على الشام سوف يجعل مصر تتحكم فى نهاية طريق البخور الشهير ، والذى كان يبدأ من موانئ اليمن ويسير شمالا محاذياً جبال السراة ، ماراً بمكة ويثرب حتى مدينة غزة . ولهذا حاول فى

البداية إغراء لاعوميدون بالذهب لكى يترك له جوف سوريا ، غير أن هذا الأخير رفض . وبعد سقوط برديكاس المفوض العام على امبراطورية الإسكندر قتيلا فى ربيع عام ٣٢١ ق . م خلال التمرد الذى حدث فى معسكراته ، والذى قاده إثنان من كبار مساعديه وهما سليوقوس وبيثون (وقد حدث هذا التمرد فى صحراء منف فى مصر وذلك على اثر فشل برديكاس فى غزو مصر وإقصاء بطليموس عنها) ، عقد الحلفاء مؤتمرا آخر لإعادة توزيع ممتلكات الامبراطورية وتم هذا المؤتمر فى مدينة الفردوس المثلث Triparadeisos على نهر العاصى فى شمال سوريا عام ٣٢١ ق . م . وكان من بين قرارات المؤتمر منح انتيجونوس الأعور (وكان يشغل منصب القائد الأعلى للقوات المقدونية فى آسيا الصغرى) ولايتى سوريا وبلاد الرافدين ، على أن يساعده لاعميدون فى حكم جوف سوريا (أو سوريا الحالية) ، وسليوقوس فى حكم ولاية بابل — اغنى ولايات الشرق الأدنى .

ولما مات أنتيباتر الوصى العام على الملكين القاصرين (وهما الإسكندر بن الاسكندر ، وفيليب أرهيدايوس شقيق الاسكندر) فى صيف عام ٣١٩ ق . م ، أسدل الستار على قرارات مؤتمر تريباراديسوس ؛ وأصبح كل واحد من الزعماء الورثه فى حل من أمره ؛ عندئذ لاحت لبطليموس الأول فرصة الاستيلاء على جوف سوريا ، خاصة وأنه كان قد أتم بناء جيش قوى فى مصر من المرتزقة وبقايا الفيالق المقدونية ؛ كما كان قد أتم تكوين نواة لأسطول بحرى ؛ وانتهز فرصة انشغال أنتيجونوس فى دعم قواعد حكمه شرق نهر الفرات ، وبدأ يجس نبض لاعوميدون . عامل أنتيجونوس على اقليم جوف سوريا — وعرض عليه ان يتنازل له عن هذا الإقليم مقابل مكافأة مالية كبيرة ؛ فلما رفض تقدم بقواته فاستولى على هذا الأقليم ، فهرب لاعوميدون ؛ كما تقدم بقواته فاستولى على اقليم فينيقيا بسواحله وموانيه الهامة ، وهرب حاكمه ملياجروس ، وقد حدث ذلك فى أواخر عام ٣١٩ ق . م وأوائل عام ٣١٨ ق . م . ومن المعتقد أنه خلال هذه الحملة دخل أورشليم القدس فى أحد أيام السبت حيث يرفض اليهود القتال فى ذلك اليوم المقدس

عندهم ، وبدأ بطليموس يتطلع لإكمال قبضته على الشام باحتلال جزيرة قبرص ، تلك الجزيرة ذات الخلجان الطبيعية ، التى تهئ لها موانى مثاليه ، فقد كان بطليموس يدرك أن من يريد التحكم فى الشرق الأدنى لا بد له من السيطرة على قبرص ؛ فقد فعل ذلك الفراعنه ، والأشوريون ، والفينيقيون والفرس . كما أن الاسكندر الأكبر فى فتحه للشرق حرص على طرد الفرس من قبرص لأنها مفتاح الطريق إلى مصر والشام . كما أن الاستيلاء عليها ضرورى للسيطرة على بحر إيجة ، فقد كانت قاعدة مثالية للأسطول المصرى ، فضلا عن غناها بمناجم الفضة والرصاص ، بالإضافة إلى توفر أخشاب الأرز الضرورية لبناء الأسطول . وكانت قبرص منذ أن دخلها الاسكندر منقسمة إلى تسعة ممالك صغيرة ، ونظراً لتعاون ملوكها مع الحلفاء ضد برديكاس أعلن المجتمعون فى تريباراديسوس احترامهم لاستقلال قبرص ، بل كرموها بدعوة ممثليها لحضور مؤتمر تريباراديسوس ؛ ولذلك اعتبر أنتيجونوس استيلاء بطليموس على جوف سوريا وفينيقيا عدواناً يخل بتوازن القوى بين المتصارعين ، وعقد العزم على محاربته وطرده من الشام مهما كلفه ذلك الأمر .

قيام الامبراطورية السليوقية فى شمال الشام والرافدين عام ٣١٢ ق. م :

كان سليوقوس بن أنطيوخوس (٣٥٨ — ٢٨٠ ق.م) الملقب بالذباح — Nikator أحد الفرسان المقدونيين المقربين من الاسكندر الأكبر ؛ وكان من بين القادة الذين اصطحبوه فى حملته على الشرق الأدنى ؛ لكنه لم يكن من بين كبار القادة المتصارعين على وراثة الاسكندر ؛ ولذلك لم يمنح منطقة كبرى ، وإنما عينوه على ستراببة بابل عام ٣٢١ ق.م طبقاًلقرارات مؤتمر تريباراديسوس ، على أن يكون تابعاً لأنتيجونوس ، وبالفعل حارب الى جانب سيده ضد يومينيس ، غير أن أنتيجونوس أدرك أن سليوقوس قائد طموح ، يحلم مثل سائر الرفاق ببناء أمبراطورية تحت قيادته ، ولذلك قام بطرده من بابل عام ٣١٦ ق.م ، فهرب الى بلاط بطليموس الأول فى مصر . ولما كان بطليموس يدرك يوماما أنه سوف يخوض حربا

مريرة مع منافسه أنتيجونوس ، فقد رحب بقدوم سليوقوس إليه ، واحتفظ به لليوم الذى يحتاجه فيه ، عندما يعده ويجهزه بالمال والعتاد ثم يطلقه على أنتيجونوس ليقضى عليه ؛ وبالفعل أمده بطليموس بالأموال اللازمة وبألف من الجنود ، أنطلق بهم سليوقوس الى بابل ، وخلال طريقه إليها ؛ إنضم إليه كثيرون من المرتزقة ، وإقتحم سليوقوس أقليم بابل فى عام ٣١٢ ق.م واستولى عليه ، ونصب نفسه عليه ستراپا ، ولذلك عندما وضع السليوقيون لحكمهم تاريخا ، اتخذوا من عام ٣٣٢ ق.م (اى العام الحادى عشر من موت الاسكندر الأكبر) تاريخ قيام هذا الحكم . وخلال السنوات العشر التى

تلت عودة سليوقوس نيكاتور الى عرش بابل ، عمل بحماس شديد لتوسيع حدود مملكته شرقا فى بلاد فارس ، فاستولى على اقليم ميديا ، واقليم سوسيانا ، كما مد نفوذه على مساحات شاسعه من الشرق الأدنى فى بلاد الرافدين وشمال الشام . وكان من الطبيعى أن يتحالف سليوقوس مع أعداء انتيجونوس الذين فتكوا به فتكاً فى معركه إيسوس عام ٣٠١ ق.م ، وعلى أثر هذه المعركة ، أعيد تقسيم الأمبراطوريه المقدونيه بين من تبقى من الورثه فورث سليوقوس ممتلكات أنتيجونوس فى بلاد الرافدين وشمال الشام ؛ وتوسع غربا ليصل الى مياه البحر المتوسط بالأستيلاء على سواحل سوريا وآسيا الصغرى ، خلال عام ٢٩٦ ق.م ؛ وبذلك قامت الامبراطورية السليوقية. غير أن سياسة سليوقوس كانت تتركز فى الاهتمام الخاص بشمال الشام وآسيا الصغرى ؛ فقد أسس فى عام ٣٠٠ ق.م عاصمه كبرى هى نطاكيه ؛ كما اقام ميناء لها على البحر سرعان ماتحول الى مدينة هى مدينة « سليوقية بيريه » وكان هدف سليوقوس من بناء انطاكية هو بناء مدينة موازية لمدينة كبرى كان قد بناها على ضفاف دجلة عام ٣١٢ ق.م على اثر دخوله إلى اقليم بابل ، حيث كان يخطط لجعلها العاصمة لأمبراطوريته ، ومركزا لاشعاع الحضارة الاغريقية فى بلاد الرافدين والشام ، وكبديل حضارى وتجارى لمدينة بابل القديمة ، وفى مواجهة طيسفون الفارسية . وقد وصفها الجغرافى استرابون بأنها مركز للشحن البحرى ؛ لكنه بعد ان اولى اهتمامه بالشطر الغربى

— بعد معركة أيسوس — أقام انطاكية وميناءها سلوقية بيريه للسيطرة على شرق البحر المتوسط.

ومن الجدير بالذكر أن مؤتمر الحلفاء المنتصرين الذين اجتمعوا بعد معركة ابسوس، رفضوا الاستجابة لمطلب بطليموس وهى حقه فى الاحتفاظ بالمنطقة الجنوبية من الشام — والتى تشمل فلسطين وساحل لبنان وموانيه حتى غزة — نظراً لتقاعسه عمداً فى الاشتراك فى المعركة الفاصلة ضد انتيجونوس ومن ثم حرموه من جنى بعض ثمار النصر ؛ وكانت حجة بطليموس أن هذا الجزء كان تابعاً لمصر منذ أيام الفراعنه ؛ وبما أنه يحكم بصفته وريثا لامبراطوريتهم ، فانه يطالب بهذا الجزء من الشام ؛ ومن قبل وصل تحتمس الثالث حتى مياه الفرات ، حيث شاهد النهرين المقلوبين (يقصد دجلة والفرات اللذين ينبعان من مرتفعات الشمال ويصبان فى الجنوب على العكس من نهر النيل) .

ولم ينتظر بطليموس استجداء منافسيه ليعيدوا إليه حقه التاريخى ، فاجتاح بقواته سهل البقاع Koile Syria ولم يتحرك سليوقوس لطرد بطليموس من الشام التى اعتبرها كلها ملكا له ، ورثها عن انتيجونوس ، وكان سكوته تعبيرا عن امتنانه للمساعدة التى لقيها من جانب بطليموس عندما كان لاجئا فى قصره ، لكنه فى نفس الوقت أعلن عدم شرعية الوجود البطلمى فى الشام ؛ ولهذا فان خلفاء سليوقوس لم يألوا جهدا فى العمل على طرد البطالمة من الشام ؛ بينما تشبث البطالمة بهذا الجزء الجنوبى ودافعوا عنه ؛ وقامت بسبب ذلك خمسة حروب شرسة عرفها المؤرخون باسم الحروب السورية ، والتى ظلت محور الصراع بين البطالمة والسليوقيين ، والتى اتسع نطاقها لتدخل فيها اطراف اخرى خاصة الأنباط والسبئيين .

التحالف بين الأنباط والسليوقيين :

ذكر ديودوروس الصقلى(١) ان انتيجونوس الاعور ، الذى كان يبسط سيادته على الشام ، أرسل حملة بعد عام ٣١٢ ق.م بقليل لتأديب الأنباط .

(١) Diodorus Sicus, XIX,94 - 100 .

فى قلعتهم وعاصمتهم البتراء (سلع بالأراميه) ، وضرب الحصار حول هذه القلعه العاصمه حيث يحتمى الأنباط ، واستولى على كنوزهم من الفضه والتوابل ؛ ويبدو أن سبب هذه الحمله هو أن الأنباط كانوا يعملون بقطع الطرق التجارية ، وسلب القوافل ؛ ولم تستطع الحملة الاستيلاء على قطعانهم وابلهم لأنها كانت ترعى فى بطن الوادى ؛ ورد الأنباط على هذه الحملة بأن فاجأوا معسكر الحملة ، وفتكوا بعدد كبير من رجالها ؛ وبعد ذلك — كما يقول ديودوروس — بعث شيوخ الأنباط برسالة مكتوبه باللغه الآراميه — لغتهم القوميه — طالبين اقامه السلام ، ورد أنتيجونوس عليهم برساله أكد فيها حسن نيته تجاههم ، وبعد ذلك قام دمتريوس ابن انتيجونوس بغارة أخرى على الأنباط ، انتهت بعقد هدنه معهم مقابل هدايا ثمينه ، وعدد من الرهائن ؛ وقد تحولت هذه الهدنه الى حلف دائم . وبعد استلام سليوقوس الأول حكم الشام ، أصبح الأنباط على رأس القوميات التابعه لحكم السليوقيين ، وتصدوا نيابه عنهم للبطالمه ، الذين كانوا يكنون لهم كراهيه وعداء شديدين ، كما إنضم للسليوقيين فى حروبهم ضد البطالمه — العرب السبأيون فى اليمن ، وكانوا شركاء فى تجارة القوافل مع الأنباط ، بينما وقف الى جانب البطالمه السبأيون الشماليون والثموديون الذين كانت عاصمتهم ديدان (مدينه العلا فى الحجاز) وظلت الحروب بين السليوقيين والبطالمه مستعرة الى أن تمكن الملك السليوقى القوى انطيوخوس الثالث من هزيمه بطليموس الخامس فى معركه بانيون الشهيرة عام ٢٠٠ق.م ، والتى وضعت نهايه للوجود المصرى فى جنوب الشام بعدما يقرب من قرن من الحروب ؛ غير أن البطالمه المتأخرين لم يفقدوا الأمل فى استعادة الشام ، ولم يتوقف عداء الأنباط للبطالمه ، فقد انقذ الأنباط يوليوس قيصر عندما حوصر فى الاسكندريه عام ٤٧ ق.م ، وساعدوه فى هزيمه الملك بطليموس الثالث عشر شقيق كليوباترا السابعه ، بل أن الأنباط هم الذين ساعدوا اكتافيوس أغسطس عندما دخل مصر من الشام عام ٣٠ ق .م ، حيث قاموا بحرق أسطول كليوباترا الذى كان راسيا

فى مياه خليج السويس ، وبذلك فقدت الملكه المصرية آخر أمل لها وهو الهروب بأسطولها سالما الى الجنوب لقيادة المقاومه من هناك ضد الرومان .

سياسة سليوقوس نيكاتور المؤسس للامبراطورية :

استخدم سليوقوس المؤسس كل السبل لبناء أمبراطورية كبرى فى الشرق الأدنى ، فالى جانب الحروب والتحالفات ، لجأ الى سلاح المصاهرات ، فقد تزوج فى عام ٢٩٨ ق.م من ستراتونيكى ابنة دمتريوس بن أنتيجونوس ليقوى مركزه كوريث لحكم الشام . ولهذا فان اهتمامه بعد معركة ابسوس الشهيرة تركز على غرب الشام وشمالها وشرقها ، ومن أجل ذلك تنازل عن ممتلكاته فى الهند للملك الهندى الشهير تشاندراجوبتا Chandragupta حوالى عام ٣٠٤ ق.م . ولقد توج سليوقوس توسعاته بالأستيلاء على شبه جزيرة الأناضول (آسيا الصغرى) ، وذلك بعد معركة كوروبيديون الشهيرة عام ٢٨١ ق.م ، والتى هزم فيها آخر اعدائه وهو لوسياخوس ، وانتزع ممتلكاته فى آسيا الصغرى وكذلك عاصمته لوسياخيا ؛ ولم يكن لطموح سليوقوس حدود ، فقد اراد ان يستغل الفراغ الذى حدث بعد مصرع لوسياخوس ويفرض سلطانه على مقدونيا موطن الاسكندر المقدونى ، والتى كان يتطلع لحكمها كل ورثه الاسكندر ؛ فقام بغزو شمال اليونان ، بيد أنه لقى مصرعه عام ٢٨٠ ق.م ابان هذه الحملة على يدى بطليموس كيراونوس Ptolemy Keraunos أى بطليموس الصاعقه ، وهو ابن بطليموس الأول من زوجته الأولى يوريديكى والذى كان يسعى هو الآخر للجلوس على عرش مقدونيا .

ويرى المؤرخون ان اعمال سليوقوس وفتوحاته لايدانيها سوى فتوحات الاسكندر الأكبر ، فقد اعاد جمع شتات فتوحات الاسكندر فى آسيا والشرق الأدنى وحماها من الاندثار . ويرون ان امبراطوريته كانت مزدوجة فهى أسيويه واوروبيه فى نفس الوقت ، وهذا ينعكس فى تصرفاته مثل زواجه من الأميرة الاسيوية البكترية (الافغستانية) آباما Apama ، والتى ظلت

زوجته منذ عام ٣٢٤ ق.م ، ولم يتخل عنها ابدا ، وفى نفس الوقت أتم زواجه من ستراتونيكى المقدونية ، وكذلك فى عاصمتيه سليوقية على نهر دجلة عاصمة المشرق الأسيوى ، والعاصمه الكبرى أنطاكية المطلة على البحر المتوسط والتى نقل إليها مقر عرشه ، لكنه على النقيض من الاسكندر الاكبر كان يعتمد فى بناء جيوشه ، وتعمير مدنه التى أقامها ، على العنصر المقدونى والمهاجرين الاغريق ، كما ورث النظام البيروقراطى من حضارة الشرق . ويتفق المؤرخون على أنه كان أكثر خلفائه تسامحا وعطفا ومقدرة وشهامة .

٢ — أنطيوخوس الأول الملقب باسم سوتير ٢٨٠ — ٢٦١ ق. م :

وبعد موت سليوقوس نيكاتور مؤسس الأسرة ، تولى من بعده ابنه انطيوخوس الذى انجبه من زوجته البكتيريه اباما عام ٣٢٤ ق.م . وكان أبوه قد اختارة فى عام ٢٩٣/٢٩٢ ق.م نائبا عنه لحكم المقاطعات الشرقية ، ولهذا تأثر بالشرق واحبه خاصة وان امه يجرى فى عروقها دماء . فارسيه شرقيه . كما انه تزوج من أرمله أبيه ستراتونيكى المقدونية ولاندرى هل كان ذلك لأسباب عاطفية أم سياسية ، وذلك على أثر جلوسه على العرش عام ٢٨٠ ق.م ، ولهذا كانت سياسته على عكس سياسه أبيه وهى الاستدارة نحو الشرق على حساب ممتلكاته فى غرب الفرات وآسيا الصغرى ، كما يعتبر انطيوخوس سوتيرهو واضع أساس سياسة الصداقة والتحالف مع مقدونيا ، التى كانت من أهم معالم السياسه السليوقية ، وذلك عندما عقد معاهدة فى عام ٢٧٩ ق.م مع أنتيجونوس جوناتاس إبن ديمتريوس وحفيد أنتيجونوس الكبير ، وربما لعبت ستراتونيكى الجميلة — ابنة ديمتريوس وأرمله أبيه وزوجته — دوراً فى بناء هذا التقارب السليوقى المقدونى . ولما تعرضت آسيا الصغرى لاجتياح قبائل الغال فى عام ٢٧٦ ق.م ، تصدى لهم بشجاعة وانتصر عليهم بأفياله الضخمه التى اتى بها من الهند ، ودربها حتى اصبحت السلاح القوى ، والقلاع المتحركة لقواته . ولقد عرف ذلك الانتصار باسم انتصار الفيلة . وهلل له العالم الاغريقى فى آسيا الصغرى ومنحوه لقب المنقذ Soter ، وفيما بين اعوام ٢٧٦ — ٢٧٢ ق.م ، دخل فى حروب ضد بطليموس

الثانى فيلاد لفوس من اجل طرد البطالمه من جنوب الشام ، والتى حقق فيها فيلاد لفوس انتصارات مذهلة ، حتى كاد انطيوخوس الأول أن يفقد شمال آسيا الصغرى وجنوبها وسواحلها الغربية ، خاصة فى حروب أعوام ٢٦٦ — ٢٦١ ق.م . وبالرغم من ذلك فقد كسب انطيوخوس الأول شهرته كأعظم مؤسس المدن الحضارية فى الشرق الأدنى والخليج منذ الاسكندر المقدونى ، فقد انتشرت عشرات المدن الأغريقيه فى اصقاع الامبراطورية الشرقية . فى أقليم باكتريا (أفغانستان) ، وسوجديانا (شمال غرب ايران) للدفاع عن أطراف الامبراطورية الشرقية ، كما انتشرت مدن أخرى فى اقليم ميديا فى قلب إيران لحراسه طرق التجارة الحيوية ، ولردع القبائل الجبليه من تعكير صفو السلام . وتلألأت مدن أخرى فى آسيا الصغرى وحول الخليج العربى ، وفى الشام ، وربطت بينها شبكة من الطرق البرية لتسهيل التعبئة العسكرية عند الحاجة ، فقد كانت هذه المدن الاغريقية تمثل العمود الفقرى للأمبراطوريه السليوقيه ، ولم تكن هذه الحواضر ذات أهداف دفاعيه وعسكريه فحسب ، بل قصد بها أن تكون منارات لاشعاع الحضارة الأغريقية بين الشعوب الشرقيه ، فقد هجر إليها المقدونيين ، والمستوطنين الأغريق ليعيشوا جنبا الى جنب مع شعوب الشرق ، وحرص السليوقيون على جعل هذه الحواضر الأغريقية مدنا Polcis بكل ماتحمله الكلمة الإغريقية من معنى ، فقد منحوها المؤسسات الدستوريه المعتادة لكى تحكم نفسها بنفسها دون أدنى تدخل من الملك ، وجعل اللغة الأغريقية اللغة الرسمية فى تلك الحواضر حتى وان كان شطرا كبيرا من سكانها من الشعوب الشرقية ، وإذا كانت هذه الحواضر قد فشلت فى الهند وماحولها ، الا أنها نجحت نجاحا باهرا فى الشرق الأدنى ، إذ بقيت تشع الحضارة الأغريقية طوال عصور السليوقيين والرومان والبارثيين ، بل تركت أثرها فى تشكيل التراث العربى الاسلامى ، وسوف نعالج فيما بعد ظاهرة بناء الحواضر السليوقيه . وفى أواخر حياته اختار أكبر أبنائه سليوقوس لكى يكون نائبا عنه لحكم الشرق الأدنى وأقاليمه النائية ، غير أن هذا الابن أثبت فشلا ذريعا فى معالجة أمور الحكم ، مما أدى إلى محاكمته واعدامه بتهمة الخيانة العظمى واهمال

شئون الحكم ، ومن ثم فقد اختار ابنه الثانى ليتولى العرش من بعده باسم انطيوخوس الثانى .

٣ ـ أنطيوخوس الثانى الملقب باسم الرب (Theos) :

كان انطيوخوس الثانى هو الابن الثانى لأبيه انطيوخوس الأول من زوجته المقدونية ستراتونيكى ، وبدأ حكمه بعد وفاة ابيه فى عام ٢٦٢ او ٢٦١ ق.م وتعتبر فترة حكمه أكثر فترات الحكم السليوقى غموضا . ولا نعرف تفاصيلها الا من خلال حروبه مع مصر ، فقد كانت فترة حكمه قد الصراع فيما يعرف بالحرب السورية الثانية ٢٦٠ — ٢٥٥ ق.م ، حيث تحالف انطيوخوس الثانى مع انتيجونوس جوناتاس ملك مقدونيا لتوجيه ضربه للنفوذ البطلمى فى آسيا الصغرى وبحر ايجة ، وبالفعل نجح انطيوخوس فى تأليب مدن آسيا الصغرى الأغريقية ضد الوجود والنفوذ البطلمى فيها ؛ واندلعت الثورة ضد بطليموس الثانى على طول ساحل ايونيا ، وبذلك تمكن أنطيوخوس الثانى من استرجاع المناطق التى كان ملك مصر بطليموس الثانى قد استولى عليها فى آسيا الصغرى خلال الجولة الأولى من الحرب السورية الثانية ؛ ولم يكتف الملك السليوقى بما حققه من النصر ، بل هاجم جنوب الشام واستولى على فينيقيا ، وأصبح ساحل الشام حتى صيدا جنوبا تحت سيطرته ، ثم نقل الحليفان السورى والمقدونى حربهما ضد بطليموس الثانى إلى شمال افريقيا ، حيث شجعا على حركه التمرد ضد الحكم البطلمى فى قورينى التى نبذت السيادة المصرية وأعلنت استقلالها عن مصر ، وظلت كذلك حتى أعادها بطليموس الثالث عام ٢٤٦ ق.م مرة أخرى الى السيادة المصرية.وفى خلال انشغال بطليموس الثانى بقمع الثورة فى قورينى ، تمكن أنطيوخوس الثانى من تحريض جزيرة رودس لنبذ تحالفها مع مصر بهدف قطع الطريق البحرى على لأسطول المصرى وحرمانه من قواعدها ، وبذلك يفقد قدرته على الدفاع عن ممتلكات مصر الممتدة على ساحل آسيا الصغرى خاصه ايفيسوس وميليتوس . وعندما حاول الأسطول البطلمى التصدى لهذا الحصار البحرى ، كان الأسطول المقدونى له بالمرصاد ، حيث أوقع

أسطول انتيجونوس جوناتاس به هزيمة بحرية ساحقة عند جزيرة كوس فى بحر إيجة عام ٢٥٨ ق.م وأجبر بطليموس فيلا دلفوس على قبول صلح مهين تنازل بمقتضاه عن ممتلكات مصر فى آسيا الصغرى لأنطيوخوس ؛ كما تنازل عن حق السيادة البحرية على جزر بحر إيجه للملك المقدونى ، ولم يتبق لمصر من ممتلكات سوى جزيرة ثيرا ، ومقاطعة كاريا ، وليكيا فى آسيا الصغرى ، وبعض الجيوب الصغيرة جنوب الشام ، ولذا شجع نجاح سياسة التحالف بين انطيوخوس الثانى وانتيجونوس جوناتاس ضد مصر على توثيق عرى الصداقة بينهما بالتصاهر على طريقة ملوك العصر الهلينستى ، ففى عام ٢٥٣ ق.م زوج انتيجونوس جوناتاس ابنه الشهير ديمتريوس من الأميرة ستراتونيكى ابنة انطيوخوس الثانى ، وكان الزواج محل رضا الوالدين ؛ فمن ناحية ، كان الملك السورى يتمنى أن تنجب ابنته ولدا يجلس يوما ما على عرش مقدونيا ؛ أما انتيجونوس جوناتاس فقد كان فى حاجة ماسة الى حليف قوى مثل الدولة السليوقية حتى يوقف بطليموس عند حده ، ويدعم من حكم أسرته ، حتى يتفرغ لأمله الكبير وهو توحيد الأغريق ومقدونيا فى جبهة قومية تقف ضد خطر الرومان المتنامى فى الغرب . وابتهاجا بهذا الزواج اقام أنطيوخوس الثانى مهرجانا قوميا فى دلفى على شرف ابنته ستراتونيكى ؛ ومن الجدير بالذكر أن دلفى التى كانت مركزاً لعبادة أبوللون ، كانت من بين الممتلكات التى انتزعت من بطليموس الثانى بعد هزيمة الأسطول المصرى فى كوس عام ٢٥٨ ق.م .

مصاهرته للملك بطليموس الثانى :

كانت سياسة بطليموس الثانى هى افساد التحالف السورى المقدونى ، وحياكة المؤامرات السياسية ضد خصومه ، ففى عام ٢٥٢ ق.م قام بتحريض مدينة كورنثا على رفع لواء الثورة ضد مقدونيا ، والاستيلاء على أساطيلها ؛ وتحريض باقى المدن الأغريقية على الثورة ، وفى نفس الوقت لجأ فيلاد لفوس الى اغراء انطيوخوس الثانى على هجر زوجته لاءوديكى ، التى كان قد انجب منها ولدين وبنتين ، (وكان أكبرهما مرشحا لخلافه العرش من بعده) ، لكى يزوجه من ابنته الجميلة بيرينيكى التى حملت معها الى انطاكية مهراً كبيراً

لزوجها الملك السورى ، كان من بينها بالطبع تنازل مصر عما فقدته من ممتلكات فى آسيا الصغرى والشام ، وذلك حفظا لمـــاء وجه الملك البطلمى ؛ كما كان يأمل ان تنجب له ابنته ولدا يجلس على عرش المملكة السليوقية ، وبالفعل نجحت الأميرة الصغيرة من الاستحواذ على قلب انطيوخوس الثانى وجعلته يقوم بأبعاد زوجته السورية لاعوديكى واولادها من أنطاكية مقر العرش الى افسوس ؛ وهناك باتت لاعوديكى تدبر المؤمرات ضد بيرينيكى ابنة بطليموس ، التى كانت بالفعل قد أنجبت ولدا اعلن انطيوخوس عن اختياره للخلافة . فقد كانت لاعوديكى مصرة على ان يؤول العرش الى أكبر ابنائها ولو ادى ذلك الى تدبير مذبحة للملكة المصرية وأولادها . وهكذا لانعرف عن أنطيوخوس الثانى سوى حروبه مع بطليموس فيلا دلفوس ، وتحالفه مع أنتيجونوس ، والحاقه الهزيمة بممتلكات البطالمة فى الشام وآسيا الصغرى ؛ ثم زواجه من ابنة بطليموس ؛ وأخيرا فى ربيع عام ٢٤٧ ق.م لقى الملك أنطيوخوس الثانى مصرعه فى ظروف غامضه فى مدينة افسوس ؛ وربما كان ذلك من تدبير زوجته لاعوديكى ، فقد كان النزاع على العرش بين زوجتيه السورية والمصرية قائما ، كل تريد أن يتولى ابنها العرش . فقد قيل أن لاعوديكى نجحت فى الشهور الأخيرة قبل مقتله من استمالته إليها ؛ وعودته الى الاقتناع بأن يورث العرش من بعده لأكبر أبنائه منها وهو سليوقوس الثانى ؛ ولهذا دبرت مقتله حتى لايرجع مرة أخرى عن قراره الأخير تحت تأثير زوجته المصرية ؛ ولقد ساعد على ذلك أن الملك بطليموس فيلا دلفوس كان قد مات قبل ذلك بشهور قليلة فى شتاء عام ٢٤٧ ق.م وفقدت ابنته الكثير من نفوذها بعد موت أبيها .

٤ — سليوقوس الثانى الملقب باسم كالينيكوس Callinicus

هو الابن الأكبر للملك أنطيوخوس الثانى من زوجته لاعوديكى الذى تولى العرش بعد نجاح أمه فى تدبير مصرع بيرنيكى وابنها مما أدى الى اندلاع الحرب السوريه الثالثه ؛ فقد كانت بيرينيكى المصرية قد بعثت الى اخيها بطليموس

الثالث تطلب النجدة من الملكة لاءوديكى القاتلة ، والتى لقيت بدورها مصرعها على ايدى بعض الجنود الثائرين ، واستغل بطليموس الثالث الفرصة بستعيد ممتلكات مصر فى الشام وآسيا الصغرى ، فاجتاح بقواته البريه الشام ، معلنا أنه جاء بدعوة لأستخلاص العرش من مغتصبيه ، بينما طلب من شقيق له كان يحكم قبرص أن يتحرك بالأسطول صوب انطاكيه وميناءها سليوقية ، واجتاح بطليموس سوريا حتى جبال طوروس شمالا ، حيث استولى على كيليكيا ، ثم اندفع شرقا صوب نهر الفرات وعبره ، حتى وصل الى العاصمة الشرقية سليوقية على نهر دجلة ، ولكنه فجأة استدار عائدا إلى مصرفى نهاية عام ٢٤٥ ق.م ، وقيل أنه عاد ليقمع ثورة قامت فى غيابه ؛ وأغلب الظن أنه عاد بسبب المجاعة التى حدثت فى مصر ذلك العام بسبب نقص الفيضان ؛ ومهما كانت الأسباب ، فقد انتهز الملك السورى سليوقوس الثانى الفرصة واستعاد كل ماسلب منه . وتعاطف معه كثيرون من شعوب أمبراطوريته الذين أيدوه . وفى ضوء ذلك بدأ سليوقوس يدعم مركزه فى آسيا الصغرى ، وذلك بالرغم من انفصال افيسوس عنه ، وانضمامها الى بطليموس نتيجة لخيانة حاكمها . وعلى رأس المدن التى وقفت مع سليوقوس الثانى مدينة سمرنة (إزميت الحديثة) وماحولها . وكان عليه ان يشترى تأييد متريداتيس ملك بنطوس بأن زوجه من اخته لاءوديكى الصغرى ، واعترف بقيام مملكة بنطوس (جنوب البحر الأسود) على حساب جزء من الامبراطورية السليوقية ، مضحيا بذلك من أجل تأمين ظهره حتى يتفرغ لاستعادة الشام . وبالفعل بدأ فى اعداد أسطول قوى تمكن به من استعادة شواطئ سوريا عام ٢٤٤ ق.م ؛ وفى عام ٢٤٣ ق.م دخل سوريا منتصرا كوريث شرعى لعرش أنطاكية . وخلال شهور قليلة تمكن سليوقوس الثانى من تطهير الجيوب البطلمية المتبقية فى الشام ، وتمكن من استعادتها كلها فيما عدا فينيقيا والساحل السورى حتى حدود فلسطين جنوبا ، والذى كان قد تخلى عنه مؤقتا لبطليموس الثالث . وربما ساعد سليوقوس الثانى فى نجاح عملياته العسكرية ، نجاح حليفه المقدونى انتيجونوس جوناتاس فى تدمير الأسطول المصرى عند جزيرة أندروس . وأخيرا عقد الصلح بين

بطليموس الثالث وسليوقوس الثانى عام ٢٤١ ق.م على أساس الاعتراف بالحقوق البطلمية فى جنوب الشام وجنوب الأناضول مثل : افيسوس ، وميليتوس ، وكاريا ، وجزء من ليكيا ، وغرب كليكيا (قلقيلية) ؛ وكذلك بعض جزر بحر إيجه الهامة مثل جزيرة ساموس ؛ كما ترك لمصر حق السيطرة على شمال بحر إيجة ، وكذلك على منطقة الخرسو نيسوس فى أقليم تراقيا ؛ وكذلك على جزيرة سامو ثراكى المواجهة لذلك الساحل ؛ بل سمح لمصر بمقتضى ذلك الصلح أن تتحكم فى بعض المدن الواقعة داخل مقدونيا . وقد قبل سليوقوس الثانى صاغرا كل هذه التنازلات من اجل انقاذ الأمبراطورية الشاسعة من التفكك ، ولذلك راى انه من الأفضل ان يطلب من اخيه انطيوخوس هيراكس Anticchus Hierax أن يتولى حكم بعضها ، فتنازل له عن حكم الولايات الآسيوية الواقعة الى الشمال من جبال طوروس ؛ غير ان شقيقه سرعان ما اعلن نفسه ملكا مستقلا عليها ، مما ادى الى اشتعال الحرب الأهلية بينهما فيما يعرف بحرب الأخوين .

حـــرب الأخوين وتوسع مملكة برجامون على حساب المملكة السليوقية :

وهى أشهر حرب قامت بين اخوين فى التاريخ ، فقد بدأت بتمرد انطيوخوس هيراكس على شقيقه الملك سليوقوس الثانى واعلانه الاستقلال بالولايات الأسيوية التى اوكل أخوه الملك امرها إليه ليحكمها كنائب عنه ، وكانت هذه الولايات تقع فى شبه جزيرة الأناضول الى الشمال من جبال طوروس التى تفصل الشام عن آسيا الصغرى ، وكان يمكن أن تنتهى هذه الحرب بالتوفيق بين الأخوين ، غير أن عناصر شتى تدخلت لتعمق الخلاف بينهما حتى اتسعت هوته ، فمثلا أعلن متراداتيس — ملك مملكة بنطوس — وقوفه إلى جانب هيراكس ، وحزت آسيا الصغرى كلها حزوه ، حتى قبائل الجلاتيين التى كانت تغرو آسيا الصغرى ، أعلنت تأييدها لهيراكس ، وحاربت تحت قيادته ، ودارت معركة بين جيوش الأخوين ، تقهقر بعدها الملك سليوقوس من آسيا الصغرى عام ٢٣٥ ق.م بعد أن وقع معاهدة أعترف فيها بنفوذ أخيه عليها ؛ غير أن هذا النصر قوبل بسخط شديد من

شعوب العالم الهللينستى الأغريقية ، لكراهيتهم للجنود البرابرة الجلاتيين الذين ألحقوا بدويلاتهم الدمار فى مطلع ذلك القرن ، بالاضافة الى ذلك ، بدأ الجلاتيون يشعرون بالغرور والاستعلاء بعد هذا النصر. وقد استغل أتاللوس ملك برجامون سخط الأغريق ، فأعلن تحديه للبرابرة ، ورفض دفع الاتاوات التى كان يفرضونها عليه مقابل حمايته ؛ وأعد جيشا لطردهم ؛ وسرعان ماتحولت دعوته الى حملة قومية شاركت فيها كافة الممالك الهللينستيه ، وتحولت القضية الى التعاطف مع سليوقوس الملك ضد أخيه الخائن هيراكس ؛ وبالفعل ألحق اتاللوس الهزيمة مرتين بالجلاتيين ، وأعلن نفسه ملكا مستقلا يحكم مملكة برجامون دون وصاية عليه من أحد ؛ بل أضحى بطلا قوميا فى عيون الأغريق ، ولم يتوقف أتاللوس عند هذا الحد ، بل قرر أن يعاقب الأمير الخائن هيراكس ، فلاقاه وألحق به ثلاثة هزائم متتالية ، انتهت بانتزاع ساحل فريجيا وليديا ، وهما أغنى مناطق آسيا الصغرى ، وذلك خلال عامى ٢٣٠ — ٢٢٨ ق.م ، وبذلك وضعت مملكة برجامون الوليدة لنفسها حدودا ثابتة على حساب الأمبراطورية السليوقية ؛ كما أن هذا الانتصار حول هذه المملكة الصغيرة الى محط اعجاب واحترام الأغريق ؛ وبدأ أتاللوس يعيد بناء مدينته ويحيطها بكل مظاهر الحضارة الأغريقية لكى ينافس بها مدينة الأسكندرية وأنطاكية ؛ ولكى يظهر بمظهر الزعيم الروحى المنقذ للحضارة الأغريقية من جحافل البرابرة ؛ والذى لاشك فيه أن البطالمة وقفوا الى جانب أتاللوس ، وأمدوه بالمساعدات ، فقد كان هدفهم فضح ملوك الأسرة السليوقية أمام عيون العالم الأغريقى ، واظهارهم بمظهر الخونة المتعاونين مع البرابرة الجلاتيين ، ومع العنصر الأرامى والفارسى ضد أشقائهم الأغريق . كما قصد البطالمة أيضاً احراج الملك المقدونى أنتيجونوس جوناتاس الذى كان يدعى أنه حامى حما القومية الأغريقية ، وذلك لأنه لم يحرك ساكنا خلال هذا القتال ، فقد كان حليفا للأسرة السليوقية ، وانقسم العالم الهللينستى الى جبهتين ؛ : الجبهة السورية المقدونية : وهى التى أصبحت

بضربة معنوية كبيرة ؛ ومعسكر مصر وبرجامون الذى كسب وقار واحترام العالم الهللينستى .

نهاية سليوقوس الثانى ٢٢٥ ق. م :

غرقت الأمبراطورية السليوقية فى بحر من الفوضى بعد هزيمة انطيوخوس هيراكس ، وقيام وازدهار مملكة برجامون . فقد فر هيراكس الى أعالى الفرات محاولا اقامة مملكة له هناك ؛ وفى نفس الوقت كان أخوه الملك سليوقوس غارقا فى صراعه مع البارثيين ، والقضاء على المملكة التى أسسوها وإعادة أراضيها الى الأمبراطورية . وفى عام ٢٢٧ ق.م استغل ملك مقدونيا الجديد انتيجونوس دوسون Antigonus Doson هذه الفوضى ، وقام بحمله بحريه على اقليم كاريا على ساحل آسيا الصغرى من أجل ضمان قواعد بحريه لمقدونيا فى الشرق ؛ ومن ناحيه اخرى قامت ستراتونيكى عمه الملك سليوقوس الثانى (والتى كانت متزوجه من ديمتريوس الثانى بن جوناتاس ملك مقدونيا) بتحريض الأمير هيراكس على احداث ثورة مضادة فى سوريا العليا بهدف خلع أخيه . ولما علم سليوقوس الثانى بخيانة أخيه ، ترك محاربة البارثيين وعاد مسرعا الى سوريا حيث ألقى القبض على العمة المتآمرة وقتلها ؛ بينما فر هيراكس وظل يتجول هاربا حتى لقى مصرعه فى ظروف غامضة . ورغم هذا الزلزال السياسى الذى هز قواعد الأمبراطورية السليوقية وكاد أن يقضى عليها ، إلا أن سليوقوس الثانى نجح فى أواخر أيامه فى إعادة تماسكها ، فيما عدا بعض الولايات فى الأصقاع الشرقية النائية ، وكذلك أمارة برجامون التى ثبتت أقدامها على حساب الأمبراطوزية السليوقية وبمساعدة البطالمة الذين كانوا يستخدمونها كمخلب القط لضرب السليوقيين ، وبدأت هذه الأمارة تقلد البطالمه فى توثيق علاقتها بالرومان ، الخطر الجديد الذى بزغ فى الغرب الايطالى ، وفى نفس الوقت كانت مقدونيا والأمبراطوريه السليوقيه تقيمان علاقات مع قرطاجه ، التى كانت تخوض حربا ضد الرومان . كان هذا مسرح الأحداث فى العالم الهللينستى عند وفاة سليوقوس الثانى فى ابريل عام ٢٢٦ أو ٢٢٥ ق . م وتولى أكبر أبنائه سليوقوس الثالث

الملقب باسم سوتير الثانى ،والذى لم يحكم سوى ثلاث سنوات فقط ؛ إذ أغتيل فى ظروف غامضه أثناء قيامه بحمله عسكريه ضد الملك أتاللوس الأول ملك برجامون ، وانتقل العرش الى شقيقه الأصغر أنطيوخوس الثالث .

٥ ـ أنطيوخوس الثالث الملقب بالأكبر ٢٢٣ ـ ١٨٧ ق. م :

القضاء على الثورات :

شاء القدر أن يتولى عرش الامبراطوريه السليوقيه فى أحلك ساعاتها أعظم ملوكها وهو أنطيوخوس الثالث ، الذى غير موازين القوى لصالح العرش السليوقى ، فقد جلس على عرشها عام ٢٢٣ ق . م وهى فى حاله تفسخ وضعف بسبب انتشار الحركات القومية الانفصالية فى الأصقاع الشرقية البعيدة مثل : بارثيا (خراسان) ، وباكتريا (أفغانستان) ؛ وأصبحت تهدد بالانتشار إلى كافه أقاليم فارس حتى ميديا ، بل وإلى شمال بلاد الرافدين ، واقليم بابل ، وإلى كافه شعوب آسيا الصغرى . وكان أخطر القضايا التى واجهها أنطيوخوس الثالث عقب توليه العرش هو القضاء على حركة التمرد التى قادها آخايوس ، أحد أحفاد أنطيوخوس الأول من الفرع الذى حرم من تولى العرش . وكان آخايوس يشغل منصب قائد قوات الملك أنطيوخوس الثالث ؛ وقد ركب الغرور رأس أخايوس بعد نجاحه فى قمع حركات الانفصال القوميه فى آسيا الصغرى ، واستعادته لمعظم أجزاء الامبراطوريهالسليوقيهخاصةتلك التى كانت مملكة برجامون قد استولت عليها ، ووسعت رقعتها على حسابها . ففى عام ٢٢٠ ق . م ، شعر أخايوس أنه قد نجح فى توحيد الامبراطوريه ، وشعر أنه الأجدر بالجلوس على عرشها ، فأعان استقلاله بالمناطق التى حررها من برجامون . ولا شك أن ذهب البطالمه لعب دوراً فى مساعدته ؛ فقد كانت سياستهم توسيع هوة الخلاف بين أعضاء الأسرة المالكة السلوقيه إضعافاً لها ، غير أن جنود آخايوس رفضوا رفع السلاح فى وجه مليكهم الشاب انطيوخوس الثالث ، فترك آخايوس أحلام إسقاط أخيه الملك ، واكتفى بتدعيم نفسه فى آسيا الصغرى . ولما فرغ الملك أنطيوخوس الثالث

من حروبه فى الأصقاع الشرقيه للامبراطوريه، استدار لتأديب آخايوس ؛ واشتعلت الحرب الأهليه، ونجح الملك فى محاصرة الثائر الخائن فى مدينه ساردیس Sardis حيث تحصن بها لمدة عامين ، وانتهى الحصار بخيانه وقعت داخل معسكر أخايوس ، فقد غرر به إثنان من القادة الكريتيين ، ثم قاما بأسره وقيداه ، ثم اقتاداه إلى خيمه أنطيوخوس الثالث حيث ألقياه أمامه ، ولم يستجب أنطيوخوس إلى توسلاته ، ولم يشفع له ما ساهم به فى حمايه الامبراطوريه من السقوط ، ولا لكونه أنه كان زوجاً لإبنه الملك مثراداتيس ؛ إذ أمر أنطيوخوس بتعذيب أخايوس ببطئ حتى الموت ، ثم صلبه لكى يكون عبرة لمن يعتبر (١) .

فشل سياسة أنطيوخوس الثالث التوسعية :

وبعد أن نجح فى تدعيم الامبراطورية والقضاء على حركات الانفصال ، شرع أنطيوخوس الثالث فى إعادة بناء الامبراطوريه ؛ وكان همه الأول استعادة سوريا الخاليه من البطالمه ، فقاد قواته لضرب بطليموس الرابع فى عقر داره ؛ غير أن أحلامه انهارت بحدوث انتصار معركة رفح عام ٢١٧ ق . م والتى سبق الحديث عنها ، وأضطر الملك انطيوخوس الثالث إلى الانسحاب من سيناء بعد أن عقد هدنة مع البطليموس فيلوباتور . ويقول يونيبيوس عن مفاوضات ذلك الصلح : «لقد كانت العقبه الكبرى (فى المفاوضات) موضوع آخايوس (الذى لم يكن قد انتهى منه بعد) ، فقد أصر بطليموس على جعل مصيره أحد بنود الصلح بينهما ، لكن أنطيوخوس رفض رفضاً باتا مجرد أن ينصت لذلك الاقتراح ، لأنه اعتقد أنه من باب الابتزاز أن يأوى بطليموس إليه المتمردين ويدخلهم تحت حمايته ، بل رفض حتى مجرد التلميح باسم هذا الشخص »(٢) .

وإذا كان انطيوخوس الثالث قد لقى هزيمه ساحقه فى الحرب السوريه

(1) Cf. Polybios : Books V—VI.
(2) Ibid : V, 67, 12.

الرابعة (٢١٩–٢١٦ ق.م) إلا أنه حقق نجاحاً عسكريا باهراً خلال حملاته العسكريه فى شرق الامبراطوريه خلال أعوام (٢١٢–٢٠٦ ق . م) فقد استطاع خلالها أن يعيد تثبيت سيادته على أرمينيا ، وبارثيا (خراسان) وباكتريا وما حولها من ممالك صغيرة ، كما أن مغامراته فى سهل كابول غرب الهند ، وفى صحراء النفوذ بين الخليج والشام أكسبته شهرة عسكريه تقارب شهرة مغامرة الاسكندر الأكبر عندما عبر صحراء وادى النطرون إلى سيوة ، فاكتسب مثله لقب الأكبر Megas .

غير أن سياسته التوسعيه تحطمت فيما بعد ، بسبب عدم قدرته على فهم حركه التاريخ الدائمة بأن هناك قوة جديدة قد صعدت فى سماء البحر المتوسط وهى روما . وكان تصرف أنطيوخوس الثالث بتحالفه مع ملك مقدونيا الجديد فيليب الخامس — عدو الرومان الأول قد أثار سخط روما عليه وغضبها منه ؛ فقد تحالف الملكان المقدونى والسورى مع هانيبال القرطاجى عدو روما اللدود . ولعل من أسباب تحالفه مع هانيبال محاولته إرضاء العناصر الأرامية والفينيقية التى كانت تشكل شطراً كبيراً من سكان الامبراطورية السليوقية باعتبار أن هانيبال فينيقى الأصل ، ويرمز إلى كرامة العنصر الأرامى، بالإضافة إلى ذلك كان البطالمة يقفون ضد توسع قرطاجة فى شمال أفريقيا خوفا على ممتلكاتهم فى برقة ، ولذلك فضلوا التعاون مع الرومان. ولقد أدى تحالف البطالمه مع الرومان إلى تزايد التحالف بين أنطيوخوس الثالث وحليفه المقدونى فيليب الخامس لدرجه أنهما وقعا معاهدة سريه بينهما عام ٢٠٢ ق . م لإسقاط الامبراطوريه البطلميه التى بدت عليها مظاهر الضعف بعد موت بطليموس الثالث ، ولاقتسام ممتلكاتها فى الشام وآسيا الصغرى وبحر إيجه ، ولما كانت مصر قد أصبحت أحد المصادر الأساسيه لإمداد الشعب الرومانى بالقمح بعد حرق هانيبال لحقول القمح فى إيطاليا ، فقد كان السناتو الرومانى يتابع أنباء هذا التحالف غير المقدس بقلق ، فقد كان لا يثق فى مسلك فيليب الخامس ويتوجس خيفه من تصرفاته .

لقد بلغت الامبراطوريه السليوقيه فى عهد أنطيوخوس الثالث أقصى

اتساع لها سواء من ناحيه حجمها أو أهميتها ، فقد كانت تسيطر على مدخل البسفور والدردنيل ، وتتحكم فى طرق ومنافذ التجارة البريه والبحرية بين الشرقين الاقصى والادنى من ناحية ، بين آسيا وأوربا من ناحية أخرى . فلقد حرص أنطيوخوس الثالث على تأمين الطرق التجاريه وحمايتها من قطاع الطرق ، وتطهير البحار من سفن القراصنه ، فدب النشاط فى التجارة العالميه بعد فترة طويله من الركود . ولقد قام أنطيوخوس الثالث بغزوات وحروب امتدت من مرتفعات إيران شرقاً (حيث موطن تجنيد الفرسان) إلى إقليم هركانيا فى قلب ولايه بارثيا ، واستمرت معاركه عند أطراف الشرق الأقصى قرابه ست سنوات ، عاد فى نهايتها إلى مدينه بابل العريقه ليستقبل استقبال الفاتحين ، وليتخذ مقره الدائم قرب الخليج العربى — شريان الحياة الاقتصاديه فى العالم القديم) إذ أولاه إهتماما خاصا ، فقد أنشأ فيه عدداً من الموانئ العامرة بسفن البضائع ، والتى تبدأ منها شبكه الطرق البريه التجارية الهامة إلى سائر موانىء البحر المتوسط ، وإلى جنوب الجزيرة العربية .

لقد جلس أنطيوخوس الثالث على العرش وهو فى العشرين من عمره ، يتوقد حماساً ونشاطاً ، ويسعى جاهداً لتوحيد امبراطوريته التى كانت أكثر الممالك الهللينستية تمزقاً ، وأقلها تماسكاً ، فهى موزعة بين حدود الشرق الأقصى ، وآسيا الصغرى ، والشام الكبرى ، وتراقيا فى أوروبا ، وتسيطر على مياه الخليج العربى ، وسواحل البحر المتوسط ، وجزر شمال بحر إيجة . وكان حريصاً على إعادتها إلى حجمها الذى كانت عليه أيام جده المؤسس سليوقوس نيكاتور ، ومن أجل ذلك كما رأينا خاض الحرب السورية الرابعة مع البطالمة لاستعادة جنوب الشام وسواحله حتى ميناء غزة ، ولكنه هزم فى رفح عام ٢١٧ ق . م واضطر إلى عقد الصلح المعقول مع بطليموس الرابع . وبعدها قام بقمع ثورة عارمة فى أقليم بابل ، وقضى على آخايوس ، وانتزعه من معقله فى آسيا الصغرى وصلبه كعقاب وإنذار لكل من تسول له نفسه الاستقلال بشطر من هذه الامبراطورية المترامية الاطراف ، والمتعددة القوميات والأجناس واللغات والديانات . وفى السنة العاشرة من حكمه قاد

حملة عسكرية لقمع حركات الاستقلال فى الأصقاع الشرقية للامبراطورية وتنظيم اقاليمها وولاياتها ، عاد منها منتصراً ليعاود الحرب مرة أخرى ضد البطالمة من أجل طردهم من جنوب الشام وفلسطين ؛ وفى هذه المرة تمكن من هزيمتهم وطردهم من فلسطين بعد انتصاره فى معركة بانيون Paneion الشهيرة عند نهر الأردن عام ٢٠٠ ق . م ، وخسر البطالمة أهم جزء من امبراطوريتهم وهو أقليم الشام .

وفى عام ١٩٧ ق . م قام بحملته الأخيرة على إقليم تراقيا فى أوروبا (شمال بحر إيجة) لإعادته إلى الامبراطوريه السليوقيه ، فقد كان جده الأكبر سليوقوس الأول قد ضمه إلى أملاكه لتصبح الامبراطوريه السليوقية دولة آسيوية أوروبية . وبعد استيلائه على تراقيا قام بتحصين مدينه لوسيماخيا Lysimachia التى كانت تتحكم فى بحيرة مرمرة الذى هو نقطة المرور بين آسيا وأوروبا ، لكنه لم يكن يدرك أنه بهذا التصرف قد أثار ضده عدواً جديداً وهو جزيرة رودس سيده بحر إيجه ومركزه البحرى والتجارى ، والتى اشتهرت بتجارتها فى الغلال مع موانئ البحر الأسود ، كذلك أثارت هذه الحملة عليه حنق مملكة برجامون ، التى كان لها مصالح تجارية فى شمال الأناضول . وبالرغم من أن أنطيوخوس الثالث لم يكن له أدنى اهتمام قبل ذلك بالغرب الأوروبى حتى أن المؤرخ يوليبيوس كان قد وجه إليه اللوم لعزوفه عن التدخل فى بلاد اليونان لنصرة أهلها مقارنة باهتمامات البطالمة المتزايدة بشئون القارة الأوروبية (١) ، فقد كان اهتمامه مركزاً على محورين أساسيين : أولهما مدينه انطاكيه فى جنوب الأناضول ، والتى كانت العاصمة الأولى للامبراطورية ومقر القصر الملكى ، والتى بها القناطر الشهيرة التى اقامها لضمان إمداد العاصمة بالمياه ، فلأول مرة نسمع فى عهده عن دار الكتب العامه فى انطاكيه ، والتى أكمل أيضاً بناءها ، وعين لها اميناً وهو الشاعر يوفوريون الخالكسى الشهير ، فقد كان عهده عهد ازدياد الموارد الملكية ، ورخاء شمل كل مظاهر الحياة فى انطاكية وميناءها سلوقية بيرية (عند مصب نهر العاصى) ،

---

(1) Polybios : XXIX, 24, 16.

ولقد تجلى أثر ذلك الرخاء فى ازدياد نشاط دار سك النقود، فكمية العملات التى عثر عليها وترجع إلى عهده يفوق بكثير تلك الكميات التى سكت فى عهود ملوك الامبراطورية الآخرين ؛ أما المحور الثانى فكان الاهتمام بالعاصمة الشرقيه للامبراطوريه وهى سليوقيه على نهر دجله ، فقد كانت تتوسط سهلا زراعياً غنياً ، عرف برخائه منذ القدم ، حتى أن هيرودوت تحدث فى القرن الخامس ق . م عن وفرة محاصيله الزراعيه (١) ، فمن هذه المدينه كانت تنساب شبكه من الطرق التجارية البريه التى تخترق شمال بلاد الرافدين لتتصل بشبكه الطرق الكبرى المتجهه إلى أواسط آسيا والصين .

بداية تأزم علاقاته مع الرومان :

ولقد أثارت حمله أنطيوخوس الثالث على تراقيا عام ١٩٧ ق . م حنق بعض المدن الأغريقيه فى الأناضول مثل سمرنه Smyrna (أزميت الحاليه) ولامباسكوس Lampascos (الواقعه على بحر مرمرة) ، فتوجهتا إلى السناتو الرومانى بطلب التدخل لإجبار انطيوخوس الثالث بالالتزام بمبدأ حريه المدن الأغريقيه الذى أعلنته روما بعد هزيمتها لفيليب الخامس فى عام ١٩٧ ق . م فى معركه كونوس كيفالاى Cynoscephalae ، وإجباره على قبول صلح مهين تنازل فيه عن كل ممتلكات مقدونيا الخارجيه ، وتسليم أسطوله بالكامل لها ، ودفع غرامه حرب باهظه ، وإرسال عدد من الرهائن إلى روما كان من بينهم أخوه دمتريوس . ومن الجدير بالذكر أن أنطيوخوس الثالث تخلى عن حليفه فيليب الخامس ملك مقدونيا فى هذه الحرب لإدراكه أنه لا قبل له بجنود القائد الرومانى فلامينيوس Flaminius بطل هذه الحرب ، وتحول فيليب الخامس بعد هزيمته من عدو لروما إلى عميل لها .

ولكى تكسب تأييد الأغريق فى أوروبا وآسيا، انتهزت روما مناسبة انعقاد دورة الألعاب الكورنثية عام ١٩٦ ق.م وأعلنت مبدأ السيادة والحرية لكافة المدن الأغريقية ، وصدق الأغريق هذا لاعلان ، وباتوا يحلمون بعصر وردى وذهبى ؛ تتحقق أخيراً فيه الحرية والرخاء تحت أجنحة

(1) Herodotus, I, 192.

النسر الرومانى . وسرعان ما أعلنت مدن تراقيا التى كان فيليب يحتلها انحيازها للرومان ضد استبداد ملوك مقدونيا وسوريا . وبالرغم من أن تحالف أنطيوخوس الثالث مع فيليب الخامس كان مدعاة لقلق روما من قبل ، لكن غزوها لمقدونيا أثبت أنه كان تحالف الغرماء من أجل مصلحة مشتركة ، وهو اقتسام ممتلكات البطالمة فى آسيا الصغرى وبحر ايجه وبلاد اليونان ؛ لكن كليهما كان يخشى تزايد نفوذ الآخر ، ولذلك فقد كان انطيوخوس الثالث فى قرارة نفسه سعيدًا بالكارثة التى حلت بفيليب الخامس ؛ بل أن انطيوخوس الثالث بعث بمندوبين عنه لحضور دورة الألعاب الكورنثية التى اعلن فلامينيوس فيها قرار روما باعلان الحرية لكافة المدن الأغريقية ، كما استقبل انطيوخوس الثالث وفدا رسميا رومانيا نقلوا إليه تحذيرا بالانسحاب من المدن الأغريقية فى آسيا الصغرى تنفيذا لذلك القرار ، كما طالبوه بعدم التعرض للمدن الأغريقية التى لم تدخل فى حوزة امبراطوريته ، وان ينسحب على الفور من المدن الأخرى التى كانت تابعة للبطالمة ولفيليب المقدونى ، وحذروه بشدة من مغبة الأقدام على الابحار بأسطوله الى المياه الأوروبية « لأنه لم تعد اى من مدن بلاد اليونان تتعرض لأى خطر » ، وبذلك اثارت توسعات انطيوخوس فى شبه جزيرة الأناضول وتراقيا عليه غضب الرومان ، ولقد رد انطيوخوس على تحذير وفد السناتو بأن عبوره المياه الأوروبية الى تراقيا حق من حقوق السيادة الخاصة بأمبراطوريته ، وبأنه ليس من حق احد أن يتدخل فى شئون رعاياه فى آسيا الصغرى تماما كحق روما فى عدم تدخل احد فى شئون رعاياها فى صقلية وجنوب إيطاليا ، لأن مدن تراقيا هى ميراث اجداده ، كما أن الهدف من حملته على تراقيا هو تعمير مدينة لوسيماخيا التى كان أهل تراقيا قد خربوها وطردوا أهلها ، وبأن ذلك لايضير روما فى شيء ، لأن كل مايسعى إليه هو بناء عاصمة ثالثة فى تراقيا تكون مقرا لولى عهده وهو ابنه سليوقوس الثالث . اما فى رده على النداء الذى وجهته كل من سمرنة ولامباسكوس الى السناتو لارغامه على احترام

مبدأ منح الحرية للمدن الأغريقية ، فقد ذكر أنه كان من الأجدى لسلطات هاتين المدينتين أن توجها النداء اليه فى المقام الأول لأنه اغريقى ، وأنه ليس لهم الحق فى استجداء الرومان لهذا الغرض . ولما التقى بمندوبى سمرنه ولامباسكوس فيما بعد خاطبهم غاضبا ومعاتبا بأن « خلافات الأغريق يجب أن تعرض على الأغريق وليس على الرومان »(١) الذين كانوا فى نظر الاغريق دخلاء وفضوليين واقل مرتبة ، فقد كان ملوك الممالك الهللينستيه بسلطاتهم الاستبدادية التى تجعلهم فوق القانون والمساءلة ، يثيرون حيرة الرومان — كحيرة الأوروبيين اليوم فى فهم العقلية الشرقية ، كما أن ثراء هؤلاء الملوك الخرافى جعلهم يعتقدون أنهم قادرون على شراء أى شىء مهما دفعوا فيه ، حتى أن المؤرخ الرومانى تيتوس ليفيوس كتب ساخرا يقول « انهم قادرون حتى على شراء الرومان أنفسهم »(٢) .

لقد كان السبب الحقيقى الذى دفع أنطيوخوس الأكبر إلى ضرب عرض الحائط بالإنذارات الرومانية ، والإبحار بأسطوله شمالا على طول ساحل آسيا الصغرى هو رغبته فى بسط نفوذه على موانيه ومدنه من أفيسوس حتى ساردیس . ولقد قام بالفعل بتعمير مدينة لوسيماخيا فى تساليا ، وأعاد مواطنيها الفارين إليها ، واشترى من بيع من مواطنيها كرفيق وأعتقهم ، بل قام بتهجير مواطنين جدد إليها ، وأمدهم بالماشية وأدوات الزراعة ، كما قام بتحصينها لتصبح قلعة محصنة حتى لا تسقط فى أيدى أعدائه مرة أخرى (٣) . وفى لوسيماخيا استقبل مبعوثى السناتو الذين عبروا له عن قلقهم لتدخله فى شئون الغرب الأوروبى ، مبدين دهشتهم للأسباب التى برر بها عبوره البحر إلى تساليا بمثل هذا الجيش ، وكذا الأسطول الذى قد يظن البعض أنه موجه للإبحار إلى جنوب إيطاليا وصقلية لتحريض المدن الإغريقية على الثورة ضد روما ، كما أنه كشف عن موقفه المعادى للرومان عندما قدم

(1) Polybios, XVIII, 49, I.
(2) "Ut Ipsos Romanos emere Possent,, Livy, XXXV, 16
(3) Appian : Syrian Wars, XI, II.

حمايته لعدو روما الأكبر هانيبال القرطاجى الذى زار أنطاكية عام ١٩٥ ق . م ليحاول إثارة أنطيوخوس لكى يعلن الحرب على الرومان؛ وعلى أثر ذلك بدأت أبواق الدعاية الرومانية التى تسبق عادة الحرب توجه نشاطها نحوه ، ومن جانبه راح أنطيوخوس يحذر المدن الأغريقية من مغبة الوقوع فى شرك الدعاية الرومانية باسم « تحرير المدن الأغريقية » ، فقد قال ممثله لوفد من الرومان عام ١٩٥ ق . م « كيف يكون شعب سمرنا ولامباسكوس أكثر « هللينية » من شعوب نابلى ، وريجيوم ، وتارانتوم التى ترغمونها على دفع الضرائب ، وتجمعون منها السفن ؟ ولماذا يفرض على مدن جزيرة صقلية الأغريقية أن تستقبل برايتورا رومانيا مزوداً بالأمبريوم ويحمل شعارة : البلطة وحزمة العصى ؟ ، بالطبع لن يزيد ردكم عن قولكم أنكم فرضتم ذلك بالقوة على هذه المدن بعدأن هزمتموها فى الحرب» وذكر أن نفس الشئ يمكن أن يقال عن سمرنا ولامباسكوس وغيرها من مدن أيونيا وأيوليس التى أخضعها أجداده . وأن كل ما يقوم به هو أنه يعيد هذه المدن إلى الوضع السابق الذى كانت عليه »(١) .

ولقد جرت محاولات لوضع صيغة تعايش Modus Vivendi بين الملك أنطيوخوس الكبير والرومان ، غير أنها لم تنجح ، فقد كانت الأمور قد وصلت إلى نقطة اللاعودة . وبدأ أعداء أنطيوخوس من الأغريق يطلقون الشائعات بهدف إثارة الرومان وتخويفهم من الحلف الأيتولى المعادى للرومان ، ومن أجل ذلك حث انطيوخوس حليفه القديم فيليب لكى يمد يد المساعدة له للوقوف فى وجه الرومان متخيلا أنه يستطيع أن يزكى نار القوميه والعصبية لكى يهب الأغريق عن بكرة أبيهم فى ثورة كبرى تتصدى للرومان . ووصل يومينيس Eumenes ملك برجامون إلى روما يحمل للسناتو شائعات مزعجة ، بأنه أنطيوخوس الكبير يعد العدة للقيام بحملة بحرية كبرى لإنزال جنوده عند سواحل صقلية ؛ وأنه أعد لذلك الغرض أسطولا يتكون من عشرين سفينة

(1) Titus Livius, XXXIV, 16, 1—6.

مقاتلة ، وأنه أخذ الحيطه بإقامه القلاع والحصون على طول امبراطوريته خاصه تلك التى تواجه ساحل بلاد اليونان ؛ وأن أسطوله سيعبر بحر الأدرياتيك فى الربيع لمهاجمة سواحل صقليه جنوب إيطاليا ؛ وأنه جهز جيشاً قوامه ستون ألف مقاتل لتنفيذ ذلك الهدف .

نقاط القوة والضعف فى شخصية أنطيوخوس الكبير :

وبالرغم من أن أنطيوخوس الكبير كان رجلا متزناً وحكيما ، إلا أنه كان متفائلا وحسن النيه لدرجه عدم الاكتراث ؛ وعدم أخذ الأمور مأخذ الجد . كما كان رجلا عاطفياً ، شديد الوفاء لأسرة آل سليوقوس ، فقد أمضى حياته يعمل على رأب الصدع بين أمرائها ، حتى تبدو قويه ومتماسكه ، فقد كان يعتبر نفسه كبيرها ، يقضى حاجاتها ، ويفض خلافاتها ؛ إلا أنه كان لا يتسامح أبداً مع من يخونه ويخرج عن طوعه أو يتسبب فى زرع الشقاق والفتنة بين الأسرة . فكما قضى عمره فى جمع شتات الامبراطورية ، قضى عمره أيضاً فى تدعيم أواصر الروابط بين أعضاء الأسرة الملكية الحاكمة ، حتى لا تتآكل وتنهار . فقد توقفت المفاوضات بينه وبين بطليموس الرابع بعد معركة رفح الشهيرة ، من أجل وضع شروط صلح ميسر يحفظ كرامة الطرفين المتحازبين ، وذلك بسبب إصرار بطليموس على أن تنص إحدى بنود الصلح على العفو على أخايوس الثائر ، معلناً رفضه الحاسم أن يتسامح مع هذا الخائن الذى تسبب فى إحداث فتنة كبرى فى بيت آل سليوقوس كادت أن تودى به ، معلناً أنه من باب الابتزاز أن يتدخل بطليموس فيلوباتور لمساعدة آخايوس (١) .

لقد نشأ أنطيوخوس وتربى فى مدرسة صارمة وقاسية . فقد كان متواضعاً وبسيطاً فى حياته بالرغم من ثرائه وسطوته ، إذ كان يشارك جنوده احتفالاتهم فيفرط فى الشراب معهم ، ويرقص معهم رقصة الحرب المقدونية الشهيرة ،

---

(1) Polybios, V, 67, 12.

كما كان عاطفياً رومانسياً ، فقد دخل فى علاقه غراميه فى أواخر أيامه مع فتاة إغريقيه هام بها حباً ، ولم يكن يفارقها لحظه واحدة ، بل نه لم ينس أن يبحث عنها وسط الفوضى التى أعقبت سحق الرومان لقواته فى معركه ماجنيسيا ، وراح يفتش عنها حتى عثر عليها ، وحملها على جواده وخرج بها من ساردبس وسار بصحبتها جنوباً حتى إطمأن عليها ، ثم تركها وعاد ليرسل مندوبيه إلى الرومان معلناً قبوله لشروطهم . وقد تناقل الكتاب الرومان هذه الحادثه بإعجاب شديد لشهامته . ولقد عرف عن أنطيوخوس لأكبر وفاءه لأصحابه ، يحميهم ويدافع عنهم ولا يغدر بهم . فقد رفض فى تحد سافر أن يسلم هانيبال للرومان بعد أن التجأ إليه ، معلناً أنه لن يتخلى عنه مهما كان الثمن ؛ كما كان معتدلا فى سياسته ، رافضاً فى مواقف كثيرة نصائح بعض مستشاريه المتطرفين (١) ، حتى أن أشد المؤرخين الرومان عداء له — وهو تيتوس ليفيوس — شهد له بالشهامه والرجولة والسلوك الإنسانى (٢) . وضرب مثلا على ذلك بتصرفه مع ابن القائد الرومانى سكيبيو عندما أسره جنوده فقد أحسن معاملته ، وأمر بإعادته إلى أبيه المريض محملا بالهدايا ودون أن يطلب منه فديه ، ولذلك نشأ شعور بالتعاطف بين أنطيوخوس وأسرة سكيبيو (٣) .

وفى مجال الدبلوماسيه كان ماهراً وحاذقاً وحكيماً ، فقد تجلت هـذه المهارة والحكمه فى موقفه من بطليموس الخامس أبيفانيس عقب الهزيمه التى منى بها هذا الأخير فى الحرب السوريه الخامسه ، فقد رأى أنه من الحكمه ألا يكون قاسياً فى شروطه حتى لا يدفع بالبطليموس المهزوم إلى أحضان الرومان ، بل زوجه من ابنته كليوباترا الأولى على أن تكون الدوطه التى تقدمها العروس لعريسها ، هو حكم جنوب الشام من الناحيتين الإداريه والماليه فقط . بينما يظل هذا الإقليم تابعاً من ناحيه السيادة للامبراطوريه

(1) Polybios, V, 54, 8—12.
(2) Titus Livius, XXXVI, 12, 6.
(3) Titus Livius, XXXVII, 34—7.

السليوقيه ، فكان حلا معقولا أنهى به صراعاً مزمناً وعقيما بين هاتين الأسرتين المقدونيتين . وفى نفس الوقت أوصى العروس أن تؤثر بشخصيتها وجمالها على زوجها بطليموس الخامس لكى يلتزم جانب الحياد فى الحرب القادمه بينه وبين الرومان ، وبالفعل أدى ذلك إلى تأزم العلاقه بين هذا بطليموس الخامس والرومان فيما بعد .

لقد كانت نقطة الضعف الكبرى فى سياسة أنطيوخوس الأكبر علاقته المشئومة بالملك المقدونى فيليب الخامس . فقد كانت تصرفات هذا الأخير تصرفات حمقاء ، جلبت النكبة على الإغريق الذين بادلوه العداء والكراهية ، وبمهارة شديدة استغلت روما هذه الكراهية لتحقيق ماربها وأطماعها فى العالم الهللينستى تحت ستار إعلان الحرية والسيادة للمدن اليونانية ، وهى أكذوبة ثبت زيفها فيما بعد (١) . فتصرفات فيليب الحمقاء هى التى جاءت بالرومان إلى مياه الأدرياتيك ، ثم إلى مياه بحر إيجة عام ٢١٢ق.م؛ وهو نفسه الذى ورط أنطيوخوس فى الدعوة لاقتسام ممتلكات البطالمة الخارجية . بالإضافة إلى ذلك كان مسلك هذا الملك المقدونى مع المدن الإغريقية الحرة وغير الحرة قاسياً ومشيناً لا يتفق والتقاليد الإغريقية . فقد سلك فيليب المقدونى سلوكاً بربرياً إزاء كل من نوسيا خياو خالقيدون وأبيدوس وباسوس ، وسلك سلوكاً أبشع مع جزيرتى ثاسوس وكيوس ؛ فقد باع سكان الأولى فى أسواق الرقيق ، وسوى ببيوت الثانية الأرض ؛ ثم باع سكانها أيضاً فى أسواق الرقيق . وفى كل مكان فى شرق البحر المتوسط أشعل فيليب الخامس المقدونى النيران ، ونشر الخراب ، وسبى النساء والأطفال ، وبسبب تهوره وطيشه أصبح محط كراهية عند الإغريق بالإجماع . إما أنطيوخوس فقد كان رزيناً ، بعيد النظر يعرف كيف يكسب إلى جانبه حتى أعداءه تماماً مثلما فعل مع بطليموس الخامس ؛ ولذلك لم يكن راضياً فى أعماق نفسه عن تصرفات حليفه المقدونى ؛ ومن ثم لم يفكر فى مساعدته عندما كان كالثور

(1) Cambridge Ancient History, VII, 26, 10, p. 857.

الهائج يدمر المدن الإغريقية . ولقد كان الدافع الذى جعل أنطيوخوس يصبر على تهور فيليب حرصه على التواجد بالقرب من السواحل الشرقية لبحر الادرياتيك حتى يهدد الرومان بأنهم لو تدخلوا فى شئون المدن الإغريقية سواء فى بلاد اليونان الأم ، أو فى جزر بحر إيجة أو فى شبه جزيرة الأناضول فإنه بدوره سوف يتدخل لنصرة المدن الإغريقية فى صقلية وجنوب إيطاليا ، والتى أجبرها الرومان على الدخول فى دولتهم . غير أن عيون الرومان كانت مفتوحة الحدقات ، ومركزة على مضايق البسفور والدردنيل ، وكان لعابها يسيل لرؤية الثراء الباهظ الذى تجلبه تجارة القمح التى كانت تقوم بها جزيرة رودس مع موانىء وبلدان البحر الأسود ، بل كانت روما نفسها فى حاجة ماسة لذلك القمح الجيد لإطعام شعبها بعد أن خرب هانيبال حقول القمح ودمر القرى ، وحول الريف الإيطالى العامر إلى خرائب ينعق فيها البوم والغربان .

ولما شاهد سكان جزيرة رودس فيليب المقدونى وهو يستعرض عضلاته فى مضايق بحر إيجة ، ويهدد التجارة ، ويقطع الطريق على السفن القادمة من موانىء البحر الأسود ، قرروا التصدى له رغم ما عرف عنهم من إيثار للسلم على الحرب (١) . فطرحوا خلافاتهم مع مملكة برجامون جانباً ، بل تحالفوا معها لتكوين جبهة تقف فى وجه عدوهم المشترك فيليب الخامس المقدونى ؛ وأرسلوا فى أواخر عام ٢٠١ ق. م وفوداً إلى روما شرحت للسناتو خطر التحالف بين فيليب وأنطيوخوس ، وحثوه على القيام بحرب مانعة ؛ وفى نفس الوقت كان السناتو يستقبل أيضاً وفوداً من مدينتى سمرنة ولامباسكوس جاءوا يطالبون روما بضرورة تحرير المدن الإغريقية من نير هذين الملكين ؛ وانطلت سياسة روما المتظاهرة بحب الإغريق ، والحرص على استقلالهم على مدن آسيا الصغرى المختلفة ، فهللوا لتلك القوة الجديدة التى سوف تلقى طوق النجاة لهم .

---

(1) C. A. H., Ibid, VIII, 6, 3, p. 152.

كذلك أثار فيليب المقدونى ثائرة الرومان عندما تحالف مع ألد أعدائهم ، وهو هانيبال القرطاجى وذلك عام ٢١٥ ق. م. بهدف توجيه ضربة معنوية لروما ، وتشكيل حلف ثلاثى يتكون من مقدونيا وقرطاجة والامبراطورية السليوقية للوقوف فى وجه الخطر الرومانى (١) . حتى بعد هزيمة هانيبال فى معركة زاما الكبرى عام ٢٠٢ ق. م ، وفراره إلى مقدونيا حيث نزل ضيفاً فى بلاط فيليب . ولما استدارت روما لتأديب فيليب ، وغزت مقدونيا ، وألحقت به هزيمة ساحقة فى معركة كونوس كيفالاى عام ١٩٧ ق. م ، فر هانيبال ليلجأ إلى بلاط أنطيوخوس الأكبر فى أفيسوس . فقد كان حقد هانيبال على روما شديداً وبلا حدود؛ بل قيل أنه هو الذى اقترح على أنطيوخوس أن يكون البادىء بالضربة الأولى، وأن ينقل المعركة مع الرومان إلى صقلية وجنوب إيطاليا على نحو ما فعل الملك بيرهوس ملك أبيروس من قبل ، بيد أن أنطيوخوس العاقل بعيد النظر لم يأخذ برأيه ، لأنه لم يكن متعجلا للدخول فى مواجهة شاملة مع الرومان فى عقر دارهم ، إنما كان يفضل أن يلحق بهم الهزيمة على أرض بلاده، حتى يعطى القتال روح الدفاع عن الأرض والعرض ؛ ثم يعقد معهم صلحاً معقولا للطرفين على نحو ما فعل فى باكتريا وأرمينيا ، ومع بطليموس الخامس فى مصر . فقد كانت دبلوماسيته ثابتة؛ ومن ثم كان الرومان يخشونه لأنه كان من نوعية ذكية وصلبة . ولذلك ارتبط اسمه فى الدعاية الرومانية باسم كل من بيرهوس وهانيبال ، إذ يقول الشاعر الرومانى هوراتيوس فى كتابه الأغانى « وسقط بيرهوس، وأنطيوخوس العملاق، وهانيبال الرهيب » (٢) ، وفى نظر المؤرخ تيتوس ليفيوس كان أنطيوخوس أيضاً رهيباً لأنه ترك هانيبال الرهيب يدير له بعض المعارك ضد الرومان (٣) . كل ذلك كان يحدث

---

(1) Polybios, IX, 22, 1—5.

(2) Pyrrhumque et ingentem cecidit
Antiochum Hannibalemque dirum. (Horace, Odes, III, 6).

(3) Titus Livius, X XXVII, 1,, 59.

وأنطيوخوس غير مكترث بما يحدث وغير مدرك للخطر الذى يحيق به . والذى كان لا يريد له أصلا أن يحدث ، فقد كان هذا التبلد الذى يعتريه من آن لآخر جزءاً من طبيعته وإحدى ملامح شخصيته مما جعله يدفع الثمن غالياً ، فمثلا دفعه عدم الاكتراث إلى ترك مضيق بحر مرمرة الحيوى دون حماية (١) ، تاركاً مخازنه العديدة والمليئة بالعتاد الحربى فى لو سيماخيا تسقط بسهولة فى أيدى الرومان .

مقدمات معركة ماجنيزيا الفاصلة :

كانت هذه هى مقدمات معركة ماجنيسيا الكبرى ، والتى أبلت فيها قوات انطيوخوس بلاء حسنا ، ولم يكن هناك أخطاء تؤخذ على جيوشه سوى غياب فن التكتيك المتطور والمؤثر فى الميدان ، كما أن الحظ (والمعارك يلعب فيها الحظ دوراً كبيراً) لم يكن فى جانبه ، فمثلا عندما علم بعبور الأسطول الرومانى شرقاً إلى مياه آسيا الصغرى ، تصدى له مدعماً بأسطولين ، أولهما أسطول حلفائه الفينيقيين (ويقوده هانيبال بنفسه) ، وثانيهما الأسطول السليوقى . أما الأسطول الأول فقد أوقع به الرومان هزيمة بحرية عند ساحل أنطاليا Antalya (جنوب الأناضول إلى الشرق من جزيرة رودس) تحت سفح جبال طوروس . أما الأسطول الثانى ، فقد نجح قائده فى نصب كمين بحرى محكم للأسطول الرومانى عند رأس تيوس على ساحل الأناضول ، حيث يشرف هذا الموقع على خليج صغير ، فقد دخل الأسطول الرومانى إلى هذا الكمين وهو يطارد بعضاً من سفن القراصنة ، وكادت الدائرة تغلق عليه لولا أن قائده تذكر فجأة أن جرار النبيذ قد فرغت ، فأبحر يبحث عن مصدر يملأ منه هذه الجرار ، وبذلك أفلت من كمين ليلى قاتل ، ولما حاول أسطول أنطيوخوس ملاحقته، تدخلت سفن رودس وبحارتها لحماية الأسطول الرومانى ؛ وتحول النصر إلى جانب الرومان ودمر الأسطول السليوقى ؛ ثم انتهز الأسطول الرومانى خلو منطقة

(1) Ibid., XXXVII, ff, 27—31.

بحر مرمرة من وجود قوات سليوقية تحميها ، فاندفع نحوها واستولى على أهم مدنها لوسيماخيا ، التى كانت مليئة بمخازن السلاح والعتاد ؛ حيث قام فيليب الخامس بدور الدليل للجيوش الرومانية عبر مدقات وطرق تراقيا حتى أوصلهم إلى الساحل ؛ وهناك قام أسطول رودس بنقلهم إلى الجانب الآخر من بحر إيجة ، وعند برجاءون خرج ملكها لاستقبالهم بالترحاب ، وأقيمت لهم الولائم ، والحفلات وكأن الجيش الرومانى لم يكن فى معركة حربية بل فى نزهة ترفيهية (١) . وبهذه السهولة فقد أنطيوخوس السيطرة على بحر إيجة ، وبقيت له قواته البرية التى وضع فيها آخر أمل لديه ليقاوم حتى يحصل على شروط صلح معقول ، وبالفعل حاول الاتصال سراً بالرومان لحقن الدماء والتصالح ، لكن يومينيس ملك برجامون كان بالمرصاد لإبطال أى محاولة للسلام بين الطرفين . ولم يكن غريباً أن يقف فيليب الخامس مع الرومان ضد حليفه القديم ، فقد كان يطمع أن يخفض الرومان من غرامة الحرب التى فرضوها عليه ، وأن يطلقوا سراح ابنه الذى كان لديهم رهينة ، كما أن تحالفه مع أنطيوخوس كان تحالف الفرقاء من أجل تحقيق مصالح مؤقتة تنقضى بانقضاء المصلحة أو فشلها ، كانت هذه هى المقدمات للمعركة البرية الفاصلة عند ماجنيزيا .

معركة ماجينسيا وبداية النهاية للامبراطورية السليوقية (١٨٩ ق. م) :

كانت ماجنيسيا (واسمها الحالى مانيسا) تقع فى سهل هيرموس القديم (سهل جدك سو الحالى فى تركيا) ، حيث كان يتدفق نهر فريجوس الشهير (نهر كوم حالياً) ليصب فى خليج سمرنة ، وهى إحدى مدن إقليم ليديا (جنوب الأناضول) الغنى بمصادرة ، وكانت تعرف باسم ماجنيسيا المتاخمة لسيبيلوس (Magnesia ad Sipylum تمييزاً لها عن مدينة أخرى إسمها أيضا ماجنيسيا المتاخمة لنهر الميانذر) ؛ وكانت أهميتها تقبع فى كونها ملتقى شبكة الطرق القادمة من أعماق آسيا الصغرى وبحر مرمرة ، لتصب فى طريق رئيسى واحد يتجه نحو سمرنة وساحل البحر المتوسط .

---

(1) Titus Livius, XXXVII, 51, 9.

ولقد كانت موقعة ماجنيسيا احدى المعارك الفاصلة فى تاريخ الشرق الهللينستى ، فقد كانت بداية النهاية للأمبراطورية السليوقية ، حيث قوضتها وأنهت سيطرتها على آسيا الصغرى وبحر إيجة ، وحولتها الى دولة من دول الشرق الأدنى ينحصر نفوذها فى الشام (جنوب جبال طوروس) وفى بلاد الرافدين ؛ بل كانت بداية وصول الرومان الى الشرق الأدنى حيث ادركوا أهمية ثرائه ، وتوابله ، وحريره ، وعطوره ، ومزاياه التجارية والاستراتيجية ، بل وتأثروا بحضارته ونظمه وطريقة الحياة فيه . فى هذه المعركة لقى الملك أنطيوخوس الثالث ، والذى امتدت الأمبرأطورية السليوقية فى عهده من سواحل الأناضول غربا الى سواحل الهند شرقا ، ومن البسفور والدردنيل شمالا الى غزة جنوبا — لقى هزيمة ساحقة قصمت ظهر إمبراطوريته . وبدأ عصر الابتزاز والاستغلال الرومانى لشعوب الشرق الهللينستى فتحولت من الثراء الى الفقر ؛ ومن القوة الى الضعف ؛ ومن الكبرياء الى المذلة ؛ ومن النظام الى الفوضى .

التقى الجيشان المتحاربان عند ما جنيسيا فى فجر أحد أيام شتاء عام ١٨٩ ق.م ، وكان ضباب الصباح يحجب الرؤيا ، والبرد قارسا ، والرطوبة عالية ، مما أثر على سيور الأقواس ، إذ لم تعد تصيب هدفها بدقة ؛ ولم تكن المعركة مبارزة بين الامبراطورية السليوقية والأمبراطورية الرومانية فحسب ، بل كانت مباراة بين الفيلق المقدونى العتيق Phalanx وبين الفرقة الرومانية Legio وليدة التطوير المستمر فى ضوء المعارك المختلفة . فقد كان كل منهما يريد اظهار تفوقه على خصمه فى الشجاعة ، وفى القدرة القتالية ، وفى فن الحركة التكتيكية . فلقد أقامت فيالق أنطيوخوس سدا بشريا بلغ عمقه اثنتان وثلاثون وحدة مقاتلة ، يفصل بين كل منها رتل من سلاح الأفيال الهندية المدربة . وقد تشابكت خراطيمها ، وتلاحمت رؤسها ، ويمتطيها رماة سهام مهرة ؛ ويحمى هذه القوات وحدات من الفرسان من أهل سكيثيا المعروفين بالفروسية والجرأة والأقدام ، إلا أن مفعول هذه الفرسان أبطل

تماما بسبب اشتراك ملك برجامون(١) إلى جانب الرومان بفرقة من الفرسان صوبت سهامها الى رءوس الخيول . وإلى جانب وحدات الفرسان السكيثيين ، اشترك العرب بفرقة من المقاتلين البدو الذين يركبون الجمال السريعة ، ويمسكون بحراب طويلة ، وسيوف عريضة باترة . أما قلب دفاع الجيش فقد كان وحدات الفيالق المقدونية المتلاصقة ، والتى تراوح عددها مابين ست عشرة واثنتين وثلاثين وحدة ؛ كانت الفيلة الضخمة تتوسط كل وحدة منها ؛ وتقوم مقام القلاع أو الأبراج الدفاعية ؛ كما أن امتداد هذه الوحدات بهذا الطول والعمق جعلها تبدو كما ولو كانت شبيهة بنظام القنافذ الحربية المحصنة ، وهو التكتيك الذى استخدمه هانيبال ابان حروبه فى إيطاليا ضد الرومان ، وأثبت فاعليته . ولقد كانت وحدات هذه الفيالق تتكون من الجنود المقدونيين ، والأغريق المستوطنين ، والشرقيين المتأغرقين . وكانوا مدربين تدريباً عاليا ولا تنقصهم الشجاعة والاقدام ؛ ولأن هذه المعركة لم تقرر مصير الشرق الهلينستى فحسب ، بل انها انهت الى الأبد دور الفيالق المقدونية : وانتهى معها استخدام الفيلة كمدرعات ثقيلة فى الجيوش ؛ ولذلك أهتم المؤرخ بوليبيوس اهتماماً خاصاً بها ؛ وأفرد لها تحليلا علميا مطولا ودقيقاً ؛ حيث سرد تفاصيل المعركة دقيقة بدقيقة لدرجة تدعو للملل ؛ ولم يذكر أبدا أن قوات أنطيوخوس كانت تعوزها الشجاعة والجرأة ، إنما انتقد تكدسها فى حيز ضيق ، مما شل حركتها ، وأضعف قدرتها على المناورة ؛ فى نفس الوقت الذى كانت فيه الفرق الرومانية Legiones تناور بحرية بسبب وجود مسافات فاصلة بين كل فرقة (٢) ، وبحيث لاتسمح بوجود ثغرة ينفذ منها العدو ، ولقد كان حشد القوات لبناء سد دفاعى احدى سمات البناء العسكرى للقوات المقدونية الموروثة عن التراث الحربى الأغريقى ؛ وربما كانت فكرة الحائط الدفاعى مفيدة عند الاجتياح ، غير أنها فى مواجهتها

---

(1) Plutarchus, Eumenes (Everyman's Library), Vol. II, 344.

(2) Polybios, XV, 15,8 ; XVIII, 29, I ff ; H.D.M. Parker : Roman Legions, London (1928), reprint 1958, p. 12—16 ; G.R. Watson : The Roman Soldier, Thames & Hudson, 1969, p. 22.

للفرق الرومانية جعلها تتكبد نسبة عالية من الإصابة ؛ فأى سهم كان يطلق تجاه هذه الكتل البشرية المتلاحمة كان ولابد وأن يصيب أحد أفرادها ، فتقييد المساحة شل حركتها . وبالرغم من هذه العيوب ، فقد واجهت الفرق الرومانية من جانب الفيالق المقدونية قتالا صعباً حتى أن المؤرخ بوليبيوس نقل على لسان القائد الرومانى إميليوس باولوس Aemilius Paulus قوله أنه لم يشهد فى حياته العسكرية وعلى طول المعارك الطويلة التى خاضها كجندى ، أو قادها كجنرال ، قتالا شرساً ومرعباً مثل قتال الفيالق السليوقية المقدونية(١) ، كذلك وجه بوليبيوس النقد إلى هذه الفيالق بأنها كانت تقاتل بدون غطاء دفاعى من الفرسان ، سواء من ناحية الميمنة أو الميسرة . وبذلك حلل بوليبيوس بخبرته العسكرية العوامل التى أدت إلى إضعاف الفيالق المقدونية ، وتقييد قدراتها فى مواجهة الفرق الرومانية المتطورة ، والتى تعتمد على المشاة ذات الحركة ، والتى تسمح بالكر والفر ، والتى شهد لها بالكفاءة أعظم قادة العصر وهو هانيبال القرطاجى ؛ كذلك لم يفت بوليبيوس أن يوضح أن من بين أسباب هزيمة أنطيوخوس الثالث ، اشتراك قوات إغريقية ومقدونية إلى جانب الرومان : مثل قوات يومينيس ملك برجامون ، وقوات جزيرة رودس ؛ تلك الجزيرة التى كانت مصالحها التجارية تقتضى القضاء على قوة أنطيوخوس البرية والبحرية ، التى كانت تسيطر على طرق التجارة فى آسيا ، حتى ولو أدى ذلك إلى التعاون مع البرابرة الرومان ضد بنى جلدتهم .

بدأت المعركة بمناوشات بين طلائع الفرسان من الجانبين ؛ وبالرغم من أن أنطيوخوس الثالث أبدى شجاعة مذهلة ، إلا أنه وقع فى الفخ الذى نصبه له الرومان ؛ فقد أغروه بمقاتلة فرسان غريمه يومينيس الذى خان قضية الأغريق ، واشترك مع الرومان مساهماً فى قوتهم الضاربة بثلاثة آلاف فارس ، انقض بهم على ميسرة فرسان أنطيوخوس ؛ وغلى الدم فى عروق أنطيوخوس عند رؤيته لهذه القوات الخائنة ؛ فاندفع على رأس مجموعة من فرسانه يطاردها ،

---

(1) Polybios, Ibid, XXIX, 17, 1.

حتى سحبته بعيداً عن قواته التى أضحت بلا غطاء دفاعى يحمى ميسرتها ؛ عندئذ لاحت الفرصة للقائد الرومانى إميليوس باولوس لكى يطوقها ، ثم إنهالت جنوده عليها بالحراب والسهام من كل جانب ، مما أوقع بها خسائر فادحة بسبب تكدسها ، واضطرتها إلى التقهقر فى فوضى . فهاجت الفيلة محدثة حالة هرج ومرج وخسائر خلال عملية الانسحاب ، وعندما عاد أنطيوخوس من مطاردته لفرسان يومينيس البرجامى ، معتقداً أنه قد شفى غليله بتشتيت شملها ، كاد يجن عندما وجد أن قواته قد ذبحت عن آخرها ، وقيل أنه وجد خمسين ألف رجل من رجاله جثثاً مبعثرة حول الأفيال القتيلة والعربات الحربية المحطمة . وكتب بوليبيوس فى حسرة يقول « من كان يظن أنها نهاية عصر الفيالق المقدونية الشهيرة ؟ » ، « كثير من الأغريق ظنوا أن هذا الحادث أمر لا يصدق ، وسيظل كثيرون آخرون يتعجبون ويتساءلون لماذا وكيف انتهت الفيالق المقدونية إلى هذه الهزيمة البشعة على يد الفرق الرومانية ، خاصة وأنه سبق لها أن لقيت هزيمة مماثلة قبل ثمان سنوات فى كونوس كيفالاى (١) فى تساليا » ، عندما تمكن القائد الرومانى فلامينيوس من إلحاق الهزيمة بقوات فيليب الخامس المقدونى عام ١٩٧ ق . م ؛ وإرغامه على التخلى عن فكرة التوسع ، وقبول البقاء داخل حدود مقدونيا فقط ؛ وبعد تجريده من قواته وأساطيله ؛ وأخذ ابنه رهينة ، وفرض ضريبة باهظة عليه .

غير أن معركة ماجنيسيا كانت بمثابة سقوط الحصن الأخير للعصر الهللينستى ؛ فقد كانت قوات أنطيوخوس الثالث تتكون من بقايا المحاربين المقدونيين القدماء من سلالة جنود الاسكندر المقدونى ، الذين استوطنوا آسيا الصغرى والمشرق العربى بعد فتحه لها عام ٣٣٢ ق . م ، وخلال حكم سليوقوس الأول نيكاتور لها . ويعتبر عصر أنطيوخوس الثالث هو قمة عصر الفيالق المقدونية ؛ فعن طريقها تمكن هذا الملك من فرض سيطرته على مساحة

(1) Polybios, Ibid, XVIII, 32, 13.

شاسعة امتدت من أنطاكية غرباً حتى باكتريا (أفغانستان) شرقاً ، ومن البسفور والدردنيل شمالا حتى حدود مصر مع الشام جنوباً .

ولقد كانت الفيالق المقدونية تتباهى بتاريخها المجيد، وتقاليدها العسكرية الموروثة ، فكانت تحرص على إناقة مظهرها وزيها العسكرى ، الذى كان يتكون من القبعة الواسعة ذات اللون القرمزى ، ومن العباءات المزركشة بالزخارف القرمزية والذهبية ؛ والدروع التى تكسوها طبقة من الفضة أو الذهب ؛ فإذا سقطت عليها أشعة الشمس تلألأت وتوهجت ؛ حتى الفيلة التى غدت جزءاً لا يتجزأ من الفيلق ، تقوم مقام البروج والقلاع المتحركة ، اعتنوا بتزيينها على نحو ما يفعل بعض الهنود اليوم . ولقد كانت الفيالق المقدونية تعشق الاستعراضات فى المناسبات والأعياد ، حيث يسير جنودها شامخى الأنوف فى كبرياء وغرور ، وكأنهم يسيرون نحو الوغى عازمين على سحق أعدائهم .

نتائج معركة ماجينسيا :

وبعد أن تمالك أنطيوخوس نفسه من هول الهزيمة، انسحب إلى المدينة العتيقة ساردیس ، حيث كانت تقيم عروسه الشابة ، فاصطحبها خارج المدينة، وسار بها جنوباً حتى أطمأن على سلامتها ، ثم عاد إلى العاصمة السليوقية أباميا Apamea ، ومن هناك بعث بوفد إلى الرومان يعلن قبوله لشروط السلام التى يقرونها .

وبعد مفاوضات استغرقت مايقرب من حولين كاملين ، وقع أنطيوخوس عام ١٨٨ ق . م فى أباميا على شروط الرومان ، التى وضعت نهاية لأحلامه التوسعية ؛ ووطئت أقدامهم لأول مرة أرض آسيا الصغرى ؛ وبدأوا يستنشقون نسيم الشرق الأدنى ؛ وطبقاً لشروط السلام مع الرومان قبل الملك أنطيوخوس الأكبر أن تنسلخ عن الامبراطورية السليوقية كل الأراضى الواقعة إلى الشمال من جبال طوروس ، وبذلك فقد السليوقيين مناطق التجنيد الشهيرة

مثل جلاثيا ومقدونيا وبلاد اليونان ؛ وأصبحت الامبراطورية السليوقية بمقتضى شروط الصلح دولة تحكم الشرق الأدنى فقط ، وخاصة الشام وجنوب بلاد الرافدين . وبدأت تتعامل مع هذا الواقع الحضارى الجديد، وغيرت نشاطها ليتناسب مع ظروفها الجديدة ؛ فمثلا بدأت تعتمد على العنصر العربى الآرامى بدلا من الأغريقى الأسيوى ؛ ولهذا بدأت أسماء مشايخ العرب تظهر لأول مرة فى تاريخ الدولة السليوقية ، وتلعب دوراً هاماً فيها .

لقد أجبرت روما — بمقتضى صلح أباميا أنطيوخوس الأكبر على تسليم أفياله المدربة ، والتى كانت بمثابة قواته المدرعة لكى تسلمها إلى غريمه يومينيس ملك برجامون ؛ كما أمرت بحرق خمسين سفينة حربية من أسطوله على رمال سواحل ميناء باتارا Patara — الميناء الرئيسى لأقليم ليكيا Lycia ، ولم تترك له سوى عشرة سفن ، بعد أن أخذت عليه تعهداً بتحديد المجال والمدى البحرى لإبحار سفنه . ونتيجة لذلك ، فقدت الامبراطورية السليوقية هيمنتها على بحر إيجه ، مما نتج عنه عودة القراصنة لتهديد السفن التجارية ؛ مما أحدث خللا فى تجارتها(١) .

وإلى جانب سلاح الأفيال ، ورث يومينيس أغلب ممتلكات الامبراطورية السليوقية شمال جبال طوروس كمكافأة له لتعاونه مع الرومان ، لكن يومينيس العاقل — بعيد النظر — رأى بعينيه الثمن الباهظ الذى تكلفه فرض الهيمنه على المدن الأغريقية ، ففضل أن يطبق مبدأ الحرية لكافة المدن الأغريقية ، حتى على تلك التى كانت تحت سيطرته من قبل . فعندما زاره وفد من سفراء أنطيوخوس بعد هزيمة ماجنيسيا بسنوات ، وجدوه ودوداً ومضيافاً على غير العادة . أما شعب رودس فلم يتذلل للرومان مثلما فعل يومينيس ، بل احتفظ بكبريائه ، فقد تحدث مندوبوه إلى الرومان بجرأة ووضوح محذرين إياهم

عن شروط صلح أباميا أنظر : (1) Titus Livius, XXXVIII, 39.

من مغبة التراجع عن سياسة منح الحرية لكافة المدن الأغريقية(١) وإلا دفعت روما الثمن غالياً .

لقد قلبت روما للأغريق ظهر المجن بعد انتصارها فى ماجنيسيا ، بل —إن شئت فقل—منذ هزيمتها لفيليب الخامس فى كونوس كيفالاى ،إذ تضمنت قصيدة « الكساندرا » الشهيرة تسبيحا بحمد روما وقوتها ، إذ يقول أحد أبياتها « وعقد لها لواء القيادة والهيمنة فى البر والبحر» (٢) . لقد أصبح شعب برجامون بغيضا فى عيون الرومان ؛ أما شعب رودوس فقد خرج خاسرا بعد أن فقد سيطرته على بحر ايجة ؛ إذ حول الرومان جزيرة ديلوس الى سوق دولية لتجارة الرقيق ؛ والى أكبر محطة للتجار الايطاليين ؛ وبالتالى سرقت الأضواء من رودس ؛ التى كسدت تجارتها ، وقد نتج عن الفراغ الذى خلفه غياب قوة رودس الاقتصادية ، واختفاء هيمنة السليوقيين البحرية أن اختل الأمن فى بحر إيجة وشرق البحر المتوسط ، فغدا وكرا وملاذا للقراصنة ، اللذين الحقوا أكبر الأذى بالتجارة العالمية ، فقد كانت كل من رودوس والأمبراطورية السليوقية تحافظان بشدة على تطبيق السلام البحرى ، وتشرفان على وضع اللوائح والقوانين البحرية ، وخلاصة القول لم يعد شرق البحر المتوسط آمنا التجارة بعد انقلاب موازين القوى . وفى نفس الوقت بدأت روما تسيء معاملة حلفائها السابقين ؛ ويروى لنا بوليبيوس فى أسى كيف أنه عندما رست سفينة يومينيس ملك برجامون وحليفهم الأول ضد أنطيوخوس — بعد عشرين عاما من انتصار ماجنيسيا فى ميناء برنديزى الايطالى ، لم يجد أحدا فى استقباله سوى مسئول بدرجة كوايستور Qaesıor استقبله وهو عابس الوجه ، مقطب الحاجبين ، وسأله ببرود عن الغرض من الزيارة ؛ ثم أخطره بكل صلافة وجفاء :

---

(1) Tıtus Lıvius, Ib d, XXXVII, 52 ; Polybios, XXI, 18 ff.

(2) γῆs, κα1 Θαλάσσηε, 6κήπτρα kai μοναϱχιαν (I. 1229) ; cf. J. G. Bury (et Alia,)Hellenistic Age, Cambridge Universtiy Press, 1925, P. 12.

« أن كان لديه شيء يريد ابلاغه للسناتو فليقله ، أما إذا لم يكن لديه شيء فعليه أن يغادر ايطاليا فى أسرع وقت ممكن » ، ووقف الملك البرجامى مندهشا فارغا فاه لايدرى ماذا يفعل بعد أن رد بأنه ليس لديه شيء يقوله أويطلبه»(١) ولقد كان انطيوخوس الأكبر يدرك أن ذلك سوف يحدث ، والملك لم يطل به العمر ، فقد وافته المنية بعد عام واحد من توقيع صلح أباميا . لقد مات مقهورا ، وفى صمت فى منطقة نائية تقع الى الشرق من نهر دجلة ، شهدت طفولته وصباه ؛ أما هانيبال فقد ظل مطاردا سبع سنوات بعد هزيمة ماجنيسيا ، حتى أدرك أنه لانجاة له من الرومان الا بالموت ، فتجرع السم فى قصر ملك بيثينيا (جنوب غرب البحر الأسود) ليتفادى أمر الترحيل الذى أصدره فلا مينيوس القائد الرومانى ذو الوجه الثعلبى ، والذى سبق أن أعلن على الملأ ضمان الحرية ، وحقوق السيادة لكافة المدن الأغريقية .

لقد أصاب غبار الحرب المنهزم والمنتصر على السواء ؛ فقد توقع بعض سياسى وحكماء الأغريق حدوث الكارثة القادمة من الغرب الايطالى ، ولقد كان هانيبال القرطاجى أول من قرأ الغيب ، كما نقل لنا بوليبيوس نص الخطبة المطولة التى كان الزعيم الأيتولى الشهير أجسلاوس قد ألقاها فى اجتماع عام للحلف الأيتولى ، وفيها وجه كلامه الى فيليب الخامس الذى كان يترأس ذلك الاجتماع ، وفيها تمنى لو أن الأغريق توقفوا عن اشعال الحروب العقيمة بينهم ، لكى يوحدوا كلمتهم فى جبهة واحدة ويقفوا صفا واحدا لمواجهة الغزاة الرومان ، وأن يتركوا العزوف عن الاهتمام بمستقبلهم بدلا من اهتمامهم بالحديث عمن سيكسب الحرب التى كانت دائرة وقتذاك بين هانيبال والرومان ، « فسواء هزم القرطاجيون الرومان ، أو هزم الرومان القرطاجيين فان المنتصر لن يكتفى بايطاليا وصقلية ، بل سيمد طموحاته الى خارج حدود الحق والعدل ليضم إليه بلاد اليونان » ؛ ثم يقول لفيليب فى نبرة حادة كلها عتاب « ان كنت تبحث عن ميدان حرب فول وجهك شطر الغرب »

---

(1) Polybios : XXX, 19, 7.

لأنه إذا تباطئ « فسوف تتحرك السحب التى تتجمع الآن هناك لتأتى الى بلاد اليونان » ، وعندئذ سوف ينتاب الأغريق اليوم الذى أضاعوا فيه قوتهم فى حروب محلية؛ لاطائل منها، وسوف يتحسرون على ضياع الفرصة والقدرة التى كانت تمكنهم من حل خلافاتهم بأنفسهم(١)، ولم ينس بوليبيوس أيضاً أن يسجل لنا قول مبعوث أغريقى مجهول ، قبل اندلاع معركة ماجنيسيا بحوالى ثمان عشرة سنة ، وفيه عبر عن قلقه « بأن الكارثة سوف تحل بالأغريق عندما يفرغ الرومان من حروبهم مع هانيبال فى إيطاليا »(٢) ...

لقد كان بوليبيوس شديد الاعجاب بأخلاق الرومان ، ويشيد دائماً بانضباطهم ؛ ويقارن بين نزاهتهم وقوانينهم التى لاتفرق بين الحاكم والمحكوم، وكشف عن الفساد، وخراب الذمم ، وغياب النزاهة ، والانحطاط الخلقى الذى ساد الممالك الهللينستية ؛ وكان يتمنى أن يصلح الرومان بمبادئهم ومثلهم العليا هذه الممالك ، التى كان سوس الفساد والرشوة ينخر فى عظامها حتى النخاع ؛ بيد أن أمله قد خاب ، فسرعان ما انتقلت هذه الأعراض الى جهاز الحكم الرومانى ذاته ، وتحول الرومان من البساطة والتقشف والنزاهة ، الى الجشع والترف وحب المظاهر ، وانتابتهم حمى الجرى وراء المال ، ونهب شعوب الولايات الشرقية ؛ وانتشر جامعو الضرائب والمرابون ، والصيارفة الرومان ، يثقلون كواهل الناس بالضرائب التى لاترحم ، حتى باع الناس فى آسيا الصغرى أطفالهم لتسديد ماعليهم من ضرائب ؛ مما أدى الى خراب الشرق الهللينستى وافقار شعوبه . ويحلل بوليبيوس أيضا العوامل التى أدت الى وقوع الأغريق ضحية للخدعة الرومانية المتمثلة فى الشعار الكاذب الذى رفعوه وهو ضمان الحرية والاستقلال لكافة المدن الاغريقية شمال جبال طوروس ، وحمايتها من خطر الغال الجلاتيين ، لدرجة تهليلهم لمقدم الغزاة الرومان الى بلادهم، غير أن بوليبيوس اكتشف أن السادة الرومان قد نسوا ماوعدوه، أو ضربوا به عرض الحائط ، فقد أصبح لايعنيهم الا أنفسهم ، وبناء قوتهم ومجدهم ، لايساندون الا من

(1) Polybios, V, I—II.
(2) ibid, Xi. 5.

يتذلل لهم ، ويسير فى ركابهم(١) فى الحق والباطل ؛ وأصبح واضحا وجليا أن الأمور إذا لم تخضع لمشيئتهم ورغباتهم ؛ أو أن لم تنفذ طبقاً لقراراتهم ، فانهم يغضبون وينتقمون(٢) ، فالذين يدفنون كرامتهم فى الوحل نفاقالهم هم الذين ينالون رضاهم ، أما الذين يحافظون على كرامتهم فانهم يتعرضون لجبروتهم الذى لايرحم . ويسوق بوليبيوس مثالا لذلك بملك مملكة بيثينيا ويروى كيف وقف متذللا بطريقة مقززة أمام السناتوالرومانى وهو يرسف فى ثوب المهانة والخنوع والذل(٣) فقد بدأت روما تصعد بتؤده طريق الغرور والقوة والوقاحة .

٦ — سليوقوس الرابع الملقب بفيلوباتور (١٨٧ — ١٧٥ ق. م) :

وبعد موت أنطيوخوس الثالث عام ١٨٧ ق.م ، تولى ثانى أبنائه سليوقوس الرابع ، الذى أتخذ لقب فيلوباتور تيمنا بحبه لأبيه ؛ فقد كان محل ثقته أثناء حياته ، بل كان ساعده الأيمن ؛ فقد أوكل إليه عدة مهام وعهد إليه بأخطر المناصب ، وكأنه كان يعده لخلافته . ولقد كان سليوقوس الرابع رجل اقتصاد واصلاح ، ولم يكن رجل حروب ومعارك ، فقد حرص على الالتزام بشروط نصوص صلح أباميا مع الرومان حتى لا يثيرهم عليه ؛ ويعطيهم العذر لاجتياح ما تبقى من الامبراطورية ، خاصة أن بنود هذا الصلح كانت تحظر على المملكة السليوقية القيام بأى مغامرات حربية خارج أراضيها ؛ كما أنها حددت حجم قواتها ، ودمرت اسطولها ؛ بالاضافة إلى ذلك لم تكن المملكة السليوقية قادرة على تحمل نفقات المغامرات الحربية ؛ ودفع مرتبات الجنود المرتزقة الباهظة ، خاصة وأنها كانت تدفع غرامة الحرب الباهظة التى فرضتها عليها روما .

ولذلك كان على سليوقوس الرابع أن يعيد تنظيم المملكة فى ضوء ما حل

(1) Polybios, XXIV, 10—14.
(2) Ibid, XXIII, 17, 4.
(3) Ibid, XXX, 18, 7.

بها من خسائر اقتصادية بعد فقدان مناطقها الغنية إلى الشمال من جبال طوروس ؛ وضياع سيطرتها على طرق التجارة البرية والبحرية والتى كانت سر غناها وقوتها ؛ ولهذا بدأ الاعتناء بتطوير موانىء الخليج والشام ، وتعمير طرق القوافل فى بابل وأعالى الرافدين ، لتنشيط للتجارة مع الشرق الأقصى تعويضا عن فقدان تجارة البحر الأسود . كما وثق من علاقته مع العرب الانباط ، الذين كانوا يتحكمون فى نهاية طريق البخور القادم من جنوب الجزيرة العربية ؛ ولأنه كان يدرك أن التجارة الخارجية تقوم على قوة العملة ، فقد أعاد سك النقود بوفرة ، وحرص على نقاء معدنها ، وثبات وزنها ، لكسب ثقة التجار الأجانب فيها ؛ ولذلك أعاد النظر فى ميزان النفقات ، ليدبر الذهب والفضة الكافيين لسك هذه العملة القوية ، ويمكن استنباط ذلك من كميات النقود التى سكها ، والتى أخرجت من الحفائر فى أطلال المدن السليوقية القديمة ؛ وخاصة أنطاكية وسليوقية على نهر دجلة ؛ كما اتخذ تدابير صارمة لترشيد النفقات ، والتوسع فى مصادر الدخل بهدف التغلب على الكارثة الاقتصادية ؛ ولذلك نلحظ لأول مرة العناية بتعمير المدن الشرقية ، سواء فى بلاد الأنباط ، أو الشام الآرامى ، و حول الخليج . كما حرص على تقوية علاقاته مع كل من مملكة البطالمة ومقدونيا اللتين كانتا حتى هذه اللحظة ممالك مستقلة ذات سيادة . وبالفعل آتت سياسته الاقتصادية أكلها ؛ وبدأ الرخاء يعود تدريجيا الى المملكة ، ووضح ذلك جليا فى عهد أخيه وخليفته أنطيوخوس الرابع .

٧ — أنطيوخوس الرابع الملقب باسم أبيفانيس ١٧٥ — ١٦٣ ق . م :

كان أنطيوخوس الرابع واحدا من أبرز ملوك البيت السليوقى وأشدها عشقا للحضارة الأغريقية ، وبناء الحواضر العامرة الجديدة ، وإعادة بناء الحواضر الشرقية العتيقة على طراز هللينستى جديد ؛ وجاء بالمستوطنين الجدد من مقدونيا وبلاد اليونان ليعيد دعم العنصر الأغريقى فى الشرق الأدنى كما كان مغرما بطريقة الحياة الرومانية ، وهذا ما اكتسبه فى باكورة حياته

عندما كان رهينة فى روما لمدة أربع عشرة سنة ، ولهذا حرص على صداقتها وتقليدها . ولقد كان محبا للترف ، فقد تحدث بوليبيوس عن حبه التجول فى محلات الجوهرات ، وهيامه بمظاهر الأبهة والعظمة ، كما كان كريما جوادا ، متواضعا ، مولعا بالمرح والحياة ، لكنه كان محبوبا من شعبه فقد نجح فى الوصول بمملكته الى أعلى درجة من الكفاءة والمقدرة .

ولقد كانت المبانى والمنشئات التى شيدها ، ومظاهر الترف التى أسبغها على أنطاكية جزءاً من برنامجه للنهوض بالأمبراطورية وتقويتها ، فلكى يستعيض عن انكماش رقعة الأمبراطورية وضياع قوتها ، وتبعيتها الاقتصادية لروما ، شرع فى بذل جهود كبيرة لتوحيد صفوف رعاياه ، عن طريق روابط سياسية ودينية وثقافية ، فقد سعى الى تقوية مركز الديانة الوثنية الأغريقية ، وعبادة الحاكم وذلك للقضاء على النزعات الانفصالية ، والنعرات الدينية والقومية بين شعوب أمبراطوريته ، خاصة الديانة اليهودية التى كانت تحرض دئما على التمرد والثورة . لقد كان أنطيوخوس الرابع أكثر تقديرا واهتماما بعبادة الحاكم من أى فرد من اسلافه ، ولذلك ظهر على النقود فى صحبة الآلهة الأغريقية خاصة زيوس الأولمبى ، الذى عمل على نشر عبادته فى أرجاء مملكته ، لأنه كان يتشبه به ، كما حملت العملة السليوقية لأول مرة اسم الملك مصحوبا باسم العاصمة .

ولقد كان تحسين الحياة الحضرية فى جميع أنحاء الأمبراطورية احدى وسائله التى قصد بها توثيق العرى بين العناصر المتباينة من رعاياه ، ولذلك فقد اقام العديد من المدن والحواضر ؛ فقد شرع فى أغرقة منطقة شرق الأردن عن طريق الاكثار من نشر بناء الحواضر فيها ، ولقد كانت منطقة شرق الأردن واديا خصبا معروفا بوفرة محاصيله ، ومشهورا بتربية الجياد العربية ، وكثرة قطعان الأغنام فيه ؛ وبها مناجم للحديد بالقرب من جرش . ولهذه الأسباب شرع فى بناء سلسلة من المدن المحصنة تربط وادى شرق الأردن ، بوادٍ آخر يقع على طول طريق القوافل الذى كان يربط بين

ودمشق وفينيقيا والشام من ناحية ؛ وبيت المقدس وموانىء فلسطين من ناحية أخرى . فمثلا فى عهده أصبحت عمان التى كانت تدعى رباط عمون Rabbath Ammon مدينة أغريقية بحتة ، وأعيد تسميتها لتصبح فيلادلفيا . وفى عهده أيضاً تحولت جرش فى شرق الأردن من قرية نبطية آرامية الى مدينة أغريقية عامرة ، وكانت هذه القرية بمثابة المركز الحيوى لقبائل البدو نصف الحضرية ، فأعيد بناؤها وتسميتها ، فأصبحت تسمى أنطاكية أهل جرش أو أنطاكية على رافد خريسورواس Chrysorrhoas الذى كان يجرى وسط المدينة . ولاتزال أطلال جرش قائمة حتى الآن فى الأردن .

أما بالنسبة لأنطاكية فقد كان عهده أزهى عصورها ؛ فقد أضاف لها حياً جديداً سمى على اسمه « حى الأبيفانيا Epiphaneia لمواجهة ازدياد أعداد سكان العاصمة ؛ وزوده بساحة اضافية أى أجورا Agora وبذلك أصبحت أنطاكية تمتلك أثنين منها فى موقعين مختلفين مثل مدن ميليتوس ، وبرجامون وبيرية ، وذلك عملا بما أوصى به أرسطو بأنه يجب أن يكون لكل مدينة يونانية أثنان من الأجورات فى موقعين مختلفين ؛ واحدة للنشاط السياسى والثقافى ، والأخرى للنشاط التجارى والترفيهى . وفى هذا الحى الجديد أقام أيضا دارا للشورى (بوليوتيريون) ، ومعبدا للرب جوبتر الكابيتولينى ، وهذا دليل على اهتمامه وتأثره بالحياة الرومانية منذ أن كان رهينة فى روما . كما أقام قناطر جديدة لحجز مياه السيول ورفعها الى خزانات بأعلى التلال لمد المدينة بالمياه .

ولقد ذاعت شهرة أنطاكية فى عهده عندما أقام مهرجاناً للألعاب فى مدينة دفنه عام ١٦٧ ق. م ليغطى على المهرجان الذى أقامه القائد الرومانى باولوس إيميليوس على أثر انتصاره على مقدونيا فى معركة بودنا Pydna الشهيرة عام ١٦٨ ق.م ، وقد ترك لنا بوليبيوس وصفاً دقيقاً لذلك المهرجان الذى لم يدانيه سوى المهرجان الكبير الذى أقامه بطليموس فيلادلفوس فى الاسكندرية عام ٢٧٨ ق. م ، فقد عرضت خلاله بضائع الشرق الثمينة

مثل الذهب والفضة والجواهر والعاج والعطور والبخور والحرير ، التى جلبها من الهند وبلاد العرب وأفريقيا ، كما ازدهرت الفنون فى أنطاكية ، فقد كان يشرف بنفسه على أعمال الفنانين ، ويعهد إليهم بالمشروعات الكبرى .

العناية بالطرق التجارية :

ولقد ربطت سياسته بين بناء الحواضر العامرة والمحصنة ، وبين تأمين طرق التجارة ؛ بل وتغيير مسارها فى بعض الأحيان كجزء من الحرب الاقتصادية ضد أعدائه ، فمثلا حاول تغيير مسار طرق القوافل الشرقية حتى لا تمر بأراضى الامبراطورية البارثية ، التى كانت تفرض مكوساً وجمارك باهظة على التجارة التى كانت تمر بأراضيها ؛ ولكى يشق طريقاً مباشراً دون وسيط للتجارة مع الهند وبلاد العرب ، اعتنى بطريق البخور ، الذى كان يقطع الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال بمحازاة جبال السراة الحجازية ، حيث كانت الإبل تنقل البضائع التى تجلبها للسفن العربية من الهند وسيلان إلى موانى اليمن على البحر الأحمر ؛ بل كان هذا الطريق من أقدم طرق التجارة فى العالم القديم التى حملت سلع الشرق الأقصى وبلاد العرب وأفريقيا إلى بلدان البحر المتوسط ، وكان هذا الطريق السبب فى ظهور المدن القديمة على جانبيه مثل مكة (ماكروبا) ويثريبا (يثرب) وتيماء ، والعلا (دادان) ؛ وكانت تصل إلى البتراء التى كانت بمثابة المركز الشمالى لتجارة بلاد العرب . ولذلك حاول تغيير مسار هذا الطريق لكى يتجه شمالا مباشرة إلى فينيقيا ، والشام وفلسطين بعيداً عن التفريعة المتجهة إلى مصر حتى يحرم مصر من نصيبها فى تجارة الهند وبلاد العرب ، ويمنع السلع المصرية من العودة مع القوافل الآيبة ؛ ولقد نجحت هذه التجارة لوقت قصير فى إغراق إنطاكية بالثراء وبالسلع الشرقية . وكانت التجارة المصرية قد تلقت ضربة قاصمة بعد إستيلاء أنطيوخوس الثالث على جنوب الشام عام ٢٠٠ ق . م ، كما أن البتراء حاولت الإفلات من سيطرة السليوقيين على تجارتها ، فبدأت

تبحث عن منفذ لها على خليج العقبة ، وساحل الحجاز الشمالى ، وبدأت تقيم علاقات تجارية مع البارثيين عن طريق مدينة الجرعاء (جرها) ومملكة خاراكس عند مصب نهر دجلة وكانت خاضعة لنفوذ البارثيين .

صراعه مع اليهــود :

كانت إمارة يهودية تتركز حول بيت المقدس جنوب فلسطين ، وكانت تابعة للبطالمة حتى عام ٢٠٠ ق . م ، ولقد حرص البطالمة على عدم التدخل فى الشئون الدينية لشعوبهم من غير الأغريق باستثناء بطليموس الرابع ، الذى حاول أن يجمع بين يهوة وسرابيس فى شكل الرب الأغريقى ديو نيسوس ، فقد أراد أن يوحد به الديانات ويجعله ربا واحداً لكل شعوب الامبراطورية على طريقة إخناتون ؛ ولم يمانع اليهود المتحررين من أنصار الحزب الأرستقراطى الذى كان صديقاً للبطالمة ، ولم نسمع عن أى قلاقل بين اليهود سوى الصراع على تولى منصب الحبر الأعظم فى أورشليم ، والذى كان يتنافس عليه أسرتان : أسرة هونيا بن شمعون (والذى كتبه الأغريق فى شكل أونياس Onias) ومقرها أورشليم ، وأسرة طوبيا التى كان معقلها مدينة حشبون Heshbon فى عمون ، والتى كانت تنتمى إلى أصول عمونية (فى شرق الأردن) ؛ وكان الحزب الأرستقراطى متحرراً من التزمت الدينى ، ويلقى رعاية من البطالمة ، غير أنه قبل فقدان فلسطين بدأ هذا الحزب يتمرد على حكم البطالمة بسبب كثرة الضرائب التى كانوا يفرضونها عليهم ، فتعاونوا مع أنطيوخوس الثالث لطرد البطالمة من الشام ؛ وتم ذلك فى معركة بانيون عام ٢٠٠ ق.م ؛ ورداً على تعاون اليهود الأرستقراطيين مع السليوقيين ، بدأ اليهود المتطرفون من الطبقتين الدنيا والوسطى يتعاونون مع البطالمة ويتجهون إلى مصر ، وهكذا تبادل الحزبان اليهوديان الأدوار .

وعندما ارتقى أنطيوخوس الرابع العرش عام ١٧٥ ق.م ، فوجىء باندلاع الاضطرابات حول منصب الحبر الأعظم ؛ ويقال أن الرومان كانوا وراء هذه القلاقل فى فلسطين لإحداث متاعب للدولة السليوقية بهدف

إرهاقها . فقد كان الحزب الأرستقراطى المناصر للحضارة الإغريقية بقيادة يشوع ياسون بن شمعون ، قد قام بعزل الحبر الأعظم هونيا بن شمعون ، وإجلس أخـــاه الأصغر يشوع ياسون على كرسى الحـــبر الأعظم ، وانقسم اليهـــود بين مؤيد ومعارض ، ولمـــا زار أنطيوخوس الثالث بيت المقدس عام ١٧٧ ق.م استقبله اليهود الأرستقراطيون بالترحاب ، ولكى يحصل يشوع ياسون على تأييده ، فقد تقدم إليه بالتماس يطلب فيه السماح ببناء جمنازيوم إغريقى لليهود ، وداراً للشبيبة فى أورشليم ، وأن يدمج بعض الضواحى فى أورشليم لتصبح بمثابة أنطاكية جديدة لما حولها . ولما كان أنطيوخوس لا يعرف شيئاً عن مشاكل اليهود ، ولأن ذلك المطلب يتفق وسياسته فى وجوب أغرقة القوميات الشرقية فى بوتقة واحدة للقضاء على النعرات القومية والدينية ، وجعل اللغة والحضارة الإغريقية هى القاسم المشترك الأعظم الذى يجمع شمل هذه العصبيات والديانات ، فقد سارع بالموافقة على طلب يشوع بن شمعون ؛ مما أثار عليه غضب اليهود المتطرفين من أبناء الطبقة الوسطى ؛ وفى نفس الوقت أستمر الصراع بين الأخوين الشقيقين على منصب الحبر الأعظم فى بيت المقدس . ولوضع نهاية لهذا الصراع ، قام أنطيوخوس الرابع بعزل كلا الأخوين المتصارعين من منصب الحبر الأعظم ، واختار شخصية جديدة من أنصاره وهو مينالاءوس الذى لم يكن ينتمى إلى أسرة كهنوتية .

غير أن مينالاءوس أمر بالتخلص من الحبر الأصلى هونيا ، فهرب إلى مصر بعد أن نهب خزائن المعبد فى أورشليم ، فهبت الثورة ضده واضطر أنطيوخوس أن يتدخل لقمع هذه الثورة عام ١٦٩ ق.م ، وبعد أن فرغ منها ، سار نحو الحدود المصرية ليقوم بضربة وقائية ضد بطليموس السادس الذى كان يزكى نار ذلك الصراع لإضعاف مركز السليوقيين فى فلسطين أملا فى استعادتها . وكان بطليموس السادس فيلو ميتور وزوجته كليوباترا الثانية على علاقة طيبة باليهود ، ولذلك استقبل الحبر الأكبر المعزول هونيا (أونياس) ومنحه أرضاً فى صحراء مصر الشرقية تقع إلى الشرق من فرع النيل

البيلوزى ، وسمح له أن يقيم فوق إحدى التلال معبداً يهودياً على نمط هيكل سليمان فى أورشليم مكان معبد وثنى متهدم ومهجور كان مقاماً للربة المصرية باستت (القطة) ، وعرف الموقع الجديد باسم مدينة ليونتوبوليس Leontopoiis (تل المقدام) ، وأقام فى هذا الموقع مقراً لدار الحبر الأعظم ، ومنازل لجماعات الكهنة من سلالة الأسرة المستحقة للكهانة وأنصارها . وكان ذلك فى عام ١٧٧ ق. م ، أى قبل تولى أنطيوخوس الرابع بعامين . وفى الالتماس الذى تقدم به هونيا إلى فيلوميتور ، عرض الأول المزايا التى سوف تعود على اليهود من بناء المعبد الجديد فى مصر ، منها أن ذلك سوف يوحد بين جميع طوائف اليهود المقيمة فى مصر تحت عبادة يهوه الذى لا رب سواه ؛ وبذلك يقى اليهود من شرور الفرقة والتناحر ، بعد أن مزقتهم البدع والخلافات على الشعائر ، مستشهداً بكلمات من سفر أشعيا تقول « فى ذلك اليوم يكون مذبح للرب وسط مصر ، وعمود للرب عند تخمها » (١) .

وفى أثناء تواجد أنطيوخوس الرابع فى مصر عام ١٦٩ ق.م انتشرت شائعة بين اليهود بأنه قد لقى حتفه وهو يحارب بطليموس السادس ، وانتهز يشوع ياسون الفرصة وحرض انصاره على الثورة ضد الحبر الأعظم مينالاءوس ، وقاموا بمهاجمة مقرالحبر الأكبر فى أورشليم وفتكوا بكهنتها ، وفر مينالاءوس مذعورا ليحتمى بقلعة المدينة ؛ وبعث يطلب النجدة من انطيوخوس الرابع . وعندما علم انطيوخوس بذلك اضطر إلى عقد صلح موقت مع بطليموس السادس بوضعه تحت حمايته ، وعاد إلى فلسطين مغتاظاً ، فقد أضاعت ثورة اليهود عليه حلماً عزيزاً وهو احتلال مصر ، وقرر أن يكيل ضربة عاجلة وموجعة لليهود ، ففتك بالثوار أنصار يشوع ياسون ، ودخل المعبد ونهب خزائنه ، وحمل معه ما فيه من كنوز ونفائس ومقدسات كما ألقى القبض على يشوع ياسون ، وبعد أن أصدر قراراً بتغيير

---

(١) سفر أشعيا ١٩ ، فقـرة ١٩ .

اسم هيكل سليمان من معبد يهوة إلى معبد زيوس الأولمبي الرب الذى كان يتقمصه ، انسحب عائداً إلى أنطاكية بعد أن ترك نواباً عنه لحكم بيت المقدس عاصمة اليهودية وجرزيم عاصمة السامرة .

غير أن القلاقل استمرت ، وعاود اليهود الثورة عام ١٦٨ ق . م فبعث إليهم أنطيوخوس بأحد قواده الشرسين الذى جاس خلال ديارهم ، واقتحم المعبد ، وفتك بالثوار ، وهدم حصونهم ، وكذلك أسوار أورشليم ، وقام بتحصين القلعة التى كان يحتمى فيها الحبر الأعظم مينالاعوس وأنصاره ؛ ولكى يسحق اليهود ، ويقضى على ديانتهم ويمزجهم فى عبادة زيوس الأولمبى ، أصدر أنطيوخوس الرابع قراراً عام ١٦٧ ق . م بإلغاء إسم أورشليم وتغييره إلى اسم مدينة زيوس الأولمبى ، وأن يكرس معبد يهوة (هيكل سليمان) رسمياً ليصبح معبداً لهذا الرب الوثنى ، كما شمل القرار تغيير اسم معبد يهوة فى جرزيم الذى كان يعرف باسم كينشت ، ليصبح معبداً لزيوس كسينيوس (أى زيوس المضياف) . كما قام ببناء قلعة حصينة فوق إحدى التلال التى تشرف على بيت المقدس ووضع فيها حامية متأهبة للقتال لتنفيذ قراراته التى اعتبرها نهائية ولا رجعة فيها . وكان أخطر قراراته قراره بحظر ممارسة اليهود عادة ختان للذكور ، لأنه اعتبرها عادة همجية ؛ وشمل القرار أيضاً حظراً على تقديس اليهود ليوم السبت وإجبارهم على العمل فيه . وكانت النتيجة رد دينى عنيف من جانب المتطرفين اليهود بالرغم من أن جماعة أنصار الأغرقة استقبلت هذه القرارات بالترحاب والحماس ، وبرروا ذلك بأن زيوس ما هو إلا الإسم الأغريقى ليهوة ، وكلها أسماء لرب واحد . وكان هؤلاء يدافعون عن مبدأ التعايش الدينى بين الأغريق واليهود ، وأقبل هؤلاء على إقامة المعابد والمحاريب والمذابح لزيوس الأولمبى فى كافة المناطق والأنحاء التى تواجد فيها اليهود فى فلسطين ، ونحروا الذبائح والأضاحى لزيوس الأولمبى ؛ وامتنعوا عن تقديس يوم السبت(١) ، حتى فى المناطق الريفية ، والدليل على ذلك أن حملة

(١) سفر الكابيين ٧ ، من ٤٣ — ٥٨ .

الإرهاب الديني المتطرف التي قام بها المكابيون بقيادة يهوذا المكابي ضد اليهود المتأغرقين كانت عنيفة في المناطق الريفية المدرجة أنها استمرت هناك عشر سنوات كاملة . وبمرور الوقت إزدادت قوة الحزب المتطرف بعد أن ضعف مركز الحزب الأرستقراطي المتحرر ؛ وتكونت جماعة الفريسيين بزعامة يهوذا المكابي (المطرقة) ، وكان في الأصل كاهناً من بيت هاشمون . ولتخفيف حدة ثورة اليهود المكابيين ، اضطر حاكم فلسطين السليوقي واسمه لوسياس عام ١٦٤ ق . م إلى إعادة تسمية هيكل سليمان باسم معبد يهوة مع إبقاء الحزب الأرستقراطي المتأغرق في الحكم ، غير أن ذلك لم يوقف ثورة المكابيين حتى مقتل يهوذا المكابي عام ١٦٠ ق . م وهكذا فشلت سياسة أنطيوخوس الرابع في أغرقة اليهود .

أنطيوخوس الرابع وحملته على مصر ١٦٩ — ١٦٨ ق . م :

وفي عام ١٧٣ ق.م بدأ الوزيران يولايوس ولينايوس وزيرا بطليموس السادس فيلوماتور يعدان التجهيزات لإستعادة جنوب الشام مستغلين انشغال أنطيوخوس الرابع في القضاء على القلاقل التي حدثت بين اليهود في فلسطين ضد حركة أغرقتهم وأذابتهم في بوتقة الحضارة الأغريقية؛ ولكي يفوت الفرصة عليهم ، قرر أنطيوخوس الرابع أن يقوم بحرب وقائية ضد مصر ، فسارع إلى غزوها عام ١٦٩ ق . م مستغلا هو الآخر سوء الأحوال الداخلية وانتشار الاضطرابات في مصر؛ وتقدم نحوها دون مقاومة تذكر ،واستولى على الفرما (بيلوسيوم) ، ثم تقدم نحو منف ، وهناك توج نفسه فرعوناً ؛ ولم يجد بطليموس السادس أمامه غير قبول الصلح معه وقبل أن يكون تحت حمايته؛ ولما ثار شعب الأسكندرية على استسلام بطليموس معلناً عزله وتعيين شقيقه الأصغر ملكاً على مصر ، تقدم أنطيوخوس نحو الإسكندرية بحجة إعادة بطليموس السادس إلى عرشه بالقوة ، وقبل أن يدخل الاسكندرية ، سمع عن تمرد يشوع ياسون على مينالاءوس الحبر الأعظم ، وفرار الأخير إلى قلعة أورشليم وطلبه النجدة ، فقرر أن يوقف القتال ويعود على عجل إلى فلسطين لقمع هذه الحركة .

وما أن فرغ أنطيوخوس الرابع من قمع الثورة فى فلسطين حتى عاد إلى مصر فى ربيع عام ١٦٨ ق . م بعد أن استولى على قبرص ، غير أنه اضطر للجلاء عنها على أثر تلقيه إنذاراً أخيراً من السناتو Senatus Consultum Ultimum بالجلاء عن مصر حمله إليه السفير الرومانى الشهير بوبيليوس لايناس ، كما أعلن انسحابه من قبرص (١) وإعادتها لمصر .

حملته ضد البارثين :

كانت القبائل التى أطلق عليها الأغريق والرومان اسم البارثيين هى قبائل البارثى Parthi وهم شعب شبه بدوى تواجد إلى الشمال من بحر قزوين وإلى الشمال من مقاطعة هركانيا ، ومن ثم أصبحت هذه المنطقة تعرف باسم بارثيا Parthia (خراسان وهو تحريف للاسم البهلوى بارتهاوه Parthavo) ، وذلك منذ ٢٤٧—٢٤٨ ق . م ومنذ ذلك التاريخ بدأ البارثيون يتوسعون على حساب الامبراطورية السليوقية حتى أصبحوا يمتلكون المنطقة الممتدة من نهر الفرات إلى نهر السند ، واتخذوا لهم عاصمة هى اكباتانا Ecbatana ، وكانوا يتكلمون اللغة البهلوية إحدى اللهجات الشمالية للغة الفارسية . ومنذ هزيمة أنطيوخوس الثالث على أيدى الرومان فى ماجنيسيا استغل البارثيون ضعف الامبراطورية السليوقية ، وراحوا يتوسعون شرقاً على حسابها ، فاستولوا على طرق التجارة الرئيسية التى كانت ترتبط تجارة الامبراطورية السليوقية مع الصين ، ولذلك حاول أنطيوخوس الرابع تحويل طرق التجارة مع الشرق الأقصى حتى لا تمر بالمناطق التى يسيطر عليها البارثيون . وفى أواخر أيامه ، سيطرت على أنطيوخوس فكرة غزو باكتريا وطرد أسرة يوثيديموس Euthydemos المعادية له ، وسحق الدولة البارثية قبل أن يستفحل خطرها ، فسار إليها بجيوشه ،وكان بذلك آخر ملوك السليوقيين الذين تصدوا للبارثيين . وكما يقول روستوفتزف أنه كان من الممكن أن يحقق أنطيوخوس الرابع انتصاراً عليهم ، لولا تدخل الرومان لإضعاف الدولة السليوقية بإثارة

---

(١) أنظـر ص ٢١٤ — ٢١٦ .

الفوضى والفتن فى ولاياتها الشرقية ، ووضع العقبات فى طريق أنطيوخوس الرابع وخلفائه ، حتى لا يخضعوا الولايات الشرقية البعيدة ، ولكنه فى عام ١٦٣ ق . م . وافته المنية والنصر على مرمى البصر ، وبموته إنتهت آخر فرصة لعودة الامبراطورية السليوقية كقوة كبرى لها نفوذ خارج أراضيها .

٨ ـ أنطيوخوس الخامس يوباتور (الأب الطيب) ١٦٣ — ١٦٢ ق. م :

وبعد موته آل العرش إلى إبنه أنطيوخوس الخامس ، وكان صبياً قاصراً ، فوضع تحت وصاية وزير اسمه لوسياس ، وانتهزت روما الفرصة لترغمه على تدمير الأسطول وقتل الفيلة ؛ ولقد أثار منظر جثث الفيلة الناس حتى أن أحدهم قتل المندوب الرومانى الذى جاء ليشرف على تنفيذ الأمر وكان اسمه أوكتافيوس ؛ واحتفظت روما بحقها فى الانتقام عندما يحين الوقت ؛ غير أن الملك الصبى لم يحكم إلا أقل من عامين ، إذ قتله ابن عمه ديمتريوس الأول لينتزع منه العرش . والحقيقة أن المصادر لا تمدنا إلا بالنذر اليسير عن الفترة ما بين موت أنطيوخوس الرابع عام ١٦٣ ق . م وقدوم القائد الرومانى بومبى إلى سوريا عام ٦٤ ق . م وتحويلها إلى ولاية رومانية وإنهاء العرش السليوقى ، ولا يزيد تاريخ هذه الفترة عن صراع متواصل على العرش بين مطالبين متنافسين ذوى قدرات محدودة ، حيث أضحت أنطاكية مراراً وتكراراً مسرحاً للمؤامرات والثورات والفتن ، وحروب الشوارع والمنازل .

٩ ـ ديمتريوس الأول سوتير Soter ١٦٢ — ١٥٠ ق. م :

كان ديمتريوس الإبن الثانى للملك سليوقوس الرابع فيلوباتور ، وكان رهينة فى روما ، وفيها قضى وقتاً طويلا شاهد فيها العرش ينتقل إلى عمه أنطيوخوس الرابع ، ومن بعده إلى ابن عمه القاصر أنطيوخوس الخامس ، فأعلن أحقيته فى تولى العرش ، وبمساعدة بوليبيوس ، هرب عن روما ، وطرد الوصى لوسياس بعد قتل الملك القاصر ، وتمكن من الجلوس على العرش مكانه عام ١٦٢ ق.م ؛ ولكن روما لم تعترف به ملكاً إلا بعد عامين من جلوسه

على العرش وبعد إعلان نفسه ملكاً على عرش الدولة السليوقية باسم ديمتريوس سوتير Soter ، شرع على الفور فى العمل ، مبدياً نشاطاً ملحوظاً لإعادة بناء الدولة ؛ فقد نجح فى استعادة أقليم بابل من أحد الثوار العسكريين واسمه تيمارخوس ، والذى كان يحظى باعتراف روما ؛ واستبدل ملك اقليم كابادوكيا المعادى له واسمه أرياراثيس Ariarthes بملك جديد غير أن هذا الملك لم يحظ بتأييد ورضاء شعبه ، ومن ثم فقد قام أتاللوس الثانى ملك برجامون بخلعه وإعادة الملك الأول إلى العرش . وتحالف أتاللوس الثانى مع بطليموس السادس فيلوميتور للوقوف فى وجه أطماع ديمتريوس الأول ؛ وفجأة ظهر مطالب جديد للعرش السليوقى اسمه الاسكندر باللاس Ballas أعلن أنه ابن شرعى لانطيوخوس الرابع ابيفانيس ، وأسرعت روما وبطليموس فيلوميتور بالاعتراف به ملكا ، وبمساعدة برجامون ومصر ، هاجم سوريا ، ولاقاه ديمتريوس بقواته ، وانتهت المعركة بهزيمة ديمتريوس ومقتله عام ١٥٠ ق.م وتولى الاسكندر باللاس العرش .

١٠ — الاسكندر بالاس ١٥٠ — ١٤٥ ق. م :

وبعد أن نجح فيلو ميتور فى إجلاس الاسكندر بالاس على عرش أنطاكية ، زوجه من ابنته كليوباترا الربة Thea على أمل أن يعيد إليه جوف سوريا مكافأة له ، غير أن بالاس كان غير جدير بالعرش ، فقد كان ألعوبة فى يد بطليموس فيلوميتور ، وفى يد أتاللوس الثانى ملك برجامون ، ويحظى بتأييد السناتو الرومانى ؛ ولم يلبث أن عاد إبن ديمتريوس الأول مطالبا بعرش أبيه ، وكان يقود جيشاً من المرتزقة الكريتين . ووجد فيلوميتور الفرصة أمامه لاستعادة جنوب الشام ، فسارع باحتلال الساحل السورى ؛ واعترض بالاس على ذلك ؛ وقام نزاع بين الزوج وصهره ، ومن ثم حول بطليموس تأييده إلى المطالب الجديد ديمتريوس الثانى ، بل وزوجه من ابنته التى كانت زوجة من قبل للاسكندر بالاس . وفى عام ١٤٥ ق. م قام بالاس بمهاجمة بطليموس فيلوميتور فى معركة بالشام وتمكن فيلوميتور من هزيمته وقتله ، غير أن بطليموس تلقى جرحاً أدى إلى وفاته بعد ذلك بقليل .

١١ – ديمتريوس الثانى نيكاتور الثانى (١٤٥ – ١٤١ ق. م) :

وبمقتل الأسكندر بالاس عام ١٤٥ ق. م أصبح ديمتريوس ملكاً باسم نيكاتور الثانى ؛ غير أن اعتماده على قوات مرتزقة كريتية أثار الناس عليه فى أنطاكية ، فاستغل ديودوتوس قائد قوات الأسكندر بالاس (والذى عرف فيما بعد باسم تريفون) هذا السخط ؛ فقام بإعلان طفل كان الاسكندر بالاس قد أنجبه من زوجته كليوباترا ثيا ابنة بطليموس فيلوميتور – ملكاً على البلاد باسم أنطيوخوس السادس ، وبلقب ابيفانيس ديونيسوس (أى ديونيسوس المتجلى) . ولما استقر الحال ، قام ديودوتوس بعزل الملك الطفل وقتله عام ١٤٢ ق.م ، وإعلان نفسه ملكاً باسم تريفون . ولم يستطع ديمتريوس الثانى القضاء عليه ، فترك زوجته كليوباترا ثيا (أرملة الاسكندر بالاس وأم الطفل أنطيوخوس السادس) لتحكم نيابة عنه ، واتجه بقواته شرقا تلبية لطلب نجدة تلقاه من المدن الإغريقية فى بابل ، وذلك لإنقاذها من مترادانيس الأول ملك بارثيا الذى مد نفوذه من نهر دجلة حتى الهند ، وضم إليه إقليم بابل عام ١٤٢ ق. م كما كان ديمتريوس الثانى يحلم بأن يعود محملا بالغنائم والأسلاب التى تمكنه من تجنيد قوات كبيرة للقضاء على مغتصب العرش تريفون ؛ غير أن غريمه مترادانيس هزمه وأسره ، لكنه عامله معاملة طيبة وكريمة ، فزوجه من ابنته مقابل الحصول على اعتراف منه بحق بارثيا فى احتلال إقليم بابل ، ولم يطلق مترادانيس سراح ديمتريوس الثانى إلا فى عام ١٢٩ ق.م .

١٢ – أنطيوخوس السابع سيديتيس Sidetes (١٣٨ – ١٢٩ ق. م) :

طال انتظار كليوباترا ثيا لزوجها الثانى ديمتريوس نيكاتور ، وأشيع أنه قد قتل على يد مترادانيس ملك البارثيين ؛ وكادت الفوضى تعصف بالعرش ، وفجأة وصل أنطيوخوس سيديتيس الشقيق الثانى لديمتريوس إلى أنطاكية عام ١٣٨ ق.م قادماً من جزيرة رودس – حيث كان يقيم فيها – لينقذ المملكة من الفوضى ، واستقبله الناس بالترحاب حيث تزوج من كليوباترا ثيا ، ونجح فى عزل مغتصب العرش تريفون . وتولى مكانه باسم أنطيوخوس السابع الذى يعتبر آخر

ملوك السليوقيين الأكفاء. وشرع على الفور فى العمل على عودة الاستقرار للمملكة ، وحقق فى ذلك تقدماً كبيراً ، ولعل ما يروى عن حياة الترف التى كان يحياها وإغراقه فى الشراب — وإن كان ذلك قد بولغ فيه — يدل على تحقيقه قدراً من الرخاء بعد ثمان سنوات من العمل الجاد بعد عودة الاستقرار للمملكة وتوحيدها ؛ فقد أعاد السيطرة على فلسطين ، وأخضع اليهود بعد فترة طويلة من التمرد ؛ كما شعر أنه فى وضع يمكنه من القيام باسترداد المناطق التى استولى عليها البارثيون فى الشرق ، وعلى أثر تلقيه دعوة من المدن الإغريقية فى بابل لإنقاذها من البارثيين ، عبر بقواته نهر الفرات عام ١٣٠ ق. م حيث استقبلته المدن الإغريقية بالترحاب ، وبتعاونها استطاع إستعادة شمال الرافدين Mesopotamia وإقليم بابل ، وطرد الملك البارثى فارناكيس Pharnaces من إقليم ميديا فى (فارس) ، وبدا الموقف كما لو كان أنطيوخوس السابع قد نجح فى استعادة الامبراطورية بالقدر الذى كانت عليه فى عهد أنطيوخوس الأكبر (الثالث) ، غير أن مجهوداته ضاعت سدى عندما فاجأه الملك البارثى فى مطلع عام ١٢٩ ق. م بهجوم كاسح فى معسكره الشتوى ؛ وألحق به هزيمة مريرة وقتل أغلب قواته ، وأسر من تبقى منهم حياً . وكان من بين القتلى أنطيوخوس السابع نفسه ؛ واستعاد البارثيون كل الأراضى التى كان قد انتزعها منهم ؛ وهكذا فقدت المملكة السليوقية بابل ، وبلاد ما بين النهرين إلى الأبد ، إذ أن آخر وثيقة من حكم السليوقيين لبابل ترجع إلى شهر يونيو (حزيران) عام ١٣٠ ق. م . وعندما أرسل الملك فارناكيس ملك البارثيين جثمان أنطيوخوس السابع إلى أنطاكية ليدفن فيها ، حزنت الشام كلها عليه ، وأقيمت المآتم فى كل بيت فيها ، كما لو كان أهلها يعرفون أنهم يقيمون الحداد على انتهاء تاريخ الأسرة السليوقية ، ووورى جثمانه التراب فى جنازة مهيبة ، بصورة أشبه بالحداد الذى انتهت به الياذة هوميروس عندما ووورى جثمان هكتور بطل الطراوديين مثواه الأخير .

نهاية الامبراطورية السليوقية :

حقاً ، لقد قاومت الامبراطورية السليوقية لمدة ستة وأربعين عاماً بعد موت أنطيوخوس السابع ، ومنذ موته فى عام ١٢٩ ق . م وحتى احتلال الرومان الشام عام ٦٤ ق.م لم يعد تاريخها سوى سجلا محزناً لمظاهر التفسخ والضعف والفوضى ، إذ لم تتوقف المنازعات حول العرش بين المطالبين بهسواء من بين لفراد شرعيين أو دخلاء مغتصبين ، وكان أكثرهم شرورا زابيناس الذى لم يتورع عن صهر تمثال زيوس جالب النصر الشهير الذى كان مصنوعاً من الذهب الخالص ، والذى كان أنطيوخوس الرابع قد أقامه فى أنطاكية ، وذلك لكى يسك النقود الذهبية التى كان فى حاجة إليها لدعم نفسه فى الحكم ، وعندما سئل عن هذه الفعلة رد ساخراً أنه لم يعد هناك حاجة لهذا التمثال لأن زيوس قد جلب له النصر فعلا ، وهذا مثل نسوقه عن العبث بالكنوز الغنية من أجل مصالح شخصية .

وخلال تلك الفوضى كانت المقاطعات السليوقية تنسلخ عن المملكة واحدة تلو الأخرى ، فقد استقلت إمارة كوماجينى الآرامية (بيت عدينى فى شمال سوريا على الشاطىء الغربى للفرات) منذ عام ١٦٢ ق.م ، وكذلك إستقلت مدينة أديسا (عرفة) عاصمة إمارة أوسروهينى الآرامية (على الشاطىء الشرقى الفرات فى شمال غرب سوريا) منذ عام ١٣٢ ق . م ، وراح البارثيون يضغطون من الشرق ، ويدفعون السليوقيين نحو غرب الفرات ، وبدأت الامبراطورية — التى كانت يوماً ما تمتد من جبال الهمالايا شرقاً إلى سواحل البحر المتوسط غرباً ، ومن مضيق البسفور والدردنيل شمالا حتى حدود مصر مع فلسطين جنوباً ، تتحوصل فى أنطاكية وما حولها بعد أن ضاع منها ممتلكاتها .

كان الملك البارثى فارناكيس قد أطلق سراح ديمتريوس الثانى قبل أن يقضى على أنطيوخوس السابع بضربة قاضية ، حتى يعطيه الفرصة لتولى عرش الامبراطورية السليوقية ، خاصة وأنه كان قد زوجه من ابنته على أمل

أن تنجب له ولداً يرث عرش المملكة . واستطاع ديمتريوس الثانى أن يسترد سوريا ، ويعود إلى زوجته الأولى كليوباترا ثيا التى كانت قد أصبحت بموت أخيه أنطيوخوس السابع أرملة تاركاً لها خمسة أبناء ، وشعرت الملكة التى كانت قد خبرت الزواج ثلاث مرات : من بالاس ثم ديمتريوس الثانى ثم أخيه أنطيوخوس السابع وأنجبت أبناء عديدين منهم ، أن الكيل قد فاض بها ، ولم تعد تطيق عودة ديمتريوس الثانى ، الذى كان لا يقارن برجولة أخيه الراحل ، فعندما ظهر مطالب جديد بالعرش اسمه اسكندر زابيناس Alexander Zabinas لم تقف مع زوجها ، ولما ألحق زابيناس به هزيمة ساحقة ، وحاول زوجها الهرب لينجو بحياته منعته من ذلك ، وعندما اعلن أكبر أبنائها منه نفسه وريثاً للعرش ، تخلصت منه بوضع السم له ، وأحلت محله أخاه الأصغر باسم أنطيوخوس الثامن الشهير باسم جريبوس Grypos على أن تكون شريكة له فى الحكم ؛ ولما أدرك الملك الجديد خطورة نوايا أمه قتلها قبل أن تتخلص منه هو أيضا .

أما ما حدث للاسكندر زابيناس ، فقد رأينا كيف أنه أغضب الناس منه بصهره تمثال زيوس جالب النصر ، وسك النقود منه ، ثم اكتشفوا بعد عدة أيام أنه كان يحاول سراً أن ينقل من نفس المعبد تمثالا آخر من الذهب لزيوس أيضاً ، فبادر أهل أنطاكية إلى التجمهر للحيولة دون ذلك . عندئذ قام الاسكندر زابيناس بجمع النفائس الملكية وفر تحت جنح الظلام قاصداً ميناء سلوقية — بيريه ، لكن الخبر كان قد ذاع ، فأغلقت المدينة أبوابها فى وجهه ، فسار على الساحل ومعه أتباعه ، وهناك أدركته عاصفة شديدة ، فتخلى عنه أتباعه ، فوقع فى أيدى جماعة من قطاع الطرق فأخذوه إلى معسكر الملك الشرعى أنطيوخوس الثامن حيث أعدم ، وقيل فى رواية أخرى أنه سمح له أن يأخذ حياته بيده .

ولم يكد الأمر يستقر لأنطيوخوس الثامن جريبوس ابن ديمتريوس الثانى حتى برز مطالب جديد بالعرش من الأسرة وهو أنطيوخوس التاسع الشهير

باسم قوزيقينوس (القوزيقى) Cyz cenos وكان ابناً لأنطيوخوس السابع ، ودارت الحرب بينهما سجالا . وفى خلال الاثنى عشرة سنة الواقعة بين عام ٩٦ ق. م وعام ٨٤ ق. م تعاقب على عرش أنطاكية ستة ملوك ، بل حدث فى مرتين متتاليتين أن كان هناك ملكان يحكمان (أو يزعمان أنهما يحكمان) فى وقت واحد ، وخلال هذه الحروب العقيمة استنزفت الموارد ، وبدأت مدن الامبراطورية تستقل وتدير أمورها بنفسها فى استقلال كامل عنها ، وقامت مشيخيات عربية متعددة فى مناطق مختلفة من البلاد ، وأطلق البدو فى الصحارى العنان لأنفسهم لينهبوا أينما وكيفما أرادوا ، بل وتوسعت مملكة العرب الأنباط حتى أنها فى وقت من الأوقات استولت على دمشق ذاتها .

ووسط هذه الفوضى بدأ أهالى سوريا يفكرون فى الالتجاء إلى طلب العون من الخارج ، أملا ان يقدر ملك اجنبى على إعادة النظام والأمن وحماية البلاد من التعرض للغزو ، ومن بين الشخصيات التى عقد السوريون عليها الآمال كان تجران Tigranes ملك ارمينيا .

قدوم تجران الأرمينى إلى سوريا (٨٣ ق. م — ٦٩ ق. م) :

كانت أرمينيا — ذلك البلد الجبلى الوعر — الذى يقع إلى الشمال والشرق من الفرات — فى الأصل سترابية فارسية ؛ وقد وصفها أكسينوفون فى كتابه « الصعود » وصفاً دقيقاً من واقع معاينته لها خلال رحلة العشرة آلاف مرتزق الشهيرة . وبعد فتح الاسكندر المقدونى للشرق دخلت فى حوزة الامبراطورية المقدونية ؛ وبعد تقسيم الامبراطورية بين ورثة الاسكندر آلت أرمينيا إلى الامبراطورية السليوقية ، ولقد قام السليوقيون بتقسيمها إلى أقسام صغيرة ؛ يحكم كل قسم منها حاكم محلى . وبعد هزيمة ماجنيسيا عام ١٨٩ ق. م استقل حكام الأقاليم الأرمينية بحكم أقاليمهم إلى ان تمكن أحد حكام الأقاليم الأقوياء واسمه ارتاكسياس من توحيد كل هذه الأقاليم فى مملكة أرمينية واحدة ، ولكنه كان تابعاً للرومان . وفى عام ٩٤ ق. م تمكن تجران

الكبير بمساعدة البارثيين من اعتلاء عرش أرمينيا مقابل تنازلات فى الحدود(١) ثم دعم تجران نفوذه بالتحالف مع مثراداتيس ملك بنطوس ، وراح يتطلع للتوسع فى آسيا الصغرى ، واحتل مقاطعة كيليكيا مما أزعج الرومان ، فبدأوا فى تضييق الخناق عليه .

هناك روايتان متضاربتان حول احتلال تجران لسوريا ، أولهما تقول أن قدومه جاء بناء على دعوة وجهت إليه من أهل البلاد ؛ ومن المحتمل أن يكون العنصر الشرقى قد إتحد مع العنصر الأغريقى بعد أن ضاقوا ذرعا بالفوضى والصراعات الأسرية ، فاستدعوا الملك الأرمينى ، ولذلك دخلها فى هدوء وسلام ؛ أما الرأى الآخر فيقول أنه دخلها بالقوة رغم رضاء أهلها. والحقيقة أنه ما كان يتسنى لتجران أن يبسط نفوذه على سوريا على الوجه الذى قام به دون رضاء غالبية السكان ؛ ومن الطبيعى أن يكون هناك من عارض دخوله سوريا لأنه كان أجنبيا مغتصبا . غير أن الحروب الأهلية والخارجية وفوضى الإدارة كانت قد ألحقت بالاقتصاد خسائر بالغة السوء . فقد وجد تجران ان العملة النقدية شحيحة الى حد ان بعض القطع البرونزية كان قد مضى أربعون عاما على تداولها بين الناس ؛ ومن ثم بدأ فى اصلاح الأمور ، وقضى على الفتن ؛ وعلى الصراعات على العرش ؛ وأمن طرق التجارة مع الشرق ؛ مما أدى الى استقرار البلاد سياسيا واقتصاديا حتى ان عهده وصف بأنه عهد رخاء وسلام . ولم يمكث تجران فى سوريا بعد تهدئتها طويلا ، فقد عاد الى أرمينيا بعد أن ترك نائبه ماجاداتس لحكمها كنائب عنه فى انطاكية . وصدرت النقود الجديدة تحمل اسم تجران متبوعا بكلمة « ملكا » ، وهو مايوحى لأول وهلة أن تجران حرص على الظهور بمظهر حاكم اغريقى ، لكسب رضاء السليوقيين من العنصر الأغريقى ؛ وعلى الوجه الآخر للعملة ظهرت صورة ربه الحظ السعيد توخى Tyche التى كانت رمزا لأنطاكية ؛ وفيما بعد ظهرت العملات تحمل لقبه الشرقى المأخوذ عن الفرس ، وهو ملك الملوك (الشاهنشاه) ، فقد ركبه شعور

(1) Strabo, Geographia, II, 532.

العظمة والكبرياء والغرور ؛ وشرع يحرص على مراعاة مايتبع من مراسيم فى القصور الملكية ، وسط مظاهر الأبهة الرفاهية الشرقية . ويلاحظ أنه منذ سنة ٧٢ ق.م بدأت العملة التى كانت تصدر عن دار السك فى أنطاكية تختفى ، وربما كان تفسير ذلك أن تجران قد حنث بوعده الذى كان قد قطعه على نفسه بعد دخوله سوريا بأنه سوف يرعى استقلالها وشخصيتها الهللينية ، لأنه فى آخر أيامه تحول الى حاكم شرقى مستبد ، حتى غدا نظام حكمه منفرا للسكان ، فلم يعد فى نظرهم منقذا (سوتير) ،بل واحدا من طغاة الشرق البرابرة .

الرومان يرغمون تجران على الانسحاب من سوريا (٦٩ ق. م) :

لم يكن الرومان مستريحين لتصرفات تجران وعلاقاته المشبوهه بالبارثيين ، وبملك بونطوس مترادانيس ، فعندما وقعت الحرب بين روما وهذا الملك الأخير ، نجح القائد الرومانى لوكللوس فى ارغامه على الهروب الى أرمينيا ، حيث طلب الحماية من تجران ، وبينما كان تجران فى الشام يحارب جيش كليوباتره المطالبة بعرش أنطاكية ، والتى كانت تحاول تنصيب ابنها انطيوخوس (ابن انطيوخوس العاشر) على عرش المملكة ، وصل آبيوس كلوديوس بولكر الى أنطاكية مبعوثا عن صهره القائد الرومانى لوكوللوس ليطلب تسليم مترادانيس للرومان ، وبينما هو ينتظر عودة تجران من ميدان الحرب فى فينيقيا ، اتصلت به العناصر الساخطة على حكم تجران ، راجين منه تحرير سوريا من حكم الأرمينيين ، ووعدهم كلوديوس بنقل طلبهم الى القائد لوكوللوس ؛ وعندما عاد تجران رفض طلب الرومان بتسليم مترادانيس ، وكان ذلك بمثابة إعلان روما الحرب عليه فأضطر الى الانسحاب من سوريا للدفاع عن بلاده أرمينيا ، ولم يمض وقت طويل حتى غزا لوكوللوس ارمينيا ، وهزم تجران وذلك عام ٦٩ ق.م.

الدولة السليوقية فى النزع الأخير :

عادت الفوضى وحروب العرش إلى سوريا ، فبعد انسحاب تجران ، نصب أنطيوخوس بن أنطيوخوس العاشر نفسه على العرش باسم انطيوخوس الثالث عشر متخذاً لقب الأسيوى (أسياتيكوس) Asiatikos وذلك بمساعدة لوكوللوس ، وتأييد أهل أنطاكية ، وذلك فى أواخر عام ٦٩ ق . م وأوائل عام ٦٨ ق . م ، لكنه لقى هزيمة فى إحدى المعارك التى لا تزال غامضة ، وإن كان من المحتمل أنها كانت بينه وبين أحد المشايخ العرب الذين كانوا يعملون جاهدين لكى يقيموا لأنفسهم إمارات أو مشيخيات خلال هذه المرحلة المضطربة ، وفقد الناس ثقتهم فى أنطيوخوس الثالث عشر ، وحولوا ولاءهم إلى مطالب جديدة بالعرش هو فيليب الثانى ، الذى كان يؤيده أحد شيوخ العرب الأقوياء واسمه عزيز ؛ كما إنحاز شيخ أخر من شيوخ العرب إسمه سمبسيجيراموس إلى جانب أنطيوخوس الثالث عشر ؛ ثم سرعان ما اتفق هذان الشيخان على التخلص من أنطيوخوس الثالث عشر وفيليب معاً واقتسام سوريا بينهما ، وبالفعل قام سمبسيجيراموس بالقبض على أنطيوخوس واحتفظ به أسيراً لديه ، بينما هرب فيليب إلى أنطاكية ليحتمى فيها خوفا من سطوة شيوخ العرب .

وفى الوقت الذى كان فيه أنطيوخوس الثالث عشر أسيراً لدى شيخ العرب سمبسيجيراموس ، تولى فيليب الثانى حكم أنطاكية ، وظل يحكم من ٦٧ ق . م إلى ٦٥ ق . م ، وقد قامت روما بتأييده لكى يكون ملكاً عميلا لها ، ولذلك أرسلت إليه فى عام ٦٧ ق . م ماركوس ركس Marcus Rex حاكم مقاطعة كيليكيا ، والذى كان يتولى محاربة أوكار القراصنة الذين كانوا يتخذون من ساحل تلك الولاية مأوى لهم ، وبأمر من الحكومة الرومانية قام ركس بالإشراف على بناء قصر وسيرك Circus على الطراز الرومانى على الجزيرة التى تتوسط نهر العاصى ، رمزاً لوصول الحضارة الرومانية إلى المشرق العربى ، وإعلاناً عن تأييدها لذلك الملك الضعيف والوقوف معه فى وجه رعاياه ، بل وربما من أجل خدمة التجار الإيطاليين الذين كان لهم جالية كبيرة

فى أنطاكية ؛ فقد كان للرومان مصالح تجارية متنامية فى سوريا . ولقد طلب هذا المبعوث من فيليب أن يساهم فى نفقات عملية مطاردة القراصنة فى ولايته كتعبير عن تعاون الدولة السليوقية مع روما ، التى كان يقلقها أن تكون هذه الدولة ألعوبة فى أيدى مشايخ العرب .

وبعد زيارة ركس والى كيليكيا الرومانية ، عاد كلوديوس بولكر فجأة إلى عاصمة هذه الولاية ، وكان قد وقع فى الأسر من قبل القراصنة الكيليكيين وشرع يدعو لإنقاذ الدولة السليوقية من مشايخ العرب الذين كانوا يتلاعبون بها . وقد أحدثت دعوته حركة من الاضطرابات فى أنطاكية أدت إلى سقوط فيليب الثانى من على العرش واختفائه من على مسرح الأحداث ، غير أن دعوة كلوديوس بولكر لم تجد الاستجابة الكافية ، فعاد ادراجه إلى روما .

ولما رأى سمسيجيراموس العربى أن عرش انطاكية اصبح شاغراً اطلق سراح أسيره أنطيوخوس الثالث عشر ليعود إلى إعتلاء عرش أنطاكية ، وحكم عاماً واحداً هو عام ٦٥—٦٤ ق . م وفى خلال ذلك العام كان القائد الرومانى بومبى قد انتصر على مثراداتيس ملك بونطوس الذى دوخ الرومان سنين طويلة ، وقرر وهو فى طريق عودته أن يزور أنطاكية ليقرر عما إذا كانت المملكة السليوقية جديرة بالبقاء أم لا ، ولما رأى استحالة ذلك قرر ضمها كولاية رومانية عام ٦٤ ق . م وبذلك أسدل الستار على تاريخ الامبراطورية السليوقية وأصبحت سوريا منذ ذلك التاريخ ولاية رومانية .

تعليق تاريخى على قيام وسقوط الامبراطورية السليوقية :

كانت الملامح العامة للامبراطورية السليوقية — أكبر الأمبراطوريات الهللينستية وأكثرها تعقيدا — تقوم على سلسلة من المستوطنات العسكرية الحضارية التى وضع أساسها الاسكندر ، وسار عليها خلفاؤه فى القرن الثالث ق.م . فلقد كان العصر الهللينستى فى الحقيقة هو عصر الهجرة الى الشرق الأدنى بعد تقويض الجدار العازل الذى كانت الأمبراطورية الفارسية قد أقامته حوله ، كما أن الضائقة الاقتصادية التى كانت تعانيها بلاد اليونان نتيجة للحروب الطاحنة بين مدنها هو الذى جعل تفكير الفلاسفة والسياسيين

الأغريق يتجه الى مقدونيا — القوة الجديدة التى قادت العالم فى القرن الرابع ق.م — كسفينة الخلاص من الضائقة الاقتصادية ، بدفعها لفتح الشرق الأدنى ، وهدم الجدار الفارسى المحيط به ، حتى وان كان ثمن ذلك أن تضحى المدن الأغريقية الكلاسيكية بأعز ماتملك وهى مبادئها الثلاث : الحرية والحكم المستقل والاعتماد على نفسها اقتصاديا ، ويقال أن أرسطو معلم الاسكندر — كتب بحثا خصيصا حول ضرورة القيام بحركة استيطانية كبرى للشرق ؛ ولذلك تدفق على اثر فتح الاسكندر سيول من المهاجرين والمستوطنين اتجهت الى بلدان الشرق الأدنى الغنية بسهولها وأنهارها موانيها وتجارتها ، حضارتها وتراثها ، للعمل فى جيوش ملوك الممالك الهللينستية ، ولأستيطان مدنها الجديدة ، وكان هؤلاء المستوطنون يأتون من مناطق التكدس السكانى فى مقدونيا ، وبلاد اليونان الأم ، وشبه جزيرة الأناضول ، وهى مناطق التجنيد العريقة فى ذلك العصر . ولما كانت الأمبراطورية السليوقية أكبر الممالك الهللينستية وأغناها ، فقد ذهب الشطر الأكبر من هؤلاء المهاجرين إليها ، وكانت قوتها وراء استمرار تدفقهم عليها ، ولذلك عرف ملوكها بنشاطهم الذى لا يبارى فى بناء المدن والحواضر العامرة ، التى انتشرت فى الشام وحول الخليج العربى ، وفى جنوب الرافدين بعكس الحال فى مصر المكدسة بسكانها الوطنيين ذوى الحضارة القوية والتماسك السكانى المنسجم لغة وديانة ، ولذلك كان البطالمة أقل نشاطا فى بناء الحواضر والمدن من السليوقيين ، غير أن هزيمة انطيوخوس الثالث فى موقعة ماجنيسيا وحرمانه من الولايات فى آسيا الصغرى الواقعة الى الشمال من جبال طوروس طبقاً لصلح أباميا مع الرومان عام ١٨٨ ق.م أغلق صنبور الهجرة ، ومن ثم بدأت حركة الدفع الحضارى الأغريقى تقل بعد ذلك التاريخ ، وبدأت العناصر الشرقية تخرج من جحورها ومعها لغاتها الآرامية وحضارتها العريقة ، ونتيجة لذلك بدأت الأمبراطورية السليوقية تتحول تدريجيا لتصبح شرقية عنصرا وحضارة ، وتبتعد تدريجيا عن المجال الحضارى الأغريقى ، لكنها ظلت محافظة على تراثها . ولقد رأينا

فى النهاية كيف أصبح شيوخ القبائل العربية يتلاعبون بملوكها ؛ الى جانب ذلك ، تميزت الدولة السليوقية منذ تأسيسها على يد سليوقوس الأول نيكاتور بعلاقاتها الوثيقة مع العناصر الشرقية ، منذ أن كان سليوقوس يتولى قيادة فرقة الفرسان من النبلاءالفرس فى جيش الاسكندر ، بل أنه تزوج بأميرة فارسية وهى أباما التى — بعكس الملوك الآخرين — لم يتخلى عنها بعد موت الاسكندر عندما حدثت ردة لأفكاره ومبادئه فى مزج العنصر الأغريقى بالشرقى ، بل ظل وفيا لها وبذلك أصبحت أباما الجدة الأم لكل ملوك السليوقيين . وهى التى كرمت بتأسيس مدينة أباميا تخليدا لها ، ولهذا جرت الدماء الشرقية منذ البداية فى عروق كل من جلس على عرش أنطاكية .

وعلى العكس من البطالمة الذين ورثوا عرش الفراعنة المستقر ، كان على الملك السليوقى أن يكون من طراز خاص ، أن يكون قويا وذكيا وعنيفا لكى يحافظ على بقاء الامبراطورية الشاسعة ، والتى كان قوامها شعوب وقبائل عديدة ومتفرقة ، ذات ديانات ولغات وأجناس مختلفة ومتنافرة ، وتنتشر من سفوح جبال الهيمالايا وأفغانستان شرقا الى سواحل الشام غربا ، ومن الأناضول شمالا الى حدود فلسطين مع مصر جنوبا ، ولايجمع بينها رابط قومى واحد الا الولاء الكامل للملك السليوقى . ولذلك لم يكن شرطا فى قوانين وراثةالعرش السليوقى أن يرث الابن الأكبر العرش بعدموت أبيه ، إنمااشترط أن يكون الملكالجديد قويا الى جانب كونه من البيت المالك ، وهذا الأمر لم يفهمه الرومان . وما أن يبايع الملك بالعرش ويضع الاكليل والعمامة الكتانية البيضاء فوق رأسه ، ويتلفح بالعباءة الأرجوانية ، ويضع فى أصبعه خاتم الملك ، الذى يحمل شعار الدولة وهو مرسى السفينة (الهلب) ، حتى يصبح هو التجسيد الحى للدولة والقانون ، غير أن هذه السلطة المطلقة كانت تكتمل بالسلوك الحسن والأخلاق الحميدة واتباع العدل بين رعاياه . وفى عهد أنطيوخوس الرابع ؛ تبلورت فكرة ألوهية الحاكم كعامل مكمل لتوحيد شعوب الأمبراطورية فى شخص الملك الرب ، وهى فكرة ضارية الجذور فى تاريخ الشرق القديم خاصة فى بلاد الرافدين ومصر .

فقد كان الملك السليوقى فى نظر رعاياه قادرا على كل شى ، بدءا من سحق الأعداء حتى تبديل الأسماء الشرقية بأخرى أغريقية ، وينقل لنا شيشيرون قول أنطيوخوس الثالث بعد نزع أكبر ممتلكاته منه طبقاً لصلح أباميا أنه يشكر الرومان لأنهم خففوا عنه من أثقال الحكم(١) . بل روى عن سليوقوس نيكاتور مؤسس الأسرة قوله أنه لا أحد قد يرضى أن يلتقط التاج من الطريق لو أدرك حجم الرسائل المكتوبة التى يقتضيها هذا العمل ، خاصة لم يكن للملك جهاز إدارى يساعده ويعتمد عليه ، فقد كان معاونوه وأصدقاؤه هم ندماؤه الذين يختارهم بنفسه . فعندما يكون فى ميدان القتال ، يتجمعون بالقرب منه فى الخيمة الملكية وقد ارتدوا عباءاتهم الأرجوانية وقبعاتهم الواسعة ، ويكونون فى خدمته واضعين أنفسهم تحت امرته فى أى عمل يكلفهم به ؛ وكانوا يكونون بلاطا ملكيا على استعداد لتقديم المشورة ؛ غير أن الملك كثيرا ما كان ينسحب من الخيمة ليختلى بنفسه قبل اتخاذ القرار ، إذ لم تعرف الدولة السليوقية نظام الجهاز المدنى فى الوظائف والدواوين مثلما كان الحال عند الرومان والروم ، فقد كان الملك هو الدولة والدولة هى الملك .

كانت سلطة الملك مطلقة مع المدن غير الحرة التى أخذها فتحا بحق الحرب ، فكان له حق التصرف فيها وفى شعبها وممتلكاتها ، يفعل بهم مايشاء اما بالنسبة للمدن الحرة فهو وحده الذى بيده تطبيق مبدا الاستقلال الذاتى بالقدر الذى يراه حسب الصالح العام ؛ فمثلا اصدر كهنة دلفى قراراً أكالوا فيه المديح للملك سليوقوس الأول لأنه عهد الى سلطات مدينة سمرنه (ازمير) بالاشراف على شئون مدينة دلفى . ولقد جاءت هذه السلطة المركزة فى شخص الملك بنتائج طيبة ، منها أن هذه المدن لم تعد تتورط فى حروب بينها كما كان الحال قديما ، كما ان الإدارة الحازمة الحكيمة الرشيدة ادت الى تراكم الثروات ، وادخال تطويرات جديدة فى مجالى التجارة والصناعة ؛

(1) Cicero : Pro Deiotaro, XIII, 36.

وضع الولايات الهلينتسية على إعتاب عصر أقرب لعصر الرسمالية الصناعية فى أوروبا الغربية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين(١) .

وفى عصر أنطيوخوس الرابع ، عادت للأمبراطورية قوة الدفع وعادت حدودها الشرقية لتلامس جبال الهمالايا ، وكان خلفاؤه يتمنون لو أنهم تركوا الذئبة الرومانية فى حالها فى الغرب الايطالى تجنبا لشرورها وحتى يتفرغوا لتدعيم نفوذهم فى الممتلكات الشرقية وتطبيق مشروعاتهم الحضارية فيها ، ودعم سيطرتهم على طرق التجارة مع أعماق آسيا التى كانت شريان الحياة لاقتصاد أمبراطوريتهم . ولقد كان الاتجاه العام لسياسة السليوقيين هو المصالحة وليس المواجهة مع ملوك الشرق خاصة كلما تبعوا خطوات الاسكندر فى فتوحاته الشرقية ، ولقد آتت هذه السياسة أكلها طوال قرنين كاملين تقريباً ، فنجحت مع ملوك الهند وباكتريا وكذلك مع حكام الأصقاع الشمالية فى آسيا ، فلقد كان الباعث لتواجدها فى هذه المناطق هو المحافظة على طرق التجارة الدولية وتأمينها . ولقد تنازل سليوقوس الأول مثلا عن حقوقه الموروثة عن الاسكندر فى الهند لتجنب التصادم معها(٢) مما ساعد على وصول طلائع الحضارة الأغريقية وتفاعلها مع حضارتها ؛ فلقد كانت كل حروب أنطيوخوس الثالث من أجل حماية طرق التجارة وإعادة تأمينها بالتعاون مع باكتريا (أفغانستان) وكذلك فى الخليج بالتعاون مع مدينة جرها (الجرعاء بالقرب من الهفوف حاليا) ، ومع طرق الجزيرة العربية بالتعاون مع الأنباط ، فقد لوحظ تأثر حضارات هذه المناطق بالحضارة الهلينستية . ولم يستطع البارثيون — تلك القبائل شبه البدوية — فى زحفها نحو الغرب أن تصل الى منطقة بحر قزوين الحيوية إلا فى أواخر القرن الثالث ق.م ، ومنها راحت تهدد مرتفعات ميديا . ولم يتحرك الملوك

---

(1) M. Rostovtzeff : Social and Economic History of The Roman Empire, Oxford 1958, Oxford University Press, I, 3.

(2) M. Rostovtzeff : Social and Economic History of The Hellenistic World, Oxford 1953, I, 459.

السليوقيون للدفاع عن مدن بابل الا عندما بات خطر البارثيين يهدد مراعى الجياد العربية التى كانوا يعتمدون على خيولها . وسقط فى أقليم بابل ، أثنان من أعظم ملوكهم اللذين خلفوا انطيوخوس الثالث . ولقد كان البارثيون خليطا من القبائل السكيثية والفارسية التى تأثرت بالحضارة الهللينستية رغم تمسكهم بلغتهم القومية وهى البهلوية وبكتابتها بالخط المسمارى ، وكانوا دائماً يضغطون للوصول الى مياه البحر المتوسط ، ولقد استمر ضغطهم لأكثر من قرن ، بل نجح أعظم ملوكهم وهو مثراداتيس الأول (عطية مثرا) أن يحكم من صوصة ، ثم من بابل بعد غزوها عام ١٤١ ق.م حيث تتحدث احدى الوثائق المسمارية عن دخوله أنطاكية منتصرا . صحيح أنه انسحب بعد ذلك منها ، غير ان الملك السليوقى ديمتريوس الثانى وقع فيما بعد أسيراً لديه حيث عامله معاملة كريمة بدافع النخوة والشهامة التى عرفت عن ملوك البارثيين ، بل وزوجه من ابنته . وكان أنطيوخوس السابع — شقيق ديمتريوس الثانى — آخر ملوك الأسرة السليوقية الشجعان ، ولقد روينا كيف أنه قاد جيشه وسط تهليل مدن بابل الأغريقية وترحيبها حتى سقط قتيلا على يد الملك فارناكيس الذى خلف أباه متراداتيس على العرش . ولقد كانت آخر الوثائق الآرامية المسمارية المؤرخة باسم أنطيوخوس السابع فى عام ١٣٠ ق.م هى آخر وثيقة مسمارية حملت اسم ملك سليوقى ، وبدافع المروءة والشهامة التى عرف بها ملوك البارثيين ، بعث فارناكيس بجثمان الملك السليوقى القتيل لكى يوارى التراب فى المقبرة الملكية فى أنطاكية وسط حداد شعبها على موت الأمبراطورية السليوقية مع موت الملك(١) .

وفى جو من المآسى ، ووسط فوضى الحكم ، وخلافات ملوك الأسرة وشباك الرومان وفخوخهم التى لاترحم ، بدأت شمس الأمبراطورية السليوقية فى المغيب ، ولقد مارس الرومان القسوة منذ أواخر عصر الجمهورية

(1) Appian, Syr an Wars, VIII, 46.

بدرجة فاقت قسوة الملوك المقدونيين(١) . فقد دست روما أنفها فى صراعات العرش السليوقى ، كما فعلت مع البطالمة المتأخرين . ففى عام ١٦٤ ق.م عندما كان ديمتريوس الأول رهينة فى روما ، طلب من السناتو أن يسمح له بالعودة لاسترداد عرش أنطاكية من ابن عمه غير الكفء ، لكن السناتو رفض أجابته الى طلبه لأنهم كانوا يرون أنه من الأجدى لمصالحهم أن يحكم الدولة السليوقية صبي قاصر عاجز عن أن يحكمها رجل قوى وقادر(٢) .

وأخيرا اندفع الملك الأرمينى تجران Tigranes وسواء كان ذلك بدعوة من أهل أنطاكية أم بمبادرة من جانبه،واجتاح الفرات الى سوريا . ولقد عملت روما على إجباره على الانسحاب منها ، وعادت الفوضى وصراعات الملوك العاجزين ، وأخيرا جاءت طلقه الرحمة فى عام ٦٤ ق.م عندما دخل القائد الرومانى بومبى سوريا ، وعزل الملك السليوقى معلنا ضمها بحق الفتح وتحت اسم ولاية سوريا الرومانية(٣).

---

(1) W. W. Tarn & G. T. Griffith : Hellenistic Civilzation, London 1952, E. Arno d, p. 37.

(2) Ibid., p. 33.

(3) Appian, Mithradates, XVI, 106.

أهم مراجع الفصل السادس

أولا : المراجع العربية والعبرية :

١ – جلانفيل داونى : أنطاكية القديمة (ترجمة وتقديم ابراهيم نصحى) دار نهضة مصر القاهرة ١٩٦٧

٣ – لطفى عبد الوهاب يحيى : دراسات فى العصر الهللينستى : بيروت ١٩٧٨ .

٢ – فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، بيروت ١٩٥١ .

1.—H. Bengston, "Syria in the Hellenisitc Period", Hellenism & the Rise of Rome, Pierre Grimal et alia, Universal History Series, London 1968, Weidenfeld & Neolson.

2.—E. R. Bevan : The House of Seleucus, London 1902.

3.—E. Bikerman : Institutions des Seleucids, Paris 1937.

4.—H. A. Bouche-Leclerc : Histoire de Seleuc des, Paris 1913.

5.—M. Cary & E. H. Warmington, The Ancient Explorers (Revised edition published in Pelican Series), 1964.

6. - G. Dawney : Ancient Antioch, Princeton University Jersey, 1963.

7.—A. J. Sachs & D. J. Wiseman, "A Babylonian King-List of the Hellenistic Period, Iraq, Vol. XVI (1954), pp. 202—212.

8.—W. W. Tarn, "Seleucid-Princeton Studies", Oxforid Proceedng of the British Academy, Vol. XVI, Oxford University Press, 1930.

الفصل السابع

الاوضاع الاقتصادية والحضارية فى بلاد الشام تحت حكم البطالمة والسليوقيين

لقد كانت الشام فى عيون بطالمة مصر — مثلما كانت فى عيون فراعنتها من قبل — هى تلك السهول الخصبة والسواحل المتعرجة ذات الموانىء الهامة، والتلال التى تكسوها غابات الأرز التى تصنع منها السفن الكبيرة القادرة على عبور البحار. ولما كانت الطبيعة قد حرمت مصر من غابات الأشجار ذات الأخشاب الصالحة لبناء السفن، فقد تمسك البطالمة — كما تمسك من قبلهم الفراعنة — بجنوب الشام، فقد اعتمد البطالمة كثيرا على غابات الشام لبناء أسطول قوى، تولى قيادته فى عصر بطليموس الأول والثانى أحد الفينيقيين المتأغرقين واسمه فيلوكليس Philocles والذى عينوه حاكما على مدينة صيدا. وبفضل سيطرتهم على موانىء الشام، تمكنوا من مد نفوذهم على الحوض الشرقى للبحر المتوسط فيما بين سواحل آسيا الصغرى وسواحل القارة الأوروبية الجنوبية طوال القرن الثالث ق.م.

وطوال المائة عام التى حكم فيها البطالمة جنوب الشام والتى كانت تفصل بين معركة ابسوس عام ٣٠١ ق.م ومعركة بانيون Paneion عام ٢٠٠ ق.م، كان نهر الليطانى (والذى كان يعرف وقتذاك بأسم نهر اليوثيروس) هو الحد الفاصل بين حدود البطالمة جنوبا وحدود السليوقيين شمالا. وبينما حرص السليوقيون على التمسك بمزيد من مناطق بلاد الشام الجبلية والداخلية تأمينا لطرق القوافل البرية القادمة من موانىء الخليج وجنوب الجزيرة العربية حيث كانت دمشق هى أول مدينة استولوا عليها عند اندلاع الحرب السورية عام ٢٧٤ ق.م، نجد البطالمة يحرصون على

ويفضلون التمسك بالسواحل فقط دون الاهتمام بالمناطق الداخلية مما جعل الوجود البطلمى فى بلاد الشام ضعيفاً .

ولقد كان جوف سوريا Koile Syria (سهل البقاع) أو ولاية سوريا وفينيقيا — كما كان يطلق عليها رسميا أيام البطالمة — مقاطعة مصرية مثل سائر مقاطعات مصر ، يتولى حكمها حاكم إقليم بدرجة استراتيجوس Strategos يقوم الملك بتعيينه ، كما كان يملك حق عزله . ولقد كان أقليم سوريا وفينيقيا ينقسم إداريا الى عدد من المراكز الادارية والأمارات والمشيخيات ، وربما كان هذا التقسيم متوارثا منذ حكم الفرس للشام وقبل فتح الاسكندر للشرق ، بيدأنه خلال حكم البطالمة تمتعت بالاستقلال بعض المدن والأقاليم والمشيخيات والإمارات خاصة مدن ساحل فينيقيا ، وكذلك بعض الإمارات خاصة امارة عمون Ammonitis (عمان الحالية شرق الأردن) والتى كان يحكمها شيخ صديق للأسرة البطلمية اسمه طوبيا Tubias يغدق عليها بالهدايا بسخاء ، فعندما أقام بطليموس الثانى حديقة الحيوانات فى الأسكندرية ، أهدى الشيخ طوبيا الحديقة بعض غرائب الطيور والحيوانات التى أدهشت بطليموس وزادت من مكانة الشيخ طوبيا عنده .

ان غزو الملك السليوقى أنطيوخوس الثالث لجنوب الشام وطرد البطالمة منها لم يغير من الأمر شيئا ، إذ لم يعط أهل الشام لذلك التغيير أى اهتمام باستثناء الأنباط الأعداء التقليديين للبطالمة ، وكذلك يهود فلسطين الذين انقلبوا على الحكم المصرى بسبب تشدده فى جمع الضرائب ؛ فقد استقبل اليهود انطيوخوس الثالث استقبال الفاتحين ، وأنعم هذا الملك على اليهود ببعض الامتيازات الخاصة بممارستهم لشعائرهم الدينية دون التعرض لهم ؛ غير أن هذه الصداقة الزائفة بين يهود فلسطين والملك السليوقى لم تستمر طويلا ، إذ سرعان مادب الخلاف بينهم بسبب تدخل الملوك السليوقيين فى اختيار المرشح لمنصب الحبر الأعظم عند اليهود . ولفرضهم حركة الأغرقة عليهم بالقوة .

أما الأنباط فقد كانوا ينعمون بالتجارة مع العرب السبئيين ؛ فقد كانت عاصمتهم البتراء محطة الوصول النهائية للقوافل القادمة من جنوب الجزيرة العربية عبر طريق البخور الشهير ، محملة ببضائع العرب والهند وأفريقيا ؛ ولما تدخل بطليموس الثانى بأسطوله فى البحر الأحمر وتمكن من تحويل التجارة الشرقية بحرا الى الموانىء المصرية على البحر الأحمر ، اصاب الكساد تجارة السبئيين والأنباط ، ومنذ ذلك الحين وقف السبئيون الجنوبيون والأنباط موقف العداء من الحكم البطلمى ، بينما وثقوا علاقاتهم بالسليوقيين أعداء البطالمة ، وقد بينا من قبل كيف أن حملة بطليموس الثانى على بلاد العرب كان هدفها السيطرة على طريق البخور وقطع الطريق على القوافل حتى لاتصل الى بلاد الأنباط ؛ كما بينا العلاقة الوثيقة والحميمة التى أقامها هذا البطليموس مع عرب ديدان ، واقامته لخط ملاحى دائم بين مينائها الحجر وبين موانىء مصر على البحر الأحمر . ومن ثم يتضح أن اليهود والأنباط كانوا الأعداء التقليديين للوجود المصرى فى الشام .

كانت منطقة جنوب الشام بحكم الجوار والموقع والتاريخ أقرب ارتباطا بمصر ثقافيا وحضاريا واقتصاديا ، بل وسكانيا ، وحتى بعد وقوع هذا الجزء من الشام فى حوزة السليوقيين الا أن مشاعر سكانه ومصالحهم الاقتصادية ظلت مع المصريين . ولم يكن التغيير سوى مجرد انتقال السلطة من الحكم البطلمى إلى الحكم السليوقى .

أما المنطقة من الشام التى كانت معقل الحكم السليوقى منذ البداية فقد كانت تتمثل فى الحوض الأوسط والشمالى للشام ، وهو الذى أطلق عليه السليوقيون اسم « سليوقية » Seleucia نسبة إلى سليوقوس نيكاتور مؤسس هذه الأسرة ؛ وكان اقليم سليوقيا يجاور من ناحية الشرق بلاد الرافدين ؛ والتى توسع السليوقيون نحوها حتى وصلوا الى مياه الخليج العربى ، ومنطقة شط العرب شريان الحياة اقتصادية ، وذلك بعد أن أحكم البطالمة قبضتهم على البحر الأحمر ببناء الثغور على ساحليه الشرقى والغربى ، بل وصلت

الامبراطورية السليوقية فى مدها إلى حدود الهند شرقا . وذلك لتأمين جلب الأفيال الهندية وتدريبها على القتال . فقد لعبت الفيلة دورا هاماً فى حروب ذلك العصر ، وكانت بمثابة سلاح المدرعات فى الجيوش الحديثة . وقد رد البطالمة على ذلك بزيادة نفوذهم على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر لجلب الأفيال الأفريقية رغم أنها كانت أقل مهارة من الأفيال الهندية ، وأصعب عند تدريبها ، وكانوا يقومون بنقلها فى سفن خاصة تمخر بها مياه البحر الأحمر ، ثم تساق إلى موانىء النيل حيث تنقل الى معسكرات التدريب فى صحراء منف ودهشور .

أما غربا وشمالا فقد توسعت الأمبراطورية السليوقية حتى شملت آسيا الصغرى ؛ وكان أنتيجونوس الأعور خلال حكمه للشام قد شيد لنفسه عاصمة على نهر العاصى فى شمال سوريا ، سماها على اسمه : « أنتيجونيا » Antigoneia ولقد كان نهر العاصى Orontes محط أنظار المستوطنين الأغريق منذ القرن التاسع ق.م . فقد كانوا قد أسسوا فيه مستوطنة أطلقوا عليها اسم بوسيدونيا (أى مدينة بوسيدون رب البحار Poseidonia وهى مدينة الميناء حالياً) ، وفى هذه المدينة التقى التجار الأغريق مع الآراميين حيث حدث احتكاك حضارى كانت نتيجته تعلم الأغريق من الكتابة عن طريق الحروف الهجائية ؛ ولذلك ظل الأغريق يطلقون على أبجديتهم اسم الأبجدية الفينيقية . أما سليوقوس نيكاتور ، مؤسس الأسرة فقد اختار مكانا لعاصمته فى الشام بالقرب من مصب نهر العاصى وعلى بعد بضعة كيلومترات الى الغرب من أنتيجونيا ، وأطلق عليها اسم أنطيوخيا Antiochia تيمنا باسم ابنه أنطيوخوس ؛ ولا تزال هذه المدينة تحتفظ بذلك الاسم حتى الآن حيث تعرف باسم أنطاكية . وسرعان ما أصبحت أنطاكية عاصمة الأمبراطورية السليوقية ومقر القصر الملكى وظلت كذلك حتى سقوط هذه الأسرة .

ولكى يحول السليوقيون مسار التجارة بعيدا عن الموانىء الجنوبية فى فينيقيا ذات العلاقة الراسخة مع مصر ، قاموا ببناء عدد من الموانىء الجديدة

على ساحل الشام الشمالى ، فأسسوا ميناء لاءوديكيا تيمنا بالأميرة السليوقية لاءوديكى Laodike (ابنة شقيق أنطيوخوس الأول وزوجة ابنه انطيوخوس الثانى) وهذا الميناء لا يزال قائما فى سوريا حتى الآن وهو ميناء اللاذقية . كما أسسوا ميناء حربيا آخر وهو ميناء آباميا Apamea على نهر العاصى ، أقاموه على أنقاض المستعمرة العسكرية القائمة التى كانت تسمى بيلا Pella تيمنا باسم الملكة الفارسية أباميا زوجة سليوقوس نيكاتور مؤسس الأسرة ، وربما أسس هذا الميناء فى عهده أو عهد خليفته أنطيوخوس الأول . وكانت أباميا عاصمة لإقليم ، ومركز تجمع القوات السليوقية ؛ فقد كانت قلعة طبيعية محصنة . وبالقرب من أنطاكية أسس السليوقيون ميناء سليوقية بيرية Seleucia-in-Pieria عام ٣٠٠ ق.م لتكون ميناء طبيعيا للعاصمة أنطاكية . وقد استولى بطليموس الثالث عليها حوالى عام ٢٤٦ ق.م ، ولم يستردها السليوقيون الا على يد أنطيوخوس الثالث عام ٢١٩ ق.م ، ونظرا لأهميتها البحرية جعلها الرومان فيما بعد قاعدة للأسطول الرومانى .

وعموما ركز السليوقيون فى بناء المدن على منطقة شمال الشام لكى تكون بعيدا عن مناطق النفوذ المصرى . وكانوا يطلقون على هذه المدن أسماء مقدونية خالصة . وبعض هذه المدن كان اسماء لمدن كانت قائمة فعلا فى مقدونيا . الموطن الأم — لملوك آل سليوقوس — مثل مدن كورهستيكى Cyrrhestice وبيريا Pieria ؛ وقد سجل لنا أبيانوس Appianos أسماء ست عشرة مدينة فى شمال سوريا كلها تحمل أسماء مقدونية منها على سبيل المثال لا الحصر بيرويا Beroia (حلب الحالية) ، واديسا Edessa (عرفة الحالية) وكذلك بيرنثوس Perinthos ، ومارونية Maroneia ، وكاليوبوليس Calliopolis ، وبيللا Pella ، وامفيبولس Amphipolis ، وأريثوسا Arethusa ، وأستاكوس Astacos ، وأبوللونيا Apollonia ؛ وكلها

(1) Appion, ibid. 57.

أسماء منقولة عن مدن كانت قائمة فى مقدونيا . ويقول كورنمان أن سليوقوس حرص على عدم أغرقة الأراميين والكنعانيين فى الشام ، أو أن يمزج الحضارة الآرامية بالحضارة الأغريقية فى البداية ؛ إنما قصد أن يخلق مقدونيا جديدة فى شمال الشام بكل حضارتها وثقافتها ؛ ولذلك فرض على المستوطنين الأغريق فيها طريقة الحياة المقدونية من مأكل وملبس ومشرب وسلوك وثقافة . وكان الجنود المقدونيون هم عماد سكان هذه المدن ، وقد كانت الجيوش السليوقية تتجمع فيها فى شكل حاميات دائمة مثلما كان الحال فى أنطاكية . أو فى شكل مستوطنات عسكرية يتولى الجنود زراعة أراضيها ، ويديرون تجارتها وأسواقها حتى يستدعيهم الملك لحمل السلاح .

اننا لا نعرف الكثير عن طريقة الإدارة السليوقية لاقاليم الشام ، فقد كان أقليم « سليوقية ؛ فى أغلب الظن يحكمه حاكم برتبة ستراتيجوس Strategos يختاره الملك ؛ أما المدن الرئيسية الأربعة وهى أنطاكية ؛ وأباميا ، واللاذقية ، وسليوقية بيريا (سليوقية الصغرى) فقد كان يحكم كل منها ستراب ؛ وذلك فى نهاية القرن الثانى ق.م. ونعرف من خطاب كتبه سليوقوس نفسه عام ١٨٦ ق.م أن مدينة سليوقية الصغرى كان يحكمها موظف ملكى كبير يحمل لقب Epistates وربما أنطبق الحال نفسه على باقى المدن الرئيسية الكبرى فى الشام .

ولقد سبق أن عرضنا كيف أن مظاهر التدهور بدأت تحيق بالدولة السليوقية منذ منتصف القرن الثالث ق م ، فقد استولى البارثيون على إيران وإقليم باكتريا (شمال أفغانستان) ، كما استقلت أرمينيا عن الأمبراطورية السليوقية ، ثم أجبر الرومان أنطيوخوس الثالث على الانسحاب من آسيا الصغرى وتسليمها إليهم وذلك فى مطلع القرن الثانى ق.م ، كما بدأت العصبيات والقوميات الشرقية تظهر ويشتد عودها وتهتم بلغاتها وتراثها كحركة مقاومة تواجه الغزو الحضارى الأغريقى للشرق الأدنى ، وبدأت

هذه القوميات فى الابتعاد عن الدولة السليوقية . وعندما حاول انطيوخوس الرابع أن يعالج هذا التفسخ ويعيد شمل الأمبراطورية عن طريق الاعتصام بحبل الحضارة والديانة الأغريقية ، وتطبيق مبادئها على جميع شعوب وقوميات الأمبراطورية ، ثار اليهود المتطرفون وقاوموا السلطات السليوقية عن طريق حركات التمرد وحرب العصابات ، وانتهى ذلك بقيام دولة المكابيين فى فلسطين واستقلال أجزاء كبيرة من جنوب الشام عن الدولة السليوقية . وخلال حركات التمرد والفوضى التى شهدتها فلسطين ، استغل البارثيون الفرصة واستولوا على أقليم بابل وانكمشت حدود الأمبراطورية السليوقية الى غرب نهر الفرات . وفى القرن الأخير ق.م ، ازداد تدهور الدولة السليوقية بسبب الصراع على العرش وظهور مطالبين به ، وكانت روما المتطلعة لاحتلال الشرق الأدنى تنفخ فى دخان هذه الخلافات . وكانت تناصر الضعفاء على الأقوياء ليس حبا فى العدل وتطبيقا له ، وإنما لأنها كانت لاتريد ملوكا أقوياء يعطلون مشروعاتها السياسية فى الشرق الأدنى ؛ وبالفعل انسلخ عدد كبير من المدن عن الأمبراطورية خلال حروب المتصارعين على العرش ، كما كان الملوك السليوقيون يشترون تأييد البعض الآخر باعلان استقلالها ، إذ لم يبق مدينة فينيقية واحدة إلا وحصلت على استقلالها عادة بقرار من الملك . وفى عام ٨٣ ق . م استولى تجران Tigranes ملك أرمينيا القوى على ما تبقى من ممتلكات الدولة السليوقية فى الشرق ، بل واستولى على أقليم قليقلية Cilicia فى آسيا الصغرى وجزء من شمال الشام ، واضطرت روما الى التدخل عام ٦٩ ق.م لاجبار الملك الأرمينى على الانسحاب من الشام . وكان آخر ملوك الدولة السليوقية — واسمه فيليب ، ضعيفا حكم خمس سنوات زادت فيها الأمور سوءا ، مما اضطر القائد الرومانى بومبى الكبير الذى كان فى الشرق أن يدخل الشام عام ٦٤ ق.م . ويضع نهاية لوجود الدولة السليوقية ، وأن يضم الشام وفينيقيا حتى مدينة عكا Acre — والتى كان اسمها وقتذاك بطلمية Ptolemaiis — إلى حوزة الأمبراطورية الرومانية

تحت أسم ولاية سوريا Provincia Syria . وهكذا جاءت نهاية الأسرة السليوقية التى وضعت يدها على جزء كبير من أمبراطورية الاسكندر ، وأخذت على عاتقها مسئولية نشر الحضارة الأغريقية فى الشرق الأدنى .

لقد كانت عملية أغرقة الشام عملية ثقافية وعمرانية بحتة أى روحية مادية . فقد استوعب سكان الشام الآراميون اللغة الأغريقية العامة Koine ، وكذلك طريقه الحياة والسلوك والمعيشة الأغريقية والتى انتشرت خاصة بين الفئات الأرستقراطية من الشرقيين والذين تلقوا تعليما رفيعاً على يد أساتذة إغريق أو متأغرقين ، ولم يكن انتشار الحضارة الأغريقية وقفاً على مناطق المدن ، ومراكز الحضارة والعمران ، التى أسسها المستوطنون المقدونيون والأغريق ، بل وصلت إلى المدن الآرامية والفينيقية والكنعانية ، حتى بيت المقدس — أورشليم تسللت إليه الحضارة الأغريقية . فقد أصبح لكل مدينة فى الشام دار للتربية أى جمنازيوم Gymnasion ، وهذه كانت مركز النشاط الثقافى والحضارى الأغريقى ، وقد تدفق عليها السوريون والآراميون لتلقى التعليم الأغريقى وتخرجوا منها إغريقاً ولكن ساميون شرقيون ، وبلغ من عشق المدن السورية للحضارة الأغريقية أن تباهت مدن الشام بمسارحها وبما كان يعرض عليها من روائع التراجيديا .

وأمام هذا الاكتساح الجارف للحضارة الأغريقية تراجعت الحضارات السامية سواء كنعانية أو آرامية أو عبرية لتحتمى فى معاقل لها فى المناطق الريفية النائية ، أو فى مناطق المرتفعات الجبلية ؛ وظلت فى هذه المعاقل تدافع عن بقائها حتى بعد الفتح العربى ، ولا يزال حتى الآن ثلاثه قرى سورية تقع فى شرق سورية تتكلم الآرامية وهى معلولة ونجمة وجب عدين . ولم تلبث الحضارات الآرامية والكنعانية أن بدأت تتسلل لتمتزج بالحضارة الأغريقية ، وساعد على ذلك اتجاه الأغريق إلى الزواج من آراميات وكنعانيات فقد كان أغلب الجنود والمستوطنين بلا زوجات ، ونادراً ما كانوا يجلبون

زوجات من مقدونيا أو بلاد اليونان ، كما أن المستوطن لكي يندغم نفسه بين السكان الوطنيين عادة ما كان يحاول الإندماج بينهم بالتصاهر ، على نحو ما فعلت الجيوش العربية بعد الفتح الإسلامى سواء فى مصر أو فى الشام : ونتيجة لذلك ظهر جيل من الآراميين المتأغرقين ،أو الأغريق الآراميين ، والكنعانيين الذين يجمعون بين الحضارتين لغة وعقيدة ويتوجهون بالعبادة للآلهة الآرامية والكنعانية والفينيقية بعد أن أضفوا عليها الصفات الأغريقية مثل الأسماء والمظهر ، وأطلقوا عليها أسماء أغريقية مثل زيوس الأولمبى Zeus Olympi os الرب القومى للامبراطورية السليوقية ، والذى تقمصه الملوك السليوقيون ، وكان رمزاً الشمس والقمر والنبات ، وكذلك أرتيميس Artemis ربة الخير والعطاء والإخصاب والعشق . وأصبح زيوس الأولمبى وأرتيميس يعبدان فى كل ركن من أركان الشام فى العصر الهللينستى ، وأصبحا قريبى الشبه ببعض آلهة الشرق الأدنى مثل بعل شامين (أى سيد السماء) ، وعشتار أو عشتروت Astargatis الربة الأم فى ديانة الشرق القديم ، حتى أن بعض اليهود لم يترددوا فى معادلة يهوة بزيوس الأولمبى .. وأغلب الظن أن المعابد التى أقامها الساميون الشماليون لزيوس الأولمبى ، وأرتيميس فى مدينة جرش فى شرق الأردن والتى كانت تعرف فى العصر السليوقى باسم انطاكية خريسو روهاس Antiochia Chrysorrhoas كانت فى الأصل معابد أقيمت فوق خرائب معابد قديمة كانت مقامة فى الأصل لبعل شامين وعشتروت ، وكان لا بد أن يمضى وقت طويل لكى تنتقل عبادة الرب ابوللون لتأخذ مكانها بين الآلهة الوثنية فى الكعبة باسم هبل .

وفى بعلبك (والتى ترجع تسميتها إلى إدماج لفظين آراميين هما بعل أى « مولى » و « باك » أى سهول و بقاع) وهى مدينة فينيقية قديمة بنيت للسيطرة على سهل البقاع الذى يفصل بين سهول لبنان و سهول سوريا ، لم يعثر على أى آثار سابقة لعصر الامبراطورية الرومانية ، وهذا يرجح أن تكون

هذه المدينة من تشييد أحد ملوك البطالمة المصريين أو حتى أحد ملوك الأيتوريين ، وقد بلغت بعلبك أوج ازدهارها فى عصر الامبراطورية الرومانية حيث أطلق عليها الأغريق اسم مدينة رب الشمس Heliopolis . وكان رب الشمس الأرامى « شمش » يلقى التقديس من جانب المقدونيين الأغريق تحت اسم زيوس الأولمبى ، وهو نفسه بعل شامين ، الذى عبد فى كافة أنحاء الشام . وفى العصور الرومانية تحول زيوس هليوبوليتانوس Zeus Heliopolitanos إلى اسم جوبتر هليوبوليتانوس الرب المرادف عندهم . ولقد أصبح معبده فى بعلبك مشهوراً يعطى المشورة والعرافة للزائرين ولا تزال أطلاله قائمة حتى اليوم فى قلعة بعلبك العربية . كذلك فإن مدينة القوافل الشهيرة تدمر (ومعناها بالآرامية تدمورا أى واحة النخيل) والتى ترجم إسمها إلى نفس المعنى باليونانية وهو بالمورا Palmyra لا بد وأن تكون قد لقيت عناية من جانب السليوقيين لأنها كانت تلعب دوراً تجارياً هاماً فى العصر الهللينستى خاصة وأن أقدم الوثائق التى جاءت منها مؤرخة فى عام ٣١٢ ق . م وهو تاريخ مولد الامبراطورية السليوقية ، غير أن أعظم آثارها ترجع إلى العصور الرومانية . .

وفى عام ٣٠٠ ق . م أقام الملك السليوقى سليوقوس الأول نيكاتور مدينة محصنة فوق أطلال مدينة آرامية مهجورة ، وأطلق عليها اسما جديداً هو دورا Dura ومعناها بالآرامية الديار أو الجدار ، ثم أضاف إلى هذا الإسم اسم القرية التى ولد فيها فى مقدونيا وهى يوروبوس وهى تقع فى منتصف نهر الفرات فى منتصف الطريق بين بغداد وحلب ، وكان الغرض من تأسيسها حراسة طريق القوافل المتجه إلى حلب Beroia ثم إلى تدمر (بالمورا) وحمص ، ثم جنوباً إلى بابل ، ولكى تكون همزة الوصل بين الستراپيات الواقعة فى شرق الامبراطورية السليوقية ، وتلك التى تقع فى غربها ، وبفضل أعمال التنقيب الذى قام بها فرانس كومونت Franz Cumont ، وميخائيل روستوفتزف ، والتى مولتها مؤسسة باريس للنقوش الأدبية الجميلة :
L'Academie Parisienne des Inscriptions et Belle Lettres.

وكذلك أعمال جامعة ييل Yale الأمريكية — أصبحنا نعرف الكثير عن دورا يوروبوس (والتي رأى روستوفتزف أنها تشبه مدينة بومبي Pompeii الشهيرة في إيطاليا) ، فقد بنيت دورا على نفس التخطيط العمراني للمدن الهللينستية الذي ابتكره مهندس بناء المدن الأغريقي الشهير هيبو داموس المليطي Hippodemos Meletios ، واستخدمه السليوقيون في بناء مدنهم الهامة مثل بيرويا (حلب) ولاء وديكيا (اللاذقية) ، وهذا التخطيط يشبه لوحة الشطرنج بالنسبة لشوارعها المتقاطعة . وكان المقصود من بناء هذه المدينة أن تكون قلعة عسكرية محصنة محاطة بأسوار عالية ضخمة ، غير أن لا القلعة ولا الأسوار أمكن بناؤها ربما لأن الحروب التي خاضها السليوقيون ضد البطالمة حول جنوب الشام وآسيا الصغرى حولت انتباههم عن إكمال بناء دورا يوروبوس . وفي عام ١٤٠ ق . م عندما اجتاح الملك البارثي مثراداتيس Mithradates اقليم بابل جاعلاً نهر الفرات هو الحد الغربي لمملكته ، فقدت الامبراطورية السليوقية كل ما كان لها من ممتلكات شرق الفرات ، وبالتالي سقطت دورا يوروبوس في أيدي البارثيين بسهولة .

وبالرغم من وجود بقايا معابد قليلة ترجع بكل تأكيد إلى عصر السليوقيين مثل معبد زيوس الأعظم Zeus Megistos الذي شيد في عهد انطيوخوس الثالث أو ربما أنطيوخوس الرابع إلا أن أغلب آثار دورا يوروبوس ترجع إلى فترات متأخرة من حكم السليوقيين . فلقد عاشت دورا يوروبوس أزهى عصورها تحت حكم البارثيين والرومان . وكسائر المدن الشرقية التي أقامها السليوقيون تشهد نقوش المعابد في دورا بصمود الآلهة الآرامية في وجه الآلهة الأغريقية والرومانية ، فإلى جانب ربهم جاد Gad حامي حمى المدينة ، نجد آلهة أخرى مثل بعل مردوخ وعشتارة Atargatis (عطارد) وأفلاد Aphlad الذي يعني بالآرامية بن الحداد (ابن هيفا يستوس) ، وبسبب عدم العثور على وثائق سابقة على العصور البارثية والرومانية ، فإننا نعتمد على الوثائق البارثية وفي ضوئها نستطيع ان نرسم صورة واضحة لما كانت عليه دورا في العصور

السليوقية ، ونتعرف على نظم الإدارة التى كانت تطبق فى المدن الأخرى التى بناها السليوقيون فى الشام . فقد كان لكل مدينة مساحة كبيرة من الأرض الزراعية تقسم إلى قطائع Hecades (أى مئويات) مساحة كل قطاع مائة هكتار ، ويمنح كل قطاع إلى قبيلة أو جماعة أو عشيرة ، يطلق اسمها على ذلك القطاع ، ثم يقسم كل قطاع إلى حيازات صغيرة (Cleoi) توزع على المستوطنين . وبالرغم من ذلك كانت كل أراضى المدينة من الناحية النظرية ملكاً للملك السليوقى ، من حقه نزعها وتؤول إليه إذا مات صاحب الحيازة دون وريث يرثه . وكان أغلب من توزع عليهم هذه الحيازات من الجنود المقدونيين والأغريق بشرط أن يقيموا فيها ويقوموا بزراعتها ، وكان لهم حق التصرف فيها من الناحية الفعلية سواء بالبيع أو التنازل . وفى عصر البارثيين والرومان كان يوجد فى المدينة مركز لتسجيل الأراضى وإشهار ملكيتها ؛ وسجل لتوثيق عقود الملكية ؛ وكان يدير شئون المدينة موظف كبير يعينه الملك ، ويتولى فى نفس الوقت قيادة الحامية العسكرية الموجودة فى قلعة المدينة ، بينما يتولى كبار رجال الإدارة الملكية الإشراف على تطبيق النظام والقانون ؛ وهذا النظام موروث بحذافيره من عهد السليوقيين .

ولقد ظلت ذكرى الملوك السليوقيين محفورة فى وجدان أهل دورا حتى بعد سقوطها فى أيدى البارثيين ، ويشهد على ذلك تلك اللوحة المحفورة بالنحت من العصر البارثى ، وتصور شابا فى زيه العسكرى يتأهب لوضع اكليل من الزهور فوق تمثال « الجاد » وفى أسفل اللوحة نقش يقول « سليوقوس نيكاتور » . ولقد ظلت سلالات الأسر المقدونية تحظى بمكانة اجتماعية بارزة فى المدينة ابان حكم البارثيين مثل اسرة سليوقوس بن لوسياس التى شغل ابناوها منصب الحاكم والقائد Epistates Kai Strategos جيلا بعد جيل حتى سقطت المدينة فى ايدى الرومان عام ٦٤ق. وتلى ذلك تضاؤل الروح الهللينستينية تدريجيا وفقدت المدينة شخصيتها وروحها

الحضارية الأغريقية وحل محل ذلك الفكر والحضارة الشرقية ، إذ لانجد بعد ذلك التاريخ معبدا واحدا لرب أغريقى ...

بعض مظاهر الحضارة فى الشام فى العصر الهلينستى :

١ - تخطيط المدن وهندسة العمران :

لقد سبق الأشارة الى النشاط العمرانى المحموم الذى قام به الملوك السليوقيون لنشر العمران وبناء الحواضر سواء فى الجناح الشرقى للأمبراطورية مثل العراق والخليج ، أو فى الجناح الغربى المتمثل فى الشام وفلسطين ، فقد تلألأ فى الشرق الأدنى مدن كثيرة مثل انطاكية ، واللاذقية ، ودورا يوروبوس وأباميا وغيرها وهذه المدن - رغم أنها اعتبرت جديدة فى اسمائها - كانت فى الحقيقة مدنا آرامية قديمة اعيد بدؤها واعيد تسميتها ، أو على الأقل بنيت الحواضر الهلينستية على مشارفها ثم أدخلت فى حيزها لتصبح أحياء شرقية أرامية داخل المدينة الهلينستية - رمز المؤاخاة وامتزاج الحضارات والثقافات والأجناس والتى هى المثل العليا لأفكار الاسكندر الأكبر . ولقد أصبح دور المدينة الإغريقية فى العصر الهلينستى دوراً ثقافيا بعد أن فقدت دورها السياسى ، ومن ثم أصبحت مراكز تشع الثقافة والأبداع الفنى والفكرى ، وتتسابق فيما بينها فى هذا المجال .

ولقد شهد العصر الهلينستى تقدما كبيرا فى فن التخطيط العمرانى وفن بناء المدن وتنظيمها وهندستها ، والأهتمام بطبوغرافيا المكان ؛ إذا لم تعد المدن تقام عشوائيا وحيثما إتفق وإنما بعد دراسة دقيقة ، فقد حرص المخطط على اختيار موقع بناء المدن عند مصبات الأنهار فى البحار أو فوق المرتفعات الإستراتيجية المتحكمة فى طرق التجارة البرية والبحرية ، او فى السهول والواحات التى تخترقها قوافل التجارة ، أو فى المواقع الأستراتيجية التى يتطلبها الدفاع والتحصين .

ولقد شهد العصر الهلينستى تقليدا جديدا وضعه هؤلاء الملوك البناءون ،

وهو الحرص على أن تقوم كل مدينة بالاحتفال بتاريخ وضع الحجر الأساسي فيها ، وإقامة شعائر دينية ، ومهرجانات ثقافية ، وأعياد ترفيهية سنوية ، تربط بين عبادة المؤسس وعبادة المؤسسة . فقد أقام سليوقوس نيكاتور مهرجانا كبيرا عندما وضع أساس مدينة أنطاكية ضرب به المثل فى الترف ، بل قيل أنه قدم قربانا بشريا وهى عذراء جميلة أسمها أماثيا Amatheia ؛ ولذلك يعتقد البعض أن التمثال الرسمى لمدينة أنطاكية ، والذى أبدعه النحات أو يتيخيوس ، وكان يجسد أنطاكية فى شكل فتاة جميلة ، والذى أطلق عليه بعض المؤرخين إسم « ربه الحظ السعيد أنطاكية » Tyche-Antiocheia لم يكن فى الأصل غير تمثال أماثيا الأضحية البشرية .

كان النسق التخطيطى الذى إتبع فى بناء الحواضر السليوقية فى الشرق الأدنى هو نفس النسق الذى اتبع فى كل مكان فى العصر الهللينستى بدءاً من بناء مدينة الأسكندرية فى مصر ، والذى يتمثل فى الشوارع المتقاطعة رأسياً مع أخرى فقية فى شكل لوحة الشطرنج ؛ وداخل هذا الأطار يحدد المخطط بدقة موقع كل مرفق سواء كان معبداً أو قصراً ، أو ملعبا للرياضة أو سوقا أو ساحة agora أو مسرحاً أو مكتبة ، وهنا يلتقى الفكر الحضارى والثقافى مع الهندسة والتخطيط العمرانى من أجل هدف راحة الأنسان الذى أصبح جوهر الاهتمام من جانب الفلاسفة والمفكرين . ولقد ذكرت المصادر مثلا أن الذى وضع تخطيط مدينة أنطاكية عاصمة الدولة السليوقية مهندس شهير إسمه كسينوس Xenos ؛ فقد أصبح مخططو المدن يتمتعون بشهرة لاتقل عن شهرة مشاهير الأدباء والفلاسفة والفنانين ، بل فاقوهم قدرا ، إذ أن خلودهم إرتبط بخلود المدن التى أسسوها وأصبحت حديث العالم .

ومن أهم ملامح التخطيط العمرانى للمدينة فى العصر الهللينستى إحاطتها بسور منيع له بوابات كبرى تغلق وتفتح فى أوقات معينة لحراسة السكان والدفاع عنهم والذود عن ممتلكاتهم ؛ وكان قلب المدينة هو القلعة التى تعسكر فيها الحامية وتوجد فوق اكروبول عال يشرف على المدينة ، وفى

أغلب الأحيان كانت هذه القلعة هي مقر الحكم ، يمارس منها الحاكم سلطاته في الاشراف على المدينة والدفاع عنها وحراسة الطرق التجارية التي تمر بها . وكانت شوارع المدينة متوازية ومتقاطعة مع بعضها البعض بزوايا قائمة ، وعلى جانبي الشوارع تقوم الاروقة المسقوفة Stoa (أو القيساريات كما عرفت في المدن الأسلامية) ، وعند التقاء الشوارع الكبرى تقام أقواس النصر ذات البوابات الثلاث Triapylai ، ولايزال حتى اليوم في مدينة اللاذقية السورية أحد هذه الأقواس قائما في مكانه ولقد كانت السوق أو الساحة العامة agora هي قلب النشاط الأجتماعي والتجاري والثقافي ، وكانت تقام حول المعابد والقصر . ومن أهم الآلهة الأغريقية التي اهتم الملوك السليوقيون بتشييد المعابد لها معبد أبوللو (ابوللون) Apollo رب الشعر والموسيقى والرياضة والحضارة ، فقد نسبت الأسرة السيلوقية جذورها إليه . وكذلك معبد رب الخمر ديونيسوس الذي حاول بعض ملوك الاسرة السليوقية نشر شعائر عبادته بين الشعوب الآرامية كرمز لوحدة الأمبراطورية ، ومن الربات الأغريقيات اللاتي لقين إهتماما من جانب الملوك السليوقيين ربه الحظ السعيد طوخي Tyche ، فقد عثر على معابد لها في كل من مدينة أباميا Apamea ومدينة دورا يوروبوس Dura-Europus ولقد برز دور المسرح في العصر الهلينستي كأداء التسلية والتثقيف ؛ كما ازداد دور ملعب الرياضة وملاعب سباق الخيول hippodrome والعربات حيث كانت تقام فيها الأختفالات والمسابقات الدورية ، والمهرجانات الاستعراضية التي يسير فيها الجنود بزيهم المبهرج القشيب وقبعاتهم الغريبة . كما ازدهر دور معاهد التربية الرياضية والثقافية والتعليمية الأغريقية التي عرفت بأسم الجمنازيا gymnasia . ولقد حرص الملوك السليوقيون على تزويد هذه المدن بالمياه العذبة . وزرع الحدائق الغناء ، وإقامة التماثيل الجميلة في كل مكان من المدينة . وخلاصة القول حرص مخطط المدن السليوقية سواء في الشام أو الرافدين على أن يضع في إعتباره أهم عاملين هما : الدفاع والجمال . ولكن للأسف تعرضت أغلب مرافق هذه المدن مثل المعابد والقصور للدمار

ولو بقيت لاستطاع علماء الآثار أن يتعرفوا على مدى استفادة مخططى هذه المدن من تراث العمارة الشرقية وتوظيفها داخل الأطار الهللينستى .

٢ — الفنون والآثار :

وبالمثل تعرضت لغلب أعمال الفنون الوثنية فى الشام لنفس المصير ، ولم ينج من الدمار سوى النذر اليسير ؛ والذى حفظته باطن الأرض من أن تمتد إليه يد التخريب سواء من جراء الحروب الطاحنة التى شهدتها المنطقة . أو لانتصار الرسالات السماوية على الفكر الوثنى ، وربما أيضاً لقلة أعمال التنقيب العلمى المنظم فى أطلال المدن القديمة . ومهما كان الأمر ، فقد كان العصر الهللينستى نقطة تحول فى تاريخ الفن فى الشرق الأدنى فقد التقى الفن الآرامى وفنون بلاد الرافدين وجهاً لوجه مع الفن الأغريقى الوافد ، فأخذ كل من الآخر ، بالأضافة الى ذلك كانت مرحلة الحكم السليوقى لبلاد الشام والرافدين بداية جديدة لتاريخ الممالك الآرامية والسامية . فقد تغيرت فيها فلسفة الحياة ، وتبدلت طريقة التفكير ، وتحرر الأنسان الشرقى من قيودة الموروثة ، وظهرت نزعاته الفردية المستقلة عن هيمنة المعبد والكهنوت ، وازداد ميل الأنسان للطبيعة كما خلقها الله . يستلهم منها أفكاره ، ويشبع نفسه من جمالها والتأمل فى سرها ؛ وحرص على التعبير فى فنونه على الحركة العنيفة والعواطف الجياشة التى تتقمص ملامح الوجه Pathos ؛ وبدأ الفنان فى الشرق يهتم بالأنسان وواقعه ويتحرى عن حقيقته ، ويحاول رصد غرائزه وعواطفه ونزعاته ومشاعره ، إلى جانب تميز هذا الفن برقة الشعور ، ورهافة الحس ، فى وقت كانت فيه المدن الكبرى فى الشرق مثل الأسكندرية وانطاكية وبرجامون تتنافس فيما بينها على الأبداع والخلق والأبتكار . لقد تغير جوهر الفن وتبدل فكر الفنان ، فأصبح يهتم بالواقع ويركز على الحقيقة حتى كادت هذه التماثيل ذات التعابير الحالمة ، والنظرات الشاردة ، والملامح التى تتعلق بجمال الكون

والمخلوقات ، أن تنطق بالحياة . فقد أصبح الانسان هو رمز الوجود ، ومقياس الجمال ، ووسيلة التعبير عن العواطف الجياشة ، والمشاعر المتأججة والأفكار الانسانية السامية . ولقد كان لمدرسة الفنان الشهير ليسيبوس Lysippos أثر كبير فى ظهور الأسلوب الواقعى ، والاهتمام بابراز الملامح الفردية التى يمكن من خلالها التعرف على الشخص بعينه من ملامحه المتميزة أو بصمة الملامح مما أدى الى ظهور فن البورترية Portaiture ، كما ساعد رغبة الملوك فى تخليد ذواتهم الى درجة العبادة فى ظهور هذه التماثيل الخاصة بهم وكذلك التماثيل النصفية busts للملوك والقادة ومشاهير الفلاسفة والأدباء والتى تسجل الملامح الفردية لكل منهم بدقة .

ولقد كانت انطاكية تزهو فى خيلاء بجمالها كدرة الشرق الأدنى ، وتفخر بثرواتها وثقافتها ، فقد أغدق الملوك السليوقيون بسخاء على تعميرها وتشجيع الفنانين على الابداع والابتكار . ومن أشهر الأعمال الخالدة التى تحققت فى ذلك العصر ذلك التمثال الذى انجزه الفنان أوبتخيوس أحد تلاميذ ليسيبوس والذى كان يمثل انطاكية فى شكل ربة الحظ السعيد Tyche وهو عبارة عن تمثال فتاة جميلة ، ترتدى ثوباً فضفاضاً يكاد يشف عما تحته ، وقد جلست على صخرة تمسك بيدها حزمة من سنابل القمح ، ويعلو رأسها تاج يأخذ شكل أسوار انطاكية ذات الأبراج الدفاعية ، وعند قدميها يبدو نهر العاصى orontes الذى تطل عليه المدينة ، وقد تشكل فى هيئة إنسان باسطا كلتا يديه فى إغداق وبالقرب منه ظهرت حوريات الماء المكلفات برعاية وحراسة الأنهار وهن « بنات زيوس » Naiads كما سماهن هرميروس .

ويتوقع الأستاذ شارل بيكارد Charles Picard وجود مدرسة فنية فى الشام فى العصر الهللينستى ميزت نفسها بتماثيل النساء البدينات نسبياً فمقاييس الجمال الشرقى تضع البدانة كأحد شروطها بعكس مقاييس الجمال

الغربى التى تتسمك بالرشاقة والنحافة الى حد ما ، ويرى أن نموذج هذه المدرسة يتمثل فى أحد تماثيل أفروديت وهى تضع قدمها على ظهر سلحفاة ، وقد عثر على هذا التمثال فى أطلال مدينة دورا يوروبوس ، ويرى أنه يمثل أسلوب مدرسة أنطاكية الفنية ، والذى كان من أهم خصائصه المبالغة فى ميلان جذع الجسم الى الجانب فى حالة استرخاء تام كتعبير عن الأثارة الشهوانية الشرقية ، ونفس الخصائص تتكرر فى تمثال عشتار — افروديت الذى عثر عليه فى صيدا بلبنان . وعموما يلاحظ كثرة وجود تماثيل أفروديت فى الشام فى العصر الهللينستى وذلك تلديحا بأن الشرق الأدنى هو الموطن الأصلى لأفروديت الأغريقية التى توالدت من عشتار الشرقية . ومن ثم فقد كان من الطبيعى وقد انتقل المهاجرون الأغريق الى الشرق الأدنى أن تلقى افروديت عشتار إهتماماً خاصاً من الفنانين محاولين اضفاء مقاييس الفن الشرقى عليها سواء فى الجسم ونسب اجزائه ، أو فى إبراز الأثارة والأنفعال النفسى على ملامح الوجه . كذلك من تأثيرات فكر الشرق الأدنى ظهور تماثيل افروديت عشتار فى صور محتشمة ذات وقار ، ترتدى الرداء بعكس صورها فى الغرب اليونانى ، وذلك إشارة الى إحتقار شعوب الشرق الأدنى لتعرى المرأة ؛ وفى بعض الأحيان توصل الفنان الى صيغة ترضى الشرق وتحافظ على التراث الفنى الغربى وهو تمثيل أفروديت وهى ترتدى ملابس ولكن مبتلة بالمياه ، حيث يلتصق الثوب بالجسم فيكشف عن تفاصيله بدقة ، وقد عثر على نماذج من هذه التماثيل فى كل من اللاذقية وحمص . وعموماً ، يمكن القول أن الفنان الهللينستى فى الشرق الأدنى قد نجح فى التعبير عن جمال المرأة المتدثرة بثيابها المحلية الطويلة الفضفاضة كما تميزت تماثيله فى المبالغة فى أنواع الحلى التى تتزين بها .

ومن الموضوعات الأخرى التى إشتهرت فنان الشرق الأدنى فى العصر الهللينستى تمثال زيوس رب الأرباب عند الأغريق وقد تشكل فى هيئة بجعة يداعب الحسناء الفاتنة ليدا Leda ، ومن المعروف أن الاسطورة اليونانية التى راجت فى الشرق الأدنى فى العصر الهللينستى تقول أنه نتيجة

لأتصال زيوس بالأميرة ليدا ، وضعت الأميرة بيضتين فقست أحداهما وخرج منها الاميرة هيلينا التي تسببت في قيام الحرب الطروادية بينما خرج من البيضة الثانية الشقيقان (الديسكورى) كاستور Costor وشقيقه بوللكس Pollux .

ومن الموضوعات التي استهوت فناني الشرق الأدنى ايضاً تمثال إيروس (كيوبيد) وهو يعانق الحسناء بسوخى Psyche اى « التنفس » ، فقد ربط بين عذاب الحب والتنفس ، وهذا يذكرنا بقول افلاطون ان بسوخى تهبط من قصرها العلوى إلى سجنها الأبدى فى قصرها المسحور ، فهذه الربة كانت رمزاً لمفهوم الروح الإنسانية وعذابها فى سجن الجسد ، وطموحها التحرر منه والعودة إلى عالم الخلود الأبدى ، فأيروس — الذى وصفه افلاطون فى محاورة أجاثون Agathon « بأنه اصغر الآلهة ولكنه اكثرها سعادة ، واشدها عبثاً بقلوب البشر وبقلوب آلهة الأولمب » — بدأت تماثيله تكثر لأنه كان رمزاً لتأجج الحب والعشق فى عصر العواطف الجياشة ؛ غير أن لمسات الشرق الأدنى تظهر فى بعض الإضافات ؛ فى تمثال له عثر عليه فى حوران فى قرية الشيخ سعد بشرق سوريا ، ظهر وقد تزين صدره بعقد له دلاية فى شكل هلال القمر ، ومن المعروف أن الهلال ارتبط فى تراث الشرق الأدنى بعبادة الأجرام السماوية عند الساميين ، بل اصبح أساس التقويم القمرى عندهم . بالإضافة إلى ذلك اقتبس فنان الشرق الأدنى الكثير من العناصر الزخرفية النباتية المحلية مثل سعف النخيل ، وبعض الأشواك الصحراوية ، وكذلك الزهور البرية خاصة زهرة اللوتس . وكذلك أغصان الكروم وعناقيد العنب ، فترك للتراث الفنى عناصر زخرفية متنوعة تميزت بطابعها الشرقى الأصيل وقيمتها الجمالية الراقية

٣ — النقود والفسيفساء :

ومثلما تمسك الفنانون بالأسلوب الواقعى والملامح الفردية عند تصوير أو نحت تماثيل الملوك السليوقيين ، فقد حرصت دار سك النقود الملكية على تصوير الملوك بملامحهم المميزة على وجه العملات النقدية . وجدير بالذكر

كان الملوك السليوقيون فى مطالع حكمهم الشام والرافدين يحرصون على تقليد هيئة الإسكندر الأكبر فى صورهم والتى جسدها الفنان الشهير ليسيبوس واتبع فيها الأسلوب المثالى الحالم ، المجسد لكل معانى الكمال والجمال الإنسانى ، حتى إمالة الرأس إلى الجانب قلدوها؛ غير أنه بانتهاء حروب الورثة التى هلكت فيها أسرة الإسكندر الأكبر ، اكتشف الفنان جمال الواقع ، وضرورة التعبير عن الإنسان كما هو وليس كما يجب أن يكون ، ولهذا بدأ رصد ملامح الفرد وبصمات تقسيم وجهه الخاصة خاصة بالنسبة للملوك لأن صورهم اعتبرت رسمية ذات نمط واحد ، وتقام فى كافة أنحاء الامبراطورية . ولما كانت النقود اكثر توزيعاً وحركة فقد التزمت بشدة بتصوير الخصائص الفردية لكل ملك حتى أننا يمكننا التعرف عليه دون حاجة إلى قراءة إسمه .

ومن ناحية أخرى فإننا نلحظ أن الطابع المحلى الشرقى لم يظهر على النقود إلا منذ أن حصلت بعض المدن الكبرى فى الامبراطورية السليوقية على حق سك النقود وذلك فى عصر الملك سليوقوس الثانى كالينوس (٢٤٦—٢٢٦ق.م) وكذلك فى عهد الملك انطيوخوس الرابع المتجلى ابيفانيس ١٧٥—١٦٤ ق.م ، إذ صور على وجه العملة الأول صور بعض الآلهة الآرامية القومية مثل ملقارت Melicartes وبعل ، وعلى الوجه الآخر صورت الآلهة الأغريقية المحببة فى الشرق مثل طرخى ربة الحظ وديكى dike ربة العدل وغيرها .

وبسبب الترف فى بناء القصور والمعابد كثرت صور الفسيفساء Frescoe التى تصور مناظر زخرفية وحداتها التصويرية النبات والحيوان وكذلك بعض موضوعات الأساطير خاصة تلك التى ترمز إلى ردع الحاقدين والحاسدين كصورة ميدوسا ، وبعض حوريات الأنهار ، وقد بلغ من جمال ودقة الزخرفة أنها تبدو كما لو كانت أبسطة شرقية مزخرفة . ولهذا استخدام هذا الفن لزخرفة ارضيات القصور والمعابد وبعض جدران المبانى الهامة ، وللأسف هلكت هذه الأرضيات مع تدمير المبانى ، ولم يتبق سوى شذرات قليلة منها تشهد بروعة الإبداع والتعبير فى هذا الفن .

٤ — الحلى والزجاج :

لا يستطيع الدارس لحضارة الشرق الأدنى فى العصر الهللينستى أن يغفل أهم صناعتين فنيتين ازدهرتا فى هذا العصر وهما صياغة الحلى كالذهب والفضة، وصناعة الزجاج؛ إذ أن رغبة الإنسان فى الشرق الأدنى التزين بالحلى من أقوى الرغبات وأقدمها عهداً ، فقد ظهر فن صياغة المعادن النفيسة فى مصر والشرق الأدنى حتى منذ عصور ما قبل التاريخ ، ويرى بعض علماء الاجتماع أن عادة ثقب شحمتى الأذنين لتزينها بحلقة ذهبية كانت من ابتكار الشرق الأدنى . ويؤكد الأستاذ روجيه ميليس ن بلاد الحيثيين كانت غنية بالمعادن النفيسة التى كانوا يبيعونها الفينيقيين لتصنيعها فى شكل قطع من الحلى الرجال والنساء ، وبمرور الزمن توارثت طبقة من الصناع هذا الفن الدقيق الذى بلغ قمة ازدهاره فى عصر الامبراطورية السليوقية ، فقد كانت هذه الصناعة تلقى عطفاً وتشجيعاً ورعاية من جانب الملوك السليوقيين ، فقد روى أن انطيوخوس الرابع كثيراً ما كان يترك حاشيته ليتجول بمفرده فى أسواق صناعة الذهب والفضة فى أنطاكية ، وقد دخل هذه الصناعة اليهود وتخصصوا فيها حتى عصور متأخرة بل وحتى ظهور الإسلام .

ولم يكن فنانو هذا النوع من الصناعة يختصون بالحلى الخاصة بالأفراد ، بل تفننوا أيضاً فى زخرفة التيجان ، بل انتقل هذا الفن لزخرفة الثياب الموشاة بخيوط الذهب ، والفضة . وكذلك مقابض الأسلحة والأدوات الخاصة ؛ وإن كثرة الأقراط المكتشفة فى الشام من العصر الهللينستى تبين ما أضافه صائغو المعادن النفيسة من ابتكارات جديدة مثل الأقراط التى يتدلى منها رءوس ربات محبوبة مثل ايروس وطوخى وآثينا ؛ و رءوس حيوانات استخدمت كتمائم لدرء الحسد ودفع الشر . وفى آواخر العصر الهللينستى ظهرت الأقراط المؤلفة من حلقات يعلو بعضها البعض ومزينة بكرات صغيرة من الذهب ، فقد كان الاعتقاد الشعبى الشائع فى الشرق الأدنى أن الشكل

الكروى يبعد الشر والحسد ؛ كما عثر على عدد كبير من الأساور التى تنتهى بشكل حية أو ثعبان ، وهو الشكل المستخدم فى التمائم ، كما أبدع الفنان الشرقى فى صياغة المشابك الذهبية .

أما عن الزجاج ، فترجع صناعته إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، فقد عثر شيفر Shaefer فى أوغاريت على خاتم زجاجى أزرق وأوعية من الزجاج صنعت بطريقة الصب على جسم رملى ؛ غير أنه فى العصر الهللينستى بدأ الفنانون يزينون سطح هذه الأوانى الزجاجية بأشكال زخرفية تشبه ريش الطيور وأغصان الشجر ، وذلك عن طريق الكشط والحز والنقش . وفى أواخر العصر الهللينستى ابتكر الفنانون فى الشام طريقة صنع الزجاج الفسيفسائى والزجاج المليوفورى : وتتلخص طريقة الزجاج الفسيفسائى بجمع قضبان زجاجية مختلفة الألوان وتحويلها إلى كتلة اسطوانية واحدة بفعل الحرارة ، ثم يقطعونها فى شكل شرائح تبدو فيها مقاطع تلك القضبان الزجاجية الملونة ، ثم تحول هذه الشرائح إلى أوانى بواسطة القوالب والحرارة ،إذ استخدمت فى صناعة كئوس الشراب التى يوحى منظرها بشكل الفسيفساء الزجاجية ؛ أما الزجاج المليوفورى فتتميز صناعته بغمس هذه القضبان فى عجينة الزجاج .

٥ — تطريز الثياب والصباغة الأرجوانية :

ومن أهم الفنون التى اشتهرت بها بعض مدن الشام فى العصر الهللينستى — خاصة اللاذقية — تطريز الثياب بخيوط الذهب والفضة والتى كانت تصدر إلى كافة أنحاء العالم القديم ؛ كما عرف الحرير فى الشام ، والذى كان أهل الصين قد توصلوا إلى استخراجه من دود القز وأبقوا صناعته سراً ، وكانوا يصدرونه فى « بالات » عن طريق القوافل التى تقطع التخوم الشرقية للامبراطورية السليوقية ،ومن الجدير بالذكر أن الحرير وصل إلى الإسكندرية ، فقد عرف أن الملكة كليوباترا السابعة كانت لا ترتدى غير الحرير .

وبالنسبة لفن الصباغة باللون الأرجوانى النادر فقد ابتكره الفينيقيون ،

وبسببه عرفوا بهذا الإسم ، وكان لوناً يحظر استخدامه إلا فى صباغة ثياب الملوك وعلية القوم ، وقد أزدهرت هذه الصناعة فى الشام بسبب وجود أصداف الموريق Murex الأرجوانية قرب سواحل فينيقيا . ولقد حرص السليوقيون على تشجيع هذه الصباغة ، وكانوا يصدرون الأقمشة الأرجوانية وتلك المحلاة بخيوط الذهب والفضة إلى الشرق والغرب . ومن الجدير بالذكر أن هذه الصناعة ظلت مزدهرة فى الشام حتى العصر الاسلامى .

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية فى الشام :

وبالرغم من أن الحضارة الهللينستية أخذت تذوب فى بحر الحضارة الآرامية تدريجياً ، إلا أن تأثيرها كان على الشرق الأدنى كبيراً ، فمن خلال معاهد الجمنازيا (معاهد التربية والتعليم) الأغريقية ، حصلت أعداد كبيرة من الشرقيين على قدر وافر من الثقافة الأغريقية ، وتخرجوا منها أغريقاً فى ثقافتهم وعقليتهم ؛ ولعب بعضهم دوراً بارزاً فى تاريخ هذه الحضارة ، نذكر منهم بوسيدونيوس Poseidonius (١٣٥–٥١ ق . م) المؤرخ والفيلسوف والجغرافى الكلبى (١) وعالم الفلك والفقيه فى علم الأديان . والذى قال عنه إيسترابون « لقد كان أكثر الناس علما فى أيامى » ؛ ومنهم أيضاً ملياجروس Meleagros ابن مدينة جادارا Gadara (١٤٠ — ٧٠ ق.م) (جنوب بحيرة طبرية) ، وكان شاعرا وفيلسوفا كلبيا ساخرا ومتهكما ، أسهم كثيرا فى تاريخ الشعر الأغريقى فى العصر الهللينستى ، وعاش متنقلا مابين ميناء صور وجزيرة كوس(٢) وكذلك أنتيباتر الصيداوى ؛ إننا نعرف القليل عن حياة

---

(١) الكلبية هى ملهب فلسفى يونانى ، يؤمن بأن الفضيلة هى الخير الأوحد ، وبأن جوهرها هو ضبط النفس ، وبأن سلوك البشر تهيمن عليه المصالح الذاتية وحدها ، وعبر عن موقفه بالسخرية والتهكم .

(٢) أنظر : فيليب أميل لجران : شعر الاسكندرية نقله الى العربية د . محمد صقر خفاجه ، مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥٢ ، ص ١٥ ، ١٧ ، ٩٤ ،

بوسيدونيوس المبكرة ، فقد ولد لأسرة ثرية فى مدينة اباميا على نهر العاصى ؛ وفيها تلقى تعليمه الأول . ومن واقع تجربته الثقافية والحياتية ؛ يقدم لنا صور تتبط بالحياة الفكرية فى القرن الاخير من حكم السليوقيين ، إذ كتب يقول « والحياة فى المدينة السورية سلسلة مستمرة من المناسبات الاجتماعية ؛ إذ كانوا يستخدمون حمام الجمنازيوم ، حيث كانوا يدهنون اجسامهم بالزيوت النادرة ، وبالمر ؛ وتموج المدينة من اقصاها الى اقصاها بأصوات عازفى الهارب ؛ والعاب المبارزة التى هى احدى طقوس عبادة الجسم ، وتنميته ، وأهم ملامح التربية الأغريقية(١) » ، التى فشلت فى أن تجد لها استجابة من جانب الرعايا الشرقيين لملوك العصر الهللينستى » . ان أشارة بوسيدونيوس الى الجمنازيوم تبين أنه كان حقا سورى الأصل . أما ملياجروس الجدارى ، فقد كان — كما أشرنا من قبل — من مواليد مدينة صور ، تلك المدينة الفينيقية العريقة . وقبل موته كتب نقش شاهد قبره بلغة مثيرة تلقى الضوء على عقلية السورى المتأغرق ابان القرن الأول ق.م يقول نقش شاهد قبره « صور هى مرضعتى ، وموطنى الاتيكى أنجبتنى لجادارا التى تقع فى سوريا أنا مليا جروس بن يوقراط Eucrates نشأت فى كنف ربات الفنون والآداب الأولى رغم انى سورى . مقلدا أعمال مينيبوس Menippos . وماذا يدهشك فى ذلك أيها الصديق ، فنحن نسكن أرضا واحدة هى الأرض ، وعصر العماء الذى جاء بنا من العدم أوجد جميع الناس »(٢) لقد وصف ملياجروس وطنه الآتيكى بأنه مدينة جادارا السورية ، التى تقع فى الجنوب الغربى من بحيرة جنزاريت Genezareth (طبرية) ؛ وكانت احدى اتحاد المدن العشر Decaplolis

---

وكذلك أنظر : د. محمد حمدى ابراهيم : الادب السكندرى ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٥ ص ٢٤٤ — ٢٥٦ ؛

وكذلك أنظر : محمد محمود السلامونى : « ملياجروس السورى » مقال منشور بمجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، العدد ١٥ (١٩٦١) (ص ٥٦ وما بعدها .

(1) E. R.Bevan : The House of Seleucus, London 1952, P 22

(2) F. A. Wright: A History of Later Greek Literature, London 1951, P. 156—158.

فى شرق الأردن (منها فيلادلفيا رباط عمون Philadelphia Rabbath Ammon (عمان) ، وسكيثوبوليس Scythopolis (بيت سيان) وجرش Gerasa . وقد ظل أبناء جادارا يتمسكون بالتراث الوثنى الأغريقى ، حتى العصر المسيحى . ففى العصر المسيحى أصبح لفظ هللينى (أغريقى) يرادف لفظ وثنى وذلك فى فلسطين وسائر أجزاء الشام وفينيقيا ؛ فقد كان أبناء الطبقة الراقية بصرف النظر عن أصولهم العرقية أو أماكن ولادتهم يعرفون باسم الهللينيين ، فالمرأة التى جاء ذكرها فى أنجيل مرقص(١) « أغريقية من أصل عرق سورى فينيقى » هو المثل التى كانت تعنيه كلمة هللينى فى ذلك الوقت ، أى انها كانت أغريقية بحكم التعليم والثقافة وليس بالمولد والعرق . فالثقافة والتعليم الأغريقى كانت الرابطة الوحيدة التى وجدت بين جميع شعوب وقوميات الأمبراطورية السليوقية .

ولقد سجل بوسيدونيوس بقلمه اللاذع وصف معركة حامية الوطيس وقعت بين أهل مدينة أباميا موطنه ، وبين سكان مدينة مجاورة هى مدينة لاريسا ، بين فيها أن السوريين فى العصر الهللينستى تركوا الانضباط العسكرى المقدونى مع مرور الزمن ؛ ففى وصف هذه المعركة التى وقعت عام ١٤٥ ق.م فى وقت كانت فيه الأمبراطورية السليوقية تحتضر يقول « سار أهل أباميا يحملون الدروع والسهام التى غطاها الصدأ ، وعلاها التراب ، يضعون فوق رؤسهم قبعات ذات حافة عريضة بطريقة بالغة الأناقة ، بحيث تظلل أعناقهم دون أن تحرمهم من التمتع بالنسيم البارد العليل ، ومن خلفهم سارت الحمير محملة بجرار النبيذ من كل صنف وكل نوع ؛ كما سار عازفو المزامير والناى ، وهى آلات تصلح للمجون وليس للحرب والنزال ،(٢) » . ولا نعرف النتيجة التى أنتهت إليها المعركة ، لكن من

---

(١) أنجيل مرقص الاصحاح السابع آية ٢٦ .

(2) Bevan, op. cit., P. 224 ; F. A. Wright, op. cit., P. 144—147.

الواضح أن السوريين فى نهاية العصر الهللينستى كانوا قد ضاقوا ذرعا بالحروب والمعارك ؛ وفقدوا الحماس للقتال دفاعا عن أوطانهم ؛ حتى المعارك التى خاضها ملوك العصر الهللينستى ، كانت الجنود المرتزقة من كافة الأجناس هى عامل الحسم فيها وليس جنود الشام .

ولقد تمتعت الشام برغد العيش والرخاء خلال حكم الملوك السليوقيين ، فقد عاش سكانها على حد قول بوسيدونيوس فى مهرجانات وأفراح دائمة . فاذا كان ذلك رأى بوسيدونيوس الذى كتب فى أشد عصور الدولة السليوقية تدهورا وضعفا ، فما بالنا عن الحياة فى أيام مجد وعزة ملوكهم الأولين ؟

لقد كانت سهول الشام وغياطنها مثل سهل نهر العاصى وسهول لبنان ومنحدراته الجبلية ، التى تنساب منها المياه، والتى تغمرها الشمس المشرقة؛ وافرة الانتاج بمحاصيلها الزراعية ؛ إذ كانت تنتج القمح والشعير ، والكروم والزيتون ، والفواكه والخضروات ، والتفاح والأخشاب . كما قامت فيها صناعات هامة. فقد كانت صور أشهر مدن العالم القديم فى صناعة الأصباغ الأرجوانية من حجر الموريق (Murex) الذى يكثر فيها ، واشتهرت صيدا بصناعة الزجاج ، الذى كان يصدر الى كل ركن من أركان المعمورة ، كما كانت القوافل التجارية سواء تلك القادمة من أعماق آسيا ، أو من جنوب الجزيرة العربية ، تحط رحالها فى مدن الشام ، خاصة بصرى (Bostra) التى كانت أكبر سوق دولية ، وملتقى القوافل القادمة من شتى بقاع الأرض . وظلت كذلك حتى ظهور الاسلام . فقد كانت موانىء الشام والخليج هى المنافذ التى تصل عن طريقها بضائع الشرق الأقصى وبضائع اليمن ومنتجات أفريقيا الى العالم الأوروبى . ولقد استمر ازدهار الشام تجاريا وحضاريا حتى بعد مجىء الرومان الى الشرق الأدنى ، وفرضهم السلام

( ) د. محمد حمدى ابراهيم : المرجع السابق ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

الرومانى على المنطقة ، مما نشط عملية التجارة ، وأعطى ثقة واطمئنانا للمتعاملين فيها . ان وصف إسترابون للشام فى عصر اكتافيوس أغسطس ، وخليفته تيبريوس ، ومن خلال الأناجيل ، يعطى انطباعا أن الشام لم تكن أبدا أقل رخاء وازدهارا مما كانت عليه خلال عصور مجد الملوك السليوقيين . ان ما تصوره الأناجيل بدقة وصدق لحياة الناس الوادعة فى قرى ونجوع الجليل وفلسطين لخير وصف لأحوال الناس فى فلسطين والشام فى نهاية العصر الهلينستى ومطلع العصر الرومانى .

لقد كانت الشام رغم تدهور الحكم السليوقى من أسعد بلدان الدنيا ، يعيش سكانه فى رغد وبحبوحة من العيش ابان العصور السليوقية والرومانية ، وذلك على الرغم من المعارك الدامية التى شهدتها أراضيها ، فاقتصادها كان مزدهرا ، وتجارتها رائجة ، وحواضرها عامرة ، منارات تشع العلم والمعرفة ، ومعابدها نشطة تشرف على حياة دينية عميقة الجذور . وخلاصة القول أنها كانت تجمع بين الرخاء الاقتصادى والمادى ، والسمو الثقافى والفكرى ، والتألق الدينى بين سائر الطوائف والنحل والعقائد ، حتى أن الملوك السليوقيين ظلوا المثل الأعلى فى ذاكرة شعوب الشرق الأدنى ، ويكفى أن نشير إلى أن اسم السلاجقة ، ما هو إلا تحريف لأسم السليوقيين .

السليوقيون والأنباط :

كانت بلاد الأنباط Arabia Nabatae كما عرفها المؤرخ يوسف السكندرى اليهودى Josephos هى بلاد العرب التى تمتد شرقا حتى أطراف الفرات ؛ وشمالا حتى سوريا ، وغرباً وجنوباً حتى شبه جزيرة سيناء ، وساحل العقبة ؛ وهى المنطقة التى أطلق عليها الجغرافيون الأغريق والرومان اسم بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea بسبب وعورة سطحها ، وكثرة الجبال ذات الصخور بديعة الألوان فيها .

وينتمي العرب الأنباط الى أحد الفروع السامية الآرامية التي نزحت في القرن السادس قبل الميلاد من صحراء بادية الشام واستوطنت الصحارى الواقعة الى الجنوب من سوريا والى الشرق من نهر الأردن . وكانوا في الأصل يقومون بحراسة القوافل التجارية لقاء نسبة مما تحملها أو كأدلاء لمعرفة مدقات هذه الصحراء . كما كانوا يعملون في قطع الطرق وسلب القوافل القادمة من الخليج او من جنوب الجزيرة . ولم يتحولوا الى دولة مستقرة إلا قبيل القرن الرابع ق.م ، إذ لم يعثر لهم على أى ذكر في في وثائق الأشوريين أوالفرس ؛ إنما كل ما ورد بخصوصهم جاءنا من كتابات الأغريق الذين عاشوا في العصرين الهلليني والروماني من أمثال ديودوروس الصقلي Diodorus Siculus واسترابون الجغرافي Strabo . ويعتبر المؤرخ السكندري اليهودي يوسف أهم مصادر لنا عن تاريخ الأنباط ، إلا أن يوسف كان معنيا بالدرجة الأولى بتاريخ بني إسرائيل وأحوالهم ، وبالتالي لم يذكر عن الأنباط الا ماله علاقة أو اتصال باليهود وتاريخهم .

وإلى جانب ماكتبه الأغريق والرومان عن الأنباط الذين ذكروهم في مصادرهم باسم ناباتاى أى نبط Nabatae ، هناك المصادر الأثرية ونتائج أعمال التنقيب في موقع عاصمتهم البتراء وفي جبال حوران وفي مناطق أخرى ، خاصة بعد أن اكتشف موسل وبرينوف ودالمان مكان هذه العاصمة في أواخر القرن التاسع عشر ، كما أن آثار مدينة جرش في الأردن التي لفت الرحالة الألماني سيتزن الأنظار الى أهميتها عندما زار موقعها عام ١٨٠٦ تعتبر أيضاً من أهم المصادر عن الأنباط .

وعندما نزح الأنباط في القرن السادس ق.م من بادية الشام الى صحراء شرق الأردن ، إندفعوا نحو السهوب المنخفضة تجاه البحر الأحمر وانتزعوا من الأدوميين — احدى الفروع السامية أو الذين كانوا يسكنون في هذه المنطقة — عاصمتهم سلع أى الشق (كما ورد في التوراة) ، وهي تسمية دقيقة لأن مدخل المدينة عبارة عن شق اخدودي عميق يقع بين جبلين شاهقين ؛ ولقد عرفت هذه العاصمة في العصرين الهلليني والروماني باسم البتراء Petraia أى

الصخرية ، أما فى المصادر العربية فقد عرمت باسم الرقيم أى (لوحة النقوش) ، أما اليوم فتعرف باسم وادى موسى وأحيانا باسم البتراء .

كانت البتراء عاصمة الأنباط تقف على ربوة قاحلة وعرة يبلغ ارتفاعها أكثر من تسعمائة متر تقريباً ؛ وتحيط بها الجبال من سائر الجهات ، ولا يمكن الدخول إليها الا من الشق الضيق ، وهو ممر وعر يعرف اليوم باسم « السيق » وربما كان هذا الاسم نبطى الأصل ويعنى الشق . واطلال المدينة الباقية عبارة عن مقبرة كبيرة منحوتة فى صخر ساطع الألوان تعرف باسم « أم البيارة » حيث تعكس لعين الناظر طبقات الحجر الرملى المتعدد الألوان بكل ما فيها من ألوان قوس قزح . ومن المؤكد أن المدينة ازدهرت ازدهارا كبيرا منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ولمدة أربعة قرون (أى حتى مطلع القرن الثانى بعد الميلاد) وذلك لأنها كانت تشغل مركزا هاما وحيويا على طريق القوافل الذى يصل بين الساحل الجنوبى لشبه الجزيرة ، وثغور البحر المتوسط . ولقد بلغت البتراء قمة ازدهارها ومجدها ابان القرن الأول الميلادى عندما امتد إليها نفوذ الرومان فشمل هذه الأمة العربية القديمة حيث جعلوها حصنا شرقيا يذود عن تخوم حدود أمبراطوريتهم ضد البارثيين والفرس ، وبذلك اكتسبت مجدا وشهرة وثروة ، حيث كانت مركزا تجاريا حيويا تكثر فيه المياه الجوفية والمراعى مما جعلها محطا للقوافل التجارية ، ولذلك فقد قامت علاقة تجارية وثيقة بين العرب السبئيين الجنوبيين وبين الأنباط ، الذين كانوا يقومون بتوزيع التجارة العربية على البلدان المختلفة فى الشرق الأدنى ؛ ولقد وصف الجغرافيون المسلمون مثل : المقدسى والأصطخرى وياقوت الحموى آثار البتراء خاصة الأثر الضخم الذى يعرف اليوم باسم الخزنة ، وهو مبنى على نظام واجهات المعابد الأغريقية ، وكانت الخزنة على مايبدو معبدا . فقد كانت البتراء مركزا دينيا يقصده الحجاج للتعبد لربهم الأكبر ذوشرى Dusares ، الذى كان معادلا لرب الخمر عند الأغريق ديونيسوس (باخوس عند الرومان) . وكان تمثال ذو الشرى عبارة عن حجر أسود مستطيل الشكل ، أما الربة الكبرى عندهم فقد كانت اللات التى جاءت من

جنوب الجزيرة مع التجار ، وقد قارن هيرودوت بين اللات العربية الشمالية وربة الجمال الأغريقية افروديت(١) وسماها أفروديت السماوية . ولقد ثبت من النقوش أن الأنباط كانوا يتكلمون لغة قريبة من العربية بالرغم من أنه لم يكن للغة العربية الشمالية فى ذلك الوقت أبجدية ثابتة ، ولذلك استعار الأنباط الحروف الآرامية لكتابة لغتهم ، ولقد أشار ديودوروس الصقلى الى رسالة تسلمها أنتيجونوس من الأنباط مكتوبة بالحروف الآراميه(٢) ، لكن منذ القرن الثالث الميلادى تطور الخط النبطى حتى أصبح الخط المألوف فى لغة العرب الحديثة .

ومن الجدير بالذكر أن أقدم النقوش العربية المطورة من الخط النبطى نقش النمارة الواقعة فى شرق حوران والذى يرجع الى عام ٣٢٨ ميلادية الذى وجد على شاهد قبر أمرىء القيس بن عمرو أحد ملوك الحيرة . وعموما فأن الخط النبطى قريب الشبه من الخط الكوفى القديم .

ولقد برز الأنباط كأمة خلال الصراع الذى دار بين خلفاء الاسكندر حول تقسيم امبراطوريته أى مع مطلع العصر الهللينستى ؛ ولقد ذكرنا من قبل محاولة نتيجونوس الفاشلة فى إخضاع الأنباط عام ٣١٢ ق.م ، ثم محاولة أخرى قام بها ابنه دمتريوس الشهير باسم محاصر المدن وانتهت هذه المحاولة أيضاً بالفشل ، وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الطرفين والذى تحول الى تحالف قوى بين السليوقيين والأنباط فيما بعد . ولقد تنامت أهمية الأنباط وعاصمتهم البتراء كمركز تجارى تلتقى عنده قوافل التجارة البرية القادمة من بابل والخليج شرقا ومن اليمن جنوبا ، ومن مصر غربا ، وبلاد الشام شمالا . ومن ثم فقد أثروا ثراء فاحشا من التجارة ، بل حاولوا السيطرة على تجارة البحر

---

(1) Herodotus, Book III, 8 (Translated by : G. Rawlinson in : "Great Books of The Western World", No. 6, P. 90.
وكذلك أنظر ، دتيلف نيلسون وأخرون : تاريخ العربى القديم ترجمة فؤاد حسين ، على القاهرة ١٩٥٨ ص ١٧٨ .

(2) (Diodorus Siculus, XIX, 94-100è ef E Schwartz, RE, Sub. Diodorus

الأحمر بتوطيد علاقاتهم مع السبئيين فى الجنوب ؛ ولما حاول بطالمة مصر خاصة بطليموس الثانى منافستهم فى هذا المجال ، وظهر الأسطول المصرى فى البحر الأحمر ، وأقاموا موانىء على ساحل الجزيرة العربية الغربى وعلى ساحل مصر على البحر الأحمر ، الحق ذلك خسارة كبيرة بتجارة السبئيين والأنباط ، بل أن البعض يقولون أن ذلك قد تسبب فى سقوط الدولة السبئية فى الجنوب وانفصال سبأ الحجاز عنها ، وقد شرحنا كيف أن البطالمة أقاموا علاقات وثيقة مع مدن الحجاز الشمالية خاصة ديدان (العلا) ومينائها الحجر ، وردا على ذلك دعم الأنباط من علاقاتهم مع السليوقيين الأعداء التقليديين البطالمة ، بل قاموا بمساعدتهم بأعمال القرصنة ضد السفن المصرية مما دفع ببطلموس الثانى الى القيام ضدهم بحملة بحرية سيطر بعدها على خليج العقبة وحاصر ميناء الأنباط الشمالى ايلانا Aelana (ايلات) ولعب الأنباط دورا هاما خلال الصراع بين البطالمة والسليوقيين حول جنوب سوريا حتى طرد البطالمة منها بعد معركة بانيون الشهيرة حوالى عام ٢٠٠ ق.م ، بعدها بدأ المد البطلمى فى الانحسار فى شرق البحر الأحمر ، ومن ثم إنتهز الأنباط الفرصة ليمدوا نفوذهم على طول ساحل الحجاز حتى وصلوا الى ميناء الحوراء (ليوكى كومى Leuke Kome أى القرية البيضاء) وجعلوه ميناءهم الرئيسى

ولما بدأ الضعف يدب فى أوصال الامبراطورية السليوقية ، وواجهت هذه الدولة عددا من الثورات القومية ، حاول الأنباط انتهاز الفرصة والاستفادة من تلك الدولة المتداعية ، التى كانوا حلفاء لها من قبل ، فقام ملك الأنباط اريتاس الأول Aretas (الحارث ١٦٩—١٤٦ ق.م) بمعاونة اليهود المكابيين ضد الامبراطورية السليوقية ، وذلك عندما تزعم يهوذا المكابى عام ١٦٨ ق.م الثورة ضد السليوقيين ، وبالفعل حصل الأنباط على ما كانوا يريدونه عندما انكمشت الإمبراطورية السليوقية ، حتى أصبحت لا تزيد عن ولاية أنطاكية وما حولها ؛ وتوسعت مملكة الأنباط حتى أصبحت تمتد من ميناء الحوراء حتى دمشق شمالا . ويعتبر الحارث الثالث (٨٧—٦٢ ق . م) من أقوى ملوك الأنباط وأ كثرهم شهرة ، لأنه قام بتوسيع المملكة على حساب السليوقيين

واليهود المكابيين فى آن واحد؛ وهو أول من أقام الصداقة مع الرومان ، ومهد لهم للدخول الشرق الأدنى كقوة كبرى يستفيد من وجودها . وفى عهد هذا الملك هزم الأنباط أعداءهم السليوقيين فى معركة عنيفة عند قرية كانا Cana الواقعة على ساحل يافا ؛ وفيها لقى الملك السليوقى أنطيوخوس الثامن مصرعه ؛ وواصلت قوات الحارث تقدمها حتى دخل دمشق ، واحتل سهل البقاع وذلك فى عام ٨٥ ق . م ، ثم استدار الحارث بعد ذلك لتأديب مملكة اليهود المكابيين المتدهورة ، وراح يتدخل فى شئونها ؛ ودخل معها فى معركة عند قرية الحديثة بالقرب من اللد ؛ ولقى اليهود المكابيين فيها هزيمة ساحقة ؛ وأملى بعدها الحارث الثالث شروطه عليهم . وفى عهده أيضاً وصلت القوات الرومانية بقيادة بومبى إلى سوريا عام ٦٤ ق . م ، وساعدهم فى إسقاط الدولة السليوقية ؛ وقد حفظ الرومان ذلك الجميل للأنباط ؛ فجعلوها مملكة صديقة تقوم بدور الدفاع عن حدود الامبراطورية الشرقية ضد خطر البارثيين .

وقد سار على نهج سياسة الحارث الثالث إبنه وخليفته عبادة الثانى Obadas (٦٢–٤٧ ق . م) ، وهو الذى ساعد الرومان فى عصر يوليوس قيصر على تدعيم نفوذهم فى الشرق الأدنى على أمل إسقاط دولة البطالمة التى كانت تترنح وآيلة للسقوط . فعندما حوصر يوليوس قيصر فى الإسكندرية عام ٤٧ ق . م ، سارع ملك الأنباط مالك الأول Malichos ٤٧–٣ ق . م) لنجدته بإرسال فرقة من الفرسان إلى الإسكندرية انقذت يوليوس قيصر من موت محقق ، ومكنته من هزيمة جيوش بطليموس الثالث عشر ؛ ورغم امتنان الرومان لتلك المساعدة ، إلا أنهم لم يحققوا لهم حلمهم فى إسقاط دولة البطالمة فى مصر ؛ وذلك بسبب العلاقة الخاصة التى قامت بين الدكتاتور الرومانى وبين الملكة المصرية كليوباترا آخر سلالة البطالمة . وفى عهد مالك الأول أيضاً ، قام الأنباط بمساعدة أنطونيوس فى إسقاط دولة المكابيين ، وتعيين ملك عميل للرومان هو هيرودوس الأكبر ؛ الذى ولد فى عهده السيد المسيح . وأخيراً تحقق حلم الأنباط فى إسقاط مملكة

البطالمة عندما دب الصراع بين أنطونيوس وكليوباترا السابعة من ناحية ؛ وبين اكتافيوس الوريث الجديد للامبراطورية الرومانية من ناحية أخرى . وهنا استغل الأنباط الفرصة ، فانقلبوا على حليفهم القديم أنطونيوس ، وساعدوا اكتافيوس فى دخول مصر عام ٣٠ ق . م ، وإسقاط مملكة البطالمة؛ فقد قام الأنباط بالوصول إلى ميناء كليوباتريس عند خليج السويس ، حيث أضرموا النيران فى الأسطول البطلمى الذى كان قد لجأ إلى هذا الميناء بعد انسحابه سالماً من اكتيوم عام ٣١ ق . م وبذلك ضاع آخر أمل للملكة المصرية كليوباترا فى الهروب بأسطولها إلى الجنوب وتولى حرب المقاومة ضد الرومان .

* * *

أهم مراجع الفصل السابع

1.—British Museum Catalogue of Coins, Sub. Seleucid Kings of Syria

2.—G. Dawney : Ancient Antioch, New Jersey, 1963.

3.—G. Harper: A Study in The Commercial Relations between Egypt and Syria in the 3rd Century B.C., American Journal of Philology, Vol. 49 (1928).

4.—Doro Levi : Antioch : Mosaic Pavement, Princeton, 1947.

5.—C. R. Morey : The Mosaic of Antioch, New Yoik, 1938.

6.—E. T. Morley: The Coinage of Western Seleucid Mint, New York 1941.

7.—E. Newell : Seleucid Mint of Antioch, New York, 1918.

8.—M. Rostovtzeff ; "Foreign Commerce of Ptolemaic Egypt" Journal of Economic & Business History, Vol. IV (1932, P. 780 ff.

— — — : Caravan Cities, Oxford, The Clarendon Press, 1922.

9. — — — : "Les Inscriptions Caravaniere de Palmy-e", Paris, Melange Glotz, Paris 1932.

10.—H. Seyring : Antiquites Syriennes, (Syria, Vol. VIII (1932).

11.—A. Sprenger : Die Post und Reiserouten des Orient, Leipzig, 1864.

12.—E. Stein : "Hatara Trade Route", Journal of Royal Asiatic Society 1941.

13.—G. Tchalenko : Villages Antique de la Syrie du Nord, 2 Vols. (Paris 1953).

الفصل الثامن

بـلاد الرافدين والخليج العربى في العصر الهللينستى

اهمية المصادر الأثرية لدراسة هذه الفترة :

بهزيمة الإسكندر المقدونى للفرس عام ٣٣٠ ق . م ، أصبح الشرق الأدنى من النيل إلى الفرات إغريقياً ، وعندما قامت الدولة السليوقية الأغريقية — بعد موت الإسكندر — فى الشام والرافدين ، بدأت عملية التقاء الحضارات العريقة فى هذة المنطقة مع الحضارة الأغريقية الوافدة فى تفاعل مذهل جدير بالدراسة والتحليل . فلقد أصبحت بلاد الرافدين نظراً لأهميتها التجارية والحضارية إحدى الدعائم الأساسية التى تقوم عليها الامبراطورية السليوقية ، وانتشرت اللغة الأغريقية جنباً إلى جنب مع اللغات القومية لبلدان الشرق الأدنى ، ولدينا وثائق مكتوبة بالخط المسمارى كثيرة ومتنوعة ، وتمدنا بمعلومات دقيقة عن سكان بلاد الرافدين والخليج العربى خلال تلك الفترة لا يضاريها فى الكثرة والتنوع سوى أوراق البردى المصرية .

فلقد أقبل طالبو العلم والمعرفة من الأغريق لينهلوا من ينابيع الحضارة البابلية فى العصر الهللينستى ، وبلوروا ما استوعبوه فى نظريات علمية صاغوها بالشكل المنطقى وقدموها للبشرية ، ومن ثم فإنه من العدل أن نقول أن علماء بابل قد ساهموا فى صياغة النظريات التى يقوم عليها العلم والحضارة فى العصر الهللينستى والتى هى الجذور الأولى للعلم الحديث .

ولقد بدأت اللغة الأكادية تتراجع فى انحسار إبان القرون الأخيرة قبل مولد المسيح عليه السلام ، بينما بدأت اللغة الآرامية تنتشر بشكل مذهل كلغة

يومية لشعوب الرافدين جنباً إلى جنب مع اللغة الأغريقية . وكانت اللغة الأخيرة لغة الحكم السليوقى وأجهزته الإدارية والعسكرية ، وبعكس الحال فى الوثائق المسمارية لا نجد الوثائق الآرامية والأغريقية من ذلك العصر مكتوبة على ألواح من الطين قبل حرقه ، بل نجدها تكتب على أوراق البردى والرق . وللأسف لم يصمد ورق البردى ولا الرق لرطوبة مناخ العراق القديم فهلك جزء كبير منها ، وبذلك حرمنا من فيض من المعلومات المدونة فى هذه الوثائق . فمن مدينة دورا — يوروبوس Dura-Europus الكبيرة والحصن القوى للحضارة الأغريقية فى وسط الفرات لم يأت لنا سوى وثيقة واحدة مكتوبة على الرق ، بينما لم تقدم لنا مدينة سليوقية نهر دجلة Seleucia Para Tigridi أضخم المدن الأغريقية فى الشرق ، والتى بلغ عدد سكانها يوماً ما ستمائة ألف نسمة — لم تقدم لنا سوى بعض الشذرات المدون عليها بعض الكتابات التى ليست بذات قيمة تاريخية كبيرة . وعلى أى حال يكفى أن نعرف أنه كانت هناك وثائق كثيرة من العصر الهلينستى ، ولكنها هلكت قبل أن تصل إلى أيدينا بفعل رطوبة المناخ والتربة . ويشهد على ذلك عثورنا على كميات من الأختام المسطحة التى كانت تمهر بها وثائق الرق والبردى وعثورنا كذلك على حافظات للأوراق مصنوعة من الطين المحروق Bullae كانت الوثائق والرسائل تحفظ بداخلها . ولدهشة علماء الآثار فإن عدداً قليلا من النقوش الأغريقية قاوم عوامل التحلل والرطوبة ووصل إلى أيادى العلماء . ورغم قلة هذه النقوش ، إلا أنها تشهد بانتشار الحضارة والثقافة الأغريقية فى بلاد الرافدين .

وإلى جانب عوامل الرطوبة والمناخ ، هناك عامل آخر مسئول عنه الإنسان وليس الطبيعة — هذا العامل هو الحروب الكثيرة التى جلبت الدمار إلى المنطقة . فقد قاد السليوقيون جيوشهم عدة مرات لصد تجاوزات المغيرين من البارثيين على المنطقة . والذين استغلوا تدهور الدولة السليوقية وترنحها ، كما شهدت هذه المنطقة المعارك الطاحنة التى دارت بين البارثيين والرومان ،

ثم بين الروم والساسانيين والتي كانت ساحتها بلاد الرافدين والتي تسببت في دمار المدن الأغريقية والحواضر البابلية العريقة . كما أن اختفاء الآثار الهللينستية يرجع أيضاً إلى حركة العمران الروماني النشطة في بلاد الرافدين بعد وصولهم إليها حتى تثبت روما مخالبها على شواطئ الفرات ؛ كما أن الفرس بتعصبهم الأعمى مسئولين عن تدمير الوثائق الأثرية فقد قاد ملوك أسرة أرساكيس Arsaces حملة شرسة لمحو كل أثر للحضارة الهللينستية، وإحلال الحضارة الفارسية محلها إبان احتلالها للنصف الشرقي لبلاد الرافدين الذي ظل جاثماً على صدر البلاد حتى طردهم منها العرب المسلمون .

كذلك فإن قلة الوعي بأهمية الوثائق الأغريقية ، والإهمال في جمعها وتصنيفها ، وغياب التنقيب العلمي عن الآثار لوقت طويل ، لم يبق على الطبقة الهللينستية كطبقة من طبقات التنقيب المتميزة بحيث يمكن فصل معثوراتها على حدة ثم دراستها بشكل مفصل . كذلك لا يمكن أن نسقط من حسابنا إحساسنا القومي كعرب بعدم قيمة وثائق العصر الهللينستي لأنها ترمز إلى عصور الاحتلال لبلادنا . هذا الإحساس كان يحس به علماء الآثار الوطنيون حتى وقت قريب . ويستثنى من ذلك التنقيبات الأثرية التي أجريت في مدينة أوروك — القديمة — والتي اتبعت منهجاً علمياً أمكن بفضلة تصنيف المعثورات في تسلسل زمني متتابع بلغ ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الحضاري المستمر . وبالمثل يمكن إعادة التنقيب في بابل مرة أخرى مع الاهتمام بطبقات العصور المتأخرة من تاريخ المدينة ، وللأسف فإن هذه العصور المتأخرة لا تثير شهية الأثريين المتخصصين في تاريخ بلاد الرافدين بقدر ما تثيرهم حضارة بابل في العصور المبكرة عندما كانت هذه المدينة أعظم حاضرة في المشرق بأسره ، وقد عانينا نحن في مصر من شعور مماثل عندما كان المنقبون المسحورون بالحضارة الفرعونية يحطمون الآثار الأغريقية والرومانية لاعنين عصور الاستعمار الأجنبي البغيض .

وبالطبع فإن قوة الدفع للحضارة الهلينستيةمن خلال المدن والحواضر القليلة التى بنيت فى بلاد الرافدين وشمال الخليج ، وسط بحر من الحضارة البابلية القومية لا يمكن أبداً أن تقاس بنفس المقياس الذى نقيس به عمق الحضارة البابلية والآرامية فى موطنها ، إذ لم يستطع المستوطنون الأغريق فى المدن الجديدة التى أقاموها فى بلاد الرافدين أن يحققوا درجة من العمران والحضارة يدانى الحضارات القومية العريقة . ولنضرب مثلا على ذلك . فقد أعاد السليوقيون والمستوطنون الأغريق بناء مدينة سوسه Susa العتيقة على الذوق العمرانى الأغريقى ، وأعطى للمدينة بعد إعادة بنائها لفظ Polis أى مدينة بالمفهوم الأغريقى ، وذلك بعد تغيير إسمها الشرقى القديم إلى اسم إغريقى جديد هو سيلوقية نهر يولايوس Seleucia Para tou Eulaiou غير أن حجم هذه المدينة الأغريقية الجديدة كان صغيراً إذا ماقورن بحجم المدينة خلال تاريخها العريق .

ولقد بذل علماء الآثار الكثير من الجهد المال عندما نقبوا فى موقع مدينة دورا — يوروبوس من أجل الكشف عن جوانب الامتزاج بين الحضارتين البابلية والأغريقية ، غير أن آمالهم وأحلامهم لم تتحقق فمنذ القرن الثانى قبل الميلاد — لم تعد دورا — يوروبوس — كما أراد لها مؤسسوها — حصناً منيعاً للحضارة الأغريقية ومنارة لها فى بلاد الرافدين ، فقد اجتاحها إعصار الحضارة القومية ، ويشهد على ذلك انحسار الوثائق الأغريقية أمام الوثائق المكتوبة بالآرامية ، يواكب ذلك ظاهرة تراجع الآلهة الأغريقية أمام تقدم زحف آلهة الشرق المنتصرة ذات الأصل السامى . ولهذا فإن بعض مؤرخى العصر الهلينستى يسخرون من أحلام الأغريق فى أن يؤغرقوا الشرق ، ويصفون محاولاتهم بأنها تجربة فاشلة للغزو الثقافى الأغريقى لحضارات الشرق العريق . فى حين يرد المؤرخون المتعاطفون مع الغزو الثقافى الأغريقى للشرق بأن المقدونيين والأغريق الذين استوطنوا دورا — يوروبوس تمسكوا لآخر رمق بنظرية المحافظة على الدماء الأغريقية والمقدونية وقاوموا بشراسة

فكرة الامتزاج العرقى والحضارى مع الشرقيين ، كما أن الظروف لم تكن فى صالح المستوطنين الأغريق ، فقد جندوا كل طاقاتهم وقدراتهم للدفاع عن دورا - يوروبوس ضد الغزو البارثى المتربص بهذه الحاضرة . وقد تسبب ذلك فى أن دور المدينة الثقافى بدأ يخبو رويدا رويداً حتى توقف عن رسالته ، بالإضافة إلى ذلك فإن وقوع دورا - يوروبوس على حافة حدود الحضارات ، وعند الخط الفاصل بين عالم الفرس ، وحضارات العرب القدماء ، وحضارة الشرق الأغريقى الرومانى ، جعلها تداس تحت أقدام الجيوش المتحاربة إبان الصراع الفارسى الروى على بلاد المشرق قبيل نهضة العرب تحت لواء الإسلام .

وفى ضوء هذا الواقع ، فإنه ليس لدينا سوى البحث عن الوثائق والآثار واستخدام ما هو موجود بمهارة فائقة ، وتحليل علمى دقيق ، كما أن احتمال العثور على وثائق بابلية من العصر الهللينستى لا يزال قائماً ، سواء فى المتاحف أو من خلال التنقيبات الأثرية. فحتى عهد قريب كان المتخصصون فى تاريخ هذه الفترة يعتقدون ان آخر وثيقة مكتوبة بالخط المسمارى ترجع إلى العام السابع قبل الميلاد . ولكن تبين فيما بعد ان هناك وثيقة خاصة بمعلومات حول علم الفلك مكتوبة بالخط المسمارى وترجع إلى العام الخامس والسبعين بعد الميلاد .

إنه ليس من العدل أن نقارن وثائق العصر الهللينستى فى بلاد الرافدين والخليج والتى لا تربو عن مائة وخمسين وثيقة ، بالكم الضخم من الوثائق الذى يزيد على سبعة آلاف وثيقة والتى ترجع إلى العصر البابلى والكلدانى . ومن يدرى فلربما يتضاعف عدد الوثائق السليوقية الهللينستية لو أعدنا فحص الوثائق القائمة بدقة والموجودة فى متاحف العراق والعالم الأوروبى . وفى أثناء فحصنا لوثائق بلاد الرافدين سوف نرصد عملية الانحسار التدريجى للوثائق المكتوبة بالخط المسمارى من أجل إفساح الطريق للوثائق المكتوبة بالخط الآرامى ، فلقد نجحت اللغة والكتابة الآرامية فى تحقيق انتشار مذهل فى بلاد الرافدين

والشام ، وأصبحت الآرامية لغة التعامل اليومى بين الناس ولغة الحوار الفكرى والأدبى ، وهناك مالا يقل عن ألف وستمائة وثمان وأربعين (١٦٤٨) نصاً آرامياً من العصر السليوقى كلها تدور حول موضوعات فى علم الفلك ، إلى جانب ذلك هناك المئات من النصوص الدينية والأدبية الآرامية من نفس الفترة . ونخرج من هذا كله أنه يوجد فى متاحف العراق ومتاحف العالم نصوصاً منسية ومطمورة ، والتى إذا ما قرئت ونشرت فأن الكثير عن معلوماتنا عن الفترة الهللينستية من تاريخ الرافدين والخليج سوف تتغير .

ولقد بذل المتخصصون على مدى ما يقرب من سبعين عاماً مجهودات جبارة وخارقة ،وعكفوا على الكشف عن أسرار علم الفلك عند الكلدانيين ، فلقد كانت العلوم عند الكلدانيين تتميز بشخصيتها المتميزة ، القائمة على أسرار حسابية وفلكية لن يسبر غورها إلا بالجهد الجهيد والمجهود العسير ، وذلك عن طريق العمل الدءوب من أجل نشر النصوص العلمية الكلدانية ، سواء تلك التى تدور حول علم الفلك أو حول الموضوعات الرياضية والحسابية . ولقد أصبح الآن معروفاً أن اللغة الكلدانية لم تمت تماماً فى العصور المتأخرة لتاريخ بلاد الرافدين بل بقيت جذوتها مستعرة تحت الرماد،ولكن فى حيز ضيق ، فقد كانت لغة الأقلية النادرة من العلماء الذين يشتغلون بالبحث العلمى وكذلك لغة فقهاء القانون ، كما استخدمت أحياناً فى التخاطب كما يتضح من عملية التبسيط فى تركيبات جملها وفى حروفها ، وبصراحة لا أحد يعرف إلى أين سوف يقودنا علم الآثار فى الكشف عن حضارة بلاد الرافدين فى العصر الهللينستى .

لقد كشفت الوثائق المسمارية من العصر الهللينستى عن معلومات مثيرة وشيقة صححت تواريخ تقليدية ظل المؤرخون يرددونها لوقت طويل ، فى عام ١٩٢٤ نشر فى الحولية البابلية Babylonian chronicle وثيقة مسمارية ترجع إلى عهد ورثة الإسكندر الأكبر Diadochi ، وعند قراءتها

فوجئ المتخصصون فى تاريخ العصر الهللينستى بمعلومات لم تكن تخطر على بال أحد . فالمؤرخون الأغريق من العصر الهللينستى لم يذكروا شيئاً عن نشاط أنتيجونوس الأعور وسليوقوس الكبير بعد عام ٣١٢ ق . م لكن هذه الوثيقة المسمارية التى نشرت فى ذلك العدد من الحولية البابلية كشفت لنا كيف مزقت حروب الورثة الشرق الأدنى بأكمله خلال الفترة من ٣١٠ إلى ٣٠٧ ق . م . فعندما أطبق أعداء أنتيجونوس عليه من كل ناحية فى منطقة بحر إيجه بهدف تصفيته ، حاول أن يهرب من هذا الحصار بالذهاب إلى الشرق الأدنى بهدف جعله قاعدة له ، ولكى يستأثر بمصادره الطبيعية والبشرية لنفسه ، حتى يتمكن من تجنيد الجيوش من المرتزقة وشن الحرب ضد منافسيه فى البحر المتوسط . وفى ضوء هذه الوثيقة البابلية غير علماء تاريخ العصر الهللينستى تواريخهم التقليدية لأحداث ذلك العصر . فلقد وضحت هذه الوثيقة بدقة أحداث الفترة ما بين عام ٢٨١—٢٧٩ ق . م فمثلا حددت لنا بالضبط تاريخ وفاة سليوقوس الكبير بأنه ما بين ٢٥ أغسطس (آب) و ٢٤ سبتمبر (أيلول) من عام ٢٨١ ق . م ، وليس فى ديسمبر (كانون أول) عام ٢٨١ ق . م . ، كما اعتاد المؤرخون أن يذكروا فى كتب التاريخ قبل اكتشاف هذه الوثيقة .

على أى حال ، فإن فترة العصر الهللينستى فى بلاد الرافدين تقدم لنا صورة حية ومتنوعة من المعلومات إذا ما قورنت برتابة معلومات العصور العتيقة عندما كانت حضارات العراق القديمة تفرض سيادتها وثقلها السياسى والعسكرى والحضارى، ولكى نثبت حيوية النشاط الحضارى الهلينستى فى العراق علينا بذل المزيد من الجهد فى البحث والتنقيب ، فبفضل البحث الدءوب نجح الباحثون فى تحطيم الصورة التقليدية التى رسمها المؤرخون التقليديون للحضارة البابلية بأنها حضارة تحكمها الأسرار ، وأن المعرفة فيها طلسم لا يعرف سره إلا البابليون القدماء أنفسهم ، وفتح البحاثة الجدد ثغرة فى هذه العوازل التقليدية للوصول إلى أعماق الحضارة البابلية . ولهذا علينا ألا نصدق القول

الخاطئ بأن حضارة بابل تلاشت فجأة ، وان عدد المستوطنين الأغريق والمقدونيين لم يكن كافياً لدرجة إحداث تغيير حضارى فى بلاد الرافدين ، وذلك فى ضوء الدليل الخادع بأن كمية النقوش المكتوبة بالأغريقية التى عثر عليها لا تزال حتى الآن كمية ضئيلة . ومن ثم ليس أمامنا سوى بذل الكثير من الجهد من أجل البحث عن المزيد من الوثائق والنقوش لأن ذلك هو السبيل الوحيد لتحديد دور المدن الأغريقية ورسالتها الحضارية فى بلاد النهرين فى العصر الهللينستى ، خاصة فى أقليم بابل العريق الذى أولاه الإسكندر عناية خاصة ، وقد حافظ على هذه العناية والتقدير ملوك الأسرة السليوقية طوال العصر الهللينستى .

الصراع على امتلاك بلاد الرافدين بين ورثة الإسكندر :

كانت نظرة الأغريق إلى الثقافة والديانة البابلية نظرة إنسانية سامية بعكس نظرة الفرس البربرية إلى هذا الإقليم المقدس ، خاصة خلال عصر الأسرة الأخمينية القاسية ، فقد كانت نظرة الملوك السليوقيين مماثلة لنظرة الإسكندر المقدونى الذى أراد لمدينة بابل المقدسة أن تكون عاصمة لامبراطوريته المقدونية بشقيها الشرقى والغربى . فقد أمر الإسكندر بعد دخوله مدينة بابل بإعادة بناء معبد مردوخ عام ٣٣١ ق . م وتعمير المدينة من جديد بعدما كان الفرس قد دمروها بقيادة ملكهم خشيا رشاى Xerxes عندما ثارت عليه ما بين أعوام ٤٨٠–٤٧٦ ق . م وقبل أن يصل الإسكندر إلى بابل عائداً من الهند ، أرسل أمير البحر نيارخوس برفقة أسطول كبير ، من نهر السند إلى شمال الخليج العربى ليتعرف على الطريق البحرى ، خاصة أن دارا ملك الفرس كان قد أرسل فى عام ٥١٠ ق . م بحارا يونانياً اسمه سكيلاكس ليكتشف الطريق من مصب نهر السند فالخليج العربى دائراً حول الجزيرة العربية حتى خليج السويس . ووصل أميرال الإسكندر نيارخوس إلى موانئ شمال الخليج بعد إبحار مائة وست وأربعين يوماً وذلك فى عام ٣٢٥ ق . م ، ودون أخبار

رحلته التى نقلها لنا المؤرخ أريان Arrianos ولم يكتف الإسكندر بذلك بل بعث بثلاث رحلات أخرى من جنوب بلاد الرافدين للتعرف على الشواطئ الغربية للخليج العربى ، فوصلت أولها إلى البحرين دلمون Delmon؛ والثانية يبدو أنها وصلت إلى منطقة أبوظبى ، والثالثة فيبدو أنها بلغت الأجزاء الشمالية من عمان . ولقد كانت هذه الاكتشافات جزءاً من أحلام الإسكندر . غير أن أحلام الفاتح المقدونى ذهبت مع الريح عندما شب القتال الشرس بعد موته فى بابل بين ورثته لتقسيم الامبراطورية ، وسحقت الجيوش المتصارعة اقليم بابل، إلى أن عقد صلح تريباراديسوس Treparadeisos بين المتحاربين فى الشام عام ٣٢١ ق. م ، وبمقتضى ذلك الصلح ، أصبح سليوقوس سترابا على أقليم بابل بحيث يكون خاضعاً لسيده أنتيجونوس الأعور ، قائد الجيوش المقدونية فى قارة آسيا . وكان أول تكليف صدر من أنتيجونوس إلى عامله سليوقوس فى بابل هو طرد يومينيس الكاردى Eumenes Cardianus الذى كان يحارب باسم أسرة الاسكندر ودفاعاً عن حقوقها ضد الطامعين فى الامبراطورية المقدونية من قادتها ، وكان يومينيس الكاردى عاملا بوصية الاسكندر قد استولى على اقليم بابل عام ٣١٨ ق . م لجعله قلب الامبراطورية المقدونية بعد استعادتها لأسرة الراحل المقدونى . غير أن سليوقوس هاجم بابل وسحق جيوش يومينيس فى موقعة جادامارجا ، وقتله عام ٣١٦ ق . م وعندما عاد أنتيجونوس من حملاته ليلتقى بعامله سليوقوس فى بابل دب بينهما خلاف انتهى بهروب سليوقوس الى بلاط بطليموس ملك مصر فى الإسكندرية، وكان هذا الأخير من ألد أعداء أنتيجونوس . ويبدو أن تزايد نفوذ سليوقوس فى بابل هو الذى أزعج سيده أنتيجونوس . ولكى يزيد أنتيجونوس من غيظ عامله اللاجئ لبلاط الإسكندرية نهب بابل ودمر كافة إصلاحات الإسكندر فيها ، ثم عين عليها والياً جديداً اسمه بيثون بن اجينور Peithon Son of Agenor ولم يتحمل سليوقوس لدى سماعه خبر تخريب بابل البلد العزيز على قلبه ، فصمم على تحريرها . ولم يجد أمامه سوى

بطليموس الأول فى مصر فراح يحرضه ضد أنتيجونوس وتوجيه ضربة قاضية له ، وبالفعل نجح بطليموس فى توجيه ضربة موجعة ضد خصمه أنتيجونوس بالقرب من غزة على حدود مصر عام ٣١٢ ق . م .

ولم يكتف بطليموس بذلك . بل قدم لسليوقوس الذى كان يحتفظ به لمثل ذلك اليوم قوة تتكون من ألف رجل مسلح ، وتمكن سليوقوس بفضل هذه القوة أن يفتح بابل ويستعيد سترابيته المفقودة . ولم يكتف سليوقوس بذلك ، بل سار نحو الشرق غازياً ليقيم امبراطورية هللينستية فى الشرق الأدنى تكون عاصمتها بابل . وعندما عقد الفرقاء اتفاقاً عام ٣١١ ق . م أصر أنتيجونوس على استبعاد سليوقوس من هذا الاتفاق لأنه لم يشأ أن يدعه يقيم امبراطورية لنفسه على حساب ممتلكات أنتيجونوس فى الشرق . فقد كان يعرف جيداً أن عامله السابق رجل طموح ، ولهذا استأنف ضده القتال عام ٣١١ ق . م وأرسل ابنه ديمتريوس Demetrios الشهير « بمحاصر المدن » Poliorketes ليضرب الحصار حول بابل مما أدى إلى انتشار وباء الطاعون فيها ، وشهدت الفترة ما بين أعوام ٣١٠–٣٠٧ ق . م حروباً شرسة بين الخصمين اللدودين كان ساحتها بلاد النهرين ، غير أن هذه الحروب ثبت عدم جدواها ، إذ لم يستطع أنتيجونوس وابنه ديمتريوس — بكل ما أوتيا من قوة — أن يخلعا سليوقوس من بابل ، فقد تشبث بها تشبثاً مميتاً . إما أن يكون أو لا يكون . ولم يجد المتصارعون بداً من عقد صلح آخر عام ٣٠٧ ق . م ضمن بين مواده الاعتراف بسليوقوس والياً على بابل ، لكن انتيجونوس لم ينس بابل ، فعاود هجومه الأخير عليها عام ٣٠٣ ق . م وصمد سليوقوس أمام هذا الهجوم حتى أرهق المهاجمين تماماً ، ولم يحقق أنتيجونوس وجنوده خلال هذه الحملة سوى الاستيلاء لبعض الوقت على المدينةوإحداث تخريب كبير فيها وذلك فى صيف عام ٣٠٢ ق . م ، قبل أن يستردها سليوقوس مرة أخرى ، وفى ربيع عام ٣٠١ ق . م ، تقدم سليوقوس من بابل يقود

قوة من الأفيال قوامها خمسمائة فيل هندى مدرب لينضم إلى قوات حلفائه التى حاصرت انتيجونوس وابنه عند مدينة ابسوس فى آسيا الصغرى ، وانتهت المعركة بمقتل انتيجونوس وفرار إبنه. وقسم الحلفاء المنتصرون أملاك انتيجونوس وكان النصيب الأكبر لسليوقوس . فبالإضافة إلى اقليم بابل ، ضمت إليه الشام وأرمينيا وقبادوقيا Cappadocia فى آسيا الصغرى . وبذلك أصبحت مملكة سليوقوس تمتد من الشام غرباً حتى تخوم الهند شرقاً، وكانت بابل تمثل قلب تلك الامبراطورية الهللينستية وعاصمتها المقدسة .

هكذا انقشع غبار معارك الورثة ليتفتق عن مولد الممالك الهللينستية الكبرى الثلاث ، السليوقية فى بلاد النهرين والشام وارمينيا ، والبطلمية فى مصر وجنوب الشام ، والمقدونية فى مقدونيا وبلاد اليونان ، وتخلص المنتصرون من لقب الوالى أو الستراب وحمل كل منهم لقب الملك Basileus ، لكن سليوقوس عندما كتب تاريخ مملكته بدأه بعام ٣١٢ ق . م وهو عام دخوله بابل وتحريرها بعد هزيمة أنتيجونوس فى غزة . واعتبر أول أيام شهر ديوس بالتقويم المقدونى (وهو يعادل تشرين الأول بالتقويم السوريانى أو شهر أكتوبر بالتقويم الجريجورى) هو بداية تأسيس مملكته ، هذا بحساب التقويم المقدونى الغربى ،لكن بالنسبة لحساب التقويم الشرقى فإن تاريخ قيام المملكة السليوقية هو الأول من شهر نيسان (مارس — ابريل) عام ٣١١ ق . م .

الاوضاع فى بلاد الرافدين والخليج فى العصر الهللينسى :

١ — النظام الإدارى وبناء المدن الدفاعية :

وبالرغم من الإعزاز الخاص والاعتبار العاطفى والتاريخى الذى أولاه الملك سليوقوس لمدينة بابل ، ورغبته فى ان تكون هذه المدينة المقدسة هى عاصمة الامبراطورية ، إلا أنه عدل عن هذه الرغبة عندما وجد أن المعارك الطاحنة قد حولت هذه المدينة إلى خرائب يرثى لها . فى نفس الوقت أراد أن يخلد اسمه بإطلاقه على اسم حاضرة حديثة وعصرية يقوم ببنائها ، ويجعلها

العاصمة . ومن ثم رأى أن يؤسس مدينة على الطراز المعمارى الهللينستى على ضفاف دجلة ، أطلق عليها اسم سليوقية — دجلة .

وكانت سليوقية دجلة هى الترجمة الأغريقية لأفكاره عن بابل ، بل كانت تقع بالقرب منها . وقد قام سليوقوس ومن بعده ابنه ووريثه أنطيوخوس الأول بتشجيع سكان بابل القديمة على الهجرة إلى حاضرته الجديدة ، مما نتج عنه انكماش المدينة العتيقة وتضاؤل حجمها وسكانها ولم تعد سوى مجموعة من المعابد القديمة وما تبقى حولها من بيوت سكانها الذين رفضوا الهجرة إلى الحاضرة الجديدة .

وكما كان الحال فى مصر البطلمية فى العصر الهللينستى ، حيث كان هناك عاصمتان . عاصمة عتيقة دينية ومقدسة (منف) ، وعاصمة عصرية إغريقية بها قصر الحكم والإدارة (الاسكندرية) ، فقد كان فى بلاد الرافدين أيضاً عاصمتان يقوم عليهما وجود الدولة السليوقية ، الأولى عاصمة مقدسة هى بابل العتيقة ، ذات المجد الغابر التليد ، والثانية سليوقية — دجلة ، وهى حاضرة جديدة فتية وعصرية ، ومبنية على أحدث طراز بناء المدن فى العصر الهللينستى ، وهى مركز القوة السياسية والاقتصادية للدولة ، وقد قدر عدد سكان الحاضرة الجديدة فى أوج ازدهارها بحوالى ستمائة ألف نسمة . كل ذلك يوضح المخطط السياسى للملوك الأسرة السليوقية ، الذى يقوم على خلق عمود فقرى يتكون من سلسلة من المدن الأغريقية التى تشع الحضارة والفكر الهللينستى فى معاقل الحضارة البابلية ، وعلى هذا العمود الفقرى تقوم قوتهم ، ويتأكد وجودهم السياسى ، ومن هذه المراكز الحضرية الأغريقية تستمد المقاطعات النائية فى المشرق سر قوتها وحيويتها . وتنفيذاً لذلك المخطط فقد أنشأ السليوقيون عالماً مقدونياً من المدن الأغريقية فى بلاد النهرين وحول الخليج ، وهذه المدن الجديدة فى الجناح الشرقى للدولة السليوقية أقيمت لتتوازن مع المدن الأغريقية التى أقيمت فى الجناح الغربى للامبراطورية وأعنى الشام .

ففى الشام أقيمت مدن أنطاكية واللاذقية وأبامية على نهر العاصى ، وسليوقية بيريه Seleucia Piereia (سليوقية ميناء انطاكية) وفى أعالى الفرات اسست مجموعة اخرى من المدن الأغريقية استوطنتها جاليات كبيرة من المقدونيين والأغريق مثل ديوجا على نهر الفرات ، وامفيبوليس ، وكذلك مقدونوبوليس Macedoropolis مدينة المقدونيين ، وكارهاى Carrhae (حران فى بلاد ما بين النهرين العليا) ، وإدسا Edessa (عرفة بتركيا) ونيوقوفوريون Nikophorion (رقة على نهر الفرات) وغيرها من المدن الأغريقية فى أعالى الرافدين والتى سبق الإشارة إليها عند حديثنا عن الشام .

أما فى سهل آشور فى الجنوب ، فهناك مدينة الإسكندرية التى بناها الإسكندر عند فتحه البلاد ، ونسمع كذلك عن مدينة ديمتريوبولس : Demetriopolis ومدينة ابولونيا . فقد كان سهل آشور عامرا بالمدن العريقة التى آثر السليوقيون إعادة بنائها وبعثها على طراز أغريقى بدلا من بناء مدن جديدة بعكس الحال فى الهضبة الأرمينية وأعالى الرافدين ، التى استنزفت طاقة السليوقيين فى بناء المدن . لكننا نلاحظ أنه على العكس من الحال فى الشام ومنطقة غرب الرافدين ، فإن المدن الأغريقية تكاد أن تكون قليلة فى المنطقة الواقعة بين عرفة فى تركيا Edessa وآشور ، إذ لا يوجد سوى مدينة أنطاكية الجادونية Antiocheia Mygdoneia (المعروفة باسم نصيبين Nisibis (فى الهضبة الأرمينية التابعة لتركيا) ، ومدينة إبيفانيا Epiphania فى كيليكيا فى آسيا الصغرى) ، وذلك لأن أغلب المهاجرين المستوطنين من المقدونيين أو الأغريق تشتتوا فى الوديان والقرى الزراعية المغنية فى وسط وجنوب بلاد الرافدين بحيث لم يكن هناك تجمع منهم يسمح بتكوين مدينة ذات تنظيم راق يستحق أن يطلق عليه اسم مدينة Polis ، وذلك قبل عصر الملك السليوقى أنطيوخوس الرابع الملقب باسم إبيفانيس Antiochus Epiphanes (١٧٥ -١٦٩ ق . م) ، بينما كانت مدينة

بابل العريقة العتيقة ، واقليم سوسيانا الواقع إلى الشرق منه منطقة ذات امتياز خاص .

وإلى الشرق من بلاد الرافدين نجد نوعاً مختلفاً من المدن يقوم السليرقيون ببنائه ، وهى المدن العسكرية ذات القلاع والحصون ، فقد كان الخطر دائماً يأتى من الهضبة الإيرانية ، هذه المدن العسكرية كانت تمثل المواقع المتقدمة لحدود الامبراطورية السليوقية ، كذلك امتدت المدن العسكرية إلى الشمال والشمال الغربى من الرافدين ، حيث الحدود التى تفصل آسيا الصغرى عن الشام ، كما نجد هذه المدن العسكرية أيضاً تمتد على طول وديان دجلة والفرات من أجل حراسة طرق القوافل المؤدية إلى الشام وبلاد الرافدين .

ومن أكبر المدن العسكرية التى خصصت الغرض الدفاعى مدينة دورا يوروبوس والتى أسست فى نفس الوقت الذى أسست فيه العاصمة أنطاكية حيث دلت الأبحاث الأثرية على أن نظام توزيع الشوارع فيها كان يتفق على وجه دقيق مع تخطيط الحواضر الأغريقية الأخرى فى الدولة السليوقية ، سواء فى أنطاكية أو بيرويا Peroia (حلب) أو اللاذقية أو أباميا ، وكلها كانت منشئات سليوقية جديدة أو مستعمرات اغريقية سابقة على العصر الهلينستى ، ولكن السليوقيون أعادوا انشاءها . حيث نجد الأجورا « السوق العامة » تشغل مساحة ثمانى وحدات من وحدات المدينة المعمارية ، ويقابلها مدينةعسكرية أخرىعلى نهر دجلة فىوسط اقليم بابلهى سليوقية نهر دجلة وكانت هذه المدينة الأخيرة مركزاً تجارياً واقتصادياً هاماً ، نقطة تجمع للمغامرين الأغريق ، الذين يقومون برحلات ومغامرات فى موانئ آسيا ، كما كانت فى نفس الوقت العاصمة السياسية للشطر الشرقى من الامبراطورية السليوقية ، فقد كانت مقراً لأنطيوخوس الأول عندما كان نائباً لأبيه الملك سليوقوس وموكلا عنه لحكم الستراببيات الشرقية للامبراطورية عام ٢٨٦ ق . م . وبالقرب من هذه الحاضرة السياسية ذات المركز العمرانى الأغريقى

أقام المستوطنون الأغريق حاضرة أخرى هى سليوقية نهر بولايوس Eulaeus Seleucia-on-the (سليوقية نهر القارون) والتى كانت تدعى قديماً « صوصة » .

وعلى الخليج العربى أقام المستوطنون الأغريق مدينة هى سليوقية الأرثرية وكلمة « أرثرية » نسبة إلى البحر الأحمر ، وذلك لأن الجغرافيين الأغريق كانوا يعتبرون الخليج العربى هو الذراع الشرقى للبحر الأحمر وجزء لا يتجزأ منه ، ولقد كان اهتمام الأغريق بالخليج العربى يرجع إلى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، ويظهر هذا الاهتمام بظهور التأثير الأغريقى فى الجزيرة العربية خاصة فى الحضارة السبئية فضلا عن انتشار الدراخما الأغريقية التى تحمل صورة البومة ، وثقة التجار العرب فى هذه العملة حتى أنهم سكوا عملتهم على شاكلتها فيما بعد . وفى الحفائر التى أجريت فى البحرين ، عثر على كميات من هذه العملة ، بل عثر على نقوش اغريقية ترجع فى أغلب الظن إلى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو عصر التوسع الاستيطانى الأغريقى ومطاردة الفرس ، كما أن البحر الأريثرى الشرقى (لو جاز لنا أن نستخدم هذا الإسم الأغريقى بدلا من اسم الخليج) كان محط التجار الأغريق المتطلعين للوصول إلى الهند . ومن ثم لم يكن غريباً أن يعمل السليوقيون على نشر الحواضر الدفاعية حول الخليج ، التى حملت أسماء إما أباميا أو أنطاكية ، كما انتشرت هذه الحواضر على طول ساحل شبه الجزيرة العربية الشرقى فى شكل مدن دفاعية صغيرة تقوم بعملية صد الفرس فى حالة قيامهم بتهديد الأوضاع السياسية فى الشرق الأدنى ، والتفاعل الحضارى مع حضارات الشرق الأدنى القديم ، فالتسويق الحضارى لم ينفصل أبداً عن التسويق التجارى ، وأهم هذه المدن على الساحل الشرقى للجزيرة لاريسا Larissa وخالقيس Chalcis وأريثوسا Arethusa .

ومن أهم هذه المواقع الدفاعية جزيرة فيلكة Phylakia ويبدو أن هذا الإسم الأغريقى أعطى لهذه الجزيرة فى عهد السليوقيين تعبيراً عن دورها الدفاعى ،

التى يتضح من اسمها الذى يعنى الحراسة . ولقد كشفت أعمال التنقيب التى قامت بها البعثة الدانماركية فى جزيرة فيلكا بالكويت منذ عام ١٩٥٣ حتى عام ١٩٦٠ م عن أدلة هامة عن التواجد الأغريقى فى هذه الجزيرة . وتقع فيلكا إلى الشرق من مدينة الكويت بحوالى ثلاثين كيلو مترا ، ولقد عثرت البعثة الدانماركية فى موسم عامى ١٩٥٨ ، ١٩٥٩ فى تل سعد وسعيد الواقعان فى الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة على بعض الأختام البابلية والهندية ، وقد أرخت البعثة تل سعيد بالعصر النحاسى أى حوالى ٣٥٠٠ ق . م ، بينما أرخت تل سعد بالعهد الأغريقى ، كما عثرت البعثة على سور المدينة الذى يرجع إلى العصر الأغريقى ، والذى كان يحيط بالمدينة القلعة ، مما يشرح جذور تسمية الجزيرة بالإسم « فيلكا » فيما بعد . ولقد عثرت البعثة على بعض قوالب من الآجر صور على واحد منها صورة الإسكندر الأكبر ، وقوالب أخرى صبت فيها مادة طرية فخرج تمثال أغريقى يمثل ربه النصر الأغريقية Nike ، وعلى صورة أفروديت ربة الجمال والمعادلة الربة عشتروت الشرقية ، وهى تقبض على التفاحة . وفى عام ١٩٦٠ م عادت البعثة إلى التنقيب فى تل سعد فعثرت على مذبح Bomos ، يقع أمام معبد بنى على الطراز الأغريقى ، وعند مدخله عثر على قاعدتين وتاج من الطراز الأيونى لأحد الأعمدة ، وعثرت على بعض أحجار المعبد ، ومن أهم النقوش التى عثرت عليها هذه البعثة عام ١٩٦٠ م نقش حجر إيكاروس ، والذى يبلغ طوله ١١٦,٥ سم وعرضه ٦٢ سم وعليه نقوش يونانية بلغ عددها ثلاثة وأربعين سطراً ، جاء فيها ما يشير إلى أن الملك (وأغلب الظن أن المقصود به هو الملك سليوقوس نفسه) قد أصدر أمراً إلى حاكم جزيرة إيكاروس (وهو الإسم الأغريقى القديم للجزيرة) بأن يطلب من أهل الجزيرة العناية بمعبد الربة المنقذة Soteria التى أنقذت هذه المناطق من بطش الفرس واستعبادهم قبل اسقاط الإسكندر المقاونى للامبراطورية الفارسية الأخمينية ،

وهذه الربة الأغريقية هى الربة ارتيميس Artemis ربة المراعى والصيد والحيوانات البرية والقمر ، فقد كان يكثر فى هذه الجزيرة الوعول والظباء والغزلان فقد كانت الجزيرة من أشهر مناطق الصيد فى العالم القديم ، كما طلب سليوقوس من أهالى الجزيرة العناية بمعبد مثراس Mithras رمز النور والعدل والحق ، وأن يعتنوا بأرض الجزيرة ، فيفلحوا أرضها ويحافظوا على الغزلان فيها . ولقد أكد هذا الاكتشاف صدق رواية المؤرخ الأغريقى أريانوس Arrianos الذى كتب عن سيرة الإسكندر الأكبر وفتوحاته، وذكر فيها أن الإسكندر الأكبر أرسل بعثة إلى منطقة الخليج تمهيداً لفتحها ، وذكر أن هذه البعثة نزلت فى جزيرتين من جزر الخليج ، احداهما كبيرة وكانت تسمى تيلوس وهو الإسم الأغريقى لجزيرة دلمون القديمة (البحرين) ، والأخرى صغيرة كان أهلها يعبدون القمر وهو الربة أناهيتة الأشورية Anaetes التى شبهها الأغريق بأرتيميس ، ولذلك نسبت هذه الجزيرة إلى الربة الأغريقية أرتيميس ربة القمر والبرارى التى ترعى فى ضوئه ، ولقد خلب الإسكندر بجمال هذه الجزيرة التى ذكرته بجزيرة إغريقية تقع فى بحر ايجة بالقرب من ساحل آسيا الصغرى وتدعى ايكاريا Ikaria ولذلك أمر بإطلاق اسم ايكاريوس Ikarios على هذه الجزيرة ومعناها بالأغريقية الشبيهة بإيكاريا هذه الجزيرة هى التى غير سليوقوس اسمها — بعد تأسيسه الامبراطورية السليوقية ، وتحويل المدن الواقعة حول الخليج وعلى طول شرق العراق إلى مدن دفاعية — إلى اسم فيلكا أى الحارسة .

إن أغلب هذه المدن الأغريقية التى نعرفها من النصوص القديمة والنقوش الأغريقية قد طمرتها الرمال وأخفتها عن الوجود ، أو دمرتها الحروب الشرسة بين الروم والفرس . وأن العثور على أطلالها وكنوزها يحتاج إلى تنقيب علمى يحدد أولا أماكنها ، ثم يعيد اكتشافها الذى سوف يأتى بنتائج مذهلة ، قد تغير فصولا من تاريخ الخليج وبلاد الرافدين فى العصر الهللينستى .

ولقد كان أغلب من سكنوا مدينة بابل والإقليم التابع لها من السكان الأصليين ، فلقد كانت مدينة « بابل » وتوأمها « أوروك » من أكثر المدن القديمة فى بلاد النهرين ازدهاراً ، وأشدها صمودا أمام الغزو الحضارى الأغريقى ، رغم تهجير سكان بابل إلى الحاضرة الأغريقية الجديدة « سلوقية نهر دجلة » وهذا لم يشجع السليوقيين على بناء حواضر اغريقية جديدة فى اقليم بابل ، كما أن مجهوداتهم فى أغرقة البابليين كانت ذات نتائج محدودة ومتواضعة . غير أنه كان لهذا الاقليم سحر خاص ، ومنزلة مميزة فى نفوس السليوقيين ، فمنذ تدمير بابل عام ٦١٢ ق . م ، وسقوط الدولة الآشورية عام ٦٠٦ ق . م أصبحت المنطقة الشمالية لبلاد ما بين النهرين أشبه بامتداد لبلاد الشام حضارة واقتصادا وسكاناً . ولذلك لم يجد السليوقيون صعوبة فى إدماج بلاد النهرين بالشام تحت حكمهم ، بل أنهم بدأوا فى تنظيم الحياة فيها بشكل لم يسبق له مثيل ، فقد قسمت بلاد النهرين إلى ثلاثة سترابيات كبيرة هى :

(أ) سترابية ميسوبوتاميا Satrapeia Mesopotamia :

وكانت تعنى الجزء الشمالى من وادى دجلة والفرات .

(ب) سترابية بابل : وتشمل الحوض الأوسط وأرض الجزيرة الواقعة بين دجلة والفرات : Satrapeia Babylon i_a

(ج) سترابية بارابوتاميا Satrapeia Parapotamia :

أى لواء مصب النهرين وهى منطقة شط العرب الحالية وشمال الخليج وكانت فى الأصل جزءاً تابعاً لإقليم بابل ، ولكن الإدارة السليوقية فصلته عنه ، وجعلته مستقلا إدارياً ، وكان هذا اللواء يتبعه المناطق الحضارية الجديدة فى الخليج .

وعلى طريقة الإدارة البطلمية لمصر ، قسم السليوقيون هذه السترابيات أو الألوية الكبرى إلى وحدات إدارية صغرى سميت بالأبراشيات : Eparchiai

يمكن التعرف على أسماء الكثير منها من خلال النقوش لأن أغلبها ينتهى بالمقطع "ene" ، فمثلا منطقة الخليج وجنوب شط العرب نظمت فى ابراشية تدعى خارا سينى Characene وهى التى كانت تعرف قديماً باسم بلاد البحر ، أما سهل آشور فقد أصبح يعرف باسم ابراشية أديابينى Adiabene، وأما إمارة بيت عابينى الآرامية القديمة ، والتى كانت تقع عند منحنى نهر الفرات فى الشمال ، فقد أصبحت تعرف باسم ابراشية أوسروهينى Osrhoene ؛ أى أن السليوقيين استفادوا من التقسيم القديم للإمارات الآرامية ، التى انتشرت فى بلاد الرافدين والشام قبل اجتياح الفرس لهذه المناطق فى القرن السادس قبل الميلاد ، وذلك بعد إعطاء هذا التقسيم الآرامى القديم أسماء اغريقية جديدة ، بعضها كان ترجمة للأسماء الآرامية القديمة .

تأثير الحروب المحلية على المدن فى بلاد الرافدين :

وإذا ماتركنا الجانب الإدارى لنبحث تأثير الحروب على الجانب الاقتصادى لتلك المنطقة إبان العصر الهللينستى ، نجد أن منطقة بلاد ما بين النهرين كانت مقسمة إلى عدة مناطق اقتصادية ، كل واحدة منها كان لها مجالها الاقتصادى المتميز ، فمثلا منطقة شمال بلاد النهرين Mesopotamia كانت امتداداً اقتصادياً وتجارياً الشام ، وذلك واضح من كسر الفخار وقطع العملة التى عثر عليها فى خرائب نينوى ونمرود ، بينما نجد منطقة بابل واقليم صوصة Susiana (فى الجنوب الشرقى البلاد وهو ما يعرف حالياًباسم (إقليم عربستان) يكونان وحدة صناعية وتجارية قائمة بذاتها ، وعلى اتصال وثيق بتجارة وحضارة بلدان الشرق الأقصى عن طريق البحر .

وكما سبق أن ذكرنا ، كان العدو الأكبر للمدن الحضارية فى تلك المنطقة من العالم هو الحروب المدمرة ، فلأنها منطقة حيوية اقتصادياً واستراتيجياً ، فقد كانت مطمع العديد من القوى الخارجية ، فالسلام الذى رفرف على هذه البقعة خلال حكم السليوقيين لم يستمر طويلا ، إذ تحولت هذه المنطقة إلى

ميادان للجيوش المتقاتلة ، عندما اندفع بطليموس الثالث (٢٤٦—٢٢١ ق . م) ملك مصر بقواته مخترقاً الشام فى طريقه إلى نهر الفرات ، حاذياً حذو الفرعون تحتمس الثالث عندما طارد الميتانيين حتى ضفاف الفرات عام ١٤٧١ ق . م تاركاً هناك لوحة تسجل انتصاره عليهم ووصوله إلى مجمع البحرين ، ولما كان بطليموس الثالث يريد أن يحتذى بسلفه القديم ، فقد اجتاح دون سابق إنذار هذه المنطقة أثناء حروبه مع السليوقيين ، فيما يعرف بالحرب السورية الثالثة (٢٤٦—٢٤١ ق . م) ولم يكد أنطيوخوس الثالث (٢٢٣—١٨٧ ق . م) يستوعب هذا الهجوم حتى توالت النكبات على الامبراطورية السليوقية ، فقد ظهر مطالب بالعرش اسمه مولون Molon اقتطع لنفسه مملكة امتدت من بال حتى باكتريا ، غير أن مملكته لم تدم سوى عامين (٢٢٢— ٢٢٠ ق . م) إذ قضى عليها أنطيوخوس الثالث بعد معارك مضنية .

وفى القرن الثانى قبل الميلاد ، اندلعت الحروب فى هذه المنطقة مرة أخرى ، مما ألحق الخراب والدمار ببلاد النهرين ، إذ لم يتوقف الصراع على العرش فى البيت السليوقى ، ولم يتوقف ظهور المطالبين به بالإضافة إلى ذلك فإن عنصراً استعمارياً جديداً بدأ يتطلع بنهم إلى المنطقة وهم الرومان ، الذين بدأوا يدخلون حلبة الصراع على المشرق العربى ، وقد بدأوا بدس أنوفهم فى هذه المشكلة بصفتهم حلفاء البيت البطلمى فى صراعهم مع السليوقيين حول الشام فى أول الأمر ؛ ثم بصفتهم أوصياء وحماة لهذا البيت الحاكم عندما بدأ يضعف وينهار فى القرن الثانى ق . م ، ولعل تحالف أنطيوخوس الثالث مع هانيبال القرطاجى ضد الرومان ، هو الذى أدرج اسم السليوقيين فى قائمة أعداء الرومان الذين يتوجب تأديبهم ، بل وتصفيتهم وضم أراضيهم عقاباً لهم وانتقاماً لشرف روما ، الذى مرغه هانيبال فى الوحل لبعض الوقت .

هكذا يتبين أن كل هذه العوامل مجتمعة أدت الى أضعاف العرش السليوقى حتى أنهم لم يعودوا قادرين على منع أرمينيا من الانفصال عن

أمبراطوريتهم ، ولاصد العدوان من جانب دولة البارثيين فى إيران على الستراپيات الشرقية للأمبراطورية السليوقية . وطوال القرن الثانى قبل الميلاد تحملت بلاد مابين النهرين عبء تلقى الضربات من جانب المغيرين والمعتدين على الحدود الشرقية للامبراطورية ، وزاد الطين بله أن العرش السليوقى لم يشهد ملكا قادرا منذ موت أنطيوخوس الرابع عام ١٦٣ ق.م فمنذ موت آخر الملوك القادرين فى هذه الأسرة لم يشهد تاريخ بلاد الرافدين والشام سلاما واستقرارا ، إنما أضحى سلسلة من الغزوات العدوانية ومطاردتها الى ماوراء الهضبة الايرانية ، مما خلف الدمار والخراب . وفى غياب الكبار ، برز الصغار متمثلين فى ملوك الأسرة الضعفاء مما شجع أدعياء العرش والمطالبين به ، والمثل على ذلك واضح فى الصراع الذى قام بين الملك أنطيوخوس الخامس (١٦٣—١٦١ ق.م) وبين غريمة الاسكندر باللاس Alexander Ballas أحد المطالبين بالعرش ؛ وبين ديمتريوس الأول أحد المطالبين بالعرش أيضاً ، وخلال هذا الصراع الثلاثى ، استغل ستراب ميديا فى بلاد فارس واسمه طيمارخوس Timarchos الظروف وأعلن نفسه ملكا على أقليم بابل ، وظل يحكمها كملك حتى قتله الملك السليوقى ديمتريوس عام ١٦٠ — ١٦١ ق.م . وفى عام ١٥٣ ق.م اجتاح البارثيون مرة أخرى بلاد مابين النهرين . وفى صيف عام ١٤١ ق.م استولى مثراداتيس Mithradatis ملك مملكة بونتوس Pontos (جنوب البحر الأسود) على بابل ، التى تمكن ديمتريوس الثانى من استعادتها للمملكة السليوقية ، ولم يمض عام على تحرير بابل ، حتى عاد مثراداتيس إليها مرة أخرى عام ١٤٠ ق.م . وفى هذه المرة تشبث مثراداتيس باقليم بابل حيث أقام قلعة حربية منيعة فيه وهى طيسفون Ctesiphon والتى اتخذها البارثيون عاصمة لهم فيما بعد ، وببناء قلعة طيسفون دعم البارثيون وجودهم فى بابل وأصبح نهر الفرات هو الحد الشرقى الأمبراطورية السليوقية ، وبذلك انفصل بلاد ما بين النهرين عن الشام لأول مرة منذ الفتح المقدونى الشرق الأدنى . وبالرغم

من ذلك ، لم يكف السليوقيون أبدا عن محاولة استعادة الرافدين ، فقد قام الملك أنطيوخوس السابع المعروف بلقب سيديتيس Sidetes بمحاولة لتحرير أقليم بابل عام ١٤٠ ق.م ، وهي آخر المحاولات السليوقية لاستعادة بلاد الرافدين ، ولكنها سحقت على يد البارثيين فى ربيع عام ١٢٩ ق.م وكانت هذه الهزيمة بمثابة الكارثة التى حاقت بالحضارة الاغريقية فى المشرق العربى عامة ، وبالدولة السليوقية وأهدافها خاصة ، وانسحب السليوقيون الى غرب الفرات . وبدأت حركات الانفصال تنتشر فى أوصال هذه المملكة . إذ نعرف من إحدى العملات أن أحد ستّرابات أنطيوخوس السابع المعزولين واسمه هوسباوسين Hyspaosines أعلن استقلاله بمنطقة شط العرب وشمال الخليج وكانت تعرف باسم خراسيني Characene ، وأعلن نفسه ملكا عليها ، وأعاد بناء مدينة حربية أغريقية قديمة كان اسمها أنطاكية ، وكانت تقع على الجانب الشرقى لشط العرب الى الشمال من الخليج ، وضرب حولها خندقا ثم غير اسمها الى « خندق سباوسين Charax Spaosinou وعلى طول نهر الفرات قامت ممالك وإمارات حكمها مشايخ القبائل العربية ، أكبرها مملكة بيت عديني عندا إنحناء نهر الفرات والتى أصبح اسمها بالاغريقية أوسروهيني Osrhoene وكان يحكمها عام ١٣٠ ق.م شيخ عربى يدعى أبجاروس Abgaros . لقد كان انسلاخ هذه الممالك والمشيخيات عن الإمبراطورية السليوقية ايذانا بعودة عصر التفكك السياسى والتفتت الاقليمى للمنطقة ، والذى عانت منه الأمبراطوريات القديمة فى بلاد الرافدين منذ السومريين وحتى عصر الآشوريين ، حتى أن سرجون الثانى الآشورى (٧٢١ — ٧٠٥ ق.م) قد اضطر فى يوم من الايام إلى الاعتراف بقيام مملكة البحر فى جنوب الرافدين وشمال الخليج كأمر واقع .

سياسة الملوك السليوقيين ازاء المدن العريقة فى بلاد الرافدين :

والآن لنتساءل ماهو الدور الذى لعبه الملوك السليوقيون بالنسبة للمدن الشرقية العتيقة فى جنوب العراق وحول الخليج ؟ ان نظرة الملوك السليوقيين

لم تكن واحدة الى هذه المدن ، إنما اهتموا بتلك التى تمتعت بمجد تليد وغابر مثل مدينة بابل ، فمنذ حكم الملك سليوقوس الثانى (٢٤٦ — ٢٢٦ ق.م) أصبح ملوك الدولة السليوقية يتمتعون اسميا بلقب « « ملك بابل » بالرغم أنهم لم يتوجوا رسميا كملوك عليها ، مما يعنى أن اقليم بابل لم تعد له الأهمية القديمة التى تمناها له الاسكندر الأكبر ، لكن السليوقيين ظلوا يطبقون سياسة رقيقة ومتعاطفة تجاه البابليين ، رغم أن النظم التى طبقوها فى بابل كانت هى نفس النظم التى طبقوها فى سائر أنحاء الامبراطورية . فقد أظهروا احتراما للتقاليد ولشعائر العبادة الشرقية ، وطبقوا نظاما عادلا فى جمع الضرائب ومنحوا المعابد امتيازات خاصة مثل الاعفاء من دفع الرسوم المفروضة على تسجيل الصكوك المالية والتعاملية والأحكام القضائية ، التى كان أصحابها يودعونها فى خزائن المعابد، ولم يفكر أبدا فى نهب أموال المعابد أو كنوزها أو وثائقها ، بالرغم من الثراء الفاحش الذى عرف به معبد بابل فى ذلك الوقت ، وقيام كهنته بممارسة الأعمال المصرفية والمالية ، بل عاملوا معبد بابل باحترام فاق الاحترام الذى أولوه لمعبد مدينة عيلام ، وهيكل سليمان فى القدس . ففى كل مكان قام هؤلاء الملوك باتباع سنة الاسكندر الأكبر فى ترميم وتجديد وتجميل المعابد الشرقية العتيقة ، فبتشجيع منهم تبرع اثنان من الأثرياء الوطنيين المتأغرقين هما نيكارخوس Nikarchos وكيفالون Kephalon بإعادة بناء معبد أوروك (الوركاء) ؛ وفى بابل ذاتها قام أنطيوخوس الأول بالإشراف على رفع الأتربة عن معبدى ايساجيلا Esagila ومعبد مردوخ بالإضافة الى ترميم معبد ازيدا Ezida ومعبد نابو Nabu فى مدينة بورسيبا Borsippa (تل برسيب وهى برس نمرود حاليا)، وذلك فى عام ٢٦٩ — ٢٦٨ ق.م ، وعلى طول القرن الثالث ق.م ، كانوا يعيدون لأهالى بابل وبورسيبا وأكد الأراضى التى كانت تنتزع منهم فى كل مرة ، ولقد كان الملوك السليوقيون كرماء حقا مع البابليين ، فحرصوا على منحهم اقطاعيات زراعية من أجل خلق طبقة من الأعيان

تكون قريبة منهم وتساعدهم فى حكم البلاد ، وهذه سمة من سمات الحكم السليوقى التى طبقوها فى كل مكان .

ازدهار التجارة والصناعة ورواج الاقتصاد :

ولقد كانت لسياسة ربط المدن البابلية العتيقة بالمدن الأغريقيةالجديدة، ثم ربط مدن الرافدين وشمال الخليج بشبكة من الطرق مع مدن الشام وآسيا الصغرى الاغريقية، ثم ربط مدن الشرق عامة بمدن وموانىء بحر ايجه وبلاد اليونان. تأثير اقتصادى كبير ، فقد خلق « كومونولث هلينستى » ، عاد بالرخاء وبمزايا اقتصادية عديدة على جنوب العراق وشمال الخليج ، فازدهار التجارة ووصولها من أماكن بعيدة ندركه من كسر الفخار القادم من رودس ، وكذلك من مقابض الجرار المشهورة بأختام تبين مكان صناعتها، وقد عثر عليها فى خرائب دورا يوروبوس ،وسلوقية دجلة، وأيضاً فى نمرود وأوروك — أما عن قطع العملة فهى كثيرة ، كما أن نقاء معدنها ، وثبات وزنها ، سواء كانت فى شكل المنا Mna أو الشيقل ، ساعد الدولة السليوقية على عقد صفقات تجارية مع كل أنحاء العالم .

كما انتشرت وحدة ثابتة للموازين والمعايير فى بلدان الشرق المتأغرق والغرب الاغريقى .وفى نفس الوقت ، وعلى المستوى المحلى إستخدم البابليون نظمهم القديمة فى الموازين والمكاييل والمقاييس جنبا الى جنب مع النظام الاغريقى ، فالأول هو النظام الموروث عن الآباء والأجداد ، والثانى هو النظام الرسمى للدولة السليوقية . بالاضافة الى ذلك ، فقد أصدرت الدولة السليوقية عدة عدة عملات برونزية محلية من الفئات الصغيرة على المستوى المحلى لهذه المنطقة مما كان له أكبر الأثر فى تنشيط التجارة الداخلية ، وتسهيل المعاملات بين الناس .

وبالرغم من أننا لا نملك الأدلة الكافية عن الحياة الاقتصادية فى مدن جنوب الرافدين والخليج فى العصر الهلينستى ، غير أن لدينا من الأدلة ما يكفى القول بأن هذه المدن شهدت رخاء زراعيا يقوم على زراعة المحاصيل التقليدية ، يواكبه رخاء صناعى ، يقوم على صناعة السجاد والعطور والبخور ؛ وبالنسبة لصناعة الفخار نجد فى البداية فخارا مستوردا من اقليم اتيكا باليونان ، وهذا النوع يتميز باللون الأسود اللامع ، ثم بعده يظهر فخار مدينة ميجارا Megara فى بلاد اليونان ، والذى يتميز بالزخرفة التشكيلية البارزة على جوانب الأوانى ، هذا مع بداية وصول النشاط الاغريقى الى منطقة الخليج وجنوب الرافدين ابان القرنين الخامس والرابع ق.م ، ولكن بدءا من القرن الثالث ق.م تحولت مدن بلاد ما بين النهرين الى مدن منتجة الفخار ، بل وبدأت هذه المدن تقلد الفخار الاغريقى المستورد وتصدره ، ويلاحظ أن انتشار قطع الفخار خاصة فى مدن جنوب العراق يتناسب مع العثور على كميات كبيرة من نقود العصر الهلينستى . كما قسم بلاد الرافدين الى منطقتين اقتصاديتين مختلفتين : منطقة شمالية انتشر فخارها من سهل آشور حتى الأناضول ، ومنطقة جنوبية مركزها بابل ، اشتهرت بانتاج فخار يميل الى الزرقة الخضراء ويتميز بلمعانه وبريقه ، ومنذ القرن الثانى قبل الميلاد أصبحت بابل سوقا رائجة له .

ولقد أدى رخاء هذه المدن الى زيادة الاستهلاك ، والى زيادة الطلب على سلع الشرق الأقصى الكمالية ، مما أدى الى تنشيط طرق القوافل التجارية القديمة ، والتى كانت تربط بين بلدان الشرق الأقصى ومنطقة الخليج ودبت الحياة فى الطريق الأفقى والذى كان يربط بين موانىء الخليج وموانىء الشام فقد اكتسب هذا الطريق أهمية ، خاصة وأن طريق القوافل التجارية الآخر (وهو طريق البخور والذى كان يبدأ من ميناء عدن فى جنوب الجزيرة ويسير بمحازاة جبال السراة الحجازية المطلة على البحر الأحمر ، مارا

بالطائف ومكة ويثرب حتى ينتهى عند البتراء أو بصرى فى الشام) كان قد بدأ يفقد أهميته ، وأصبح غير آمن بسبب الصراع الذى دار بين البطالمة في مصر والسليوقيين من أجل جنوب الشام ، حيث انقسمت دويلات للشرق الأدنى الى حزبين ،حزب انضم الى السليوقيين ،وكان يتكون من دولة سبأفى الجنوب العربى والأنباط فى الشمال ، وحزب آخر انضم الى البطالمة ويشمل دويلة ديدان العلا وبقية المستوطنات السبئية الحجازية والتى كان يطلق عليها اسم سبأ الشمال لتعددها ، وبسبب ذلك اندلعت الحرب بين سبأ الجنوبية وسبأ الشمالية فى نفس الوقت الذى اندلعت فيه الحرب السورية الرابعة عام ٢١٧ ق.م ، وكان من الطبيعى أن يضيق البطالمة الخناق على تجارة الجنوب العربى ، بتشجيع التجار على مقاطعة طريق البخور الجنوبى واستخدام موانى البحر الأحمر بدلا منه ، وأعد البطالمة الموانىء المصرية على الساحل الغربى للبحر الأحمر لاستقبال هذه التجارة . وأكثر من ذلك أنشأوا عددا من المستوطنات البحرية على ساحل البحر الاحمر الشرقى مثل امبيلونى Ampelone (القريبة من ميناء الوجه الحالى) وميناء آخر على خليج العقبة ، وبالطبع كانت موانىء « ديدان » فى خدمة البطالمة وضد تجارة أعدائهم الأنباط .
ولهذا السبب فان وقوع طريق القوافل الجنوبى فى منطقة الصراع البطلمى — السليوقى - جعله يفقد أهميته ونظرا لأزدهار مدن جنوب العراق وشمال الخليج فى ذلك الوقت فقد نشط الطريق الأفقى الممتد من مدن الخليج عبر مدينة جرها (الهفوف فى أقليم الاحساء) ، خاصة أن هذه المدن الخليجية كانت بعيدة عن قلب الصراع بين الدولتين وفى مأمن منه ، ومن ثم ازدهر هذا الطريق الأفقى ازدهارا كبيرا ، وجنت منه مدن جنوب العراق ومدن الخليج العربى والساحل الشرقى لشبه الجزيرة فوائد كثيرة وأرباحا طائلة ، بينما دب الكساد فى الطريق الرأسى ، حتى أصبحت تجارته تنحصر فى رحلتين ،

رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، بدلا من طول العام كما كان قديما ، بينما بدأت بالصفقات والمعاملات التجارية تتم عن طريق القوافل القادمة من طريق الخليج والساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية عبر مدينة جرها Gerrha والتى بدأت تبرز كمدينة خليجية ذات ثراء وتفرد منذ القرن الثالث قبل الميلاد بسبب تحول طريق التجارة الى ناحية الخليج العربى . ولقد ثبت من نتائج اكتشافات بعثات التنقيب الأثرى أن المستوطنين والتجار الاغريق استوطنوا الجزر الصغيرة الواقعة فى الخليج العربى مثل تيلوس Tylos (والتى ذكرها استرابون خطئا باسم تيروس Tyros وهى دلمون أوجزيرة البحرين) ، وجزيرة ارادوس (لم تحدد بعد فى جزر الخليج العربى) وجزيرة ايكاروس (فيلكا) لأن هذه الجزر تحولت الى مراكز التجارة ولتخزين السلع . وفى القرن الثانى ق.م ازدادت أهمية طريق الخليج التجارى ، وتحولت مدينة سليوقية دجلة الى نقطة مرور أساسية القوافل حيث يتم خلط وتحديد أسعار السلع ، قبل أن تنقلها القوافل الى الشام وسواحل البحر المتوسط .

ولقد ظل طريق القوافل الأفقى مبعث النهضة والرخاء للمدن البابلية والخليجية ، حتى حدث تغيير فى مسار طرق القوافل ، واتخذ مسارا شمالا بغرب على طول ضفاف الفرات متفاديا جنوب الرافدين والخليج . ففى نهاية القرن الثانى قبل الميلاد ، أفتتحت طرق تجارية مباشرة تمر عبر مناطق الاستبس الشمالية فى آسيا الصغرى تبدأ من مدينة أديسا Edessa (عرفة فى تركيا) حتى نهر دجلة ، كما افتتح طريق آخر يبدأ من مدن الفرات وينتهى عند تدمر بالميرا (والتى بدأت تبرز كأهم المدن العربية حتى حول الرومان هذا الطريق عنها) وطريق ثالث يبدأ من مدينة جرها Gerrha (الهفوف) وينتهى عند البتراء عاصمة دولة العرب الأنباط وكان ذلك الطريق

الأخير أكبر نجاحا لأن القوافل التجارية فضلت المرور فيه تجنبا للطريق الشمالي الذي يخترق بادية السماوة غرب الفرات ، حيث تسكن قبائل البدو الشرسة التي تخصصت في الاغارة على القوافل ونهبها وقتل رجالها .

ازدهار الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية :

وإذا كنا قد استطعنا أن نرسم صورة اقتصادية لمدن جنوب العراق والخليج ابان العصر السليوقي ، فهل نستطيع ان نرسم صورة اجتماعية لسكانها ؟ والحق يقال أن ذلك لأمر صعب لأن النقص في الوثائق المكتوبة عن هذه الفترة واضح بعكس الحال في مصر حيث تزخر آلاف الوثائق البردية من العصر الهللينستي التي تعطي صورة دقيقة لأحوال الناس وشكواهم وعلاقاتهم ببعضهم البعض ، فالوثائق الوحيدة تأتينا من مدينة بابل ، حيث لعب معبدا بابل ، والوركاء (أوروك) دورا دينيا وثقافيا كبيرا في هذه الفترة ، الى جانب دورهما في التشريع وفي الأبحاث العلمية والفلكية ، وهي مجالات تمثل جوهر الحضارة البابلية ، وهي الحضارة التي طغت على مدن الخليج العربي . فلقد حافظ هذان المعبدان على التراث الديني البابلي العتيق كما يظهر لنا من وثائق معبد نانايا Nanaia في صوصة ، غير أن وثائق معبدى بابل والوركاء لاتسعفنا كثيرا في الكشف عن مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة للسكان ، إذ لا توجد وثائق شعبية تسعف الباحث في هذا المجال . فالعقود والاشهارات التي ترد مع النصوص الأدبية والعلمية غالبا ماتتعلق بطبقة الكهنة الارستقراطية ، والتي لم يزد عددها في أوروك مثلا عن بضع مئات في كل جيل ، لكن هناك ثغرة يمكن أن ينفذ إليها الباحث ليخترق هذا الغموض عن الحياة الاجتماعية ، وهو دراسة الأسماء أي أسماء الأعلام والوظائف ، ودرجة القرابة بين شاغليها ، وكذلك العلاقات الأسرية ، وعن طريق ذلك نستطيع أن نستشف بعض التصورات عن وضع الأسرة في

تلك المدن ، وطريقة تنظيم المجتمع فيها . وفى امكاننا أن نميز بين طبقتين أوفئتين من فئات المجتمع ؛ : الفئة الأولى وهى فئة عامة الناس من غير طبقة الكهنوت الثرية ، هذه الفئة مارست حياتها فى حرية من القيود الكهنوتية ؛ أما الفئة الثانية فهى بالطبع فئة الكهنوت التى شغلت المناصب العليا فى المجتمع ، كما نلحظ أن بعض أبناء الفئة الأولى برزوا فى الحياة العامة ، ومارسوا دورا هاماً فى الحياة السياسية والاقتصادية ، وظهر من بينها « أعيان اندمجوا فى الأخذ بمظاهر الحياة الحضارية الاغريقية ، حتى أن بعضهم حملوا أسماء اغريقية الى جانب اسمائهم البابلية القومية ، والى هؤلاء الأعيان « ينتمى طبقة الكتبة ، الذين كانوا يتولون اعمال الصرافة والمضاربات المالية ، وتحرير العقود وصكوك المعاملات ، وكان هؤلاء الكتبة « يكونون جماعة صغيرة معروفة لباقى أعضاء المجتمع ، وكانوا يورثون وظائفهم وامتيازاتهم ومهاراتهم وخبراتهم الى أبنائهم من بعدهم ، ومن جيل الى آخر ، كما كان لطبقة الكتبة بعض الحقوق والواجبات الدينية والكهنوتية ، لكنهم أعتبروا فى درجة صغار الكهنة فى المعابد. أما فئة كبار الكهنة فقد كانت تشكل طبقة المثقفين المستنيرين والعلماء المتخصصين فى فروع المعرفة والملمين بالأسرار الكونية ، والدينية والدنيوية ، وكانوا يلمون بخبرات ومهام متعددة ومتنوعة مثل السحر والتعاويذ ، وطرد الأرواح الشريرة . الى جانب ذلك كان المعبد مركز المعرفة والثقافة ، وقام الكهنة بدور كبير فى إثراء الحياة الثقافية بانجازاتهم وأعمالهم الأدبية والعلمية . وبدراسة النصوص القانونية والتشريعية التى كتبها كبار الكهنة والبارزون منهم لدليل كاف على أن تراث بابل فى الفقه والقانون القديم منذ أيام دونجى وحمورابى لم يمت ، بل ظل حيا وقائما حتى العصر الهلينستى ، باستثناء بعض التغيرات التى طرأت على بعض الاصطلاحات فى عقود المعاملات ، والتى بدت تدخل وافدة مع الحضارات الأخرى منذ القرن السادس ق.م ، أما الصكوك الخاصة ببيع الرقيق وبحيازات ملكية الأراضى ، وعبارات الدعاء ومنح البركة ، التى يسبغها الكهنة على الناس فقد بقيت على حالها العتيق دون تغيير .

وفى العصر الهلينستى مثلا نجد حماسا شديدا يسرى بين كبار الكهنة وأصحاب المعرفة لجمع نصوص التراث وترتيبه وتنظيمه فى أرشيفات مثلمافعل آشور بانيبال من قبل . كما ظهرت طبقة من الكتبة المتخصصين فى نسخ أعمال التراث العتيق ، وقد عمل جامعوا التراث العتيق ونسخه جنبا الى جنب مع الأدباء المبدعين ، فسارت حركة الاحياء مع حركة الابداع ، والأصالة مع المعاصرة ، وظهرت الأعمال الجديدة جنبا الى جنب مع الأعمال العتيقة ، وهناك عشرات الألوف من النصوص العلمية والخاصة بالرياضيات وعلم الفلك ، والنصوص اللاهوتية الخاصة بنشأة الكون وحركته ، وسر الوجود ، كما شهدت هذه الفترة ظهور القواميس والمعاجم اللغتين السومرية والأكادية ؛ كما دونت لأول مرة صيغ الصلوات والابتهالات والترانيم الدينية ، ومراسم الشعائر . هذه النهضة الثقافية والأدبية تكاد تماثل نهضة الأدب الهلينستى الأغريقى ومركزه مدينة الاسكندرية والذى تأثر به وأثر فيه ، ولقد باركت الدولة السليوقية هذه النهضة ، وأسبغت رعايتها على رجال العلم والمعرفة والكهنوت البابليين ، وحفزتهم على اظهار الدرر المدفونة ، والجواهر المكنونة ، لحضارة بلاد الرافدين . ففى مقدمة احدى النصوص العتيقة التى أعيد نسخها يقول الناسخ « أن هذا النص قد نسخ طبقاً للألواح التى أتى بها نابو بولاصر (٦٢٦ — ٦٠٤ ق.م) ملك بلاد البحر (شط العرب والخليج) من أوروك ، والتى قام بنسخها عن الأصل كيدين آنى Kidin-Ani منشد الربين آنو وآنتو فى أوروك ، وسليل ايكورزاكير Ekur Zakir كاهن معبد ريش الأكبر فى عهد الملكين سليوقوس وأنطيوخوس ، وقد أعاده (أى الأصل) ثانية الى أوروك » .

لقد تشبث الوجهاء والمفكرون وكبار رجال الدين فى مدن بابل والخليج فى العصر الهلينستى بتراثهم القومى الشرقى ، كما ابتدعوا علم الأنساب لتتبع شجرة عائلاتهم حتى الأجداد الأربعة الكبار وهم أكور — زاكير ، سن —

ليجي – أونيني ، Sin-Legi-Unini ، أهيتو Ahitu ، وهونزو Hunzu ، وهم أجداد الحضارة الأربعة ، فكل عالم أو مثقف أو وجيه لابد وأن ينسب نفسه إلى احد هؤلاء الحكماء الأربعة ، حتى فقهاء القانون يحرصون على ذكر قولهم أنهم توارثوا هذا التراث الفقهي عن أحد هؤلاء الأجداد لإضفاء الشرعية والتبجيل على ما يكتبون ويشرعون .

وعلى غرار ماقام به ملوك مصر من البطالمة ، عندما شجعوا كاهنا مصريا يلم باللغة الاغريقية ، اسمه « مانيتون السمنودى » ليكتب تاريخ مصر العتيق بلغة الاغريق الهللينستية ، لغة الشرق الأدنى الرسمية وعالم البحر المتوسط لكي يعرف مواطنيه الجدد بتراث البلدالذى حطوا رحالهم فيه،فان ملوك السليوقيين شجعوا أيضاً كاهنا بابليا اسمه بيروسوس Berosos ليكتب للاغريق وبالأغريقية تاريخ الحضارة البابلية بدءا من عصر الحكماء الذين عاشوا قبل زمن الطوفان ، ليثبت لهم أنه لاجديد قد اكتشف منذ ذلك العصر ، ومن الطريف أن احد النصوص الذى اكتشف من العصر السليوقي ، يضع على رأس القائمة قصة صاحب الحوت Oannes (يونس أو يؤنس) والذى عرفنا اسمه من شذرات – مؤلف بيروسوس المفقود .

أما فيا يختص بالجانب الديني فى مدن هذه المنطقة ، فان أغلب الوثائق من العصر الهللينستي تؤكد انتشار عبادة « آنو Anu » رب السموات والأرض ورب رجال الدين . وكان النموذج الأول لكل أب فى أسرته ، والملك فى مملكته ، لأن السلطة تكليف منه ، أنزلها من السماء الى الأرض وكلتاهما خلقتا بكلمة منه ، غير أن عبادة آنو انحسرت بين الارستقراطية الدينية ، وكبار رجال العلم والمعرفة ، خاصة وأن هذا الرب سومرى الأصل ، بينما نجد الربة « عشتار » التى عبدت فى الوركاء كربة السماء باسمها السومرى القديم نانايا Nanaia أو انيني (أى سيدة السماء) تحظى عبادتها برواج شعبي كبير بين عامة الناس كربة الجمال ، وهى الربة الشرقية التى كانت

قد عبرت عبادتها البحر المتوسط الى بلاد الاغريق حيث عرفت باسم أفروديت وانتقلت بعد ذلك الى الرومان ليعبدوها باسم « فينوس » ، ربة الحب والحرب في وقت واحد ، وكان رمزها كوكب الزهرة . وإذا كانت عبادة أفروديت الاغريقية قد شهدت أعظم أيام انتشارها في العالم الهللينستي ، فان الاصل الشرقي لها شهد في نفس الوقت انتشارا شعبيا يشهد على ذلك كثرة القرابين التي قدمها لها عامة الناس في جنوب الرافدين ، وكانت هذه الربة تتصدر قائمة الربات الانثوات مثل بيليت ــ شا ــ رش Belit Sha-Rash وبيليت سيرى Belit Seri ، وشاراحيتو Sharahitu بينما تصدر آنو قائمة الأرباب الذكور مثل أنليل ، وايا Ea وبابوسكال Papuskal ، وشمش (الشمس) ، وسن (القمر) . كما ارتبطت هذه العبادات البابلية بالتنجيم ، فقد اعتبرت النجوم ممثلات للأرباب ، وهي في السماء عالم الآلهة يحكمها جميعا رب واحد هو القدر . أما العوام من الناس فلا نعرف ماذا كانت نظرتها الى هذه النظريات العقائدية ، لأن فكر العامة كان يميل الى التراث الآرامي الذي لم يتبق لنا منه سوى مادة محدودة .

وتؤكد المكتشفات الأثرية ازدهار العبادات الوطنية في عهد الدولة السليوقية ، ففي هذا العهد رمم معبد ايانا Eanna في مدينة الوركاء ، خاصة البرج الذي اشتهر به ، والذي كان في شكل هرم مدرج شبيه بهرم زوسر في مصر ، أما المركز الاجتماعي في الوركاء فكان يعرف باسم « بيت أكينو » وكانت تقام فيه احتفالات رأس السنة البابلية كل عام ، والى الشمال من « بيت أكينو » قامت أبنية ضخمة . أما مرافق المصالح الحكومية فكانت تقع بالقرب من معبد ايانا في ملحقات معبدى ريش Resh ، واشجال Esh-Gal . وكان في المدينة نبيلان حملا الى جانب اسميهما الشرقي أسماء أغريقية وهما (آنو ــ يوباليت كيفالون Anu Ubalit Kephalon (والذي كان مواطنا أول في أوروك عام ٢٠٢ ــ ٢٠١ ق.م) والآخر هو آنو يوباليت نيكارخوس .

Anu Ubalit Nikarchos (المواطن الأول فى أوروك عام ٢٤٣ — ٢٤٢ ق.م) ، وقد تعاون هذان الوجيهان لبناء معبدى آنو وآنتو فى ريش ، حيث استخدم المعماريون فى الترميم أساليب بابلية عتيقة مثل استخدام الطوب المزجج . وكان هذا المعبد مركز النشاط الاجتماعى والدينى ، فقد عثر فيه على بقايا مكتبية ثقافية دينية من العصر السليوقى . ونستخلص من ذلك أن المبانى التى أشرف عليها كيفالون من أجل بناء معبد يليق بعشتار — نانايا ، تدل على أن هذه الربة كانت تستحوذ على قلوب الجماهير ، بينما كانت لاتلقى اهتماما من جانب الأقلية المثقفة من الأرستقراطيين والكهنة . وهذا فى حد ذاته يمثل انتصار إرادة العامة على إرادة هذه الأقلية ، والتى أجبرت السلطات الحاكمة على احترام ارادتها وتملقها . وكان ترميم هذا المعبد الكبير فى المدينة الخالدة هو نهاية تاريخ طويل وحافل لعبادة الربة العزيزة على قلب شعب أوروك .

علاقة المستوطنين المقدونيين والأغريق بالبابليين فى المدن الأغريقية :

وهناك سؤال يطرح نفسه وهو مانوع وماهية العلاقة التى قامت بين سكان هذه المدن الأغريقية من المستوطنين المقدونين والأغريق ، وبين اشقائهم من العنصر البابلى . ؟

أن البحث عن اجابة لهذا السؤال أمر صعب ، وذلك لأن زمام الأمر والنهى فى تصريف أمور الناس كان فى أيدى الطبقة الكهنوتية ، التى كانت تكن للأجانب عداء ومقتا شديدا ، وتحط من قدر ثقافتها ، وتحقر من عنصرها العرقى ، لكن ذلك العداء لم يمنع من تسلل بعض الآلهة الأغريقية الى قلوب شعوب تلك المنطقة ، فمن بين القرابين البابلية نجد قرابين مقدمة إلى آلهة أجنبية فى « أوروك » مثل أديشو Adeshu (الذى هو تحريف للرب الاغريقى هاديس) ، كما يتردد اسم الربة ايسى Esi (والذى هو تحريف لاسم الربة المصرية ايزيس التى انتشرت عبادتها بعد أغرقتها فى

الشرق والغرب ابان العصر الهلينستى) ، وقد سبب هذا الامتزاج الحضارى صعوبة لعلماء النقوش سواء الاغريقية أو الأكدية ، فكل كتابة تحاول كتابة أسماء أجنبية بطريقتها القومية واللغوية مما يبعد الاسم تماما عن أصله الحقيقى ، فالنقوش الاغريقية تحاول تسجيل أسماء بابلية بحروفها الأبجدية محدثة فيها التغييرات الصوتية التى تتماشى مع صوتيات الأبجدية الاغريقية ، مما يسبب مشقة فى قراءتها والتعرف عليها ، وكذلك تعمل النقوش الأكدية جاهدة على نقل أسماء أغريقية بعد اخضاعها لصوتياتها ، ومن الأدلة على تأغرق بعض البابليين تردد أسمائهم الأصلية متبوعة بالاسم الاغريقى المكتسب وقد سبق أن أشرنا الى نيكارخوس البابلى الذى رمم معبد ريش Resh عام ٢٤٣ — ٢٤٢ ق.م ، فقد كان اسمه القومى الكامل هو « أنا يوباليت بن آنو أقصور (Aqsur) سليل آهوتو ، والذى أسبغ عليه الملك أنطيوخوس الثانى ملك البلاد اسما (جديدا) هو نيقياجارجوسو Nikia–Gargusu (نيارخوس بالاغريقية) ، وبالرغم من انتصار القومية البابلية على حركة الأغرقة السليوقية فى القرن الثانى ق.م حيث نجد أحفاد هؤلاء الأعيان المتأغرقين يسقطون عمداً الاسم الاغريقى المكتسب تمشيا مع انتصار التيار القومى ، لكننا نجد أقلية يتشبثون به ، إذ نجد شقيق كيفالون وابنه وزوجته وابنها منه يحتفظون بالأسماء الاغريقية طوال القرن الثانى ق.م .

وفى خضم هذا البحر العميق العريق من شعوب بلاد النهرين ، عاش المستوطنون الاغريق فى جزر سكانية صغيرة منعزلة ، أى فى مجتمعات خاصه بهم ، تقوم على المدرسة ، والنادى الرياضى ، والمعبد أى فى الجمنازيوم ، وكذلك فى المساكن المتجاورة فى حى واحد ، ويمارسون من خلال هذه المؤسسات الاجتماعية والثقافية حياتهم وثقافاتهم على طريقة بنى جلدتهم فى الوطن الأم ، وعلى غرار سكان العاصمة أنطاكية ، فمن المحتمل أن يكون السكان غير الاغريق هم الآخرون ، قد نظموا أنفسهم فى شكل جاليات Politeumata قومية عبارة عن منظمات شبه سياسية تقوم على أساس العرق ، وكان الغرض منها

تحديد الوضع الاجتماعي والسياسي والإدارى لغير المواطنين المنحدرين من أصل غير أغريقي ، خاصة أن شعوب هذا المنطقة عرفت بتعدد القوميات منذ أقدم العصور . غير أن المجتمعات الأغريقية لم تكن أبدا مثل مجتمعات الجيتو Ghetto اليهودية المنغلقة على نفسها ، بل كانت منفتحة القلب والعقل على حضارة البلاد القومية ، فعلى العكس من اليهود ، لم يكن أغريق العصر الهلينستي يشعرون أبدا بالاستعلاء العنصرى على شعوب الشرق ، أو أنهم يزعمون أنهم شعب الله المختار ، بينما غيرهم ليسوا سوى « جوييم » أى أدنى مرتبة منهم ، إنما كانوا يشعرون بالاحترام والتبجيل لحضارات الشرق الخالد ، بدليل أنهم كانوا يشاركون شعوب الشرق كراهيتهم للعنصرية اليهودية ؛ فحرصوا على احترام تقاليد وعادات وقوانين الوطنيين من أهل البلاد ، ودخلوا معهم فى معاملات طبقاً للقانون البابلى ، وتزاوجوا معهم ، ولم يتورعوا عن التعبد لآلهة الشرق الخالدة فى ساعة المحنة ، إذ نجد أغريقيا مستوطنا ينذر عبدا للخدمة فى معبد أنو وأنتو . غير أن عملية التفاعل الحضارى بين البابليين والأغريق كانت تظهر بدرجة أكبر فى المدن الأغريقية الجديدة عما كانت تتم عليه فى المدن البابلية القديمة ، فهى تتم فى مدينة سليوقية دجلة الاغريقية بشكل أوضح من مدينة بابل . فقد بنيت هذه المدينة الأغريقية لتكون ملتقى للحضارتين ، ونقطة لقاء بين المقدونيين ، والاغريق ، والبابليين ، والآراميين . وفى البداية حاول المستوطنون الحفاظ على دمهم الاغريقى خالصا ، لكن بمرور الزمن حدث الاختلاط ، وامتزجت العناصر والطوائف الشرقية مع بعضها البعض ، حتى أن لفظ بابلى « أصبح » يعنى قاطن مدينة بابل بصرف النظر عن أصله العرقى .

وفى البداية ، كان للسكان الاغريق فى مدينة سليوقية دجلة مجلس الشورى خاص بهم ، يختارون من خلاله ممثلين عنهم ، يتولون تصريف أمورهم ، فلأن هذه المستوطنة كانت مدينة بكل معايير الكلمة الاغريقية فكان لابد من وجود مجلس للشورى Boule الذى هو أهم سمات المدينة

الاغريقية ، ويكونون من خلاله مجتمعا سياسيا واجتماعيا وثقافيا منفصلا عن المجتمع الشرقى ومتميزا عنه ، وعلى مقربة من هذه الحاضرة الاغريقية ، كانت بابل العتيقة العريقة ، تقف فى شموخ وكبرياء ، ويرقبها المستوطنون الاغريق بالرهبة والاعجاب ، فقد كان حلم الاسكندر المقدونى — والذى لم يسعفه الأجل لتحقيقه — أن يعيد بناء بابل جديدة داخل أسوارها العتيقة على ضفاف الفرات الى الشرق من بقايا قصور ملوك الدولة الكلدانية ؛ وبعد موته حاول ملوك الدولة السليوقية تحقيق حلمه ، فقام الملك سليوقوس وخلفاؤه برفع الأتربة والرمال عن حطام معبد مردوخ ، وكوموا هذه الأتربة والحطام فى أربعة أكومة ، ثم فرزوا هذه الأكوام ليستخرجوا منها الأحجار التى تصلح فى إعادة ترميم المعبد ومرافقه فى نفس المكان الذى كانت قائمة فيه ، وبعد مرحلة من العمل اكتشف الملوك السليوقيون عدم جدوى الاستمرار فى مشروع الاسكندر ، فهجروه مفضلين عليه بناء حاضرة جديدة على النظام الهللينستى الجديد لبناء المدن . فأقاموا مدينة « سليوقية دجلة » كتر ة أغريقية لمدينة بابل ومناظرة لها . ولقد حظيت هذه الحاضرة الاغريقية بعناية واهتمام خاص من جانب الملوك السليوقيين ، خاصة أنطيوخوس الرابع ، الذى كان متيما بنشر الحضارة الاغريقية بين الشرقيين ، مركزاً على دور هذه المدن الاغريقية كمنارات لاشعاع وبث هذه الحضارة فى ربوع المشرق . ولقد عثر على نقش بابلى يشيد « بمؤسس هذه المدينة ومخلص آسيا » . كما ثبت من الحفائر الأثرية التى جريت فى بابل أن جالية إغريقية سكنت أحد أحيائها ، وطبقت فى هذا الحى كل نظم المدينة الاغريقية ومرافقها ، فبنت مسرحا صغيرا فى القرن الثالث ق.م ووسعته عدة مرات كما قامت ببناء جمنازيوم Gymnasium وهى دار التربية الثقافية والرياضية والدينية والنادى الخاص الذى يلتقى فيه أبناء الجالية ، والجمنازيوم هو رمز الوجود الاغريقى فى أى مكان ذهبوا إليه . وكان يمكن لهذه المرافق الحضارية الاغريقية أن تتزايد وتتسع لولا وقوع الكوارث التى حاقت بالدولة السليوقية فى أواخر القرن الثالث مما عرقل هذه المشروعات .

وما حدث فى بابل حدث فى أوروك حيث أدى التعايش السلمى بين الاغريق والوطنيين الى قيام اتصالات ومعاملات بين الشعبين ، حتى أن الجمنازيوم قبل عضوية بعض أبناء الأعيان الشرقيين ، وقد تزايد نفوذ بعض الشيوخ العرب فى المدن الشرقية منذ أواخر عصر الدولة السليوقية ؛ فعندما نصب أنطيوخوس بن أنطيوخوس العاشر نفسه على العرش باسم أنطيوخوس الثالث عشر بطل آسيا (أسيا تيكوس Asiatikos) وذلك فى أنطاكية عام ٦٩–٦٨ق.م لقى هزيمة على يدى أحد زعماء العرب الذين كانوا فى خلال تلك الفترة المضطربة يسعون لاقامة أمارات مستقلة فى هذه المنطقة الشرقية ، وهذا الشيخ العربى اسمه « عزيز » وكان يريد ترشيح منافس آخر العرش اسمه فيليب ، ولهذا لجأ الملك أنطيوخوس الثالث عشر الى كسب تأييد زعيم عربى آخر اسمه سامبسجراموس Sampsigramos بيد أنه على الرغم من ذلك ، اتفق الزعيمان العربيان على التخلص من هذين المتنافسين على العرش ، واقتسام الممتلكات الشرقية من المملكة السلوقية بينهما ، وانتهى الأمر بأن قام الشيخ العربى سامبسجراموس بالقبض على أنطيوخوس الثالث عشر . أما المنافس فيليب فعندما أكتشف خطة الزعيم العربى « عزيز » فر هاربا الى العاصمة أنطاكية ، حيث استطاع أن يجد الحماية بين المستوطنين الاغريق .

بيد أن نجاح الحضارة الاغريقية فى بلاد الرافدين لم يكن بنفس القدر والنجاح الذى تحقق فى مصر مثلا ، بل أن ماحدث فى بابل . أو أوراك ، كان أقل حجما من أى تفاعل حدث فى أى مكان آخر ، وذلك لأن كلتا المدينتين ، كانتا تتيه فخرا بتراث عريق ، وحضارة غابرة ، فقد تعلق أهلها بتراث الماضى فى شغف عاطفى شديد ، ولهذا قاوموا بشدة عملية الاغرقة التى حلم بها الاسكندر الأكبر ، وحاول تحقيقها السليوقيون . وقد ساعد الشرقيين على الصمود — الكوارث السياسية التى حاقت بالدولة السليوقية فى القرن الثانى قبل الميلاد ، مما أدى الى توقف قوة الدفع للحضارة الاغريقية فى تلك المنطقة .

نتائج وآثار التفاعل الحضارى بين الحضارة الهللينستية والحضارات البابلية والآرامية :

ولقد دار جدل طويل بين المتخصصين حول نتائج وآثار الحضارة الهللينستية فى مدن بلاد الرافدين . فى وقت راحت فيه الامبراطورية الرومانية تبتلع الممالك الهللينستية واحد تلو الأخرى ، فلقد تضاءلت الجاليات الاغريقية ، وتراجع مد حضارتها ، بعد تدهور وسقوط الدولة السليوقية ، وذابت دماؤهم مع دماء أهل الرافدين نتيجة التزاوج المشترك ؛ واستوعبت الحضارة البابلية بين طياتها الحضارة الاغريقية ، وعلى حد قول الشاعر الرومانى « لقد هزم المهزومون المنتصرين » ففى بابل بقيت الحضارة الاغريقية فى جيوب صغيرة متفرقة ومنعزلة عن بعضها البعض ، ومنعزلة فى نفس الوقت عن جماهير الوطنيين الشرقيين ؛ ولأنها انغلقت على نفسها وانعزلت فقد نجت من الذوبان ، كما نرى فى حالة دورا يوروبوس (الصالحية) Dura Europos ، أما سليوقية دجلة فقد كان بها عدد كبير من المستوطنين الاغريق ، كاف لتكوين جمهور المدينة بالمفهوم الاغريقى ، وكاف لمواجهة التدهور الذى حاق بحضارتهم ابان القرن الثانى بعد الميلاد . وهناك نقش من بابل مؤرخ عام ١٠٩ — ١٠٨ ق.م يؤكد أن الجمنازيوم ظل يعمل حتى ذلك الوقت ، وفيه تدرس اللغة اليونانية على أيدى معلمين يحملون أسماء إغريقية ؛ بل أنه فى عام ١١١ بعد الميلاد نجد نقشا آخر من مدينة الوركاء عبارة عن قربان ؛ إذ وهب رجل يدعى ارتيميدوروس Artimedoros (عطية ارتيميس) واسمه الشرقى مينا نايوس Minnanaios ، قربانا للرب جاريوس Gareos ، عبارة عن قطعة أرض . كما عبرت احدى النقابات — ربما من التجار — عن امتنانها لمدالك الرب ببعض عبارات الخشوع ، يختلط فيها أسلوب المناجاة الاغريقى

بأسلوب الأبتهال الشرقى . ولكن هل ياترى كانت هذه الجماعة من الاغريق أم من الشرقيين ؟ أغلب الظن أنهم كانوا من سلالة المستوطنين الاغريق ، الذين أصبحوا بابليين عنصرا وثقافة ؛ لكنهم ظلوا يحتفظون باللغة وبعض مظاهر السلوك الاغريقى حتى وقت متأخر ، خاصة أن اللغة الاغريقية كانت ضرورية للتجارة ، لأنها اللغة الدولية التى ظل التجار والمثقفون يتكلمون بها حتى حلت اللغة العربية محلها . كذلك حافظت بقايا الجالية الاغريقية على بعض النظم الاجتماعية ومؤسساتها مثل الجمنازيوم ، الذى أصبح مقصد أبناء الطبقة الارستقراطية من الشرقيين ليتلقوا فيه العلوم والمعرفة ، وهو الذى تحول الى دار الحكمة فى العصر العباسى . ولقد بقى هذا الجهاز التربوى التعليمى قائماً حتى بعد أن غزا البارثيون والرومان هذه المنطقة ، فنسمع أن الملوك البارثيين كانوا يختارون معاونيهم لحكم تلك المدن من الاغريق وأبناء المستوطنين ، الذين تخرجوا من الجمنازيوم . حقا لقد غطت الحضارة الشرقية على الحضارة الاغريقية ، لكن تلك الأخيرة بقيت حية تحت الرماد ، حتى بعثت الدولة العربية الاسلامية فى العصر العباسى جذوتها لتندمج مع غيرها من الحضارات فى سيمفونية عربية هى أعظم ما أنتج العالم من تراث انسانى . ولم يكن من الغريب أن تكون « بغداد » المدينة الاسلامية الجديدة التى تقع بالقرب من هذه المدن العريقة ، هى حاملة الراية ومبعث أعظم فترات الحضارات الاسلامية اشراقا وازدهاراً .

ونعود الى موضوعنا فنتساءل — ألم يكن هناك تباين حضارى بين سكان المدن الاغريقية ومواطنيهم من البابليين ؟ نعم لقد كان هناك تباين خاصة فى الشريعة والقانون فكل طائفة تمسكت بقوانينها وشريعتها ، وفسرت هذه القوانين فى ضوء تقاليدها وتراثها ، ولذا فان القوانين والشرائع لم

تمتزج بدا . إذ كان هناك قانونين متجاورين ومتباينين ، قانون بابلى عتيق وقانون إغريقى وافد . ويبدو أن لغة العقد المكتوب هى التى كانت تحدد نوع القانون الواجب تطبيقه . وهذا المبدأ كان سائدا فى مصر بالنسبة للعلاقة بين القانون المصرى القديم ، والقانون الاغريقى . وليس هناك أى دليل على امتزاج القوانين الشرقية مع القوانين الاغريقية أو العكس . حتى اجراءات القاضى الاغريقية لم يرصد انتشارها فى وثائق المدن البابلية مثلما انتشرت فى مدن مصر قبل الفتح العربى ، حيث تظهر فى مئات من الوثائق البردية الاغريقية من العصور الهللينستية ، والرومانية ، والبيزنطية ، وحتى مطلع العصر الاسلامى عندما عرب عبد الملك بن مروان هذه الاجراءات مع تعريب الدواوين ، وطبق الشرع الاسلامى كشرع واحد على الجميع .

غير أنه من أهم نتائج قيام هذه المدن الاغريقية فى جنوب العراق والخليج ، هو حدوث اتصال فكرى متبادل بين الحضارة البابلية والاغريقية ، ساهم بنصيب كبير فى الحضارة الانسانية ، فقد قامت مجموعة قليلة من كل طائفة بالاطلاع على ثقافة الطائفة الأخرى ، واستفادت منها ؛ لقد فتحت الحضارة البابلية للاغريق خزائنها الثقافية والعلمية ، وكل ماحوته من تراث الأجداد الذى حافظ عليه الأحفاد خلال العصر الهللينستى . ولم يغيروا فيه ، بل بعثوه على أصالته التى كان عليها منذ آلاف السنين . ولقد كان الاغريق عطاشى للمعرفة حقا ؛ نهلوا حتى الثمالة من ينابيع العلم البابلى ؛ واستوعبوه وهضموه ، ثم صاغوا منه نظرياتهم العلمية الشهيرة خاصة فى علم الرياضيات بالمفهوم والشكل الاغريقى العلمى . وعلم الرياضيات فى الحضارة الشرقية كان يتكون من قسمين ، قسم جاء من الماضى العتيق منذ الألف الثانى قبل الميلاد ؛ وقسم جديد ولد ابان القرون الثلاثة السابقة على الميلاد . وكلا القسمين يوضح كيف بعث البابليون الجدد أصول ثقافة أجدادهم القدماء . فمثلا تمسكوا بفكرة النظام السداسى

Sexogesimal فى حساب الأرقام ، والذى وجد طريقه الى أوروبا مرة عن طريق الاغريق فى العصر الهللينسى ، ومرة عن طريق الأحفاد المسلمين ، الذين بعثوا وحافظوا على الحضارة الاغريقية وحموها من الضياع ، وسلموها لأوروبا لتبنى عليها عصر النهضة الحديثة والذى هو سر تقدمها اليوم ، ولايزال النظام الستينى مستخدما حتى اليوم ، فالساعة ستون دقيقة ؛

والدقيقة ستون ثانية ، والدائرة ٣٦٠ درجة ؛ والربط بين « الكم والرقم » حسب برموز كتابية ذات أشكال مختلفة ؛ كذلك نجد المحاولات الأولى لابتكار « الصفر » واستخدامه ، وهى محاولة لم تكتمل الا على يد الأحفاد المسلمين فى العصر العباسى . ولقد ساعدت دقة علم الرياضيات الحسابية على ولادة علم الفلك ؛ الذى استفاد من الاكتشافات التى توصل إليها الانسان منذ القرن السادس قبل الميلاد ، حتى إذا ماجاء القرن الثالث قبل الميلاد كان لدى العلماء البابليين نظام تقويم يقوم على النظام الشمسى والقمرى فى آن — واحد ؛ فقد نجح علماء الفلك البابليون فى ضبط شهور السنة الشمسية مع شهور السنة القمرية من خلال دورة زمنية تستغرق تسع عشرة عاما ؛ كما رصدوا بين منازل القمر ومساراته فى الظروف المختلفة ، وربطوا بينها وبين تحركات بعض الكواكب السيارة الأخرى . كما توصلوا الى حساب سرعة الضوء الصادر من أشعة الشمس Solar Velcoity ، كما وضعوا تصورا لظاهرة الكسوف والخسوف ، ورسموا دائرة البروج الفلكية والموازين Zodiac ، وحددوا عليها موضع الكواكب حسب قربها من كوكب الأرض.ان القراءات الحديثة فى نصوص الفلك الهللينستية هدمت الاعتقاد المتوارث بوجوب مراقبة النجوم طبقاً لصفاء السماء بالعين المجردة ، وبالمنظار المقرب ؛ وأكدت صدق نظرية علماء الفلك البابليين بأن الذى يضبط مواقع الكواكب هو علم الرياضيات الحسابية ، فعن طريقة يمكن رصد تحركات ومواقع كل كوكب ، سواء كانت السماء صافية

أو ملبدة بالغيوم ؛ وأن العين قد تنخدع بالرؤيا كما تنخدع بظاهرة السراب على حد قول الفيلسوف الاسلامى الامام الغزالى .

وجنبالى جنب مع تقدم علوم الرياضيات والفلك ، حقق علم قراءة الطالع عن طريق التنجيم تقدما ملحوظا ، فمنذ عصور ضاربة فى التاريخ البابلى ، اعتاد المنجمون إستقراء طالع الملك عند جلوسه على العرش ، ومعرفة مستقبل البلاد فى عهده ، عن طريق استبيان علامات كونية تظهر فى السماء ، مثل الكواكب والنجوم والمذنبات ، أو عن طريق الظواهر التى تطرأ على المناخ ؛ وعندما تمكن علماء الفلك البابليون من وضع قواعد تنظم ماتوصلوا إليه فى علم الفلك عن طريق الملاحظة ، رسموا دائرة لبروج السماء ، وحددوا مواقع الكواكب عليها . على أثر ذلك بدأ أسلوب جديد فى علم التنجيم ، فمن موقع الشمس والقمر وغيرهما من كواكب المجموعة الشمسية ساعة ولادة الانسان يمكن التنبؤ بمستقبله ومصيره ، ومن ثم ظهر هذا العلم مع ظهور رسم بروج السماء ، وأول اشارة لظهور علم التنجيم ترجع الى عام ٤١٠ ق.م . ومن بعد ذلك التاريخ تزايدت النصوص الخاصة بالتنجيم تدريجيا ، ولقد كانت مدينتا بابل وأوروك من أهم مراكز التنجيم ، وكان لكل منها منهجها الخاص وأسلوبها المتميز فى التنجيم ، وكان فى كل مدينة منهما هيئة من كبار الكهنة العلماء ، التى تنتسب الى الأجداد الأسطوريين . ففى أوروك كان منهجها مستمدا من الجد الأسطورى اكورزاكير Ekur-Zakir ، وكان كهنة اكورزاكير متخصصين فى طرد الأرواح الشريرة طبقاً لماجاء فى الواح آنو وآنتو انليل الخاصة بظواهر السماء ، كما كان هناك أيضاً منهج الجد الأسطورى سن ليجى اونينى Sin Legi Unini الذى وضعه وسار عليه كهنة أنوو آنوانليل ، وكذلك منشدو ترانيم آنو آنتو وترجع نصوصها الى الفترة مابين ٢٣١ — ١٥١ ق.م وهى تكاد تتعاصر مع الفترة التى كان فيها معبد رش Resh فى حالة نشاط وعمل . ومن النصوص الأثرية نعرف أن هذا المعبد بنى مابين أعوام ٢٤٣—٢٠١ ق.م وخرب ودمر عام ١٤٠ ق.م على أيدى الغزاة البارثيين . أما معبد بابل فلم ينشط الا فى عصر

متأخر نسبيا عن أوروك ؛ لأن أغلب الألواح المتعلقة بهذا المجال ترجع إلى وقت يلى عام ١٨١ ق.م ، وآخر نص جاء منها يرجع الى عام ٤٩ بعد الميلاد ، أى الى عصر الأمبراطورية الرومانية . ويتردد فى هذه الألواح أسماء العديد من الكتبة ، بعضهم حقق شهرة كبيرة فى عالم التنجيم ، حتى أن شهرتهم وصلت لعلم الكتاب الاغريق فى الغرب مثل المنجم كندينو Kindinu الذى أصبح اسمه من بين أسماء الإعلام التى تسمى بها الاغريق تيمنا به بعد أغرقة الاسم الشرقى الى شكل أغريقى وهو كندينياس Kindeneas ، وكذلك المنجم نابورى مانو Naburi Mannu الذى تحول بالاغريقية الى اسم نابوريانوس Naburianos لكن للأسف لانعرف شيئاً عن أعمال هذين المنجمين . كما لاتذكر الألواح السماوية شيئا عن الابتكارات والنظريات الفلكية التى نسبها اليهما الكتاب الاغريق والرومان ، اللذين من الواضح أن بعضهم قد اطلع على أسرار الحضارة البابلية وأخذ منها . ومن مدرسة حضارة المدن الاغريقية فى بابل خرج علماء وباحثون تردد ذكرهم فى أعمال الكتاب المتأخرين ، مثل عالما الجغرافيا ديونيسيوس Dionysios وزميله ايسيدوروس Isidoros (أى عطية ايزيس) اللذان كانا من خندق سباء وسين Charax Spaosinou (مدينة المحمرة الحالية على الشاطىء الشرقى لشط العرب شمال الخليج العربى) ، وكذلك المؤرخان أجاثوكليس البابلى Agathocles Babylonios وأبو للودوروس الارتيميتى Artemita هؤلاء وغيرهم من علماء وأدباء بارزين ، كانوا إما أغريقا استشرقوا ، أو شرقيين تأغرقوا ، وتربوا فى أحضان الحضارة الهللينستية فى العراق ، بل ان هناك فريقا من علماء الاغريق الخالصين نسبوا أنفسهم الى مدرسة الحضارة الكلدانية ، ولدينا شذرات من ألواح تحمل نصوصاً بابلية مكتوبة بحروف الأبجدية الاغريقية ، لدقة نطق كلماتها لأن الأبجدية الاغريقية أدق فى تسجيل الصوتيات ، وهذا دليل على أنه كان من بين طبقة النساخين أو الكتبة من ألم باللغة الاغريقية ، لكن مثل هذه النصوص

نادرة وترجع الى عصر متأخر ، عندما تهاوت الممالك الهلينستية ، وأصبحت تراثا حضاريا من الماضى المنقضى .

ولقد كتب بيروسوس بالأغريقية مؤلفاً كبيراً عن حضارة « بابل » حتى يتمكن مواطنو الدولة السليوقية من الأغريق من الاطلاع على تاريخ وحضارة البلد الذى استوطنوه ؛ فكما تفاخر بطالمة مصر بعراقة الحضارة الفرعونية ، رأى ملوك الدولة السليوقية أنهم يحكمون بلداً لا يقل حضارة عن وادى النيل ؛ ومن ثم ، كلفوا كاهناً بابلياً بكتابة التاريخ القومى لحضارة الرافدين ، رداً على تكليف البطالمة لكاهن مصرى يجيد الأغريقية أسمه مانيتون ، بكتابة تاريخ مصر الأغريقية ؛ فقد شمل التنافس بين دولة البطالمة والدولة السليوقية كافة المجالات ، ومن بينها التفاخر بعراقة الوطن الذى يحكمونه . وهكذا ظهر مؤلف البابليات أى تاريخ بابل Babyloniaca كند منافس لمؤلف مانيتون السمنودى « المصريات » Aigyptiaca ، وكلا المؤلفين كان يهدف أيضاً لإغراء الأغريق بالهجرة إلى هذه الأوطان ، ذات الحضارة العريقة ؛ لأنهما كانتا من ناحية الواقع تقومان على قوة المستوطنين المهاجرين من الأغريق . ومن الغريب أن كلا من هذين المؤلفين فقد وضاع ، ولا نعرف عنهما سوى بعض الشذرات والفقرات التى نقلت عنهما فى مؤلفات كتاب آخرين . وإذا كان الحظ قد ساعدنا على معرفة النذر القليل عن مانيتون ، فإننا لا نعرف عن بيروسوس سوى بعض الروايات التى تجنح فى أغلبها إلى الخيال ، ونفهم منها أن هذا العالم عمل بالتدريس فى جزيرة كوس — حوالى عام ٢٧٠ ق . م . ولقد أجله الأثينيون كثيراً حتى أنهم أقاموا له تمثالا جعلوا له لساناً من ذهب فى ساحة دار التربية الرياضية Gymnasium كتعبير عن قيمة المعرفة التى نقلها لهم عن البابليين . وما من شك فى أن أغلب النظريات التى رددها العلماء عن عناصر العلوم الكونية هى من نتائج تأثرهم بما نقله لهم بيروسوس من علوم البابليين ، رغم أننا لا نعرف عما إذا كان لبيروسوس مؤلفات أخرى

حول علم الحسابات الفلكية . فالذى لا شك فيه أنه عن طريق أمثال هؤلاء الرواد (سواء من الذين نعرف أسماءهم وهوياتهم أم من الذين لا نعرف عنهم شيئاً) ، نجح الأغريق فى نقل تراث التجربة البابلية فى الحضارة الإنسانية إلى العالم الأغريقى والرومانى ، ولولا هؤلاء لطويت هذه العلوم وهذه التجربة الفريدة الغراء فى عالم النسيان ، وحرمت الإنسانية من تذوق ثمارها ، والاستفادة مما حققته واضافت إليه؛ وجدير بالذكر أن الأغريق لم يقوموا بالترجمة الحرفية للمؤلفات البابلية ، إنما ابتلعوها أولا ، ثم بدأوا يجترّوها ، معيدين صياغتها بالشكل والمفهوم الأغريقى ؛ الذى يقوم على المنهج العلمى والعقلانى الذى يفهمه الغرب .

ومن أعمال عالم الجغرافيا الأغريقى الشهير بطليموس ، يتضح لنا أن الأغريق قد نقلوا آخر ما توصل إليه العلم البابلى فى مجال الفلك ومراقبة الكواكب والنجوم ؛ وأضافوا ذلك إلى ما كان يلمون به ، لكى يخرجوا علماً جديداً مكتملا فى العصر الهللينستى ، والفرق الوحيد بين العلم البابلى ، والعلم الأغريقى أن الأول كان يهدف للممارسة والتطبيق النافع . من أجل حاجاتهم إلى المعرفة القومية بالمواقيت والتواريخ فى ضوء مسار القمر ومنازله ومواقع الأجرام السماوية وتحركاتها ؛ بينما كان هدف علم الفلك الأغريقى هو التنظير المنطقى المجرد ، أى وضع نظريات وتفسيرات فيزيائية وديناميكية ، تشرح تحركات الأجرام السماوية من أجل غرض فلسفى واحد ، وهو البحث عن مصدر القوة المحركة التى تتحكم فى الكون .

وفى مجال علم الرياضيات الحسابية ، أخذ الأغريق عن البابليين النظام السنينى والسداسى ثم بنوا عليه حساب المثلثات الذى نعرفه الآن Trigonometrical ؛ وعن البابليين أيضاً أخذ الأغريق علم الظواهر والعلامات الكونية Brontologia ، وعلم رصد مسارات ومنازل القمر Selenodromia

وعلم الظواهر الكونية عبارة عن رصد يقوم على الملاحظة للظواهر الطبيعية مثل : الرعد ، والبرق ، والأعاصير ، والكسوف ، الخسوف وتحركات القمر ؛ كما أخذوا أيضاً عن البابليين معرفة الطالع عن طريق التنجيم ، وأضافوا إليه ما توصلوا إليه عن طريق قدراتهم ، بل حاولوا تنظيره ووضع قواعد ثابتة له ، فالنص المتعلق بمستقبل الإنسان طبقاً لبروج السماء والذى دون عام ٢٣٥ ق . م كتبه ونسقه ، أغريقى بعد أن استشار أحد كهنة المعابد فى بابل .

وإذا كان علم الفلك الحديث هو من أهم نتاج العلم الأغريقى الرومانى ، فإنه فى نفس الوقت ثمرة التعاون الحضارى بين الشرق والغرب ، ولعل التعاون الفكرى بين الحضارة الأغريقية والحضارة البابلية فى العصر الهلينستى يزداد عمقاً ووضوحاً إذا ما بحثنا عن جذور الفلسفة الرواقية (Stoicicsm) ؛ تلك الفلسفة التى تربط بين دور القدر ، والاعتقاد بتأثير حركات الأجرام السماوية على الأحداث العالمية ، وعلى فكر الناس ومصائرهم ؛ مما يجعلنا نفكر فى الديانة الكلدانية ، وتطور علم التنجيم ، وقراءة المستقبل البشرى عند البابليين ؛ فقد جاء زينون مؤسس الفلسفة الرواقية من قبرص ومن أصل شرقى ؛ بل إنه يعتبر من بين أجداده ديوجين البابلى Diogenes وفى بابل نجد أن رجلا يدعى أرخيديموس Archidemos يؤسس مدرسة رواقية فى القرن الثانى ، ترعرعت ونمت فى تربتها الأصلية ، وهناك العديد والعديد من الملاحظات المتشابهة والمتناظرة بين هاتين الحضارتين فى مجال الفلك والفلسفة ، غير أن معلوماتنا عن النظريات البابلية المتعلقة بالأفكار الكونية والدينية فى العصر الهلينستى لا تزال ضئيلة ، ونحن فى حاجة كما ذكرنا فى أول الحديث إلى إعادة مراجعة الوثائق والنصوص البابلية ، علنا نستوضح المزيد منها .

نستخلص مما سبق ، أننا نستطيع أن نؤكد بكل ثقة أنه ، حتى فى الوقت الذى كانت فيه بابل مغلوبة على أمرها فى العصر الهللينستى لم تتوقف أبداً عن العطاء الفكرى والعلمى ، وإذا كان العالم يدين للعرب المسلمين بأنهم أنقذوا التراث الأغريقى من الضياع وترجموه وحفظوه فى العصور الإسلامية ، ثم قدموه لأوروبا لتجعل منه المنطلق لحضارة عصر النهضة ، فقد كان ما قام به العرب المسلمون ما هو إلا رد الجميل للأغريق على ما قاموا به من قبل ، عندما أنقذوا حضارة أجدادهم البابليين من الذوبان فى عالم النسيان فى العصر الهللينستى ؛ وحفظوها وصاغوها فى قوالب نظرية خالدة أفادت البشرية ؛ ومن ثم لم يكن غريباً أن ننطلق الدعوة لنقل تراث الأغريق من بغداد عاصمة الخلافة العباسية ؛ والتى كانت تقع على مقربة من الحواضر الأغريقية والبابلية منارات العلم والحضارة فى بلاذ الرافدين .

* * *

أهم مراجع الفصل الثامن

أولا : الكتب العربية والمعربة :

— أوليري : مسالك الثقافة الأغريقية عند العرب — ترجمة تمام حسان ، مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٥٧

— جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام - بغداد ١٩٥٣ .

— داوني (جلانفيل) : أنطاكية القديمة ، ترجمة وتقديم دكتور ابراهيم نصحي ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، دار نهضة مصر ١٩٦٧

— دي بسورج : تراث العالم القديم ، الجزء الأول ، ترجمة زكي سوس ومراجعة يحيى الخشاب ود. صقر خفاجه — دار الكرنك سلسلة الألف كتاب رقم ٥٥٧ — القاهرة ١٩٦٥

— ديتلف نيلسون وفرتز هومل وورود وكاناكيس وأدولف جروهمان : التاريخ العربي القديم ، ترجمه واستكمله د فؤاد حسنين علي ترجمة د. زكي محمد حسن — مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٨ .

— عبد الحميد زايد : الشرق الخالد مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق.م — دار النهضة العربيه بالقاهرة (بدون تاريخ) .

— عبد الرحمن بدوي : التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية — دراسات لكبار المستشرقين القاهرة — الطبعة الثانية ١٩٤٦ .

— فاضل عبد الواحد علي : عشتار ومأساة تموز — بغداد — مطبعة الجمهورية ١٩٧٣ .

— فوستيل دي كولانج المدينة القديمه — ترجمة عباس بيومي (بك) ومراجعة عبد الحميد الدواخلي ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥٠ .

— لجران (فيليب أميل) : شعراء الاسكندرية ، ترجمة محمد صقر خفاجه ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ١٩٥٢ .

— محمد عبد القادر محمد : الساميون في العصور القديمة ، دار النهضه العربية ١٩٦٨ .

ثانيا : المراجع الأفرنجية :

1.—The Babylonian Chronicle : London, 1924.

2.—Beek, Martina : Atlas of Mesopotamia, London, 1962.

3.—Bevan, E. R. : The House of Seleucus, London, 1902, E. Arnold.

4.—Bikerman, E. : Institutions des Séleucids, Paris, 1938.

5.—Bouché Leclerq, H. A. : Histoire des Seleucids, Paris, 1913—1914.

6.—Brown, F. E. : "Excavations at Dura Europus. Preliminary Report of the Nineth Season of Work, 1935—1936", New Haven, 1939.

7.—Burent : Early Greek Philosophy, London, 1950.

8.—Cambridge Ancient History, Edited by : J. B. Bury, S. A. Cook and F. E. Adcock, Revised edition, 1960.

9.—Cary, M. : A History of the Greek World from 323—146 B.C., London, 1951.

10.—Dowe, Brian : Southern Arabia,, London, 1972.

11.—Eddy, S. K. : The King is Dead, Studies in the Near. Eastern, Resistence to Hellenism, New York, 1961.

12.—Glotz, G. P. Roussel and R. Cohen : Histoire Grecque IV (Alexandre et l, Hellenisation du Monde Antique), 1938.

13.—Meuleau, Maurice : Mesopotamia under the Seleucids, Chapter IV, Part 4, in Hellenism and the Rise of Rome, Edited by : Pierre Grimal and Others, Weidenfeld and Nicolson, London 1968, PP. 266—289.

14.—M. Hadas : Hellenistic Culture, New York, 1959.

15.—D. G. Hogarth : The Ancient East, (Home University Libcrary), London Thronton Butter Worth, Ltd. (No date).

16.—Hommel : Geography of the Ancient East.

17.—Peters, F. E. : The Harvest of Hellenism, A History of the Near-East from Alexander the Great to the Triumph of Christianity, New York, 1970 .

18.—Rostovtzeff, M. : Caravan Cities, Oxford 1932, Oxford University, Press. Social and Economic History of the Hellenistic World Oxford, 1958, OUP.

19.—Roussel, P. : La Grece et l'Orient, 1928.

20.—Saggs, H. W. F. : The Greatness that was Babylon, London, 1962.

21.—Sarton, G. : A History of Science ; Hellenistic Science and Culture in the Last Three Centuries, B.C., 1959.

22.—Stark, Freya : Rome on the Euphrates, the Story of a Frontier, John Murray, London (1966).

23.—W. W. Tarn and Griffith, G. T. : Hellenistic Civilization, London 1952, E. Arnold.

24.—Yamauchi, Edwin : Greece and Babylon : Early Contacts between the Aegean and Near East, Michigan, 1967.

* * *

فهرس موضوعات الكتاب

رقم الصفحة

تقديم ٣

الفصل الاول : مدخل الى الموضوع ٥

التحديد الجغرافى والزمنى للعصر الهلينستى ٥ ؛ تحديد مفهوم الشرق الأدنى ١٠ ؛ أهم المراجع للفصل الأول ١٣ .

الفصل الثانى : الاوضاع فى الشرق الادنى قبل الفتح المقدونى ١٥

مصر قبل الفتح المقدونى ١٥ ؛ قيام الأسرة الصاوية ١٧ ؛ الفتح الفارسى الأول لمصر ٢١ ؛ إستقلال مصر عن الأمبراطورية الفارسية ٢٥ ؛ قيام الأسرة الثامنة والعشرون ٢٦ ؛ الأسرة التاسعة والعشرون ٢٦ ؛ الأسرة الثلاثون وفكرة تسيير حملة عسكرية لأسقاط الأمبراطورية الفارسية ٢٧ ؛ الفتح الفارسى الثانى لمصر ٢٩ .

بلاد الشام قبل الفتح المقدونى ٣٠ ؛ الظروف الجغرافية للشام ٣٢ ؛ أهمية الموقع الأستراتيجى للشام ٣٤ ؛ سكان الشام القدماء ٣٧ ؛ بداية الأهتمام المصرى بالشام ٣٨ ؛ الغزو الأشورى للأمارات الأرامية فى الشام ٤٢ .

بلاد الرافدين والخليج قبل الفتح المقدونى ٤٥ ؛ ظهور الممالك السومرية فى بلاد الرافدين ٤٧ ؛ الممالك الأكادية ٤٩ ؛ المملكة الأشورية ٥٠ ؛ المملكة البابلية الثانية ٥٢ .

قيام الأمبراطورية الفارسيه الأخمينية وتوسعها فى الشرق الأدنى ٥٣ ؛ العلاقات بين الفرس والأغريق قبل الفتح المقدونى للشرق الأدنى ٥٦ ؛ مغامرة الجنود المرتزقة من الأغريق فى الشرق الأدنى ٥٩ ؛ أحلام الدولة الأسبرطية لفتح الشرق الأدنى ٦٠ .

مراجع الفصل الثانى ٦٢ .

الفصل الثالث : الفتح المقدونى للشرق الادنى ٦٥

فيليب وأحلام فتح الشرق الأدنى ٦٧ ؛ الأسكندر المقدونى وفتح الشرق الأدنى ٦٩ ؛ فتح الأسكندر لمصر ٧١ ؛ تأسيس الأسكندرية ٧٣ ؛ تنظيم الأسكندر لمصر ٧٤ ؛ إكمال فتح الشرق الأدنى ٧٨ ؛ نهاية الأمبراطورية الفارسية الأخمينية ٨٠ ؛ الأسكندر والهند ٨٣ ؛ مشروعات الأسكندر فى الشرق الأدنى ٨٤ ؛ إختيار بابل عاصمة للأمبراطورية ٨٤ ؛ بدء استكشاف سواحل الجزيرة العربية ٨٧ ؛ نتائج فتح الأسكندر للشرق الأدنى ٩٠ : مراجع الفصل الثالث ٩٣

رقم الصفحة

الفصل الرابع : الحروب بين ورثة الاسكندر وحضارة العصر الهللينستى ٩٥

مؤتمر بابل لتقسيم الأمبراطورية ٩٥ ؛ تحنيط وتجهيز جثمان الأسكندر ٩٧ ؛ اندلاع الحروب بين الورثة ٩٨ ؛ تحول الحضارة الأغريقية من المرحلة الكلاسيكية إلى المرحلة الهللينستية ١٠٢ ؛
أهم مراجع الفصل الرابع ١١٣ .

الفصل الخامس : امبراطورية البطالمة فى مصر والشرق الادنى 115

بطليموس الأول وتأسيس الأسرة البطلمية ١١٥ ومعاركه فى الشرق الأدنى ١٢٠ ؛ تنظيمه للأدارة فى مصر ١٢٩ ؛ تعمير إقليم الفيوم ١٣١ ؛ تأسيس مدينة بطلمية ١٣٢ ؛ تنشيط التجارة وسك أول عملة لمصر ١٣٢ ؛ سياسته الداخلية ١٣٤ ؛ قيام عبادة سيرابيس ١٣٥ ؛ تحويل الإسكندرية إلى عاصمة عالمية للحضارة الهللينستية ١٢٨ .

بطليموس الثانى (فيلادلفوس) ١٤٠ ؛ سياسته فى الشرق الأدنى ١٤٢ ؛ الحرب السورية الأولى ١٤٢ ؛ الحرب السورية الثانية ١٤٥ ؛ سياسته إزاء شبه الجزيرة العربية ١٤٨ ؛ سياسته نحو الأنباط ١٥٢ ؛ سياسته نحو عرب الحجاز ١٥٤ ؛ سياسته نحو السبئيين ١٥٨ ؛ سياسته نحو مملكة برجامون ١٥٩ ؛ موقفه من الحرب اليونيفية الأولى ١٦٠ ؛ إستعادة قورينى وتوابعها ١٦١ ؛ سياسته نحو النوبة ١٦٢ ؛ نهايته ١٦٣ .

بطليموس الثالث (يورجيتيس) ١٦٤ ؛ اندلاع الحرب السورية الثالثة ١٦٦ ؛ إصلاحاته الداخلية ١٦٩ .

بطليموس الرابع (فيلوباتور) ١٧١ ؛ اندلاع الحرب السورية الرابعة فى الشرق الأدنى ١٧٢ ؛ المعركة الكبرى فى رفح ١٧٢ ؛ سياسته بعد الانتصار فى رفح ١٧٦ .

بطليموس الخامس (إبيفانيس) ١٧٨ ؛ الحرب السورية الخامسة وفقدان مصر لممتلكاتها فى الشام ١٧٩ ؛ تزايد النفوذ الرومانى فى مصر ١٧٩ ؛ حجر رشيد ١٨٣ ؛ ثورة طيبة القومية ١٨٣ ؛ تأزم العلاقات مع مملكة مروى النوبية ١٨٣ .

بطليموس السادس (فيلومیتور) ١٨٦ ؛ الحرب السورية السادسة ١٨٦ ؛ حادثة عصا السفير الرومانى لايناس ١٨٧ ؛ اندلاع الحرب بين بطليموس السادس وأخيه الأصغر ١٨٧ ؛ تدخل الرومان فى الصراع بين الأخوين ١٨٨ ؛ المحاولة الأخيرة لاستعادة جنوب الشام ١٨٩ .

رقم الصفحة

بطليموس السابع (نيوس فيلوباتور) ووصاية عمه (يورجيتيس الثانى) ١٩٠ ؛ مقتله ١٩١ .

بطليموس الثامن (يورجيتيس الثانى) ١٩١ ؛ إعلان وثيقة العفو العام ١٩١ ؛ أعماله ١٩٢ .

بطليموس التاسع (سوتر الثانى) وبطليموس العاشر (الاسكندر الأول) ١٩٢ ؛ أحلام العودة للشام ١٩٣ .

بطليموس الحادى عشر (الاسكندر الثانى) ١٩٥ .

بطليموس الثانى عشر (الزمار) ١٩٦ .

كليوباترا السابعة وأخوها بطليموس الثالث عشر ١٩٨ ؛ قدوم يوليوس قيصر إلى مصر ١٩٩ ؛ كليوباترا وأخوها بطليموس الرابع عشر ٢٠٠ ؛ زيارة كليوباترا لروما ٢٠٠ ؛ كليوباترا وإبنها بطليموس الخامس عشر (قيصرون) ٢٠٤ ؛ كليوباترا وماركوس أنطونيوس ٢٠١ ؛ الحرب بين اكتافيوس وكليوباترا ودخول الرومان مصر ٢٠١ .

مراجع الفصل الخامس ٢٠٥ .

الفصل السادس : امبراطورية السليوقيين فى آسيا الصغرى والشرق الادنى ٢١٣

الصراع على الشام بعد موت الأسكندر ٢١٣ ؛ قيام الأمبراطورية السليوقية ٢١٥ ؛ التحالف بين الأنباط والسليوقيين ٢١٧ .

سليوقوس نيكاتور مؤسس الأمبراطورية وسياسته ٢١٩ .

أنطيوخوس الأول (سوتير) ٢٢٠ ؛ أنطيوخوس الثانى (ثيوس) ٢٢٣ ؛ سليوقوس الثانى (كالينيكوس) ٢٢٤ ؛ حرب الأخوين وتوسع مملكة برجامون على حساب المملكة السليوقية ٢٢٦ ؛ نهاية سليوقوس الثانى ٢٢٨ .

أنطيوخوس الثالث الملقب بالكبير ٢٢٩ ؛ قضائه على الثورات ٢٢٩ ؛ تحليل الأسباب فشل سياسته الخارجية ٢٢٩ ؛ تأزم علاقاته مع الرومان ٢٣٣ ؛ نقاط القوة والضعف فى شخصية أنطيوخوس الكبير ٢٣٧ ؛ مقدمات معركة ماجنيسيا الفاصلة ٢٤٣ ؛ تفاصيل المعركة وبداية النهاية للأمبراطورية السليوقية ٢٤٤ ؛ نتائج المعركة ٢٤٩ ؛ سليوقوس الرابع (فيلوباتور) ٢٥٤ .

أنطيوخوس الرابع (إبيفانيس) ٢٥٥ ؛ عنايته بالطرق التجارية ٢٥٨ ؛ صراعه مع اليهود ٢٥٩ ؛ حملته على مصر ٢٦٣ ؛ حملته ضد البارثيين ٢٦٤ .

رقم الصفحة

أنطيوخوس الخامس (يوباتور) ٢٦٥ ؛ الإسكندر بالاس ٢٦٦ ؛ أنطيوخوس السادس ... .

أنطيوخوس السابع (سيديتيس) ٢٦٧ ؛ تدهور الإمبراطورية السلوقية ٢٦٩ ؛ قدوم تيجران ملك أرمينيا إلى سوريا ٢٧١ ؛ الرومان يرغمون تيجران على الانسحاب من سوريا ٢٧٣ ؛ الدولة السلوقية في النزع الأخير ٢٧٤ ؛ تحليل تاريخي لقيام وسقوط الإمبراطورية السلوقية ٢٧٥ ؛ أهم مراجع الفصل ٢٨٣ .

الفصل السابع : الأوضاع الاقتصادية والحضارية في بلاد الشام في العصر الهللينستي ٢٨٥

الأوضاع الاقتصادية ٢٨٥ ؛ تخطيط وهندسة المدن ٢٩٧ ؛ الفنون والآثار ٣٠٠ ؛ النقود والفسيفساء ٣٠٣ ؛ الحلي والزجاج ٣٠٥ ؛ تطريز الثياب والصناعات الأرجوانية ٣٠٩ ؛ الحياة الاجتماعية والفكرية ٣٠٧ ؛ السلوقيون والأنباط ٣١٣ .

مراجع الفصل السابع ٣١٩ .

الفصل الثامن : بلاد الرافدين والخليج في العصر الهللينستي ٣٢١

أهمية المصادر الأثرية ٣٢١ ؛ الصراع على امتلاك بلاد الرافدين بين ورثة الإسكندر ٣٢٨ ؛ الأوضاع في بلاد الرافدين والخليج في العصر الهللينستي ٣٣١ ؛ تأثير الحروب المحلية على المدن في بلاد الرافدين ٣٣٩ ؛ سياسة الملوك السلوقيين إزاء المدن العريقة في بلاد الرافدين ٣٤٢ ؛ ازدهار التجارة والصناعة ٣٤٤ ؛ الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية ٣٤٨ ؛ علاقة المستوطنين المقدونيين والإغريق بالبابليين في المدن الجديدة ٣٥٣ .

تم الطبع بالادارة العامة لمطبعة
جامعة القاهرة والكتاب الجامعى
المدير العـام
البرنس حموده حسين عمر
١٩٩٢/٢/٤

رقم الايداع ١٩٩١/٩٦٤٧

الترقيم الدولى 977-04-0770-4

(مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعى ١٩٩٠/١٥١٩/٢٠٠٠)